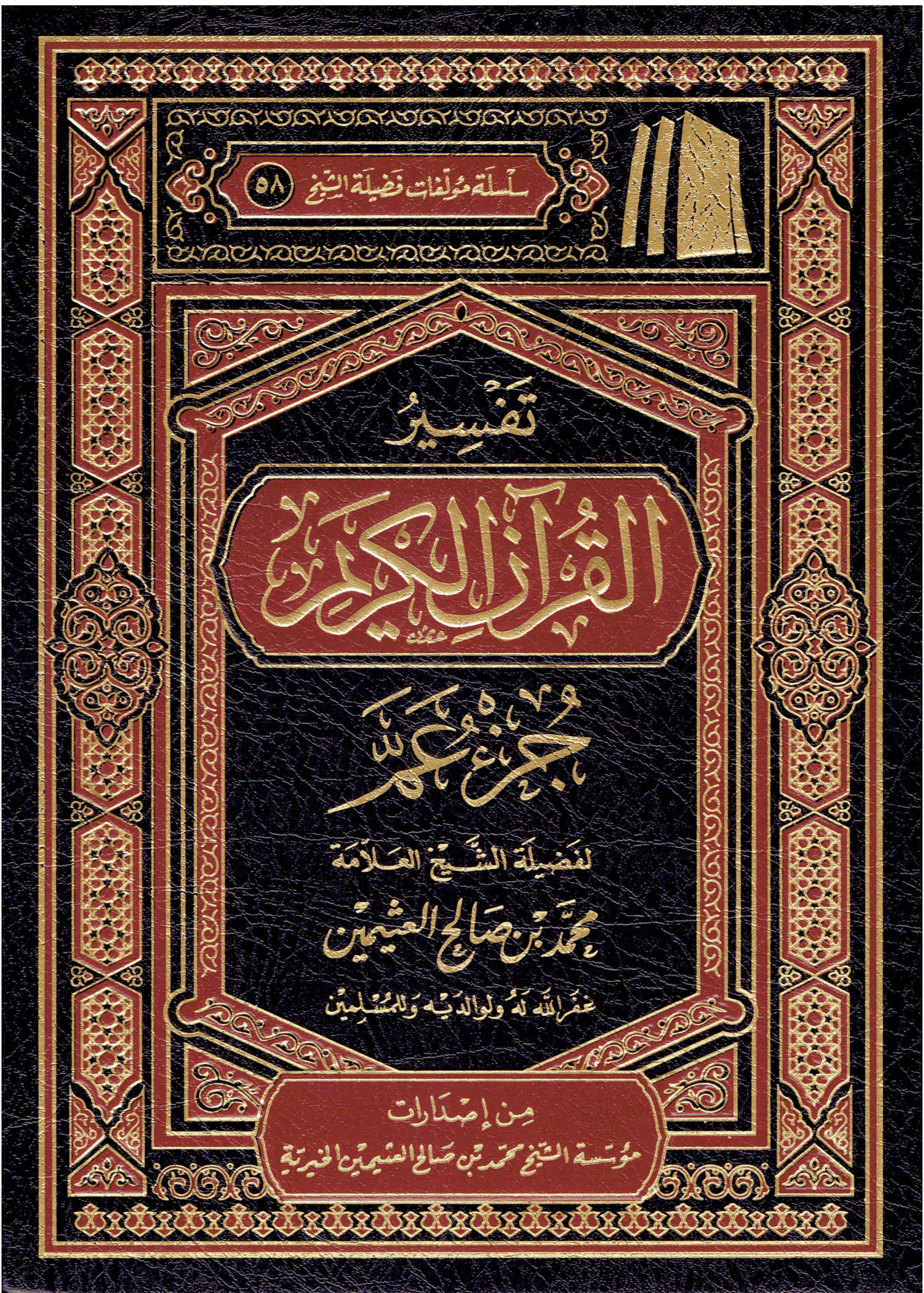
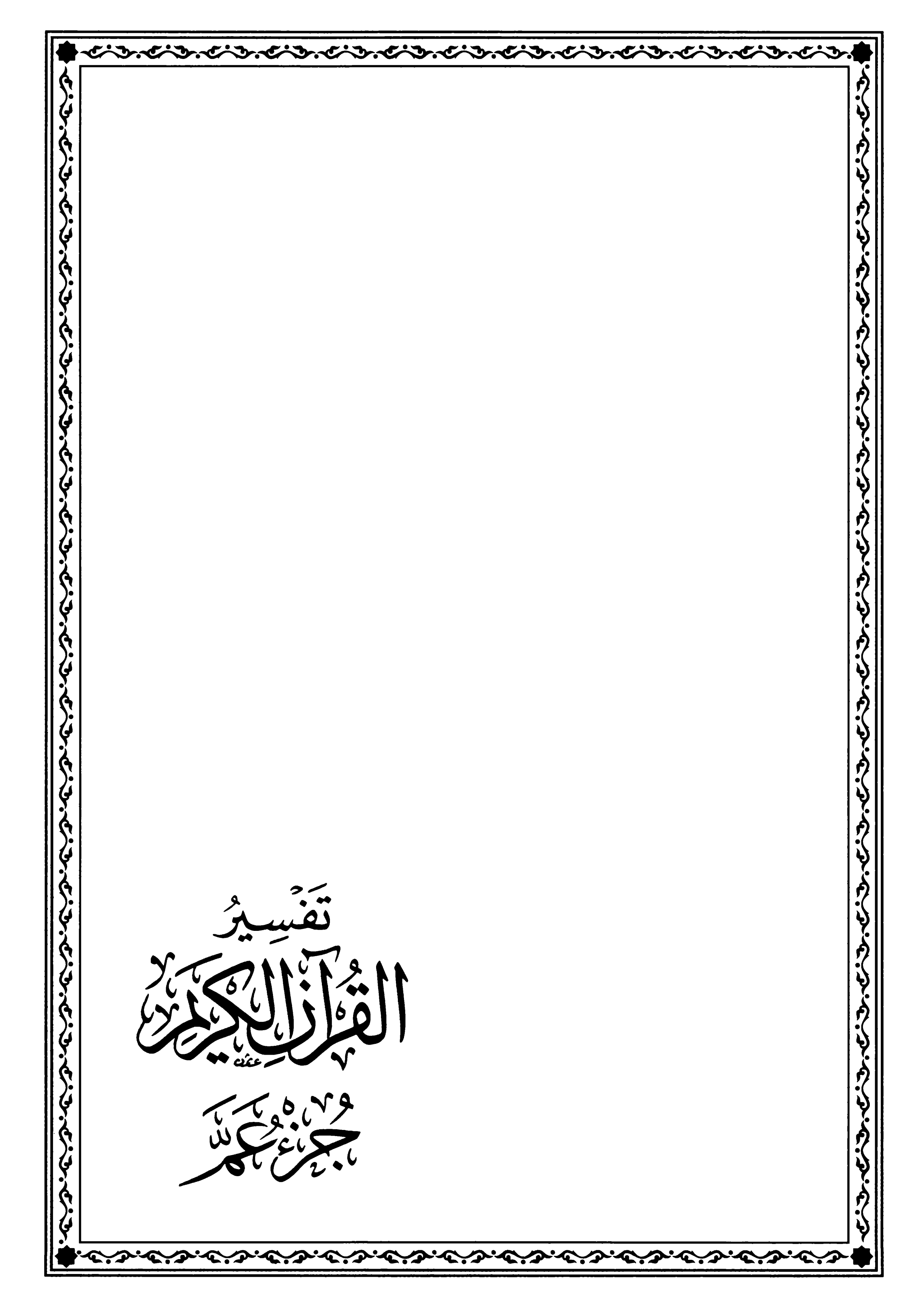

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٥٨)
تفسير
القرآن الكريم
جزء عم
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

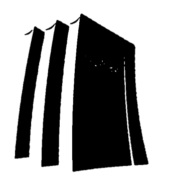

تفسير
القرآن الكريم
جزء عم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية ، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين ، محمد بن صالح
تفسير القرآن الكريم - جزء عم ./ محمد بن صالح العثيمين ؛ فهد ناصر السليمان - الرياض ، ١٤٣٥هـ
٤٣٩ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين ؛ ٥٨)
ردمك: ٥-١١-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨
١ - القرآن - التفسير الحديث . أ - السليمان ، فهد ناصر (محقق) .
ب . العنوان . ج . السلسلة .
ديوي ٦, ٢٢٧ ٧٠٢٤ / ١٤٣٥

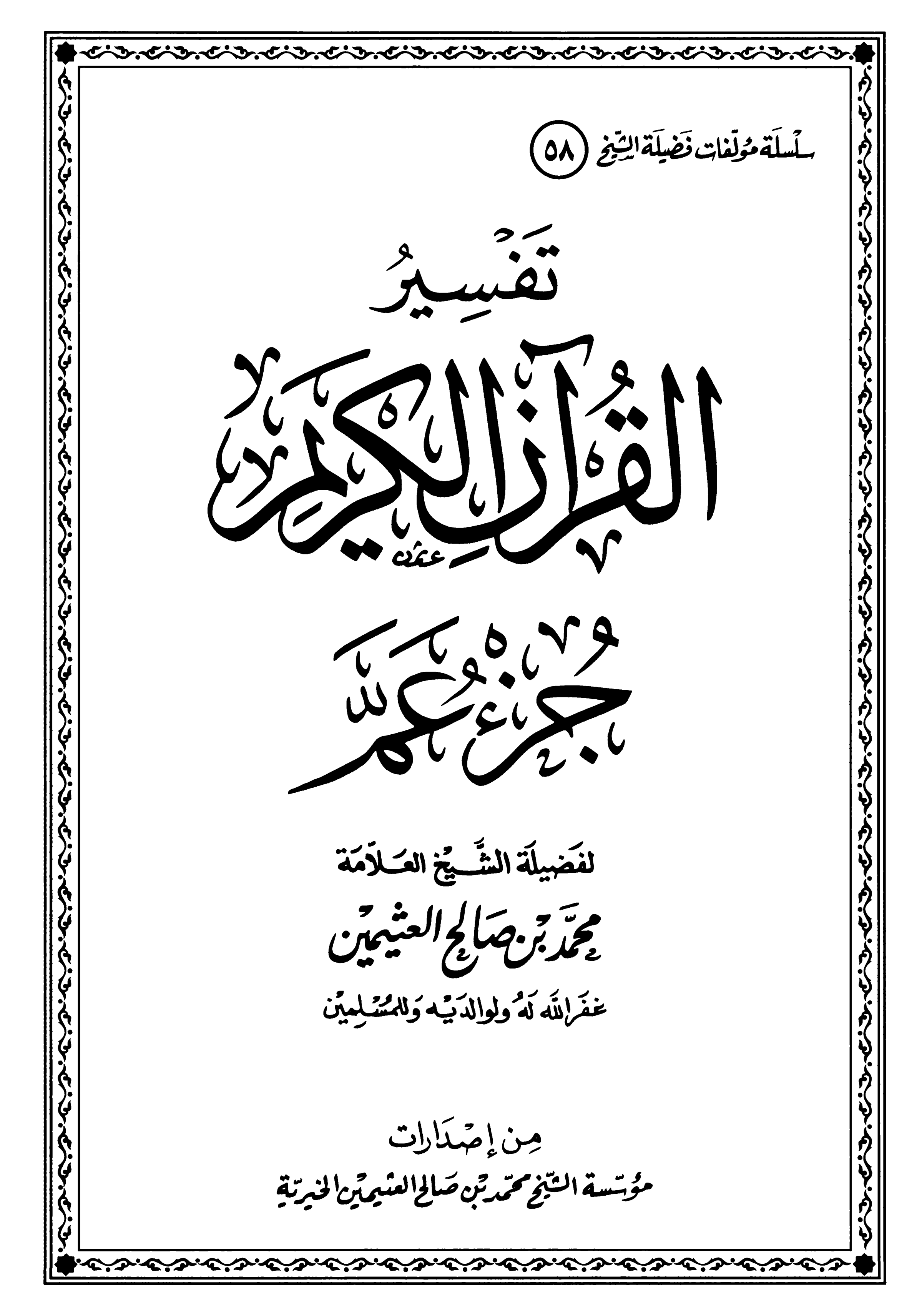
رقم الإيداع: ٧٠٢٤ / ١٤٣٥
ردمك: ٥-١١-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة عشرة
١٤٤٤هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩
هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوّال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦
www.binothaimeen.net
info@binothaimeen com



الموزع المعتمد و الحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرَّة الدولية للطباعة و التوزيع
١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .
هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤



سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٥٨)

تفسير القرآن الكريم

جزء عمّ

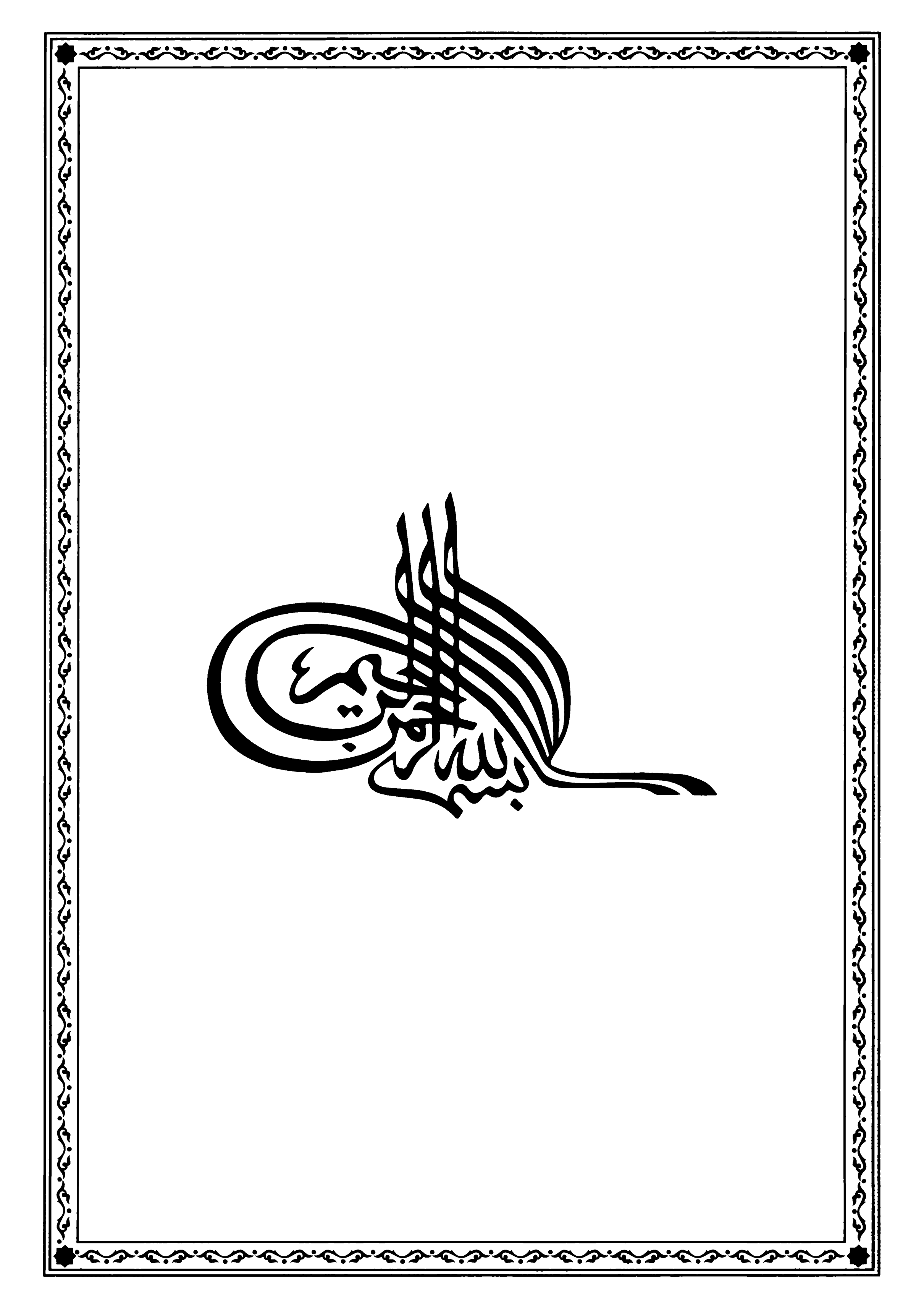
لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقدِّمَةُ الطَّبْعةِ الثَّالِثَةِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أن لا إِلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّين، وسَلَّمَ تَسْليمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّه يَسرُّ مُؤسسةَ الشيخِ محمَّدِ بنِ صالحٍ العُثَيْمين الخيريةَ أنَّ تُقدِّم الطَّبعة الثَّالثة مِن (تفسيرِ جُزء عمَّ) لمؤلِّفه فَضِيلة شيخِنا محمَّد بن صالحٍ العُثَيْمِين -رحمَهُ اللهُ تعالى-، وقَد تمَّت بحَمْدِ الله مُقابلتُها علَى النُّسخةِ التِي راجعَها فضيلةُ الشيخِ المؤلِّف -رحمَهُ اللهُ تعالى- مُفرَّغةً مِنَ الأشرطةِ إلى نِهاية (سُورة البُرُوج) عَدا (سُورة الانْفِطار) بعدَ أنْ عَرَضها علَيْه (ابنُه عبدُ الله) وشارَكَهُ في التَّحضِير الأخُ (عبدُ الله بنُ عليٍّ الطَّعيمِي) جزاهُما اللهُ خيرًا.

وقدِ اعتَنَى بالكِتابِ مُنذُ طَبْعته الأُولى فَضيلةُ الشيخ (فهدُ بنُ ناصرِ بنِ إبراهيمَ السُّلَيْمان)، مِن حيثُ إعدادُه للنَّشْر، وتخريجُ أحاديثِه وآثارِه؛ فجزاهُ اللهُ خيرًا.

نَسْأل اللهَ تعالَى أن يَجْعل هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا المؤلِّفِ عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزَاء، ويُسْكِنَهُ فَسِيحَ جَنَّاتِهِ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ، والحمدُ للهِ ربِّ العالِمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه أَجْمَعِينَ.

اللَّجْنَةُ العِلْمِيَّةُ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٥/ ٣/ ١٤٢٤هـ



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحَمْد لله، نَحمَده، ونَستَعينه، ونَستَغْفِره، ونَعوذُ بالله من شُرور أَنْفُسنا، وسَيِّئات أعمالِنا، مَن يَهدِه الله فلَا مُضِلَّ لَه، ومَن يُضلِلْ فلَا هادِيَ لَه، وأَشهَدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وَحدَه لَا شريكَ لَه، وأَشهَدُ أن مُحمَّدًا عبدُه ورَسولُه صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه وسلَّمَ تَسليمًا كَثيرًا.

أَمَّا بَعدُ:

فإن كِتابَ الله عَزَّوَجَلَّ هُو حَبْلُه المَتينُ، وصِراطُه المُستَقيم، وصَفَه الله عَزَّوَجَلَّ بأَوْصاف عَظيمة، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:١٧٤].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقال سبحانه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ** صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

وقَدِ اعتَنَى عُلَماء الإِسلام رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تعالى بكِتاب الله عَزَّوَجَلَّ عِناية بالِغة، ومِن وُجوهِ هَذِه العِنايةِ تَفسيرُ القُرآن الكريم، وبَيانُ مَعانِيه، واستِنْباطُ الأَحْكام وَالفَوائِد من آياتِه، على حَسبِ مَا آتاهُمُ الله عَزَّوَجَلَّ مِن العِلْم وَالإِيمان، وَالفَهْم وَالتَّقوَى.

ومِن هَؤلاءِ العُلَماء فَضيلةُ شَيخِنا العلَّامة الشيخ مُحَمَّد بن صالِحِ العُثَيْمِين رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسِعةً، وأَسكَنَه فَسيحَ جَنَّاته، حيثُ عقَدَ المَجالِس؛ لتَفسير كِتابِ الله عَزَّوَجَلَّ، واستِنْباط الفوائِدِ وَالأَحْكام منه، في حِلِّه وتَرحالِه، ومن هذِه المَجالِس اللِّقاءُ المُسمَّى بلِقاء الباب المَفْتوح، حيثُ مَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على فَضيلَتِه بإِتْمام تَفسير جُزْء عمَّ، وقدَّمَ بسُورة الفاتِحة، وقد عرَضْتُ على فَضيلة شيخِنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إِخراجَ هَذا التَّفْسيرِ فوافَقَ على ذلكَ، ولكِنَّه لم يَتَمكَّن من مُراجعَتِه بعد تَفريغِه من الأَشرِطة سِوى سُورة الفاتِحة وسُورة النَّبأ إلى قولِه تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٥]، ولَا يَخفى أن المَنقولَ من الأَشرِطة ليسَ كالمُحرَّر من حيثُ انتِقاء الأَلْفاظ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧)، من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وتَحرير العِبارة، وَالبُعْد عن التّكرار، وغير ذلِكَ.

وقد بيَّن فَضيلةُ الشَّيْخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَنْهجَه فِي تَفسير هَذا الجُزْءِ من القُرآن الكَريم فقال فِي خِتام تَفسير سورة (عَبَسَ): هَذا الكَلامُ الَّذِي نَتكلَّم به على هذِه الآياتِ لَا نُريد به البَسْط، ولكِن نُريد به التَّوْضيح المُقرِّب للمَعنَى.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اختَرْنا هَذا الجُزءَ؛ لأنه يُقرَأ كَثيرًا فِي الصَّلَوات، فيَحسُن أن يُعرَف مَعانِي هَذا الجُزءِ، وَالقُرآنُ أُنزِل لأُمورٍ ثَلاثةٍ:

الأَمْر الأَوَّل: التَّعبُّد لله بتِلاوتِه.

والثاني: التَّدبُّر لِمَعانِيه.

والثالِثُ: الاتِّعاظُ به.

قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ولَا يُمكِن لأَحَد أن يَتذكَّر بالقُرآن إِلَّا إِذَا عرَف المَعنَى؛ لأن الَّذِي لَا يَعرِف المَعنَى بمَنزِلة الَّذِي لَا يَقرَأ، كَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]؛ أي: إِلَّا قِراءةً.

لهذا يَنبَغي للمُسلِم أن يَحرِص على مَعرِفة مَعنَى القُرآن الكَريم حتَّى يَنتَفِع به، وحتَّى يَكون مُتَّبِعًا لآثار السَّلَف، فإِنهم كانوا لَا يَتجاوَزون عَشر آياتٍ حتَّى يَتعلَّموها ومَا فيها من العِلْم وَالعمَل.

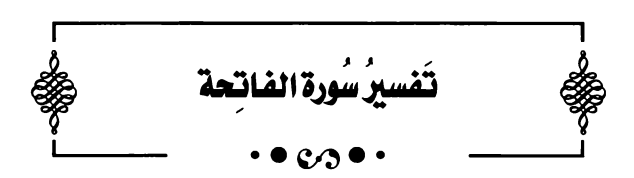
وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَرِيٌّ بطَلَبة العِلْم أن يَحرِصوا فِي كل مُناسَبة إِذَا اجتَمَعوا بالعامَّة أن يَأتوا بآية من كِتاب الله يُفسِّرونها، لا سِيَّما مَا يَكثُر تِردادُه على العامَّة مثل الفاتِحة،

فإِنَّك لو سأَلْت عامِّيًّا -بلِ الكَثير من الناس- عن مَعنَى سُورة الفاتِحة لم يَعرِف شيئًا مِنها.

وامتاز تَفسيرُ فَضيلة الشَّيْخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بوُضوح العِبارة، ودِقَّة المَعنَى، وتَفسير القُرآنِ بالقُرآن، وَالبُعْد عن التَّكلُّف، إِضافةً إِلى الوَعْظ بالقُرآن الكَريم، وكَفَى به مَوْعِظةً، فجمَع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فِي هَذا التَّفْسيرِ بين بَيان المَعنَى وَالوَعْظ بكِتاب الله تعالى، فجَزاهُ الله عن الإِسلام وَالمُسلِمين خَيْرَ الجَزاء، وأَعْلى درَجَته فِي المَهْديِّين، وأَسكَنَه فَسيح جَنَّاته إِنه سَميع مُجيبٌ، وصلَّى الله وسلَّم على نَبيِّنا مُحمَّد، وعلى آله وصَحْبه أَجمَعين.

فَهْد بن ناصِر السُّلَيْمان

• • ۞ • •



تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورة الفاتِحة سُمِّيَت بذلِك؛ لأنَّه افتُتِح بها القُرآن الكَريم؛ وقد قيلَ: إِنها أَوَّلُ سُورة نزَلَت كامِلةً.

هذه السُّورةُ قال العُلَماء: إِنها تَشتَمِل على مُجمَل مَعانِي القُرآن فِي التَّوْحيد، وَالأَحكام، وَالجَزاء، وطُرُق بَني آدَمَ، وغير ذلِكَ؛ ولذلِكَ سُمِّيَت «أُمَّ القُرآن»، وَالمَرجِع للشيءِ يُسمَّى «أُمًّا».

وهذه السُّورةُ لَهَا مُمَيِّزاتٌ تَتَميَّز بها عن غيرِها؛ منها أَنَّهَا رُكْن فِي الصلَوات التِي هِي أَفضَلُ أَرْكان الإِسلام بعد الشَّهادَتَيْن؛ فلَا صلاةَ لِمَن لم يَقرَأْ بفاتِحة الكِتاب؛ ومنها أَنَّهَا رُقْية إِذَا قُرِئ بها على المَريض شُفِيَ بإِذْن الله؛ لأن النَّبيَّ ﷺ قال للَّذي قرَأ على اللَّديغ، فبَرَأَ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»[1].

وقدِ ابتَدَع بعضُ الناس اليَوْم فِي هذِه السُّورةِ بِدْعةً، فصاروا يَختِمون بها الدُّعاءَ، ويَبتَدِئُون بها الخُطَب، ويَقرَؤُونها عند بعض المُناسَبات، وهذا غلَط: تَجِده مثَلًا إِذَا دعا ثُم دعا قال لِمَن حولَه: «الفاتِحة»؛ يَعنِي: اقرَؤُوا الفاتِحة؛ وبعضُ الناس

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإِجارة، باب مَا يعطى فِي الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَبتَدِئ بها فِي خُطَبه أو فِي أَحْواله، وهذا أيضًا غلَط؛ لأن العِباداتِ مَبْناها على التَّوْقيف، وَالاتِّباع.

قَوْلُه تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: الجارُّ وَالمَجرور مُتعَلِّق بمَحذوف؛ وهذا المَحذوفُ يُقدَّر فِعْلًا مُتَأَخِّرًا مُناسِبًا؛ فإِذَا قلت: «باسْمِ الله» وأنت تُريد أن تَأكُل؛ تُقدِّر الفِعْل: «باسْمِ الله آكُلُ».

قُلنا: إِنه يَجِب أن يَكون مُتعَلِّقًا بمَحذوف؛ لأن الجارَّ وَالمَجرور مَعمولان؛ ولا بُدَّ لكُلِّ مَعمول من عامِلٍ، وقدَّرْناه مُتَأَخِّرًا لفائِدَتَيْن:

الفائِدةُ الأُولى: التَّبرُّك بتَقديم اسمِ الله عَزَّوَجَلَّ.

والفائِدةُ الثانِية: الحَصْر؛ لأن تَأخير العامِل يُفيد الحَصْر، كأَنَّك تَقول: لَا آكُلُ باسْمِ أَحَدٍ مُتبرِّكًا به، ومُستَعينًا به إِلَّا باسْمِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقدَّرْناه فِعْلًا؛ لأن الأَصْل فِي العمَل الأَفْعال، وهذِه يَعرِفها أهلُ النَّحْو؛ ولهذا لَا تَعمَل الأَسماء إِلَّا بشُروط.

وقدَّرْناه مُناسِبًا؛ لأَنَّه أدَلُّ على المَقْصود؛ ولهذا قال الرَّسولُ ﷺ: «وَمَنْ كَانَ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ»[1]، أو قال ﷺ: «عَلَى اسْمِ اللهِ»[2]، فخَصَّ الفِعْل.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس فِي خطبة العيد، رقم (٩٨٥)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠/ ١)، من حديث جندب بن عبدالله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب قول النبي ﷺ: «**فليذبح على اسم الله**». رقم (٥٥٠٠)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠/ ٢)، من حديث جندب بن عبدالله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

و﴿ٱللَّهِ﴾: اسْمُ الله رَبِّ العالَمِين لَا يُسمَّى به غيرُه؛ وهُو أَصْل الأَسْماء؛ ولهذا تَأتِي الأَسماءُ تابِعةً لَه.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: ذو الرَّحْمة الواسِعة؛ ولهذا جاءَ على وَزْن «فَعْلان» الَّذِي يَدُلُّ علَى السَّعة.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ أي: المُوصِّل للرَّحمة مَن يَشاءُ مِن عِباده؛ ولهذا جاءَتْ على وَزْن «فَعيل» الدالِّ على وَقوع الفِعْل.

فهُنا رَحْمة هِي صِفتُه، هذِه دَلَّ عليها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، ورَحْمة هِي فِعْله -أَيْ: إِيصال الرَّحمة إِلى المَرحوم- دَلَّ علَيْها ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمانِ من أَسماءِ الله يَدُلَّان على الذاتِ، وعلى صِفة الرَّحْمة، وعلى الأَثَر: أيِ: الحُكْم الَّذِي تَقتَضيه هذِه الصِّفةُ.

والرَّحْمة الَّتِي أَثبَتَها الله لنَفْسه رحمةٌ حقيقيَّةٌ دلَّ عليها السَّمْع، وَالعَقْل؛ أمَّا السَّمْع فهُو مَا جاء فِي الكِتاب وَالسُّنَّة من إِثبات الرحمة لله -وهُو كَثيرٌ جِدًّا؛ وأمَّا العَقْل: فكُلُّ مَا حصَل من نِعْمة، أوِ اندَفَع من نِقْمة فهُوَ من آثار رحمة الله.

هذا وقَدْ أَنكَر قَوْم وَصْف اللهِ تعالى بالرَّحْمة الحَقيقيَّة، وحرَّفوها إِلى الإِنعام، أو إِرادة الإِنعام، زَعْمًا مِنهم أن العَقْل يُحيل وَصْف الله بذلِكَ؛ قالوا: «لأن الرَّحْمة انعِطاف، ولِين، وخُضوع، ورِقَّة؛ وهذا لَا يَليق بالله عَزَّوَجَلَّ»، وَالرَّدُّ علَيْهم من وَجْهَيْن:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: مَنْعَ أن يَكون فِي الرحمة خُضوع، وانكِسار، ورِقَّة؛ لأَنَّنا نَجِد من المُلوك الأَقْوياء رَحْمة دون أن يَكون مِنهم خُضوع، ورِقَّة، وانكِسار.

الوَجْه الثانِي: أَنَّه لو كان هَذا من لوازِم الرَّحْمة ومُقتَضَياتها فإنما هِي رحمة المَخْلوق؛ أمَّا رَحْمة الخالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهِيَ تَليق بعَظَمته، وجَلاله، وسُلْطانه؛ ولَا تَقتَضي نَقْصًا بوَجْه من الوُجوهِ.

ثُمَّ نَقُول: إِن العَقْل يَدُلُّ علَى ثُبوت الرَّحمة الحَقيقيَّة لله عَزَّوَجَلَّ: فإِن مَا نُشاهِده فِي المَخلوقات من الرحمة بَيْنَها يَدُلُّ علَى رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولأن الرَّحْمة كمالٌ؛ وَالله أَحقُّ بالكَمال؛ ثُمَّ إِن مَا نُشاهِده من الرحمة التِي يَختَصُّ الله بها -كإِنْزال المَطَر، وإِزالة الجَدْب، ومَا أَشبَهَ ذلكَ- يَدُلُّ علَى رحمة الله.

والعجَبُ أن مُنكِري وَصْف الله بالرحمة الحَقيقيَّة بحُجَّة أن العَقْل لَا يَدُلُّ عليها، أو أَنَّه يُحيلها، قَد أَثبَتوا لله إِرادةً حَقيقيَّة بحُجَّة عَقْليَّة أَخْفى من الحُجَّة العَقْلية على رحمة الله، حيثُ قالوا: إِن تَخصيص بعض المَخْلوقات بما تَتَميَّز به يَدُلُّ عَقْلًا على الإِرادة؛ ولَا شَكَّ أن هَذا صَحيحٌ؛ ولكِنَّه بالنِّسْبة لدَلالة آثار الرَّحْمة عليها أَخفَى بكَثير؛ لأَنَّه لَا يَتَفطَّن لَه إِلَّا أَهْل النَّباهة؛ وأَمَّا آثار الرَّحْمة فيَعرِفُه حتَّى العَوامُّ؛ فإِنك لو سأَلْتَ عامِّيًّا صَباحَ ليلة المطَر: «بِمَ مُطِرْنا؟» لقال: «بفَضْل الله، ورَحْمته».

مَسْألةٌ: هَلِ البَسْمَلةُ آيَةٌ من الفاتِحة؛ أو لَا؟

فِي هَذا خِلافٌ بين العُلَماء؛ فمِنهم مَن يَقولُ: إِنَّها آيَةٌ من الفاتِحة، ويُقرَأ بها جهرًا فِي الصَّلاة الجَهْريَّة، ويَرَى أَنَّها لَا تَصِحُّ إِلَّا بقِراءة البَسْمَلة؛ لأَنها من الفاتِحة. ومِنهم مَن يَقول: إِنها ليسَتْ من الفاتِحة؛ ولكِنها آيَةٌ مُستَقِلَّة من كِتاب الله، وهَذا القَوْلُ هُو الحَقُّ؛ ودَليلُ هَذا: النَّصُّ، وسِياق السُّورة.

أمَّا النَّصُّ: فقَدْ جاء فِي حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيَّ ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ: فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وإِذَا قالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَجَّدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ. وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: هَذَا لِعَبْدِي؛ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[(١)]، وهَذا كالنَّصِّ على أن البَسْمَلة ليسَتْ من الفاتِحة.

وفي الصَّحيحِ عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صَلَّيْتُ خلفَ النَّبيِّ ﷺ، وأَبِي بَكْر، وعُمرَ، وعُثمانَ؛ فكانوا يَستَفْتِحون بـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لَا يَذكُرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فِي أوَّلِ قِراءَةٍ، ولَا فِي آخِرِها»[(٢)]. وَالمُرادُ لَا يَجهَرون؛ وَالتَّمييز بينَها وبين الفاتِحة فِي الجَهْر وعدَمه يَدُلُّ علَى أنَّها لَيْست مِنها.

أمَّا من جِهة السِّياق من حيثُ المَعنَى: فالفاتِحةُ سَبْع آياتٍ بالاتِّفاقِ؛ وإِذا أَرَدْت أن تُوزِّع سَبْع الآياتِ على مَوْضوع السُّورة وجَدْت أن نِصْفها هُو قَوْلُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهِي الآيةُ الَّتِي قال الله فيها: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»؛ لأن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: واحِدة؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: الثانِية؛ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: الثالِثة؛ وكلُّها حَقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: الرابِعة -يَعنِي: الوَسَط- وهِيَ قِسْمان: قِسْم مِنها حَقٌّ لله؛ وقِسْم حَقٌّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة فِي كل ركعة، رقم (٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب مَا يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب حجة من قال: لَا يجهر بالبسملة. رقم (٣٩٩)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

للعَبْد؛ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ للعَبْد؛ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ للعَبْد؛ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ للعَبْد.

فتكون ثَلاثُ آيات لله عَزَّوَجَلَّ؛ وهِي الثَّلاثُ الأُولى، وثلاثُ آياتٍ للعَبْد؛ وهِيَ الثَّلاثُ الأَخيرةُ؛ وواحِدة بين العَبْد ورَبِّه وهِي الرابِعة الوُسْطى.

ثُم مِن جِهة السِّياق من حيثُ اللَّفْظ، فإِذَا قُلنا: إِن البَسْملة آيَةٌ من الفاتِحة لزِمَ أن تَكون الآيَةُ السابِعة طَويلةً على قَدْر آيَتَيْن؛ ومن المَعلوم أن تَقارُب الآيات فِي الطُّول وَالقِصَر هُو الأَصْل.

فالصَّوابُ الَّذِي لَا شَكَّ فيه أن البَسْملة ليسَتْ من الفاتِحة، كَما أن البَسمَلة ليسَتْ من بَقيَّة السُّوَر.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ وَصْف المَحْمود بالكَمال مَع المَحبَّة، وَالتَّعْظيم؛ الكَمال الذاتِي، وَالوَصْفي، وَالفِعْلي؛ فهُو كامِل فِي ذاتِه، وصِفاته، وأَفْعاله؛ ولا بُدَّ من قَيْد وهُو «المَحبَّة، وَالتَّعظيم»؛ قال أَهْل العِلْم: «لأن مُجرَّد وَصْفه بالكَمال بدون مَحبَّة ولَا تَعظيم: لَا يُسمَّى حَمْدًا؛ وإِنَّما يُسمَّى مَدْحًا»؛ ولهذا يَقَع من إِنسان لَا يُحِبُّ المَمْدوح؛ لكِنَّه يُريد أن يَنالَ منه شَيئًا؛ تَجِد بعضَ الشُّعَراء يَقِف أمامَ الأُمَراء، ثُم يَأتِي لهُمْ بأَوْصاف عَظيمة لَا مَحبَّةً فيهِم؛ ولكِن مَحبَّة فِي المالِ الَّذِي يُعطونَه، أو خَوْفًا مِنهم؛ ولكِن حَمْدُنا لرَبِّنا عَزَّوَجَلَّ حَمْدُ مَحبَّة، وتَعظيم؛ فلِذلِكَ صار لا بُدَّ من القَيْد فِي الحَمْد أنَّه وَصْف المَحْمود بالكَمال مَع المَحبَّة وَالتَّعظيم؛ و«أل» فِي ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاستِغْراق، أي: اسْتِغْراق جَميع المَحامِد.

وقَوْلُه تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ اللَّام للاخْتِصاص، وَالاسْتِحْقاق؛ و(الله) اسمُ رَبِّنا عَزَّوَجَلَّ؛ لَا يُسمَّى به غيرُه؛ ومَعناه: المَأْلوه، أيِ: المَعْبود حُبًّا وتَعظيمًا.

وقَوْلُه تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ «الرَّبُّ»: هُو مَنِ اجتَمَع فيه ثَلاثة أَوْصاف: الخَلْق، وَالمِلْك، وَالتَّدبير؛ فهُو الخالِق، المالِكُ لكُلِّ شيءٍ، المُدبِّرُ لجَميع الأُمور؛ و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: قال العُلَماء: كلُّ مَا سِوى الله فهُو من العالَم؛ وُصِفوا بذلِك؛ لأَنَّهم عَلَم على خالِقِهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ففي كُلِّ شيءٍ من المَخْلوقات آيَةٌ تَدُلُّ على الخالِق: على قُدْرته، وحِكْمته، ورَحْمته، وعِزَّته، وغَيْر ذلك من مَعانِي رُبوبِيَّته.

الفَوائِدُ:

١- مِن فَوائِد الآيَة: إِثباتُ الحَمْد الكامِل لله عَزَّوَجَلَّ، وذلِكَ من «أل» فِي قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ لأَنَّها دالَّةٌ على الاستِغْراق.

٢- ومِنها: أن الله تعالى مُستَحِقٌّ مُختَصٌّ بالحَمْد الكامِل من جَمِيع الوُجوهِ؛ ولهَذا كانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا أَصابَه مَا يَسُرُّه قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»؛ وإِذَا أَصابه خِلافُ ذلِكَ قال: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1].

٣- ومِنها: تَقديم وَصْف الله بالأُلوهية على وَصْفه بالرُّبوبية؛ وهَذا إِمَّا لأن «الله» هُو الِاسْم العَلَم الخاصُّ به، وَالَّذِي تَتْبَعه جَمِيعُ الأَسْماء؛ وإِمَّا لأن الَّذين جاءَتْهمُ الرُّسُل يُنكِرون الأُلوهيَّة فقَطْ.

٤- ومِنها: عُموم رُبوبِيَّة الله تعالى لِجَميع العالَم؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ صِفة للَفْظ الجَلالة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ صِفة أُخرى؛ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ هُو ذُو الرَّحْمة الواسِعة؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هُو ذو الرَّحْمة الواصِلة؛ فـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وَصْفه؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فِعْله؛ ولو أَنَّه جِيءَ بـ«الرَّحْمن» وحدَه، أو بـ«الرَّحيم» وَحْدَه لشَمِل الوَصْف وَالفِعْل؛ لكِنْ إِذَا اقترَنَا فُسِّرَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالوَصْف؛ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالفِعْل.

الفَوائِدُ:

١- مِن فَوائِد الآية: إثباتُ هَذَيْن الاسمَيْن الكَريمَيْن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، وإِثباتُ مَا تَضمَّناه من الرحمة الَّتِي هِي الوَصْف، ومن الرَّحْمة الَّتِي هِي الفِعْل.

٢- ومِنها: أن رُبوبيَّة الله عَزَّوَجَلَّ مَبنيَّة على الرَّحْمة الواسِعة للخَلْق الواصِلة؛ لأَنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كأَنَّ سائِلًا يَسأَل: «مَا نَوْعُ هَذِه الرُّبوبِيَّة؟ هل هِي رُبوبِيَّة أَخْذٍ وانتِقام؟ أو رُبوبيةُ رَحْمة وإِنْعام؟» قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ صِفة لـ﴿لِلَّهِ﴾؛ و﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هُو يَوْم القِيامة؛ و﴿ٱلدِّينِ﴾ هُنا بمَعنَى الجَزاء؛ يَعنِي: أَنَّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مالِكٌ لذَلِك اليَوْمِ الَّذِي يُجازَى فيه الخَلائِق؛ فلَا مالِكَ غَيْره فِي ذلكَ اليَوْمِ؛ و«الدِّين» تارَةً يُراد به الجَزاءُ، كَما فِي هذِه الآيَةِ؛ وتارَةً يُراد به العمَل، كَما فِي قَوْلِه تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، ويُقال: «كَما تَدينُ تُدانُ»؛ أي: كَما تَعمَل تُجازَى.

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿ مَـٰلِكِ ﴾ قِراءَةٌ سَبْعيَّة[١]: (مَلِك)، و«المَلِك» أَخَصُّ من «المالِكِ».

وفي الجَمْع بين القِراءَتَيْن فائِدة عَظيمة؛ وهُو أن مِلْكه جَلَّوَعَلَا مِلْكٌ حَقيقيٌّ؛ لأن من الخَلْق مَن يَكون مَلِكًا، ولكِنْ ليسَ بمالِكٍ: يُسمَّى مَلِكًا اسْمًا وليس لَه من التَّدبير شيءٌ؛ ومن الناس مَن يَكون مالِكًا، ولَا يَكون مِلكًا: كعامَّة الناس؛ ولكِنِ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مالِكٌ مِلكٌ.

الفَوائِدُ:

١- مِن فَوائِد الآيَة: إِثباتُ مِلْك الله عَزَّوَجَلَّ، ومَلَكوته يَوْم الدِّين؛ لأن فِي ذلِكَ اليَوْمِ تَتَلاشَى جَمِيع المِلْكيَّات وَالمُلوك.

فإِن قال قائِلٌ: أَلَيْسَ مالِكَ يَوْم الدِّين وَالدُّنيا؟

فالجَوابُ: بَلَى؛ لكِن ظُهور مَلكوته، ومِلْكه، وسُلْطانه إِنَّما يَكون فِي ذلِكَ اليَوْمِ؛ لأن الله تعالى يُنادِي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فلَا يُجيب أحَدٌ؛ فيَقول تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]؛ فِي الدُّنْيا يَظهَر مُلوكٌ؛ بَلْ يَظهَر مُلوك يَعتَقِد شُعوبُهم أَنَّه لَا مالِكَ إِلَّا هُمْ؛ فالشُّيُوعِيُّون مثَلًا لَا يَرَوْن أن هُناك رَبًّا للسَّمَوات وَالأرض؛ يَرَوْن أن الحَياة: أَرْحام تَدفَع، وأَرْض تَبلَع؛ وأن رَبَّهم هُو رَئِيسُهم.

٢- ومِن فَوائِد الآيَة: إِثباتُ البَعْث وَالجَزاء؛ لقَوْله تعالى: ﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

٣- ومِنها: حَثُّ الإِنْسان على أن يَعمَل لِذلِكَ اليَوْمِ الَّذِي يُدان فيه العامِلون.

---

(١) انظر: التيسير في القراءات السبع (ص:١٨).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قَوْلُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ ﴿إِيَّاكَ﴾: مَفعولٌ به مُقدَّم؛ وعامِلُه: ﴿نَعْبُدُ﴾؛ وقُدِّم على عامِلِه لإفادة الحَصْر؛ فمَعْناه: لَا نَعبُد إِلَّا إِيَّاكَ؛ وكان مُنفَصِلًا؛ لتَعذُّر الوَصْل حِينَئِذ؛ و﴿نَعْبُدُ﴾؛ أي: نَتَذلَّل لَكَ أَكمَلَ ذُلٍّ؛ ولِهَذا تَجِد المُؤمِنين يَضَعون أشرَفَ مَا فِي أَجْسامهم فِي مَوْطِئِ الأَقْدام ذُلًّا لله عَزَّوَجَلَّ: يَسجُد على التُّراب؛ تَمتَلِئ جَبهتُه من التُّراب -كُلُّ هَذا ذلًّا لله؛ ولو أن إنسانًا قال: «أَنا أُعطِيكَ الدُّنيا كلَّها واسْجُدْ لي» مَا وافق المُؤمِن أبدًا؛ لأن هَذا الذُّلَّ لله عَزَّوَجَلَّ وَحْده.

و«العِبادة» تَتَضمَّن فِعْل كلِّ مَا أَمَر الله به، وتَرْك كُلِّ مَا نَهَى اللهُ عنه؛ لأن مَن لم يَكُن كذَلِك فليسَ بعابِدٍ: لو لم يَفعَل المَأْمورَ به لم يَكُن عابِدًا حَقًّا؛ ولو لم يَترُك المَنهيَّ عنه لم يَكُن عابِدًا حَقًّا؛ العَبْد: هُو الَّذي يُوافِق المَعْبود فِي مُرادِه الشَّرعيِّ؛ فـ«العِبادة» تَستَلزِم أن يَقوم الإِنْسانُ بكُلِّ مَا أُمِر به، وأن يَترُك كل مَا نُهِيَ عنه؛ ولَا يُمكِن أن يَكون قِيامُه هَذا بغَيْر مَعونة الله؛ ولِهَذا قالَ تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أي: لَا نَستَعين إِلَّا إِيَّاكَ على العِبادة وغَيْرها؛ و«الاسْتِعانة» طَلْب العَوْن؛ وَالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَجمَع بين العِبادة وَالِاسْتِعانة، أو التَّوكُّل فِي مَواطِنَ عِدَّةٍ فِي القُرآن الكَريم؛ لأَنَّه لَا قِيامَ بالعِبادة على الوَجْه الأَكمَل إِلَّا بمَعونة الله، وَالتَّفويض إليه، وَالتَّوكُّل عليه.

الفَوائِدُ:

١ - مِن فَوائِد الآيَة: إِخْلاص العِبادة لله؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ ووَجْه الإِخْلاص: تَقديم المَعْمول.

٢- ومِنها: إِخْلاص الاستِعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، لقَوْلِه تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حيثُ قدَّم المَفْعول.

فإنْ قال قائِلٌ: كَيْف يُقال: إِخْلاص الاستِعانة بالله، وقد جاءَ فِي قَوْله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٢]، إثبات المَعونة من غَيْر الله عَزَّوَجَلَّ، وقال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ**»[1].

فالجَوابُ: أن الاستِعانة نَوْعان: استِعانةُ تَفويض؛ بمَعنَى أَنَّك تَعتَمِد على الله عَزَّوَجَلَّ، وتَتَبرَّأ من حَولِكَ وقُوَّتِك؛ وهَذا خاصٌّ بالله عَزَّوَجَلَّ؛ واستِعانة بمَعنى المُشارَكة فيما تَريد أن تَقومَ به: فهِذه جائِزة إِذَا كان المُستَعانُ به حَيًّا قادِرًا على الإِعانة؛ لأَنَّه ليسَ عِبادة؛ ولِهَذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة:٢].

فإنْ قال قائِلٌ: وهَلِ الإسْتِعانة بالمَخلوق جائِزة فِي جَميع الأَحْوال؟

فالجَوابُ: لَا؛ الإِسْتِعانة بالمَخْلوق إِنَّما تَجوز حيثُ كان المُستَعان به قادِرًا عليها، وأَمَّا إِذَا لم يَكُن قادِرًا فإِنه لَا يَجوز أن تَستَعين به: كَما لِو استَعان بصاحِب قَبْر فهَذا حَرامٌ، بَلْ شِرْك أَكبَرُ؛ لأن صاحِب القَبْر لَا يُغنِي عن نَفْسه شَيْئًا؛ فكَيْف يُعينه! وكما لِو استَعان بغائِب فِي أَمْر لَا يَقدِر عليه، مِثْل أن يَعتَقِد أن الوَلِيَّ الَّذِي فِي شَرْق الدُّنْيا يُعينه على مَهمَّته فِي بلَده: فهَذا أيضًا شِرْك أَكبَرُ؛ لأَنَّه لَا يَقدِر أن يُعينه وهُو هُناك.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قال قائِلٌ: هل يَجوز أن يَستَعين المَخْلوق فيها تَجوز استِعانتُه به؟

فالجَوابُ: الأَوْلى أن لَا يَستَعين بأَحَد إِلَّا عِند الحاجة، أو إِذَا علِمَ أن صاحِبَه يُسَرُّ بذلِكَ، فيَستَعين به مِن أَجْل إِدْخال السُّرور عليه؛ ويَنبَغي لِمَن طَلَبْت منه الإِعانَةَ على غَيْر الإِثْم وَالعُدوان أن يَستَجيب لذلِكَ.

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

قَوْلُه تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فيه قِراءَتان[1]: بالسِّين: (السِّراط)، وبالصاد الخالِصة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ وَالمُرادُ بـ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطَّريق؛ وَالمُراد بـ«الهِداية» هِداية الإِرْشاد، وهِداية التَّوْفيق؛ فأنتَ بقَوْلِك: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ تَسأَل اللهَ تعالى عِلْمًا نافِعًا، وعمَلًا صالِحًا، و﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أيِ: الَّذِي لَا اعْوِجاجَ فيه.

الفَوائِدُ:

١- **مِن فَوائِد الآيَة**: لُجوءُ الإِنسان إِلى الله عَزَّوَجَلَّ بعدَ استِعانَتِه به على العِبادة أن يَهدِيَه الصِّراط المُستَقيم؛ لأَنَّه لا بُدَّ فِي العِبادة من إِخْلاص؛ يَدُلُّ عليه قَوْلُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ ومِنِ استِعانة يَتقَوَّى بها على العِبادة؛ يَدُلُّ عليه قَوْلُه تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ ومِنِ اتِّباع للشَّريعة؛ يَدُلُّ عليه قَوْلُه تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ لأن ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ هُو الشَّريعة الَّتِي جاءَ بها الرَّسولُ ﷺ.

٢- **ومِن فَوائِد الآيَة**: بَلاغةُ القُرآن، حيثُ حذَف حَرف الجَرِّ مِن ﴿ ٱهْدِنَا ﴾؛ وَالفائِدةُ من ذلِكَ: لأَجْل أن تَتَضمَّن طلَب الهِداية: الَّتِي هِي هِداية العِلْم، وهِداية

---

(١) انظر: التيسير في القراءات السبع (ص:١٨-١٩).

التَّوْفيق؛ لأن الهِداية تَنقَسِم إلى قِسْمَيْن: هِداية عِلْم وإرْشاد؛ وهِداية تَوْفيق وعمَلٍ؛ فالأُولى ليسَ فيها إلَّا مُجرَّد الدَّلالة؛ وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ قد هَدَى بهذا المَعنَى جميعَ الناس، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]؛ وَالثانِية فيها التَّوْفيق للهُدى، واتِّباع الشَّريعة، كما في قَوْلِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]؛ وهذِه قَد يَحرِمها بعضَ الناس، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧] ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: بَيَّنَّا لَهُمُ الحقَّ، ودَلَلْناهم عليه؛ ولكِنَّهم لم يُوفَّقوا.

٣- وِمن فَوائِد الآيَةِ: أن الصِّراطَ يَنقَسِم إلى قِسمَيْن: مُستَقيم، ومُعوَّج؛ فما كان مُوافِقًا للحَقِّ فهُو مُستَقيم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]؛ وما كان مُخالِفًا فهُو مُعوَّج.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

قَوْلُه تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ عَطْف بَيانٍ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ وَالَّذين أَنعَم اللهُ عليْهم هُمُ المَذْكورون في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

قَوْلُه تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هُمُ اليَهودُ، وكُلُّ مَن عَلِم بالحَقِّ ولم يَعمَل به.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ هُمُ النَّصارَى قبل بَعْثة النَّبيِّ ﷺ، وكُلُّ مَن عمِلَ بغَيْر الحَقِّ جاهِلًا به.

وفي قَوْلِه تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قِراءَتان سَبْعيَّتانِ[1]: إِحداهُما ضَمُّ الهاءِ؛ وَالثانِية كَسْرُها.

واعلَمْ أن القِراءة الَّتِي ليسَتْ فِي المُصحَف الَّذِي بين أَيْدي الناس لَا تَنبَغي القِراءة بِها عِند العامَّة لوُجوه ثَلاثةٍ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أن العامَّة إِذَا رأَوْا هَذا القُرآنَ العَظِيمَ الَّذِي قَد ملَأَ قُلوبَهم تَعظيمُه واحتِرامُه، إِذَا رأَوْه مرَّةً كذا، ومرَّةً كذا، تَنزِل مَنزِلته عِنْدهم؛ لأنَّهم عَوامٌّ لَا يُفرِّقون.

الوَجْهُ الثانِي: أن القارِئَ يُتَّهَم بأنه لَا يَعرِف؛ لأَنَّه قرَأَ عِند العامَّة بما لَا يَعرِفونه؛ فيَبقَى هَذا القارِئُ حَديثَ العَوامِّ فِي مَجالِسِهم.

الوَجْهُ الثالِثُ: أَنَّه إِذَا أَحسَنَ العامِّيُّ الظَّنَّ بهذا القارِئِ، وأن عِنده عِلْمًا بما قرَأَ، فذَهَب يُقلِّده، فرُبَّما يُخطِئ، ثُم يَقرَأ القُرآن لَا عَلى قِراءة المُصحَف، ولَا على قِراءة التَّالِي الَّذِي قرَأَها، وهذِه مَفسَدة.

ولهذا قال عليٌّ: «حَدِّثوا الناسَ بِما يَعْرِفون؛ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكذَّبَ اللهُ ورَسولُهُ»[2]، وقال ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّكَ لَا تُحدِّثُ قَوْمًا حَديثًا لَا تَبلُغُه عُقولُهُمْ إِلَّا كانَ لبَعْضِهِم فِتْنةً»[3]، وعُمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سمِعَ هِشامَ بنَ حَكيم يَقرَأ آيَةً لم يَسمَعْها عُمرُ على الوَجْه الَّذِي قرَأَها هِشامٌ خاصَمَه إِلى النَّبيِّ ﷺ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ

---

(١) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة (ص:٨٠)

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لَا يفهموا، رقم (١٢٧).

(٣) أخرجه مسلم فِي المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل مَا سمع، (١/ ١١).

لِهشام: «اقْرَأْ»، فلَمَّا قرَأَ قال النَّبيُّ ﷺ: «هَكَذَا أُنْزلَتْ»، ثُم قالَ النَّبيُّ ﷺ لعُمرَ: «اقْرَأْ»، فلَمَّا قرَأَ قال النَّبيُّ ﷺ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ»[1]؛ لأن القُرآن أُنزِل على سَبْعة أَحرُف، فكان الناسُ يَقرَؤُون بها حتَّى جَمَعَها عُثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على حَرْف واحِدٍ حين تَنازَع الناسُ فِي هذِه الأَحرُفِ، فخاف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يَشتَدَّ الخِلافُ، فجمَعَها فِي حَرْف واحِدٍ -وهُو حَرْف قُرَيْشٍ[2]-؛ لأن النَّبيَّ ﷺ الَّذِي نزَل عليه القُرْآن بُعِث مِنهم؛ ونُسِيَت الأَحْرُف الأُخْرى؛ فإِذَا كان عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعَل مَا فعَل بصَحابِيٍّ، فَمَا بالُكَ بعامِّيٍّ يَسمَعُك تَقرَأ غيرَ قِراءَة الُمصحَف المَعروف عِنْده!

والحَمْدُ لله، ما دامَ العُلَماء مُتَّفِقين على أنَّه لَا يَجِب أن يَقرَأ الإِنسانُ بكُلِّ قِراءةٍ، وأنه لو اقتَصَر على واحِدةٍ من القِراءاتِ فلَا بأسَ؛ فدَعِ الفِتْنة، وأَسبابَها.

الفِوائِدُ:

١ - مِن فَوائِد الآيَتَيْن: ذِكْر التَّفْصيل بعد الإِجْمال؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾: وهَذا مُجمَل؛ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: وهَذا مُفصَّل؛ لأن الإِجمال، ثُمَّ التَّفْصيل فيه فائِدة: فإِن النَّفْس إِذَا جاءَ الُمجمَل تَترَقَّب، وتَتَشوَّف للتَّفْصيل وَالبَيان، فإِذَا جاءَ التَّفْصيلُ ورَدَ على نَفْس مُستَعِدَّة لقَبوله مُتَشوِّفة إِليه؛ ثُم فيه فائِدة ثانِية هُنا: وهِي بَيان أن الَّذين أَنعَم الله عليهِم على الصِّراط الُمستَقيم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم فِي بعض، رقم (٢٤١٩)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف، رقم (٨١٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم (٤٩٨٧)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- ومِنها: إِسنادُ النِّعْمة إِلى الله تعالى وَحْدَه فِي هِداية الَّذين أَنعَم علَيْهم؛ لأَنَّها فَضْل مَحْضٌ من الله.

٣- ومِنها: انْقِسام النَّاس إِلى ثَلاثة أَقْسام؛ قِسْم أَنعَم اللهُ عليهم؛ وقِسْم مَغضوبٌ عليهم؛ وقِسْم ضالُّون؛ وقد سبَقَ بَيانُ هذِه الأَقْسامِ.

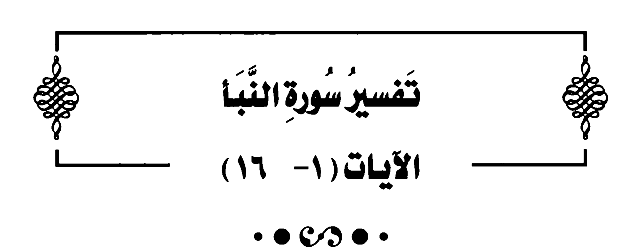
وأَسبابُ الخُروج عن الصِّراط المُستَقيم: إِمَّا الجَهْل؛ أو العِناد؛ وَالَّذين سبَبُ خُروجِهم العِنادُ هُمُ المَغضوب عليهِم، وعلى رَأْسِهم اليَهود؛ وَالآخَرون الَّذين سبَبُ خُروجِهم الجَهْلُ كلُّ مَن لَا يَعلَم الحَقَّ، وعلى رَأْسِهم النَّصارَى؛ وهَذا بالنِّسْبة لحالِهِم قَبْل البَعْثة -أَعنِي: النَّصارَى- أمَّا بعد البَعْثة فقَدْ علِموا الحَقَّ، وخالَفوه؛ فصاروا همُ وَاليَهودُ سَواءً، كلُّهم مَغضوبٌ عليهم.

٤- ومِن فَوائِد الآيَتَيْن: بَلاغة القُرآن، حيثُ جاءَ التَّعبيرُ عن المَغْضوب علَيْهِم باسْمِ المَفْعول الدالِّ على أن الغَضَب عليهِم حاصِلٌ من الله تعالى، ومن أَوْليائِه.

٥- ومِنها: أَنَّه يُقدِّم الأَشَدُّ، فالأَشَدُّ؛ لأَنَّه تعالى قدَّم المَغْضوب عليهِم على الضالِّين؛ لأَنَّهم أَشَدُّ مُخالَفةً للحَقِّ من الضالِّين؛ فإِن المُخالِف عن عِلْم يَصعُب رُجوعُه بخِلاف المُخالِف عن جَهْل.

وعلى كلِّ حالٍ هَـذِه السُّورةُ عَظيمةٌ، ولَا يُمكِـن لَا لي ولَا لغَيْري أن يُحيط بمَعانِيها العَظيمة؛ لكِن هَذا قَطْرة من بَحْر؛ ومَن أَراد التَّوسُّع فِي ذلِكَ فعَلَيْه بكِتاب (مَدارِج السالِكين) لابْنِ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ.

• • ۞ • •



تفسير سورة النبأ
الآيات (١- ١٦)

•••

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ:١-١٦].

•••

البَسْملةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ يَعنِي: عمَّ يَتساءَل هَؤُلاءِ المُكذِّبون بالقُرآن وغيرِه، ثُم أَجاب الله عَزَّوَجَلَّ عن هَذا السُّؤالِ فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، وهَذا النَّبَأ هُو مَا جاءَ به النَّبيُّ صلَّى الله علَيْه وعلى آله وسلَّم من البيِّنات وَالهُدَى، ولا سِيَّما مَا جاءَ به من الأَخْبار عن اليَوْم الآخِرِ وَالبَعْث وَالجَزاء، وقدِ اختَلَف النَّاس فِي هَذا النَّبَإِ الَّذِي جاءَ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: فمِنهم مَن آمَنَ به وصَدَّق، ومِنهم مَن كفَرَ به وكذَّب، ومِنهم مَن شَكَّ فيه وتَردَّد؛ فبيَّن اللهُ أن هَؤُلاءِ الَّذِين كذَّبوا سيَعلَمون مَا كذَّبوا به عِلْم اليَقين، وذلك إِذَا رأَوْا يَوْم القِيامة ﴿يَوْمَ يَأْتِي

تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣].

ولِهَذا قالَ سبحانه هُنا: ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ﴾، وَالجُمْلة الثانِية تَوْكيدٌ للأُولى من حيثُ المَعنَى، وإِن كانَت ليسَت تَوْكيدًا باعتِبار اصْطِلاح النَّحوِيِّين؛ لأَنَّه فُصِل بينَها وبين الَّتِي قَبلَها بحَرْف العَطْف، وَالتَّوكيدُ لَا يُفصَل بينَه وبين مُؤكَّده بشَيْءٍ من الحُروف. وَالمُرادُ بالعِلْم الَّذِي تَوعَّدهم الله به هُو عِلْم اليَقين الَّذِي يُشاهِدونه على حَسب مَا أُخبِروا به.

ثُم بَيَّن اللهُ تعالى نِعَمه على عِباده؛ ليُقرِّر هذِه النِّعَمَ، فَيلزَمهم شُكْرُها فقالَ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾؛ أي: جعَلَ اللهُ الأَرْض مِهادًا مُمهَّدةً للخَلْق، ليسَت بالصُّلْبة الَّتِي لَا يَستَطيعون حَرْثها، ولَا المَشْيَ علَيْها إِلَّا بصُعوبة، وليسَتْ باللَّيِّنة الرَّخْوة الَّتِي لَا ينتَفِعون بها، ولا يَستَقِرُّون عليها، ولكِنَّها مُمهَّدة لَهُم على حسبِ مَصالِحِهم، وعلى حَسْب مَا يَنتَفِعون به.

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾؛ أي: جعَلَها اللهُ تعالى أَوْتادًا للأَرْض، بمَنزِلة الوَتَد للخَيْمة، حَيثُ يُثبِّتها فتَثبُت به، وهُي أيضًا ثابِتة كَما قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت:١٠]، وهذِه الأَوْتادُ قالَ عُلَماءُ الأرض: إن هذِه الجِبالَ لَهَا جُذورٌ راسِخةٌ فِي الأرض كَما يَرسُخ جَذْر الوَتَد بالجِدار، أو وَتَد الخَيْمة في الأَرْض؛ ولذلِكَ تَجِدها صُلْبة قَوِيَّة لَا تُزعْزِعها الرِّياح، وهَذا من تَمام قُدْرته ونِعمَتِه.

﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ أي: أَصْنافًا مَا بين ذَكَر وأُنْثى، وصَغير وكَبير، وأَسوَدَ وأَحمَرَ، وشَقيٍّ وسَعيدٍ، إِلى غيرِ ذلِكَ مِمَّا يَختَلِف النَّاسُ فيه، فهُمْ أَزْواجٌ مُختَلِفون على حَسبِ مَا أَراده الله عَزَّوَجَلَّ واقتَضَتْه حِكْمتُه؛ ليَعتَبِر النَّاسُ بقُدْرة الله تعالى، وأنه قادِرٌ

على أن يَجعَل هَذا البَشَرَ الَّذِين خُلِقوا من مادَّة واحِدة ومن أَبٍ واحِدٍ على هذِه الأَصْنافِ المُتنوِّعة المُتبايِنة.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾؛ أي: قاطِعًا للتَّعَب، فالنَّوْم يَقطَع مَا سبقَه من التعَب، ويَستَجِدُّ به الإِنسان نَشاطًا للمُستَقبَل؛ ولذلِكَ تَجِد الرجُل إِذَا تعِب ثُم نامَ استَراح وتَجدَّد نَشاطه، وهَذا من النِّعْمة، وهُو أيضًا من آياتِ الله كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم:٢٣].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾؛ أي: جعَلَ اللهُ هَذا اللَّيْلَ على الأَرْض بمَنزِلة اللِّباس كأَنَّ الأَرْض تَلبَسه ويَكون جِلْبابًا لهَا، وهَذا لَا يَعرِفه تَمامَ المَعرِفة إِلَّا من صعِدَ فوقَ ظِلِّ الأَرْض، وقد رأَيْنا ذلِك من الآياتِ العَجيبة إِذَا صعِدْتَ فِي الطائِرة وارْتَفَعْتَ وقد غابَتِ الشَّمْس عن سَطْح الأرض، ثُم تَبيَّنَت لَك الشمسُ بعد أن تَرتَفِع تَجِد الأَرْض وكأَنَّها كُسِيَت بلِباسٍ أسوَدَ، لا تَرَى شيئًا من الأَرْض، كُلُّه سَوادٌ من تَحتِكَ، فتَبيَّن بهذا مَعنَى قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾؛ أي: مَعاشًا يَعيش النَّاسُ فيه فِي طلَب الرِّزْق على حَسبِ درَجاتِهم، وعلى حَسب أَحْوالهم، وهَذا من نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العِباد.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ وهِي السَّمواتُ السَّبْع، وَصَفها الله تعالى بالشِّداد؛ لأنَّها قوِيَّة، كَما قالَ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]؛ أي: بنَيْناها بقُوَّة.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾؛ يَعنِي بذلِكَ: الشَّمْس؛ فهِيَ سِراج مُضيءٌ، وهِي أيضًا ذاتُ حَرارة عَظيمة.

﴿وَهَّاجًا﴾؛ أي: وقَّادةً، وحَرارتُها فِي أَيَّام الصَّيْف حَرارة شَديدة مَع بُعْدها الساحِقِ عن الأرض، فَما ظنُّك بما يَقرُب مِنها، ثُمَّ إنها تكون فِي أَيَّام الحَرِّ فِي شِدَّة حَرِّها من فَيْح جهنَّمَ، كَما قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»[1]، وقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى اللهِ فَقَالَتْ: يَا رَبِّ، أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا. فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٌ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٌ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ البَرْدِ مِنْ زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ، وَأَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»[2].

ومَع ذلِك فإن فيها مَصلَحة عَظيمة للخَلْق، فهِي تُوفِّر على الخَلْق أَمْوالًا عَظيمة فِي وَقْت النَّهار، حيثُ يَستَغْني النَّاسُ بها عن إِيقاد الأَنْوار، وكذلِكَ الطاقةُ الَّتِي تُستَخرج مِنها تَكون فيها فَوائِدَ كَثيرةٍ، وكذلِكَ إِنضاجُ الثِّمار وغير هَذا من الفَوائِد العَديدة من هَذا السِّراجِ الَّذِي جعَله الله عَزَّوَجَلَّ لعِبادِه.

ولَمَّا ذكَر السِّراجَ الوَهَّاج الَّذِي به الحَرارة وَاليُبوسة ذكَرَ مَا يُقابِل ذلِك فقالَ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾، وَالماء فيه رُطوبة وبُرودة، وهَذا الماءُ أيضًا تَنبُت به الأَرْض وتَحيا به، فإِذَا انْضَاف ماءُ السَّماء إلى حَرارة الشَّمْس حصَل فِي هَذا إِنضاجٌ للثِّمار ونُموٌّ لهَا على أَكمَلِ مَا يَكُون.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الإِبراد بالظهر فِي شدة الحر، رقم (٥٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإِبراد بالظهر فِي شدة الحر لمن يمضي إِلى جماعة ويناله الحر فِي طريقه، رقم (٦١٥)، حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

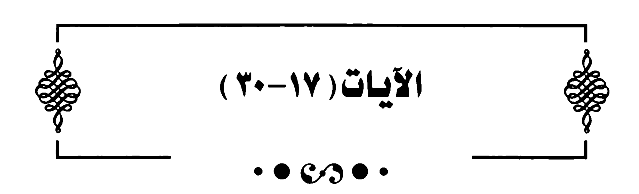
(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب الإِبراد بالظهر فِي شدة الحر، رقم (٥٣٧)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإِبراد بالظهر فِي شدة الحر لمن يمضي إِلى جماعة ويناله الحر فِي طريقه، رقم (٦١٧)، حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾؛ يَعنِي: من السَّحاب، ووَصَفَها اللهُ بأنَّها مُعصِرات كأنَّها تَعصِر هَذا الماءَ عِند نُزوله عَصْرًا، كَما يُعصَر الثوبُ، فإِن هَذا الماءَ يَتَخلَّل هَذا السَّحابَ ويَخرُج منه كَما يَخرُج الماءَ من الثَّوْب المَعْصور، وقَوْلُه: ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾؛ أي: كَثير الثَّجِّ، يَعنِي: الانْهار والتَّدفُّق؛ وذلِكَ لغَزارته وقُوَّته، حتَّى يَروِيَ الأرض.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾؛ أي: لنُخرِج بهذا الماءِ الَّذِي أُنزِل من السَّماء إِلى الأَرْض ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ فتُنبِت الأرضُ ويُخرِج الله به من الحَبِّ بجَمِيع أَصنافه وأَنواعه البُرَّ وَالشَّعير وَالذُّرَة وغيرها، والنَّبات من الثِّمار كالتِّينِ والعِنَب وما أَشبَهَ ذلكَ.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾؛ أي: بَساتِينَ مُلْتَفًّا بَعضُها إِلى بَعْض، من كَثْرتها وحُسْنها وبَهائِها حتَّى إِنها لتَستُر من فيها؛ لكَثْرَتها وَالتِفافِ بعضِها إِلى بَعْض، وهِي الأَشْجار التِي لهَا ساقٌ، فيَخرُج من هَذا الماءِ الثَّجَّاج الزُّروع وَالنَّخيل وَالأَعْناب وغيرها سَواءٌ خرَجَ منه مُباشَرة، أو خرَجَ منه بواسِطة استِخْراج الماء من باطِن الأَرْض؛ لأن الماء الَّذِي فِي باطِن الأَرْض هُو من المطَر، كَما قالَ تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر:٢٢]. وقالَ تعالى فِي آيَة أُخرَى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٢١].

• ● ❁ ● •



الآيات (١٧-٣٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ:١٧-٣٠].

• • • •

ولَمَّا ذكَرَ الله تعالى مَا أَنعَم به على العِباد في الدُّنْيا ذكَرَ حال اليَوْم الآخِرِ، وأنَّه مِيقاتٌ يَجمَع الله به الأوَّلِين وَالآخِرين، فقالَ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[النبأ:١٧-٣٠].

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ وهُو يَوْم القِيامة، وسُمِّيَ يَوْمَ فَصْل؛ لأن الله يَفصِل فيه بَيْن العِباد فيما شجَرَ بينَهُم، وفيما كانوا يَختَلِفون فيه، ويَفصِل كذلِكَ بين أَهْل الحَقِّ وأَهْل الباطِل، وأَهْل الكُفْر وأَهْل الإِيمان، وأَهْل العُدوان وأَهْل الاِعْتِدال،

ويَفصِل فيه أيضًا بين أَهْل الجَنَّة وَالنار، فَريق فِي الجَنَّة وفَريق فِي السَّعير.

﴿كَانَ مِيقَـٰتًا﴾؛ أي: مِيقاتًا للجَزاء ومَوْقوتًا لأَجَلٍ مَعدودٍ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٤]، ومَا ظَنُّكَ بشيءٍ لَه أَجَل مَعدودٌ وأنتَ تَرى الأَجَل كيف يَذهَب سَريعًا يومًا بعد يَوْم حتَّى يَنتَهيَ الإنسانُ إِلى آخِرِ مَرحَلة؟ فكذلِكَ الدُّنيا كلُّها تَسير يومًا بعد يَوْم حتَّى تَنتَهِيَ إِلى آخِرِ مَرحَلة، ولهذا قالَ تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾، وكلُّ شَيءٍ مَعدودٍ فإنه يَنتَهِي.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ النافِخُ المُوكَّل فيها إِسرافيلُ، يَنفُخ فيها نَفْختَيْن: الأُولى: يَفزَع النَّاس، ثُم يُصعَقون فيَموتون، وَالثانية: يُبعَثون من قُبورهم وتَعود إِليهم أَرواحُهم؛ ولهذا قالَ هُنا: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، وفي الآيَة إِيجازٌ بالحَذْف؛ أي: فتَحيَوْن فتَأْتون أفواجًا؛ فَوْجًا مَع فَوْج أو يَتْلو فَوْجًا، وهذِه الأَفواجُ -وَاللهُ أَعلَمُ- بحَسب الأُمَم؛ كُلُّ أُمَّة تُدعَى إِلى كِتابِها؛ لتُحاسَب عليه، فيَأتِي النَّاسُ أَفْواجًا فِي هَذا المَوْقِفِ العَظيم الَّذِي تُسوَّى فيه الأرض، فيَذَرُها الله عَزَّوَجَلَّ قاعًا صَفْصفًا لَا تَرى فيها عِوَجًا ولَا أَمْتًا.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فُتِحَتِ: انفَرَجَت، فتكون أبوابًا يُشاهِدها النَّاسُ بعد أن كانَت سَقْفًا مَحفوظًا تكون فِي ذلِكَ اليَوْمِ أبوابًا مَفتوحةً، وفي هَذا دليلٌ على كَمالِ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ أن هذِه السَّبْعَ الشِّدادَ يَجعَلها الله تعالى يَوْمَ القِيامة كأَنْ لم تكُن، تكون أبوابًا ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج:٨-٩].

وثَم صِفة أُخرى ذكَرَها الله في قولِه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾؛ أي: أن

الجِبال العَظيمة الصَّمَّاءَ تُدَكُّ فتكون كالرَّمْل، ثُم تكون كالسَّراب تَسير ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي: مُرصِدة ومُعِدَّة للطاغِين، وجَهَنَّمُ اسْمٌ من أَسماءٍ كَثيرةٍ، وسُمِّيَت بهذا الِاسْمِ؛ لأنها ذاتُ جُهْمة وظُلْمة بسَوادها وقَعْرها، أَعاذَنا الله وإِيَّاكُم منها، وهي مِرصادٌ للطاغِين قد أَعَدَّها الله عَزَّوَجَلَّ لَهُم من الآنَ، فهِيَ مَوْجودة كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، ورَآها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم حين عُرِضَت عليه وهو يُصلِّي صَلاة الكُسوف، ورأَى فيها امرَأَةً تُعذَّب في قِطَّة لَهَا حَبَسَتْها، لا هِيَ أَطْعَمَتْها ولا هِيَ أَرْسَلتها تَأكُل من خَشاش الأَرْض، ورأَى فيها عَمرَو بنَ لُحَيٍّ الخُزاعيَّ يَجُرُّ قُصْبَه في النار، يَعنِي: أَمعاءَهُ؛ لأنه كان أَوَّلَ مَن أَدخَل الشِّرْك على العرَب.

هذه النار يَقولُ الله عَزَّوَجَلَّ إنَّها: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾، والطَّاغون: جَمْع طاغٍ وهو الَّذي تَجاوز الحَدَّ؛ لأن الطُّغْيان مُجاوَزة الحَدِّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، أي: زاد وتَجاوَز حَدَّه، وحَدُّ الإِنْسان مَذكورٌ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وتَجاوُزُ الحَدِّ يَكون في حُقوق الله، ويَكون في حُقوق العِبادِ، أَمَّا في حُقوق الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه التَّفريطُ في الواجِبِ أو التَّعدِّي في المُحرَّم، وأَمَّا الطُّغْيان في حُقوق الآدَمِيِّين فهُوَ العُدوان عليهِم في أَموالهم ودِمائِهم وأَعْراضهم. وهذه الثَّلاثةُ الَّتي حرَّمها رَسولُ الله صلَّى الله وعلى آله وسلَّم، وأَعلَن تَحريمها في حَجَّة الوَداع في أكثَر من مَوضِعٍ فقال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ».

فالطُّغاةُ في حُقوق الله وفي حُقوق العِباد هُمْ أَهْل النار والعِياذُ بالله؛ ولِهَذا قال: ﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾، أي: مَكان أَوْب، والأَوْب في الأَصْل الرُّجوع، كما قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]، أي: رَجَّاع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ أي: باقِينَ فيها، ﴿أَحْقَابًا﴾ أَيْ: مُدَدًا طَويلةً؛ وقد دَلَّ القُرآنُ الكَريمُ على أن هَذِه المُدَدَ لا نِهايةَ لَهَا، وأنَّها مُدَد أَبديَّة، كما جاءَ ذلِكَ مُصرَّحًا به في ثَلاث آياتٍ من كِتاب الله في سُورة النِّساءِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]، وفي سُورة الجِنِّ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

فإذا كانَ اللهُ صرَّح في ثَلاث آياتٍ من كِتابه بأن أَصْحاب النار مُخلَّدون فيها أبدًا، فإنه يَلزَم أن تَكون النار باقِيةً أبَدَ الآبِدِين وهذا هو الَّذي علَيْه أَهْل السُّنَّة والجَماعة، أن النار والجَنَّة مَخلوقَتان ولا تَفنَيان أبدًا، ووُجِدَ خِلافٌ يَسير من بَعْض أَهْل السُّنَّة في أَبديَّة النار، وزعَموا أنَّها غيرُ مُؤبَّدة.

واستَدَلُّوا بحُجَجٍ هي في الحَقيقة شُبَهٌ لا دَلالةَ فيها لِمَا ذهَبوا إليه، وإذا قُورِنَت بالأدِلَّة الأُخرى تَبيَّن أنه لا مُعوَّلَ على المُخالِف فيه ولا على قَوْلِه، والواجِبُ على المُؤمِن أن يَعتَقِد ما دَلَّ عليه كِتابُ الله دَلالةً صَريحةً لا تَحتَمِل التَّأوِيل، والآياتُ الثَّلاثُ الَّتي ذكَرْناها كلُّها آياتٌ مُحكَمة، لا يَتطرَّق إليها النَّسْخ، ولا يَتطرَّق إليها الاِحْتِمال.

أَمَّا عدَمُ تَطرُّق النَّسْخ إليها فلأنَّها خبَرٌ، وأَخبارُ الله عَزَّوَجَلَّ لا تُنسَخ، وكذلِكَ أَخبارُ رَسولِه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، لأن نَسْخ أَحَد الخَبَرَيْن بالآخَر يَستَلزِم كَذِب أَحَدِ الخَبَرَيْن، إمَّا تَعمُّدًا من المُخبِر أو جَهْلًا بالحال، وكل ذلِكَ مُمتَنِع في خَبَر الله وخَبَر رَسولِه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، المَبنيِّ على الوَحْيِ.

وأمَّا عدَمُ تَطرُّق الِاحْتِمال فلِلتَّصريح بالأَبَديَّة في الآياتِ الثلاثِ، والمُهِمُّ أنه يَجِب علينا أن نَعتَقِد شَيْئَيْن:

الشيءُ الأوَّلُ: وُجودُ الجَنَّة والنار الآنَ، وأدِلَّةُ ذلِكَ من القُرآن والسُّنَّة كَثيرة؛ مِنها قولُه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، والإِعْدادُ: التَّهيِئة، وهذا الفِعْلُ (أُعِدَّتْ) فِعْل ماضٍ يَدُلُّ على أن الإِعْداد قد وَقَع، وكذلِكَ قال اللهُ تعالى في النار: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، والإِعْدادُ: تَهْيِئة الشَّيْء، والفِعْل هُنا ماضٍ يَدُلُّ على الوُقوع، وقد جاءَتِ السُّنَّة صَريحة في ذلِكَ في أن النَّبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم رَأَى الجَنَّة ورأَى النارَ.

الشيءُ الثاني: اعْتِقادُ أَنَّهما دارانِ أَبدِيَّتانِ، مَن دخَلَهما وهو من أَهلِهما فإِنَّه يَكون فيهما أبَدًا، أمَّا الجَنَّة فمَن دخَلَها لا يَخرُج مِنها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]، وأَمَّا النارُ فإن عُصاة المُؤمِنين يَدخُلون فيها ما شاءَ اللهُ أن يَبقَوْا فيها، ثُم يَكون مَآلُهُمُ الجَنَّةَ، كما شهِدَتْ بذلِكَ الأَخبارُ الصَّحيحة عن رَسولِ الله ﷺ، فقولُه تعالى: ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾، لا تَدُلُّ بأيِّ حالٍ من الأَحْوال على أن هَذِه الأَحْقابَ مُؤَمَّدة، يَعنِي: إلى أَمَد، ثُم تنتَهِي، بَلِ المَعنَى: أَحْقابًا كَثيرةً لا نِهايةَ لَها.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ نَفى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها البَرْد الَّذي تكون به بُرودة ظاهِرِ الجِسْم، والشَّراب الَّذي تكون به بُرودة داخِل الجِسْم؛ وذلِكَ لأنَّهم -والعِياذُ بالله- إذا عطِشوا واستَغاثوا كانوا كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، وهَلِ الماءُ الَّذي كالمُهْل وإذا قرُب من الوَجْه شَوَى الوَجْه، هل يَنتَفِع به صاحِبُه؟ الجَوابُ استَمِعْ قولَ الله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، أمَّا في ظاهِر الجِسْم فقَدْ قال اللهُ تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٧-٤٨]، وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج:١٩-٢٠]، ما في بُطونِهم: الأَمْعاء وهي باطِن الجِسْم، والجُلود ظاهِر الجِسْم، فمَن كان كذلِكَ فإنهم لا يَذوقون فيها بَرْدًا ولا شَرابًا يُطفِئ حَرارة بُطونِهم، ومَن تَدبَّر ما في القُرآن والسُّنَّة من الوَعيد الشَّديد لأَهْل النار فإنَّه كما قال بعضُ السلَف: «عَجِبْت للنارِ كَيْف يَنام هارِبُها، وعجِبْتُ للجَنَّة كيفَ يَنامُ طالِبُها».

إنَّنا لو قال لنا قائِلٌ: إن لكُمْ في أَقْصى الدُّنيا قُصورًا وأَنهارًا وزَوْجاتٍ وفاكِهةً لا تَنقَطِع عَنَّا، ولا نَنقَطِع دُونَها، بل هي أَبَدُ الآبِدِين، لكِنا نَسير على أَهْداب أَعيُنِنا لَيْلًا ونَهارًا؛ لنَصِل إلى هذه الجَنَّة الَّتي بها هذا النَّعيمُ العَظيمُ، والَّتي نَعيمُها دائِمٌ لا يَنقَطِع، وشَباب ساكِنها دائِم لا يَهرَم، وصِحَّته دائِمة ليسَ فيها سُقْم، وانظُروا إلى الناس اليَوْم يَذهَبون إلى مَشارِق الأرض ومَغارِبها؛ لِينالوا دِرْهمًا او دِينارًا قد يَتمتَّعون بذلِكَ، وقد لا يَتمتَّعون به، فما بالُنا نَقِف هذا المَوْقِفَ من طلَب الجَنَّة؟! وهذا المَوْقِفُ من الهرَب من النار، نَسأَل اللهَ أن يُعيذَنا وإيَّاكُم من النار، وأن يَجعَلنا وإيَّاكُم من أَهْل الجَنَّة.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ الاسْتِثْناء هُنا مُنقَطِع عند النَّحوِيِّين؛ لأن المُستَثْنى ليسَ من جِنْس المُستَثْنى منه، وَالمَعْنى ليسَ لهُمْ إِلَّا هَذا الحَميمُ، وهُو الماءُ الحارُّ المُنتَهِي فِي الحَرارة. ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥].

﴿وَغَسَّاقًا﴾ قالَ المُفسِّرون: إن الغَسَّاق هُو شَرابٌ مُنتِن الرائِحة شَديد البُرودة، فيُجمَع لهم -والعِياذُ بالله- بين الماءِ الحارِّ الشَّديد الحَرارة وَالماء البارِد الشَّديد البُرودة؛ ليَذوقوا العَذاب من الناحِيَتَيْن: من ناحِية الحَرارة، ومن ناحِية البُرودة، بل إِن بعضَ أَهْل التَّفْسير قالوا: إِن المُراد بالغَسَّاق صَديدُ أهلِ النار، ومَا يَخرُج من أَجْوافهم من النَّتَن وَالعرَق وغير ذلِكَ.

وعلى كلِّ حالٍ فالآيَةُ الكَريمةُ تَدُلُّ على أنهم لَا يَذوقون إِلَّا هَذا الشَّرابَ الَّذِي يُقطِّع أَمعاءَهُم من حَرارته، ويُفطِّر أَكْبادهم من بُرودتِه، نَسأَل اللهَ العافِيَةَ. وإِذَا اجتَمَعَتْ هذِه الأنـواعُ من العَذاب كانَ ذلِك زِيـادة فِي مُضاعَفة العَـذاب عليهم.

﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾؛ أي: يُجزَوْن بذلِكَ جَزاءً مُوافِقًا لأَعْمالِهم من غير أن يُظلَموا، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤]، فهَذا الجَزاءُ مُوافِق ومُطابِق لأَعْمالِهم.

ثُم بيَّن وَجه مُوافِقة هَذا العَذابِ للأَعْمال، فقالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾، فذكَرَ انحِرافهم فِي العَقيدة، وانحِرافَهم فِي القَوْل، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾؛ أي: لَا يُؤمِّلون أن يُحاسَبوا، بَلْ يُنكِرون الحِساب،

يُنكِرون البَعْث، يَقولون: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، فلَا يَرجُون حِسابًا يُحاسَبون به؛ لأنَّهم يُنكِرون ذلِك، هذِه عَقيدة قُلوبِهِم، أمَّا أَلسِنَتُهم فيُكذِّبون يَقولون: هَذا كذِبٌ، هَذا سحر، هَذا جُنون، ومَا أَشبَه ذلِك، كَما جاءَ فِي كِتاب الله مَا يَصِف به هَؤُلاءِ المُكذِّبون رُسُلَ الله، كَما قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

وقالَ اللهُ تعالى عن المُكذِّبين لمُحَمَّد صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:٤]، وقالوا: إِنه شاعِرٌ؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠]، ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر:٦-٧]، ولولا أن الله ثبَّتَ أَقدامَ الرُّسُل وصبَّرَهم على قَوْمهم مَا صَبَروا على هَذا الأَمْرِ، ثُمَّ إِن قَومَهُمُ المُكذِّبين لهم لم يَقتَصِروا على هَذا، بل آذَوْهم بالفِعْل كَما فعَلوا مَع الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الأَذِيَّة العَظيمة، بَلْ آذَوْهُم بحَمْل السِّلاح عليهم.

فمَن كانَت هذِه حالَه فجَزاؤُه جهنَّمُ جَزاءً مُوافِقًا مُطابِقًا لعمَلِه، كَما فِي هذِه الآيةِ الكَريمةِ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ يَشمَل مَا يَفعَله اللهُ عَزَّوَجَلَّ من الخَلْق وَالتَّدبير فِي الكَوْن، ويَشمَل مَا يَعمَله العِباد من أَقْوال وأَفْعال، ويَشمَل كُلَّ صَغير وكَبير.

﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾؛ أي: ضَبَطْناه بالإِحصاء الدَّقيق الَّذِي لَا يَختَلِف.

﴿كِتَٰبًا﴾؛ يَعنِي: كَتْبًا، وقد ثبَتَ فِي الحَديثِ الصَّحيح أن اللهَ تعالى كتَبَ مَقادير كُلِّ شيءٍ إِلى أن تَقوم الساعةُ(١)، ومِن جُمْلة ذلِكَ أَعْمال بَني آدَمَ فإِنَّها مَكتوبة، بَلْ كُلُّ قَوْل يُكتَب، قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، رَقيب يَعنِي: مُراقِب، وَالعَتيدُ يَعنِي: الحاضِر. ودخَل رجُل على الإِمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهُو مَريض يَئِنُّ من مرَضِه، فقالَ لَه: يا أبا عبدِ الله، إِن طاوسًا -وهو أَحَد التابِعين المَشْهورين- يَقول: إِن أَنينَ المَريض يُكتَب. فتَوقَّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الأَنينِ خَوْفًا من أن يُكتَب عليه أَنينُ مَرَضه(٢).

فكَيْف بأقوالٍ لَا حَدَّ لهَا ولَا مُمسِكَ لهَا، أَلْفاظٌ تَتْرى طوال اللَّيْل وَالنَّهار ولَا يُحسَب لهَا الحِساب، فكُلُّ شيءٍ يُكتَب حتَّى الهَمُّ يُكتَب إِمَّا لَكَ، وإِمَّا علَيْك، مَن هَمَّ بالسَّيِّئة فلَمْ يَعمَلها عاجِزًا عَنها فإِنها تُكتَب عليه، وإِن هَمَّ بها وترَكها لله فإِنَّها تُكتَب لَه، فلَا يَضيع شيءٌ، كل شيءٍ أَحْصَيْناه كِتابًا.

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ هَذا الأَمْرُ للإِهانة وَالتَّوْبيخ، يَعنِي: يُقال لأَهْل النار: ذُوقوا العَذاب إِهانة وتَوْبيخًا فلَنْ نَرفَعه عنكم، ولن نُخفِّفَه عَنْكم، بَلْ ولَا نُبقِيكم على مَا أَنتُم عليه، لَا نَزيدُكم إِلَّا عَذابًا فِي قُوَّته ومُدَّته ونَوْعه، وفي آيَةٍ أُخْرى أنهم يَقولون لخَزَنة جهنَّمَ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩]، تَأَمَّل هذِه الكَلِمةَ من عِدَّة أَوْجُهٍ:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود: كتاب السُّنَّة، باب فِي القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩)، من حديث عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه-.

(٢) انظر: مناقب الإمام أحمد (ص:٥٤٦).

أوَّلًا: أنهم لم يَسأَلوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإِنَّما طلَبوا من خزَنة جَهنَّمَ أن يَدعُوا لَهُم؛ لأن اللهَ قالَ لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، فرَأَوْا أَنفُسَهم أنَّهم ليسوا أَهْلًا لأَنْ يَسأَلوا الله ويَدْعوه بأَنفُسِهم، بَلْ لا يَدْعونه إِلَّا بواسِطة.

ثانيًا: أنَّهم قالوا: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ولَمْ يَقولوا: ادْعُوا ربَّنا؛ لأن وُجوهَهُم وقُلوبَهم لَا تَستطيع أن تَتحدَّث أو أن تَتكلَّم بإِضافة رُبوبية اللهِ لَهُم؛ أي: بأن يَقولوا: ربَّنا. فعِندَهم من العارِ وَالخِزْيِ مَا يَرَوْن أنهم لَيْسوا أَهْلًا لأَنْ تُضاف رُبوبِيَّة الله إليهم، بل قالوا: ﴿رَبَّكُمْ﴾.

ثالِثًا: لم يَقولوا: يَرفَع عنَّا العَذاب، بل قالوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾؛ لأَنَّهم -نَعوذُ بالله- آيِسون مِن أن يَرفَعَ عنهم.

رابِعًا: أنَّهم لم يَقولوا: يُخفِّف عَنَّا العَذاب دائِمًا. بل قالوا: ﴿يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يَوْمًا واحِدًا، بهذا يَتبَيَّن مَا هُمْ عليه من العَذاب وَالهَوان وَالذُّلِّ ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى:٤٥]، أَعاذَنا اللهُ مِنها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّ ٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ:٣١-٣٦].

ذكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَا للمُتَّقين من النَّعيم بعد قَوْلِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾؛ لأن القُرآنَ مَثانٍ إِذَا ذُكِر فيه العِقاب ذُكِر فيه الثَّواب، وإِذَا ذُكِر الثَّواب ذُكِر العِقاب، وإِذَا ذُكِر أَهْل الخَيْر ذُكِر أَهْل الشَّرِّ، وإِذَا ذُكِر الحَقُّ ذُكِر الباطِل، مَثانٍ حتَّى يَكُون سَيْر الإِنسان إِلى رَبِّه بين الخَوْف وَالرَّجاء؛ لأَنَّه إِن غلَب عليه الرَّجاء وقَعَ فِي الأَمْن مِن مَكْر الله، وإِن غلَبَ عليه الخَوْفُ وقَعَ فِي القُنوط من رَحْمة الله، وكِلاهُما

من كَبائِر الذُّنوب، كِلاهُما شَرٌّ، قالَ الإمامُ أَحمدُ بنُ حَنبَلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ فِي عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، فَأَيُّهُمَا غَلَبَ هَلَكَ صَاحِبُهُ»(١).

لذلِكَ تَجِد القُرآن الكَريم يَأتِي بهذا وبهذا؛ ولِئَلَّا تَمَلَّ النُّفوس من ذِكْر حال واحِدة وَالإِسهاب فيها دُون مَا يُقابِلها، وهكَذا؛ لأَجْل أن يَكُون الإِنسانُ حين يَقرَأ القُرآن راغِبًا راهِبًا، وهَذا من بَلاغة القُرآن الكَريم.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ المُتَّقون هُمُ الَّذِين اتَّقَوْا عِقاب الله، وذلِكَ بفِعْل أَوامِر الله واجتِنابِ نَواهِيه، وأَحْيانًا يَأمُر اللهُ بتَقْواه، وأَحْيانًا يَأمُر بتَقوَى يوم الحِساب، وأَحْيانًا يَأمُر بتَقْوى النار، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [آل عمران:١٣٠]، فجمَع بين الأَمْر بتَقْواه وَالأَمْر بتَقْوى النار، وقالَ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، فأَمَر بتَقْوى يَوْم الحِساب، وكُلُّ هَذا يَدور على مَعنًى واحِدٍ وهو: أن يَتَّقِيَ الإِنسانُ مَحارِمَ ربِّه، فيَقوم بطاعتِه ويَنتَهِي عن مَعصِيَته، فالمُتَّقون هُمُ الَّذِين قاموا بأَوامِر الله واجتَنَبوا نَواهِيَ الله، هَؤُلاءِ لهُم ﴿مَفَازًا﴾، وَالمَفازُ هُو مَكان الفَوْز وزَمان الفَوْز أيضًا، فهُمْ فائِزون فِي أَمكِنَتِهم، وفائِزون فِي أَيَّامِهم.

ثُمَّ بيَّنَ تعالى شيئًا من هذا الفَوْزِ، فقال: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ هَذا نَوْع المَفاز، ﴿حَدَآئِقَ﴾ جَمْع حَديقة؛ أي: بَساتِين أَشجارُها عَظيمة وكَثيرة ومُنوَّعة.

﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ الأَعْناب جَمْع عِنَب، وهِي من جُمْلة الحَدائِق، لكِنَّه خَصَّها بالذِّكْر؛ لشَرَفِها.

---

(١) انظر: الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٥٩).

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ الكَواعِبُ: جَمْع كاعِبٍ، وهِي الَّتِي تبيَّن ثَدْيُها ولم يَتَدَلَّ، بل برَزَ وظَهَرَ كالكَعْب، وهَذا أَكمَلُ مَا يَكُون فِي جَمال الصَّدْر.

﴿أَتْرَابًا﴾؛ أي: على سِنٍّ واحِدةٍ لَا تَختَلِف إِحداهُنَّ عن الأُخْرى كِبَرًا كَما فِي نِساء الدُّنيا؛ لأنها لوِ اختَلَفَت إِحداهُنَّ عن الأُخرى كِبَرًا فرُبَّما تَختَلُّ المُوازَنة بينَهما، ورُبَّما تكون إِحداهُما مَحزونة إِذَا لم تُساوِ الأُخْرى، لكِنَّهُنَّ أَتْرابٌ.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾؛ أي: كَأْسًا مُمتَلِئة، وَالمُراد بالكَأْس هُنا كَأْس الخَمْر، ورُبَّما يَكُون للخَمْر وغَيْره، لأن الجَنَّة فيها ﴿أَنْهَرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّرِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

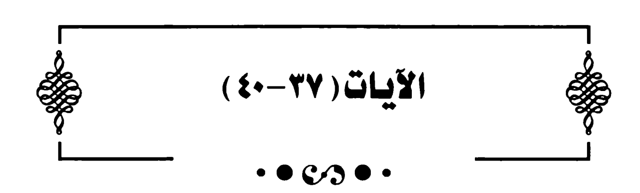
لكِنْ يُرجِّح أنها الخَمْر وحْدَها قولُه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ لَا يَسمَعون فِي الجَنَّة لَغْوًا؛ أي: كَلامًا باطِلًا لَا خَيْرَ فيه.

﴿وَلَا كِذَّابًا﴾؛ أي: ولَا كَذِبًا فلَا يَكذِبون، ولَا يُكذِّب بَعضُهم بعضًا؛ لأَنَّهم على سُرُرٍ مُتَقابِلين، قَد نزَعَ اللهُ مَا فِي صُدورهم من غِلٍّ وجعَلَهم إِخوانًا.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً﴾؛ أي: إِنَّهم يُجزَوْن بهذا جَزاءً من اللهِ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على أَعْمالِهم الحَسَنة الَّتِي عمِلوها فِي الدُّنْيا واتَّقَوْا بها مَحارِمَ الله.

﴿حِسَابًا﴾؛ أي: كافِيًا، مَأْخوذة من الحَسْب وهُو الكِفاية؛ أي: أن هَذا الكَأْسَ كَأْسٌ كافٍ لَا يَحتاجون معَه إِلى غَيْره؛ لكَمال لَذَّته وتَمام مَنْفَعتِه.

•●۞●•



الآيات (٣٧-٤٠)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ:٣٧-٤٠].

• ● ● •

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُو رَبُّ كُلِّ شيءٍ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٩١]، فهُو رَبُّ السَّمواتِ السَّبْع الطِّباق، ورَبُّ الأَرْض وهِي سَبْع كما ثبَتَ ذلِك فِي السُّنَّة عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم[1].

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: مَا بين السَّمَواتِ وَالأَرْض من المَخْلوقات العَظِيمة كالغُيوم وَالسُّحُب وَالأَفْلاك وغيرِها مِمَّا نَعلَمه، ومِمَّا لَا يَعلَمه إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عَطْف بَيانٍ، وهو ذو الرَّحْمة الواسِعة الشامِلة، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾؛ يَعنِي: أن النَّاس لَا يَملِكون الخِطاب من الله، ولَا يَستَطيع أَحَدٌ أن يَتكلَّم إِلَّا بإِذْن الله، وذلِكَ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ وهُو جِبريلُ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾؛ أي: صُفوفًا.

---

(١) انظر: صحيح مسلم: كتاب الذكر، باب مَا يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣/ ٦٣).

صَفًّا بعد صَفٍّ، كَمَا جاءَ فِي الحَديثِ: «تَنْزِلُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَتُحِيطُ بِالخَلْقِ، ثُمَّ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ مِنْ وَرَائِهِمْ، ثُمَّ الثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ وَالخَامِسَةِ»[1] وهكَذا.. صُفوفًا لَا يَعلَم عدَدَهُم إِلَّا الَّذِي خلَقَهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾؛ أي: لَا يَتكلَّمون لا المَلائِكة ولَا غيرُهم، كَمَا قالَ تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالكَلام، فإِنه يَتكلَّم كَمَا أُذِن لَه. ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؛ أي: قالَ قولًا صَوابًا مُوافِقًا لِمَرْضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وذلِكَ بالشَّفاعة، إِذَا أَذِنَ الله لأَحَدٍ أن يَشفَع شَفَع فيما أُذِنَ لَه فيه على حسبِ مَا أُذِنَ لَه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: ذلِكَ الَّذِي أَخبَرْناكُم عنه هُو اليَوْمُ الحَقُّ، وَالحَقُّ ضِدُّ الباطِلِ؛ أيِ: الثابِت الَّذِي يَقوم فيه الحَقُّ، ويَقوم فيه العَدْل، يَوْم لَا يَنفَع مالٌ ولَا بَنونَ، إِلَّا مَن أَتَى اللهَ بقَلْب سَليم.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾؛ أي: مَن شاءَ عمِل عمَلًا يَؤُوب به إِلى الله ويَرجِع به إِليه، وذلِك العمَلُ الصالِحُ المُوافِقُ لِمَرْضاةِ الله تعالى؛ أي: مَرجِعًا يُرضِي به اللهَ، ويَرضَى اللهُ به عنه، وهذه المَشيئةُ المُطلَقةُ هنا قَيَّدَتْها آيَةٌ أُخرى، وهِي قَوْلُه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، يَعنِي: أننا لنا الخِيار فيما نَذهَب إِليه، لَا أَحَدَ يُكرِهنا على شيءٍ؛ لكِن مَع ذلِك خِيارُنا وإِرادَتُنا ومَشيئَتُنا راجِعةٌ إِلى الله.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وإِنَّما بيَّن الله ذلِك فِي كِتابه من أَجْل أن لَا يَعتَمِد

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٣٨٦).

الإِنسان على نَفْسه وعلى مَشيئَتِه، بل يَعلَم أنَّها مُرتَبِطة بمَشيئة الله؛ حتَّى يَلجَأ إِلى الله فِي سُؤال الهِداية لما يُحِبُّ ويَرضَى، ولَا يَقول الإِنسانُ: أنا حُرٌّ أُريدُ مَا شِئْت، وأَتصَرَّف كَما شِئْت. نَقُول: الأَمْر كذَلِك، لكِنَّك مَرْبوط بإِرادة الله عَزَّوَجَلَّ، فما نَشاءُ من شَيْءٍ إلَّا وقَدْ شاءَهُ الله من قَبلُ.

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾؛ أي: خَوَّفْناكم من عَذاب قَريب، وهُو يَوْم القِيامة، ويَوْم القِيامة قَريبٌ، ولو بَقِيَت الدُّنيا مَلايِينَ السِّنينَ فإِنه قَريبٌ ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، فهَذا العَذابُ الَّذِي أَنذَرَنا الله قَريبٌ، ليسَ بين الإِنسانِ وبينَه إلَّا أن يَموت، وَالإِنسانُ لَا يَدرِي متى يَموتُ، قَد يُصبِح ولَا يُمسِي، أو يُمسِي ولَا يُصبِح؛ ولهذا كانَ علَيْنا أن نَحزِم فِي أَعْمالِنا، وأن نَستَغِلَّ الفُرْصة قبل فَواتِ الأَوان.

﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ المَرْء، أَيْ: كلُّ امْرِئٍ يَنظُر مَا قدَّمَت يَداه؛ أي: ما عمِلَ فِي الدُّنيا، ويَأْخُذ كِتابه ويَعرِف مَصيرَه، ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٤].

ويَقولُ الكافِرُ من شِدَّة مَا يَرَى من الهَوْل ومَا يُشاهِده من العَذابِ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾؛ أي: لَيْتَني لم أُخلَقْ، أو لَيْتَني لم أُبعَثْ، أو إِذَا رأَى البَهائِم الَّتِي يَقضِي الله بينَها، ثُم يَقول: كُونِي تُرابًا. فتكون تُرابًا يَتمَنَّى أن يَكُون مِثْل البَهائِم، فقَولُه: ﴿كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ تَحتَمِل ثَلاثةَ مَعانٍ:

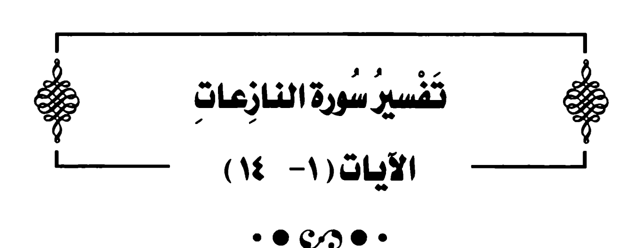
المَعنَى الأَوَّل: يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا فلَمْ أُخلَقْ؛ لأن الإِنسان خُلِق من تُرابٍ.

المَعنَى الثانِي: يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا فلَمْ أُبعَثْ؛ يَعنِي: كُنتُ تُرابًا فِي أَجوافِ القُبور.

المَعنَى الثالِثِ: أنَّه إِذَا رأَى البَهائِم الَّتِي قَضَى اللهُ بينَها وقالَ لهَا: كُونِي تُرابًا. فكانَت تُرابًا؛ قالَ: لَيْتَني كُنْت تُرابًا. أي: كَمَا كانَت هَذِه البَهائِمُ. والله أَعلَمُ.

وإِلى هُنا تَنتَهي سُورة النَّبأ، وفيها من المَواعِظ وَالحِكَم وآياتِ الله عَزَّوَجَلَّ مَا يَكُون مُوجِبًا للإِيقان وَالإِيمان، نَسأَل الله أن يَنفَعَنا وإِيَّاكُم بكِتابِه، وأن يَجعَله مَوْعِظةً لقُلوبِنا، وشِفاءً لِما فِي صُدورنا، إِنه جَوادٌ كَريمٌ.

• • ۞ • •



تفسيرُ سُورة النازِعاتِ

الآيات (١- ١٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١-١٤].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾؛ يَعنِي: المَلائِكة المُوكَّلة بقَبْض أَرْواح الكُفَّار تَنزِعها ﴿غَرْقًا﴾؛ أي: نَزْعًا بشِدَّة.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾؛ يَعنِي: المَلائِكة المُوكَّلة بقَبْض أَرْواح المُؤمِنين، تَنشطها نَشْطًا، أي: تَسُلُّها برِفْق كالأُنْشُوطة، وَالأُنْشوطة: الرَّبْط الَّذِي يُسمُّونه عِندنا (التِّكَّة) أو مَا أَشبَهَ ذلِكَ من الكلِماتِ؛ يَعنِي: يَكُون رَبْطًا بحَيْثُ إِذَا سلَلْتَ أحَدَ الطرَفَيْن انفكَّتِ العُقْدة، وهَذا يَنحَلُّ بسُرْعة وبسُهولة، فهَؤُلاء المَلائِكةُ المُوكَّلة بقَبْض أَرْواح المُؤمِنين تَنشطها نَشْطًا؛ أي: تَسُلُّها برِفْق، وسبَبُ ذلِك أن المَلائِكة المُوكَّلة بقَبْض

أَرْواح الكُفَّار إِذَا دعَتِ الرُّوح إِلى الخُروج تُنادِيها بأَقبَح الأَوْصاف، تَقول المَلائِكةُ لِرُوح الكافِرِ: اخرُجِي أَيَّتُها النَّفْس الخَبيثةُ الَّتِي كانَت فِي الجسَد الخَبيث، اخرُجي إِلى غضَبِ الله. فتَنفِر الرُّوح لَا تُريد أن تَخرُج إِلى هذا، وتَتَفرَّق فِي الجَسَد حتَّى يَقبِضوها بشِدَّة، ويَنزِعوها نَزْعًا يَكاد يَتمزَّق الجَسَد مِنها من شِدَّة النَّزْع.

أَمَّا أَرْواح المُؤمِنين -جعَلَني اللهُ وإِيَّاكُم مِنهم- فإِن المَلائِكة إِذَا نزَلَت لقَبْضها تُبشِّرها: اخرُجِي يا أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ التِي كانَت فِي الجَسَد الطَّيِّب، اخرُجِي إِلى رِضوان الله. فيَهون عليها أن تُفارِق جسَدَها الَّذِي أَلِفَتْه، فتَخرُج بسُهولة؛ ولهذا لَمَّا قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»، قالت عائِشةُ: يا رَسولَ الله، إِنَّا لنكرَهُ المَوْت. فقالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنِ المُؤْمِنُ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ؛ فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»[1]؛ لأَنَّه فِي تِلْك اللَّحْظة يَرى أَنَّه سيَنتَقِل إِلى دارٍ أَحسَنَ من الدار الَّتِي فارَقَها؛ فيَفرَح كما يَفرَح أَحَدُنا إِذَا قيل لَه: اخرُجْ من بَيْت الطِّين إِلى بَيْت المُسلَّح القَصْر المَشيد الطَّيِّب، فيَفرَح فيُحِبُّ لِقاءَ الله، وَالكافِر -وَالعِياذُ بالله- بالعَكْس إِذَا بُشِّر بالغضَب وَالعَذاب فإِنه يَكرَه أن يَموت، يَكرَه لِقاءَ الله فيَكرَه اللهُ لِقاءَه.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ هِي المَلائِكةُ تَسبَح بأَمْر الله؛ أي: تُسرِع فيه كما يُسرِع السابِحُ فِي الماء، وكما قالَ تعالى عن الشَّمْس وَالقمَر وَاللَّيْل وَالنَّهار: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٦٥٠٧)، ومسلم: كتاب الذكر، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٢٦٨٣)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَسۡبَحُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٣]، فالمَعنَى أنَّها تَسبَح بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ على حَسبِ مَا أَراد اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وهُمْ -أي: المَلائِكة- أَقْوى من الجِنِّ، وَالجِنُّ أَقْوى من البَشَر.

انظُرْ إِلى قَوْله تعالى عن سُلَيْمانَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾؛ يَعنِي: إِذَا مَدَدْت طَرْفَك ثُم رجَعْته فقَبْلَ أن يَرجِع إِليكَ آتِيكَ به ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ فِي الحَال رآه مُستَقِرًّا عِنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل:٣٨-٤٠].

قالَ العُلَماء: إِنه حمَلَتْه المَلائِكة حتَّى جاءَتْ به إِلى سُلَيْمانَ من اليَمَن -وسُلَيْمانُ بالشام- بلَحْظة، فدَلَّ هَذا على أن قُوَّة المَلائِكة أَشَدُّ بكَثير من قُوَّة الجِنِّ، وقُوَّة الجِنِّ أَشَدُّ من بَني آدَمَ؛ لأَنَّه لَا يَستَطيع أَحَدٌ من بَني آدَمَ أن يَأتِيَ بعَرْش مَلِكة سَبأ من اليَمَن إِلى الشام إِلَّا بمُدَّة طَويلة، فالحاصِلُ أن المَلائِكة تَسبَح بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ بما يَأمُرُها به.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أَيْضًا هِي المَلائِكة تَسبِق إِلى أَمْر الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولِهَذا كانَت المَلائِكة أَسبَقَ إِلى أَمْر الله وأَقوَمَ بأَمْر الله من بَني آدَمَ، قالَ اللهُ تعالى فِي وَصْف مَلائِكة النار: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾. [التحريم:٦]، وقالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، فهُمْ سبَّاقون إِلى أَمْر الله عَزَّوَجَلَّ بما يَأمُرُهم، لَا يَعصُونه مَا أَمَرَهُم، ويَفعَلون مَا يُؤمَرون؛ لِقُوَّتِهم وقُدْرتِهم على فِعْل أَوامِر الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ وَصْف للمَلائِكة تُدبِّر الأَمْر، وهُو واحِدُ الأُمور؛ يَعنِي أُمور الله عَزَّوَجَلَّ لهَا مَلائِكة تُدبِّرُها على حَسب أَمْره، فجَبرائِيلُ مُوكَّل بالوَحْي يَتَلقَّاه من الله ويَنزِل به على الرُّسُل، وإِسرافيلُ مُوكَّل بنَفْخ الصُّور الَّذِي يَكُون عِند يَوْم القِيامة يَنفُخ فِي الصُّور فيَفزَع النَّاس ويَموتون، ثُم يَنفُخ فيه أُخرى فيُبعَثون، ومِيكائيلُ مُوكَّل بالقَطْر وبالمَطَر وَالنَّبات، وملَكُ المَوْت مُوكَّل بالأَرْواح، ومالِكٌ مُوكَّل بالنار، ورِضوانٌ مُوكَّل بالجَنَّة، وعن اليَمين وعن الشِّمال قَعيدٌ مُوكَّل بالأَعْمال، ومَلائِكة مُوكَّلون بحِفْظ أَعْمال بَني آدَمَ، كُلٌّ يُدبِّر مَا أَمَرَه الله عَزَّوَجَلَّ به.

فهَذه الأَوْصافُ كُلُّها أَوْصافٌ للمَلائِكة على حَسب أَعْمالِهم، وأَقسَم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمَلائِكة؛ لأَنَّهُم من خَيْر المَخْلوقات، ولَا يُقسِم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بشيءٍ إلَّا ولَهُ شَأْن عَظيم؛ إِمَّا فِي ذاتِه، وإِمَّا لكَوْنه من آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُم قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، هذِه ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ مُتعلِّقة بمَحذوف، وَالتَّقديرُ: اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ وذَكِّرِ النَّاس بهذا اليَوْمِ العَظيم: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، وهُما النَّفْختان فِي الصُّور، النَّفْخة الأُولى تَرجُف النَّاس ويَفزَعون، ثُم يَموتون عن آخِرِهم إلَّا مَن شاءَ الله، وَالنَّفْخة الثانِية يُبعَثون من قُبورِهم، فيَقوم النَّاس من قُبورهم مرَّةً واحِدةً، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

إِذَا رجَفَتِ الراجِفةُ وتَبِعَتها الرافِدة انقَسَم النَّاسُ إِلى قِسمَيْن: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ وهذِه قُلوب الكُفَّار.

﴿وَاجِفَةٌ﴾؛ أي: خائِفة خَوْفًا شَديدًا.

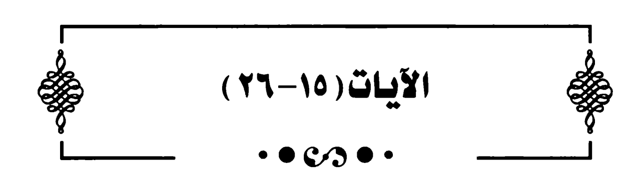
﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾؛ يَعني: ذَليلة لَا تَكاد تُحدِّق أو تَنظُر بقُوَّة، ولكِنَّه قَد غُضَّت أَبصارُهُم -والعِياذُ بالله- لذُلِّهِم، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥].

وأمَّا القِسْم الثانِي فقُلوبُهم على عَكْس قُلوب هَؤُلاءِ، ويَدُلُّ لِهذا التَّقسيمِ قولُه: ﴿وَاجِفَةٌ يَوْمَئِذٍ﴾ بصِيغة النَّكِرة، فيَكون المَعنى: وقُلوب على عَكْس ذلِك.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ زَجْرة من الله عَزَّوَجَلَّ، يُزجَرون ويُصاح بهم، فيَقومون من قُبورهم قِيام رَجُل واحِدٍ على ظَهْر الأَرْض بعدَ أن كانوا فِي بَطْنها، قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣]، كُلُّ الخَلْق فِي هذِه الكلِمةِ الواحِدة يَخرُجون من قُبورهم أَحياءً، ثُم يُحضَرون إِلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليُجازِيَهم؛ ولِهَذا قالَ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾، وهَذا كقَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]؛ يَعنِي: أنَّ الله إِذَا أَراد شيئًا إِنَّما يقول لَه: (كُنْ) مرَّةً واحِدةً فقَطْ فيَكُون، ولَا يَتأَخَّر هَذا عن قَوْلِ الله لَحْظة ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يُعجِزه شيءٌ.

فإِذَا كانَ الخَلْق كلُّهم يَقومون من قُبورهم لله عَزَّوَجَلَّ بكلِمة واحِدة، فهَذا أَدَلُّ دَليلٍ على أن الله تعالى على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، وأن اللهَ لَا يُعجِزه شيءٌ فِي السَّمَواتِ ولَا فِي الأرض، كَما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

• • ❁ • •



الآيات (١٥-٢٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات:١٥-٢٦].

• • ● • •

ثُم قالَ تعالى مُبيِّنًا مَا جَرى للأُمَم قبلَ مُحمَّد صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، وَالخِطاب فِي قَوْله: ﴿هَلْ أَتَـٰكَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يَتَأَتَّى خِطابُه ويَصِحُّ تَوْجيهُ الخِطاب إِليه، ويَكُون على المَعنَى الأَوَّل: (هَلْ أَتاكَ يا مُحمَّدُ)، وعلى المَعنَى الثانِي: (هَلْ أَتاكَ أَيُّها الإِنسانُ)، ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ وهُو ابنُ عِمرانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَفضَل أَنْبياءِ بَني إِسرائيلَ، وهُو أَحَدُ أُولِي العَزْم الخَمْسة الَّذِين هم: مُحمَّد ﷺ، وإِبراهيمُ، ومُوسى، وعِيسى، ونوحٌ عليهم الصَّلاة وَالسَّلام، وقد ذُكِر هَؤُلاءِ الخَمسةُ فِي القُرآن فِي مَوْضِعين؛ أَحَدُهما فِي الأَحْزاب فِي قَوْله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧]، وَالثاني فِي قَوْله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى:١٣].

وحَديثُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذُكِر فِي القُرآن أكثَرَ من غَيْره؛ لأن مُوسى هُو نَبيُّ اليَهود وهُم كَثيرون فِي المَدينة وحَولَهَا فِي عهد النَّبيِّ ﷺ، فكانَت قِصَص مُوسى أكثَرَ مَا قُصَّ علينا مِن نبَأ الأَنْبياء وأَشمَلِها وأَوْسعها، وفي قَوْله: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ تَشويقٌ للسامِعِ؛ ليَستَمِع إِلى مَا جَرَى فِي هذِه القِصَّةِ.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ناداه الله عَزَّوَجَلَّ نِداءً سمِعه بصَوْت الله عَزَّوَجَلَّ، قالَ تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]. وقَوْله: ﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ هُو الطُّور، وَالوادِي هُو مجرَى الماءِ، وسَمَّاه الله مُقدَّسًا لأنه كانَ فيه الوَحْيُ إِلى مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقَوْله: ﴿طُوًى﴾ اسمٌ للوادِي.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ فِرْعونُ كانَ ملِكَ مِصرَ، وكانَ يَقول لقَوْمه: إِنَّه رَبُّهم الأَعْلى، وإنه لَا إِلهَ غيرُه، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، فادَّعى مَا ليسَ لَه، وأَنكَرَ حَقَّ غَيْره وهُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وأَمَر اللهُ نَبيَّه مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَذهَب إِلى فِرعونَ، وهذِه هِي الرِّسالةُ، وبيَّن سببَ ذلِك وهُو طُغيان هَذا الرجُلِ -أَعني: فِرعونَ- وفي سُورة طه قالَ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه:٤٣].

ولَا مُنافاةَ بين الآيَتَيْن؛ وذلِك أن اللهَ تعالى أَرسَل مُوسى أوَّلًا، ثُم طلَب مُوسى ﷺ من رَبِّه أن يَشُدَّ أَزْره بأَخِيه هارونَ، فأَرسَل هارونَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَع مُوسى؛ فصار مُوسى وهارونُ كِلاهُما مُرسَلًا إِلى فِرعونَ.

وقَوْله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ أي: زادَ على حَدِّه؛ لأن الطُّغيان هُو الزِّيادة، ومِنه قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، ومِنه الطاغوتُ؛ لأن فيه

مُجاوَزَةَ الحَدِّ. ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ الاستِفْهام هُنا للتَّشويق، تَشويق فِرعونَ أن يَتزكَّى مِمَّا هُو عليه من الشَّرِّ وَالفَساد، وأَصْل الزَّكاة النُّموُّ وَالزِّيادة، وتُطلَق بمَعنى الإِسلام وَالتَّوْحيد، ومِنه قَوْلُه تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت:٦-٧]، ومِنه قَوْلُه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩-١٠].

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾؛ أي: أَدلُّك إِلى رَبِّك، أي: إِلى دِين الله عَزَّوَجَلَّ المُوصِّل إِلى الله. ﴿فَتَخْشَىٰ﴾؛ أي: فتَخاف الله عَزَّوَجَلَّ على عِلْم مِنك؛ لأن الخَشْية هِي الخَوْف المَقْرون بالعِلْم، فإِن لم يَكُن عِلْم فهُو خَوْف مُجرَّد، وهَذا هُو الفَرْق بين الخَشْية وَالخَوْف. الفَرْق بينَهما أن الخَشْية عن عِلْم قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، وأمَّا الخَوْف فهُوَ مُجرَّد ذُعْر يَحصُل للإِنْسان ولو بلا عِلْم؛ ولهذا قَد يَخاف الإِنسانُ من شَيْء يَتوهَّمه، لا حَقيقةَ له، قَد يَرى فِي الليلة الظَّلْماء شَبَحًا لَا حَقيقةَ لَه فيَخاف منه، فهَذا ذُعْر مَبنيٌّ على وَهم، لكِنِ الخَشْية تكون عن عِلْم.

فذهَبَ مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالَ لفِرعونَ مَا أَمَرَه اللهُ به: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، ولـمَّا كانَ البشَرُ لَا يُؤمِنون ولَا يَقبَلون دَعْوى شَخْص أَنَّه رَسولٌ إِلَّا بآيةٍ، كَما أنه لَا يُقبَل من أَحَد دَعْوى إِلَّا ببيِّنة؛ جعَلَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَعَ كلِّ رَسولٍ آيةً تَدُلُّ على صِدْقه، وهنا قالَ: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾؛ يَعنِي: أَرَى مُوسى فِرعونَ الآيَةَ الكُبْرى؛ أي: العُظْمى، فما هِي هَذِه الآيةُ؟ الآيةُ أن معَه عَصًا من خَشَب من فُروع الشجَر كما هُو مَعروف، فكانَ إِذَا وضَعَها فِي الأَرْض صارت حَيَّةً تَسعَى، ثُم يَحمِلها فتَعود عصًا، وهَذا من آياتِ الله أن شَيْئًا جَمادًا إِذَا وُضِع على الأرض صار

حَيَّة تَسعَى، وإِذَا حُمِل من الأَرْض عاد فِي الحَال فَوْرًا إِلى حالِه الأُولى عصًا من جُمْلة العِصِيِّ، وإِنَّما بَعْثُه عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الآيةِ، وبكَوْنه يُدخِل يَدَه فِي جَيْبه فتَخرُج بَيضاءَ من غَيْر سُوء؛ أي: من غَيْر عَيْب، أي: بَيضاءَ بَياضًا ليسَ بَياضَ البَرَصِ، ولكِنَّه بَياضٌ جعَلَه الله آيةً، إِنما بعَثَه الله بالعَصا وَاليَدِ؛ لأَنَّه فِي زمَن مُوسى كان السِّحْر مُنتَشِرًا شائِعًا، فأَرسَلَه الله عَزَّوَجَلَّ بشيءٍ يَغلِب السحَرة الَّذِين تَصدَّوْا لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قالَ أهل العِلْم: وفي عَهْد عِيسى صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم انتَشَرَ الطِّبُّ انتِشارًا عَظيمًا، فجاء عِيسى بأَمْر يُعجِز الأطِبَّاء، وهُو أنَّه كانَ لَا يَمسَح ذا عاهةٍ إِلَّا برَأَ، إِذَا جِيءَ إِليه بشَخْص فيه عاهة -أيَّ عاهة تكون- مَسَحه بيَدِه ثُم برَأَ بإِذْن الله، ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران:٤٩]، مَع أن البَرَص لَا دَواءَ لَه، لكِنْ هُو يُبرِئ الأَبْرص بإِذْن الله عَزَّوَجَلَّ، ويُبرِئ الأَكْمه الَّذِي خُلِق بلا عُيونٍ، وأَشَدُّ من هَذا وأَعظَمُ أَنَّه يُحيِي المَوْتى بإِذْن الله، يُؤتَى إِليه بالمَيت فيَتكلَّم معَه، ثُم تَعود إِليه الحَياة، وأشَدُّ من ذلِك وأَبلَغُ أَنَّه يُخرِج الموتى بإِذْن الله من قُبورهم، يَقِف على القَبْر ويُنادِي صاحِب القَبْر فيَخرُج من القَبْر حيًّا، وهَذا شيءٌ لَا يُمكِن لأيِّ طِبٍّ أن يَبلُغَه؛ ولهذا كانَتْ آيةُ عِيسى فِي ذلِكَ الوَقْتِ مُناسِبةً تَمامًا لِما كانَ عليه النَّاسُ.

قالَ أهلُ العِلْم: أمَّا رَسولُ الله مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم فقَدْ أَتَى إِلى العرَبِ وهُمْ يَتَفاخَرون فِي الفَصاحة، ويَرَوْن أن الفَصاحة أَعظَمُ مَنقَبة للإِنسان، فجاءَ مُحمَّد صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم بهذا القُرْآنِ العَظيمِ الَّذِي أَعجَزَ أُمَراء الفَصاحة، وعجَزوا عن أن يَأْتوا بمِثْله، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]،

يَعنِي: لو كانَ بعضُهم يُعاوِن بعضًا فإنَّهم لن يَأْتوا بمِثْله، حِينَئِذٍ نَقُول: إن مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرَى فِرعونَ الآيَةَ الكُبْرى، ولكِنْ لم يَنتَفِع بالآياتِ ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[يس:١١]، فالَّذِين ليسَ فِي قُلوبهم استِعْداد للهِداية لَا يَهتَدون ولو جاءَتْهُم كُلُّ آية -وَالعِياذُ بالله- ولِهَذا قالَ: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ كذَّب الخَبَر، وعَصَى الأَمْر، يَعنِي: قالَ لِمُوسى: إنَّك لسْتَ رَسولًا. بل قالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧]، وعَصَى الأَمْر، فلَمْ يَمتثِل أَمْر مُوسى ولم يَنقَدْ لشَرْعِه.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾؛ أَيْ: تولَّى مُدبِرًا يَسعَى حَثيثًا.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ حشَرَ النَّاس؛ أي: جَمَعَهم ونادَى فيهم بصَوْت مُرتَفِع؛ ليَكون ذلِكَ أَبلغَ فِي نَهْيِهم عمَّا يُريد مِنهم مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يَعنِي: لَا أَحَدَ فَوْقي؛ لأن ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ اسمُ تَفضيلٍ من العُلوِّ، فانظُرْ كيفَ استكبَرَ هَذا الرجُلُ وادَّعى لنَفْسه مَا ليسَ لَه فِي قَوْله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وكانَ يَفتَخِر بالأَنهار وَالمُلْك الواسِع، يَقول لقَوْمه فِي مَا قالَ لهُمْ: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢]، فمَا الَّذِي حصَلَ؟ أَغرَقَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالماء الَّذِي كانَ يَفتَخِر به، وأَوْرَث اللهُ مُلْكَ مِصرَ بَني إِسرائيلَ الَّذِين كانَ يَستَضْعِفهم.

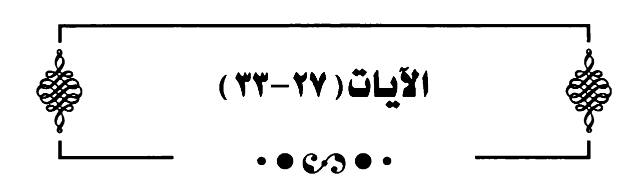
﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أَخَذَه اللهُ تعالى أَخْذَ عَزيزٍ مُقتَدِر، ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾، يَعنِي: أنَّه نَكَّل به فِي الآخِرة وفِي الأُولى، فكانَ عِبرةً فِي زمَنِه، وعِبرةً فيما

بعدَ زمَنِه إلى يوم القِيامة، كُلُّ مَن قرَأَ كِتاب الله ومَا صَنَع الله بفِرعونَ فإِنَّه يَتَّخِذ ذلِكَ عِبرةً يَعتَبِر به، وكَيْف أَهلَكَه اللهُ مَع هَذا المُلْكِ العَظيم وهَذا الجَبروتِ وهَذا الطُّغيانِ؟! فصارَ أَهونَ على اللهِ تعالى من كلِّ هَيِّن.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فيما جرَى مِن إِرْسال مُوسى إلى فِرعونَ ومُحاوَرَته إِيَّاه واستِهْتار فِرعونَ به واستِكْباره عن الانقِياد لَه؛ عِبرة، ﴿لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾؛ أي: يَخشَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فمَن كانَ عِنده خَشْية من الله وتَدبَّر مَا حصَلَ لُموسَى مَع فِرعونَ وَالنَّتيجةَ الَّتِي كانَت لهذا ولهذا فإِنَّه يَعتَبِر ويَأخُذ من ذلِكَ عِبرةً، فيَسلُكُ سَبيلَ المُرسَلين ويَتَجنَّب طُرُق الكافِرين.

وَالعِبَرَ فِي قِصَّة مُوسى كَثيرة، ولو أن أَحَدًا انتُدِب لجَمْع القِصَّة من الآيات فِي كُلِّ سُورة، ثُم يَستَنْتِج مَا حصَلَ فِي هذِه القِصَّةِ من العِبَر لكان جيِّدًا، وذلِكَ بأن يَأتِيَ بالقِصَّة كلِّها فِي كلِّ الآيات؛ لأن السُّوَر فِي بَعْضها شيءٌ ليسَ فِي البَعْض الآخَرِ، فإِذَا جمَعَها وقالَ مثَلًا: يُؤخَذ من هذِه القِصَّةِ العَظيمة العِبَرُ التالية. ثُم يَسرُدها، كيفَ أَرسَلَه الله عَزَّوَجَلَّ إلى فِرْعونَ؟ كيفَ قالَ لَهُما ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه:٤٤]، مَع أَنَّه مُستكْبر خَبيثٌ؟ وكيفَ كانَتِ النَّتيجةُ؟ وكيفَ كانَ مُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خرَجَ من مِصرَ خائِفًا على نَفْسه يَتَرقَّب كَما خرَجَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من مكَّةَ يَترَقَّب، وصارَتِ العاقِبة للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولُموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكِنِ العاقِبةُ للرَّسول ﷺ بفِعْله وأَصحابِه، عذَّبَ اللهُ أَعداءَهُم بأَيْديهم، وعاقِبةُ موسى بفِعْل الله عَزَّوَجَلَّ، فهِيَ عِبَر يَعتَبِر بها الإِنسانُ، يُصلِح بها نَفْسه وقَلْبه حتَّى يَتبيَّن الأَمْر.

• • ۞ • •



الآيات (٢٧-٣٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات:٢٧-٣٣].

•• ● ● ••

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ هَذا الاستِفْهامُ لتَقريرِ إِمْكان البَعْث؛ لأن الْمُشرِكين كذَّبوا النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالبَعْث وقالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، فيقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، والجَوابُ مَعلومٌ لكُلِّ أحدٍ أنَّه السَّماء، كَما قالَ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

﴿بَنَىٰهَا﴾ هذِه الجُمْلةُ لَا تَتَعلَّق بالَّتي قبلَها؛ ولِهَذا يَنبَغي للقارِئِ إِذَا قرَأَ أن يَقِف على قَوْلِه: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ثُم يَستَأنِف فيَقول: ﴿بَنَىٰهَا﴾، فالجُمْلة استِئْنافيَّة؛ لبَيانِ عَظَمة السَّماء، ﴿بَنَىٰهَا﴾؛ أي: بَناها الله عَزَّوَجَلَّ، وقد بيَّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فِي آيَة أُخرَى فِي سُورة الذارِيات أنَّه بَناها بقُوَّة فقالَ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]؛ أي: بقُوَّة. وقد يَظُنُّ ظانٌّ أن الأَيْد هنا جَمْع يَدٍ، وليسَ كذلِكَ؛ لأن (أَيْد) مَصدَر آد يَئيدُ؛ أي: قوِيَ.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ رفعَه يَعنِي: عن الأرض، ورفَعَه عَزَّوَجَلَّ بغَيْر عمَد، كَما

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: جعَلَها مُستَوية تامَّةً كامِلةً، كما قالَ تعالى في خَلْق الإنسانِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ [الانفطار:٦-٧]، فسَوَّاكَ أي: جعَلَكَ سَوِيًّا تامَّ الخِلْقة، فالسَّماء كذَلِك سَوَّاها اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أغطَشَه أي: أَظلَمَه، فاللَّيْل مُظلِم، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢].

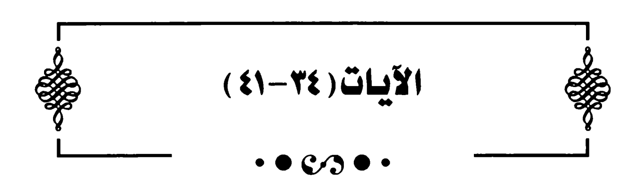
﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ بيَّنَه بالشَّمْس الَّتِي تخرُج كُلَّ يَوْم من مَطلِعها وتَغيب مِن مَغرِبها.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: بعدَ خَلْق السمواتِ والأَرْض ﴿دَحَىٰهَآ﴾، بيَّنَ سبحانه هَذا الدَّحْو بقَوْله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾، وكانَتِ الأَرْض مخلوقةً قَبْل السَّماء كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:٩-١٢]، فالأَرْض مخلوقة من قَبْلِ السَّماء، لكِن دَحْوُها وإِخراجُ الماء والمَرعَى مِنها كانَ بعد خَلْق السَّموات.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾؛ أي: جعَلَها راسِيةً فِي الأَرْض فلا تَنسِفها الرِّياح مَهما قوِيَت، وهي أيضًا تُمسِك الأَرْضَ؛ لئَلَّا تَضطَرِب بالخَلْق، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥].

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾؛ أي: جعَلَ الله تعالى ذلِك مَتاعًا لنا نَتَمتَّع به فيما نَأكُل ونَشرَب، ولأَنْعامِنا، أي: مَواشِينا من الإِبِل وَالبقَر وَالغنَم وغيرِها الَّتي تَدِرُّ علَيْنا، وتَنمو بها أَمْوالنا.

• ● ۞ ● •



الآيات (٣٤-٤١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٤-٤١].

•••

ولَمَّا ذكَّر الله عَزَّوَجَلَّ عِباده بهذه النِّعمِ الدالَّةِ على كَمال قُدْرته ورَحْمته ذكَّرهم بمَآلِهم الحتْميِّ الَّذي لا بُدَّ منه، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٤-٤١].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وذلِكَ قِيام الساعة، وسَمَّاها طامَّةً؛ لأنَّها داهِية عَظيمة تَطُمُّ كلَّ شَيءٍ سبقَها. ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ يَعنِي: أَكبَر من كلِّ طامَّةٍ.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ لِهَذا اليَوْمِ الَّذِي تكون فيه الطامَّة الكُبْرى، وهُو اليَوْم الَّذِي يَتَذكَّر فيه الإِنسان مَا سعَى؛ أي: ما عمِلَه في الدُّنْيا، يَتذكَّره مَكتوبًا بكِتاب يَقرؤُه هُو بنفْسه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤]، فإِذا قرَأه تذكَّر مَا سعَى؛ أي:

مَا عمِلَ، أمَّا اليَوْم فإِنَّنا قَد نَسِينا مَا عمِلْنا، عمِلْنا أعمالًا كَثيرةً؛ مِنها الصالِح، ومِنها اللَّغْوُ، ومِنها السيِّئُ، لكِن كُلُّ هَذا نَنْساه، وفي يَوْم القِيامة يُعرَض علينا هَذا فِي كِتاب، ويُقال: اقرَأْ كِتابَكَ أنتَ بنفْسِك ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، فحِينَئِذٍ يَتذَكَّر مَا سعَى ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ:٤٠].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أُظهِرَت، تَجيءُ تُقاد بسَبْعينَ أَلْفَ زِمامٍ، كُلُّ زِمام فيه سَبْعونَ أَلْفَ ملَكٍ يَجُرُّونها، إِذَا أُلقِيَ مِنها الظالِمون مَكانًا ضَيِّقًا مُقرَّنِين دعَوْا هُنالِكَ ثُبورًا، فتَنخَلِع القُلوب ويَشيب المَوْلود. ثُم قالَ:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ هَذانِ وَصْفان هُما وَصْفا أَهْل النار؛ الطُّغْيان وهُو مُجاوَزة الحَدِّ، وإِيثار الدُّنيا على الآخِرة بتَقْديمها على الآخِرة، وهُما مُتَلازِمان، فكُلُّ مَن طغَى فقَدْ آثَرَ الحَياة الدُّنْيا، وكَذلِك العَكْس، وَالطُّغيانُ: مُجاوَزةُ الحَدِّ، وحَدُّ الإِنسان مَذْكور فِي قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فمَن جاوَز حَدَّه ولم يَعبُد اللهَ فهَذا هُو الطاغِي؛ لأَنَّه تَجاوَز الحَدَّ، فأنتَ مَخلوق لَا لتَأكُل وتَتنَعَّم وتَتمتَّع كَما تَتمتَّع الأنعام، بَلْ أنتَ مَخلوق لعِبادة الله، فاعْبُدِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فإِن لم تَفعَل فقَدْ طَغَيْت، فهَذا هُو الطُّغْيان؛ أَلَّا يَقوم الإِنسانُ بعِبادة الله.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: قدَّمها على طاعةِ الله، مِثالُه رجُلٌ إِذَا أُذِّن للفَجْر آثَر النَّوْم على الصَّلاة، وإِذَا قيل لَه: اذْكُرِ الله. آثَرَ اللَّغْو على ذِكْر الله، وهكذا...

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾؛ أي: هِي مَأْواه، وَالمَأْوى هُو المَرجِع وَالمَقَرُّ، وبِئْس المَقَرُّ مَقَرُّ جهنَّمَ -أَعاذَنا اللهُ مِنها-.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ يَعنِي: خاف القِيامَ بين يدَيْه؛ لأن الإِنسانَ يَوْم القِيامة سَوْف يُقرِّره الله عَزَّوَجَلَّ بذُنوبه حين يَخلو به، ويَقول: عمِلْت كَذا، عمِلت كذا، عمِلْت كذا. كَما جاءَ فِي الصَّحيحِ، فإِذا أَقرَّ قالَ اللهُ لَه: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»[1]، هَذا الَّذِي خافَ هَذا المَقامَ.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: عن هَواها المُخالِف لأَمْر الله ورَسولِه، وَالنَّفْس أَمَّارة بالسُّوء لَا تَأمُر إِلَّا بالشَّرِّ، ولكِنْ هُناك نَفْس أُخْرى تُقابِلها، وهِي النَّفْس المُطمَئِنَّة؛ وللإِنسانِ ثَلاثُ نُفوس: مُطمَئِنَّة، وأَمَّارة، ولوَّامة، وكُلُّها فِي القُرآن، أمَّا المُطمَئِنَّة ففِي قَوْلِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر:٢٧-٣٠]، وأَمَّا الأَمَّارة بالسُّوء ففِي قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٥٣]، وأَمَّا اللَّوَّامة فِفي قَوْلِه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:١-٢].

والإِنْسانُ يُحِسُّ بنَفْسه بهذه الأَنْفسِ؛ يَرَى فِي نَفْسه أحيانًا نَزْعة خَيْر فيُحِبُّ الخَيْر ويَفعَله، وهذِه هِي النَّفْس المُطمَئِنَّة، ويَرَى أحيانًا فِي نَفْسه نَزْعة شَرٍّ فيَفعَله، وهذِه هي النَّفْسُ الأَمَّارة بالسُّوء، وتَأتِي بعد ذلِك النَّفْسُ اللَّوَّامة الَّتِي تَلومه على مَا فَعَل، فتَجِده يَندَم على مَا فَعَل من المَعْصية، أو لَوَّامة أُخْرى تَلومه على مَا فعَلَ من الخَيْر، فإِن من النَّاس مَن قَد يَلوم نَفْسه على فِعْل الخَيْر وعلى مُصاحَبة أَهْل الخَيْر،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ألا لعنة الله على الظالمين. رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ويَقول: كيفَ أُصاحِبُ هَؤُلاءِ الَّذِين صَدُّوني عن حَياتي.. عن شَهَواتي.. عن لَهْوِي. ومَا أَشبَه ذلِك، فاللَّوَّامة نَفْس تَلوم الأَمَّارة بالسُّوء مرَّةً، وتَلوم المُطمَئِنَّة مرَّةً أُخْرى، فهِيَ فِي الحَقيقة نَفْس بيْنَ نَفْسَيْن تَلوم النَّفْس الأَمَّارة بالسُّوء إِذَا فعَلَتِ السُّوء، وتُندِّم الإِنسانَ، وقد تَلوم النَّفْس المُطمَئِنَّة إِذَا فعَلَتِ الخَيْر.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الجَنَّة هِي دارُ النَّعيم الَّتِي أَعدَّها الله عَزَّوَجَلَّ لأَوْليائِه، فيها مَا لَا عَينٌ رأَتْ، ولَا أُذُنٌ سمِعَت، ولَا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، هكَذا جاءَ فِي القُرْآن.

وجاءَ فِي الحَديثِ القُدسيِّ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1]، هذِه الجَنَّةُ يُدرِكها الإِنسانُ قبلَ أن يَموت، إِذَا حضَرَ الأَجَل ودعَتِ المَلائِكةُ النَّفْس للخُروج قالَتْ: اخْرُجي أَيَّتُها النَّفْسُ المُطمئِنَّة إلى رِضوان الله. وتُبشَّر النَّفْس بالجَنَّة، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ يَقولونَه حين التَّوفِّي ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، فيُبشَّر بالجَنَّة، فتَخرُج رُوحه راضِيةً مُتيسِّرة سَهلةً؛ ولِهَذا لَمَّا حدَّثَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[2] فقالَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**» قالَتْ عائِشَةُ: يا رَسولَ الله، كُلُّنا يَكرَه المَوْت. فذكَرَ لَهَا أنه ليسَ الأَمْرُ ذلِكَ، ولكِنِ المُؤمِن إِذَا بُشِّرَ بما يُبشَّر به عِند المَوْت أَحَبَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب مَا جاء فِي صفة الجنة وأنَّها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٦٥٠٧)، ومسلم: كتاب الذكر، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم (٢٦٨٣)، من حديث عبادة ابن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِقاءَ الله أَحَبَّ المَوْت وسهُلَ عليه، وإن الكافِر إذَا بُشِّرَ -وَالعِياذُ بالله- بما يَسوؤُه عِند المَوْت كرِهَ لِقاءَ الله وهرَبَت نَفْسه وتَفرَّقت فِي جَسَده حتَّى يَنتزِعوها منه كما يُنتَزَع السَّفُّود من الشَّعْر المَبْلول، وَالشَّعْر المَبْلول إذَا جُرَّ عليه السَّفُّود -وهُو مَعروف عند الغَزَّالين- يَكاد يُمزِّقه مِن شِدَّة سَحْبه عليه، هكذا رُوح الكافِر وَالعِياذ بالله -تَتَفرَّق فِي جسَدِه؛ لأنها تُبشَّر بالعَذاب فتَخاف، فالجَنَّة فيها مَا لَا عَيْنٌ رأَتْ، ولَا أُذُنٌ سمِعَت، ولَا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، وَالإنسانُ قَد يُدرِكها قبلَ أن يَموت بما يُبشَّر به، وقد قالَ أَنَسُ بنُ النَّضْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لسَعْدِ بنِ مُعاذٍ: «يا سَعْدُ، وَالله إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ دونَ أُحُدٍ»[1]، وهَذا ليسَ مَعناه الوُجْدان الذَّوْقيّ، بل هو وُجْدانٌ حَقيقيٌّ، قالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِن بعضَ النَّاس قَد يُدرِك الآخِرة وهُو فِي الدُّنْيا»[2]، ثُم انطَلَق فقاتَلَ وقُتِل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالحاصِلُ أن الجَنَّة فيها مَا لَا عَيْنٌ رأَتْ، ولَا أُذُنٌ سمِعَت، ولَا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٢-٤٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يَعنِي: يَسألُك النَّاس، كما قالَ تعالى فِي آيَةٍ أُخْرى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣]، ﴿مُرْسَىٰهَا﴾؛ أي: مَتَى وُقوعها؟ وسُؤال النَّاس عن الساعة يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن: سُؤال

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم (٤٠٤٨)، مسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٣)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: حادي الأرواح (ص:١٦١)، ومدارج السالكين (٣/ ٢٣٤).

استِبْعاد وإنْكار، وهَذا كُفْر، كَمَا سأَلَ المُشرِكون النَّبيَّ ﷺ عن الساعة واستَعْجَلوها، وقد قالَ اللهُ عن هَؤُلاءِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى:١٨].

وسُؤال عن الساعة، يَسأَل: مَتَى الساعةُ؟ ليَستَعِدَّ لَهَا، وهَذا لَا بَأْسَ به، وقَدْ قالَ رجُلٌ للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يا رَسولَ الله، مَتَى الساعةُ؟ قالَ لَه: «**مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» قالَ: حُبُّ اللهِ وَرَسُولُهُ. قَالَ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»(١)، فالنَّاسُ يَسأَلون النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكِنْ تَختَلِف نِيَّاتُهم فِي هَذا السُّؤالِ، ومَهْما كانَت نِيَّاتُهم ومَهْما كانَت أَسئِلَتُهم فعِلْم الساعة عِند الله؛ ولِهَذا قالَ:

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ يَعنِي: أنَّه لَا يُمكِن أن تَذكُر لَهُم مَتَى الساعةُ، لأن عِلْمها عِند الله، كَمَا قالَ تعالى فِي آيَة أُخْرى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣].

وقَدْ سأَلَ جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ -وهُو أَعلَمُ المَلائِكة بوَحْي الله- النَّبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم -وهُو أَعلَمُ البَشَر بذلِكَ- قالَ: أَخبِرْني عن الساعةِ؟ فقالَ لَه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(٢)، يَعنِي: أنتَ إِذَا كانَت خافِيَةً عليكَ فأنا خافِيَةٌ عليَّ، وإِذَا كانَ أَعلَمُ المَلائِكة وأَعلَمُ البشَرِ بوَحْي الله لَا يَعلَمان متَى الساعةُ فَمَا بالُكَ بمَنْ دُونَهما؟! وبهذا نَعرِف أن مَا يُشيعه بعضُ النَّاس من أن الساعة تَكون فِي كذا وفي كذا، وفي زمَنٍ مُعيَّن كُلُّه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٦١٧١)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب المرء مَع من أحب، رقم (٢٦٣٩)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام..، رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كذِبٌ، نَعلَم أَنَّه كذِبٌ؛ لأَنَّه لَا يَعلَم مَتَى الساعةُ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ يَعنِي: ليسَ عِندَكَ عِلْم مِنها، ولكِنَّك مُنْذِر ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾؛ أي: يَخافُها وهُمُ المُؤمِنون، أمَّا مَن أَنكَرَها واستَبْعَدها وكذَّبَها فإِن الإِنذارَ لَا يَنفَع فيه ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]؛ ولهَذا نَقُول: لَا تَسأَلْ متَى تَموتُ؟ ولَا أين تَموتُ؟ لأن هَذا أَمْر لَا يَحتاج إِلى سُؤال، أَمْر مَفروغٌ مِنه ولا بُدَّ أن يَكُون، ومَهْما طالَتْ بكَ الدُّنْيا فكأَنَّما بقِيَت يَوْمًا واحِدًا، بَلْ كما قالَ تعالى هُنا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

ولكِنِ السُّؤالُ الَّذِي يَجِب أن يَرِد على النَّفْس ويَجِب أن يَكُون لدَيْك جَوابٌ علَيْه هُو: على أيِّ حال تَموت؟! ولست أُريد على أيِّ حالٍ تَموت هَلْ أنتَ غَنيٌّ أو فَقيرٌ، أو قوِيٌّ أو ضَعيف، أو ذو عِيالٍ أو عَقيم، بَلْ على أيِّ حالٍ تَموت فِي العمَل، فإِذَا كُنْت تَسأَل نَفْسك هَذا السُّؤالَ فلا بُدَّ أن تَستَعِدَّ؛ لأَنَّك لَا تَدْري مَتَى يَفجَؤُك المَوْت، كَمْ مِن إِنسان خرَج يَقود سَيَّارته ورُجِعَ به مَحمولًا على الأَكْتاف، وكَمْ من إِنسانٍ خرَجَ من أَهْله يَقول: هَيِّئُوا لي طَعام الغَداء أو العَشاء، ولكِنْ لم يَأْكُله، وكم مِن إِنسان لَبِس قَميصه وزَرَّ أَزِرَّته ولم يَفُكَّها إِلَّا الغاسِلُ يُغسِّله، وهَذا أَمْر مُشاهَد لكُلِّ واحِدٍ بحَوادِثَ بَغْتة.

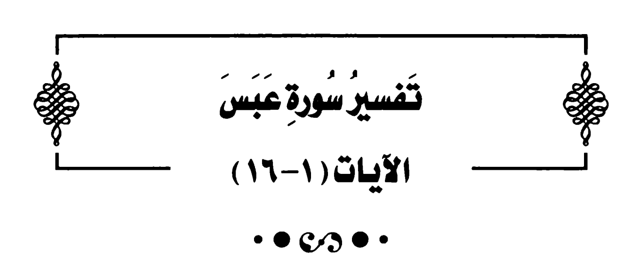
فانظُرِ الآنَ وفكِّرْ على أيِّ حالٍ تَموت؛ ولِهَذا يَنبَغي لَكَ أن تُكثِر من الاستِغْفار مَا استَطَعْت، فإِن الاستِغْفار فيه من كُلِّ هَمٍّ فرَجٌ، ومن كُلِّ ضِيق مَخرَجٌ، حتَّى إِن بعضَ العُلَماء يَقول: إِذَا استَفْتاك شَخْص فاستَغْفِرِ اللهَ قَبْل أن تُفتِيَه؛ لأن الذُّنوب تَحول بين الإِنسانِ وبينَ الهُدَى، واستُنْبِط ذلِكَ من قَوْل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ

إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٥-١٠٦]، وهَذا استِنْباط جَيِّد، ويُمكِن أيضًا أن يُستَنْبَط من قَوْله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧]، وَالاستِغْفار هُو الهُدَى؛ لذلِكَ أُوصِيكم بالمُراقَبة، وكَثْرة الاستِغْفار، ومُحاسَبة النَّفْس؛ حتَّى نكون على أُهْبة الاسْتِعْداد؛ خَشْيةَ أن يَفجَأَنا الموتُ -نَسأَل الله أن يُحسِن لنا الخاتِمة-.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾؛ أي: يَرَوْن القِيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ العَشِيَّة من الزَّوال إِلى غُروب الشَّمْس، وَالضُّحى من طُلوع الشَّمْس إِلى زَوالِها، يَعنِي: كأَنَّهم لم يَلبَثوا إِلَّا نِصْف يَوْم، وهَذا هُو الواقِعُ، لو سأَلْنا الآنَ: كَمْ مَضى من السَّنَوات علَيْنا؟ هل نَشعُر الآنَ بأنه سنَوات أو كأَنَّه يَوْم واحِد؟ لَا شَكَّ أَنَّه كأَنَّه يَوْم واحِد.

والإِنسانُ الآنَ بين ثَلاثة أشياءَ: يَوْم مَضَى فهَذا قَد فاتَهُ، ويَوْم مُستَقبَل لَا يَدرِي أَيُدرِكُه أو لَا يُدرِكه، ويَوْم حاضِر هُو المَسؤُول عنه، وأَمَّا مَا مضَى فقَدْ فات، ومَا فات فقَدْ مات، هلَكَ عَنْك الَّذِي مَضَى، وَالمُستَقبَل لَا تَدرِي أَتُدرِكه أم لَا، وَالحاضِرُ هُو الَّذِي أنت مَسؤُول عنه، نَسأَل اللهَ تعالى أن يُحسِن لنا العاقِبة، وأن يَجعَل عاقِبتَنا حَميدةً، وخاتِمتَنا سَعيدةً، إِنه جَوَادٌ كَريمٌ.

• • ❁ • •



تفسيرُ سُورةِ عَبَسَ

الآيات (١-١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس:١-١٦].

البَسْملة تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ الضَّميرُ يَعود إلى رَسولِ الله ﷺ، وَمعنَى ﴿عَبَسَ﴾؛ أي: كلَحَ فِي وَجْهه، يَعنِي: استَنْكَر الشيءَ بوَجْهه، ومَعنى ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أَعرَض.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الأَعْمى هُو عبدُ الله بن عَمرِو ابنِ أُمِّ مَكتومٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه جاءَ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم قبلَ الهِجْرة وهُو فِي مكَّةَ، وكانَ عِنده قَوْم من عُظَماء قُرَيْش يَطمَع النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي إِسلامِهم، -ومِن المَعلوم أن العُظَماء وَالأَشْراف إِذَا أَسلَموا كانَ ذلِك سببًا لإِسلام مَن تَحتَهم، وكانَ طمَعُ النَّبيِّ ﷺ فيهِم شديدًا- فجاءَ هَذا الأَعْمَى يَسأَل النَّبيَّ ﷺ، وذكَروا أَنَّه كانَ يَقول: علِّمْني مِمَّا علَّمَك الله. ويَستَقْرِئ النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فكانَ

النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعرِض عنه، وعَبَسَ فِي وَجْهه رَجاءً وطَمَعًا فِي إِسْلام هَؤلاءِ العُظَماءِ، وكأنه خافَ أن هَؤلاءِ العُظَماء يَزدَرُون النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إِذَا وَجَّهَ وَجْهَه لِهَذا الرجُلِ الأَعْمى وأَعرَض عن هَؤُلاءِ العُظَماءِ، كما قال قَوْمُ نُوحٍ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧]، فكانَ النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي عُبوسه وتَوَلِّيه يُلاحِظ هذَيْن الأَمْرَيْن:

الأَمْر الأَوَّل: الرَّجاءُ فِي إِسلام هَؤلاءِ العُظَماءِ.

والأَمْر الثاني: أَلَّا يَزدَروا النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي كَوْنه يَلتَفِت إِلى هَذا الرجُلِ الأَعْمى الَّذِي هُو مُحتَقَر عِندَهم، ولَا شَكَّ أن هَذا اجتِهادٌ من رَسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولَيْسَ احتِقارًا لابنِ أُمِّ مَكتومٍ؛ لأَنَّنا نَعلَم أن النَّبيَّ ﷺ لَا يُهِمُّه إِلَّا أن تَنتَشِر دَعْوة الحَقِّ بين عِباد الله، وأن النَّاس عِندَه سَواءٌ، بَلْ مَن كانَ أَشَدَّ إِقبالًا على الإِسلام فهُو أَحَبُّ إِليه، هذا ما نَعتَقِده في رَسولِ الله ﷺ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ أَيْ: أيُّ شيءٍ يَريبُك أن يَتزكَّى هَذا الرجُلُ ويَقوَى إِيمانُه. ﴿لَعَلَّهُۥ﴾؛ أي: لعَلَّ ابنَ أُمِّ مَكتوم ﴿يَزَّكَّىٰ﴾؛ أي: يَتطَهَّر من الذُّنوب وَالأَخْلاق الَّتِي لَا تَليق بأَمْثاله، فإِذَا كانَ هَذا هُو المَرجُوَّ مِنه فإِنه أَحَقُّ أن يُلتَفَت إِليه.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ يَعنِي: ومَا يُدريكَ لعَلَّه يَذكَّر -أي: يَتَّعِظ- فتَنفَعه المَوْعِظة فإِنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرجَى من هَؤلاءِ أن يَتَّعِظ ويَتذكَّر.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ يَعنِي: استَغْنى بمِاله لكَثْرته، واستَغْنى بجاهِه لقُوَّته، وهُمُ العُظَماء الَّذين عِند النَّبيِّ ﷺ، فهَذا ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾؛ أي: تَتعرَّض وتَطلُب إِقبالَه علَيْك وتُقبِل عليه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ يَعنِي: ليسَ علَيْك شيء إِذَا لم يَتزكَّ هَذا المُستَغْنِي؛ لأَنَّه ليسَ عليكَ إِلَّا البَلاغُ، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ابنَ أُمِّ مَكتومٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقربُ إِلى التَّزكِّي من هَؤُلاءِ العُظَماء، وأن هَؤُلاءِ إِذَا لم يتزكَّوْا مَع إِقبال الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليهم فإِنه ليسَ عليه مِنْهم شيءٌ. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ يَعنِي: ليسَ عليكَ شيء إِذَا لم يَتزَكَّ هذا المُستَغْنِي؛ لأن إِثمَه على نَفْسه، وليس عليكَ إِلَّا البَلاغُ.

ثُم قالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ هَذا مُقابِل قَوْله: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾؛ أي: يَستَعجِل من أَجْل انتِهاز الفُرْصة إِلى حُضور مجلِس النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾؛ أي: يَخاف الله عَزَّوَجَلَّ بقَلْبه؛ لعِلْمه بعَظَمته تعالى.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ أي: تَتَلهَّى عنه وتَتَغافَل؛ لأنه انشَغَل برُؤَساء القَوْم لعَلَّهم يَهتَدون.

﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: لَا تَفعَل مِثْل هَذا؛ ولهذا نَقُول: إِن ﴿كَلَّا﴾ هُنا حَرْف رَدْع وزَجْر، أي: لَا تَفعَل مِثْل مَا فعَلْت. ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: الآياتُ القُرْآنية التِي أَنزلها الله على رَسولِه صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ تُذكِّر الإِنْسان بما يَنفَعه وتَحثُّه عليه، وتَذكُر لَه مَا يَضُرُّه وتُحذِّره مِنه، ويَتَّعِظ بها القَلْب.

﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾؛ أي: فمَن شاء ذكَرَ مَا نزَل من المَوْعِظة فاتَّعَظ، ومَن شاء لم يَتَّعِظْ؛ لقَوْل الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

فاللهُ جعَلَ للإنسان الخِيار قَدْرًا بين أن يُؤمِن ويَكفُر، أمَّا شَرْعًا فإنه لَا يَرضَى لعِباده الكُفْر، وليسَ الإِنْسان مُخيَّرًا شَرْعًا بين الكُفْر وَالإِيمان، بَلْ هُو مَأْمور بالإِيمان ومَفروض علَيْه الإِيمان، لكِن من حَيثُ القَدَر هُو مُخيَّر، وليس كَما يَزعُم بعضُ النَّاس مُسيَّر مُجبَر على عمَلِه، بل هَذا قولٌ مُبتَدَع، ابتَدَعَه الجَبْريةُ من الجَهْمية وغَيْرهم.

فالإِنْسانُ فِي الحَقيقة مُخيَّر؛ ولذلِكَ إذا وقَعَ الأَمْر بغَيْر اختِياره -كالمُكرَه والنائِم والناسِي ونَحوِهم- لم يَترَتَّب عليه حُكْمه فيما بينَه وبينَ الله تعالى.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ أي: ذكَرَ مَا نزَلَ من الوَحْيِ فاتَّعَظَ به، ومَن شاءَ لم يَذكُره، وَالمُوفَّق مَن وفَّقَه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾؛ أي: أن هَذا الذِّكْر الَّذِي تَضمَّنَتْه هذِه الآياتُ ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ مُعظَّمة عِند الله، وَالصُّحُف جَمْع صَحائِفَ، وَالصحائِفُ جَمْع صَحيفة، وهِي مَا يُكتَب فيه القَوْل.

﴿بِأَيۡدِى سَفَرَةٍ﴾ السَّفَرة المَلائِكة، وسُمُّوا سفَرة لأَنَّهم كَتَبة، مَأْخوذة من السَّفَر أو من السِّفْرِ وهُو الكِتابُ، كقَوْله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة:٥]، وقيلَ: السَّفَرة الوُسَطاء بينَ الله وبينَ خَلْقه، من السَّفير، وهُو الواسِطة بين النَّاس، ومِنه حَديثُ أبي رافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم تَزوَّج مَيْمونةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبلَ أن يُحرِم، قالَ: «وَكُنْتُ السَّفيرَ بينَهُما»[1] أي: الواسِطة، والصَّحيحُ أَنَّهم سُمُّوا سفَرةً؛ لأَنَّهم سُفَراءُ بين الله وبين الخَلْق، فجِبريلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واسِطةٌ

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٢)، والترمذي: كتاب الحج، باب مَا جاء فِي كراهية تزويج المحرم، رقم (٨٤١).

بين الله وبين الخَلْق فِي النُّزول بالوَحْي، وَالكَتَبة الَّذِين يَكتُبون مَا يَعمَل الإِنسان أيضًا يَكتُبونه ويُبلِّغونه إِلى الله عَزَّوَجَلَّ، وَالله تعالى عالِمٌ به حين كِتابَتِه وقبلَ كِتابتِه.

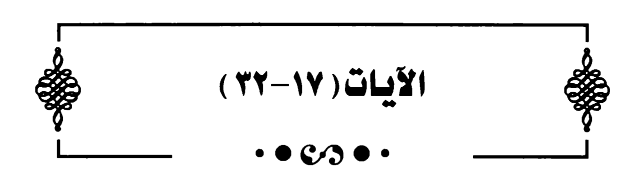
﴿كِرَامٍ﴾ أي: كِرام فِي أَخْلاقهم.. كِرام فِي خَلْقتهم؛ لأَنْهم على أَحْسَن خِلْقة، وعلى أَحسَن خُلُق، ﴿بَرَرَةٍ﴾ جَمْع بَرٍّ، وهو كَثيرُ الفَضْل والإِحْسان؛ ولهذا وَصَفَ اللهُ المَلائِكة بأنهم كِرامٌ كاتِبون يَعلَمون مَا تَفعَلون، وأَنَّهم علَيْهم الصلاة وَالسلام لَا يَستكْبِرون عن عِبادة الله ولَا يَستَحْسِرون، يُسبِّحون اللَّيْل وَالنَّهار لَا يَفتُرون.

وهذه الآياتُ فيها تَأْديب من الله عَزَّوَجَلَّ للخَلْق أَلَّا يَكُونَ هَمُّهُم هَمًّا شَخْصيًّا، بَلْ يَكُون هَمُّهُم هَمًّا مَعنَويًّا، وأَلَّا يُفضِّلوا فِي الدَّعْوة إِلى الله شَريفًا لشرَفِه، ولَا عَظيمًا لعظَمتِه، ولَا قَريبًا لقُرْبه، بَلْ يَكُون النَّاسُ عِندَهم سَواءً فِي الدَّعْوة إِلى الله الفَقيرُ وَالغنِيُّ، الكَبيرُ وَالصَّغيرُ، القَريبُ وَالبَعيدُ، وفيها أيضًا تَلطُّف الله عَزَّوَجَلَّ بمُخاطَبة النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقالَ فِي أَوَّلِها: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ثلاثُ جُمَلٍ لم يُخاطِبِ الله فيها النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأَنَّها عِتاب، فلو وُجِّهَت إِلى الرَّسول بالخِطاب لكان شَديدًا، لكِن جاءَتْ بالغَيْبة ﴿عَبَسَ﴾، وإِلَّا كان مُقتَضَى الحال أن يَقول: عَبَسْت وتَوَلَّيت أن جاءَكَ الأَعمى، ولكِنه قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فجعَل الحُكْم للغائِب؛ كَراهِيَة أن يُخاطِب النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم بهذه الكَلِماتِ الغَليظة الشَّديدة؛ ولأَجْل أَلَّا يَقَع بمِثْل ذلِكَ مَن يَقَع من هذِه الأُمَّةِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصَفَ كِتابه العَزيزَ بأنه بِلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ، وهَذا من بَيانِه، وفِي الآياتِ أيضًا دَليلٌ على جَواز لَقَب الإِنسان بوَصْفه مِثْل الأَعْمى وَالأَعرَج وَالأَعمَش، وقد كانَ العُلَماء يَفعَلون هذا، الأَعرَج عن أبي هُرَيْرةَ، والأَعمَش عن ابنِ مَسعود... وهكَذا، قالَ أَهْل العِلْم: وَاللَّقَب بالعَيْب إِذَا كانَ المَقْصودُ به تَعْيين

الشَّخْص فلَا بأسَ به، وأمَّا إِذَا كانَ المَقْصود به تَعيِير الشَّخْص فإنه حَرامٌ؛ لأن الأوَّل -إِذَا كانَ المَقْصود به تَبْيِين الشَّخْص- تَدْعو الحاجة إِليه، وَالثاني -إِذَا كانَ المَقْصود به التَّعْيِير- فإِنه لَا يُقصَد به التَّبْيين، وإِنَّما يُقصَد به الشَّماتة، وقد جاءَ فِي الأَثَر: «لَا تُظهِرِ الشَّماتَةَ فِي أَخيكَ فيَرحَمه الله ويَبتلِيكَ»[١].

•●❁●•

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٥٠٦)، من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.



الآيات (١٧-٣٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس:١٧-٣٢].

•••

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾ ﴿قُتِلَ﴾ قال بَعْضُ العُلَماء: إن مَعْناها: لُعِن، وَالَّذِي يَظْهَر أن مَعناها: أُهلِك؛ لأن القَتْل يَكُون به الهَلاك.

وهُو أُسلوب تَستَعمِله العرَبُ فِي تَقْبيح مَا كانَ عليه صاحِبه، فيَقولون مثَلًا: قُتِل فُلانٌ مَا أَسوَأَ خُلُقَه! قُتِل فُلانٌ ما أَخبَثَهُ! ومَا أَشبَه ذلِك.

وقَوْلُه تعالى: ﴿الْإِنسَانُ﴾ قالَ بعضُ العُلَماء: المُرادُ بالإِنسان هُنا الكافِر خاصَّةً، وليسَ كُلَّ إِنسان؛ لقَوْلِه فيما بَعدُ: ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾.

ويُحتَمَل أن يَكُون المُراد بالإِنسان الجِنْس؛ لأن أكثَرَ بَني آدَمَ كُفَّار، كما ثبَتَ فِي الحَديث الصَّحيح: أن الله يَقول يَومَ القِيامة: «**يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ لَهُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ:**

مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ»[1]، فيَكُون المُرادُ بالإِنسان هُنا الجِنْس، ويَخْرُج المُؤمِن من ذلِكَ بما دلَّتْ عليه النُّصوص الأُخْرى.

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ قالَ بعضُ العُلَماء: إن ﴿مَآ﴾ هُنا استِفْهامِيَّة؛ أي: أيُّ شيءٍ أَكفَرَه؟ مَا الَّذِي حمَلَه على الكُفر؟ وقالَ بعضُ العُلَماء: إن هَذا من باب التَّعجُّب. يَعنِي: مَا أَعظَمَ كُفْرَهُ! وإنما كانَ كُفْر الإنْسان عَظيمًا؛ لأن الله أَعْطاه عَقْلًا، وأَرسَل إِليه الرُّسُل، وأَنزَل إليه الكُتُب، وأَمَدَّه بكُلِّ مَا يَحتاج إِلى التَّصْديق، ومَع ذلِك كَفَرَ فيَكُون كُفْره عَظيمًا.

وَالفَرْق بين القَوْلين أنَّه على القَوْل الأوَّلِ تكون ﴿مَآ﴾ استِفْهاميَّة أي: مَا الَّذِي أَكفَرَه؟ وعلى القَوْل الثاني تَكون تَعجُّبيَّةً، يَعنِي: عجَبًا لَه كيفَ كفَرَ مَع أن كُلَّ شيءٍ مُتوفِّر لدَيْه فِي بَيان الحَقِّ وَالهُدَى والكُفْر والإيمان!! وَالكُفْر هُنا يَشمَل كلَّ أَنْواع الكُفْر، ومنه إِنْكار البَعْث؛ فإِن كَثيرًا من الكُفَّار كذَّبوا بالبَعْث، وقالوا: لَا يُمكِن أن يُبعَث النَّاسُ بعدَ أن كانَت عِظامُهم رَميمًا كما قالَ تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨].

ولِهَذا قالَ: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ استِفْهامُ تَقريرٍ لِما يَأتِي بَعدَه فِي قَوْله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ يَعنِي: أنت أَيُّها الإِنسانُ كيفَ تَكفُر بالبَعْث؟ من أيِّ شيءٍ خُلِقْت؟ أَلَمْ تُخلَقْ من العدَم لم تَكُن شيئًا مَذكورًا من قَبْلُ، فوُجِدْتَ وصِرْت إِنسانًا؟! فكَيْف تَكفُر بالبعث؟! ولهذا قالَ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب وترى الناس سكارى، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾، وَالنُّطْفة هِي فِي الأَصْل الماءُ القَليلُ، وَالْمُرادُ به هُنا ماءُ الرَّجُل الدافِقِ الَّذِي يَخرُج من بين الصُّلْب وَالتَّرائِب، يُلقِيه فِي رحِم المَرْأة فتَحمِل.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾؛ أي: جعلَه مُقدَّرًا أَطْوارًا: نُطْفة، ثُم علَقة، ثُم مُضْغة، كما فِي الحَديثِ الصَّحيحِ عنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: حدَّثَنا رَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهُو الصادِقُ المَصدوقُ- فقالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**»[1]، فالإنسانُ مُقدَّر فِي بَطْن أُمِّه، مَن الَّذِي يُقدِّره هَذا التَّقديرَ؟ مَن الَّذِي يُوصِّل إِليه مَا يَنمُو به من الدَّمِ الَّذِي يَتَّصِل به بواسِطة السُّرَّة من دَمِ أُمِّه إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ؟!

ولهذا قالَ: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ السَّبيلُ هُنا بمَعنَى الطَّريق، يَعنِي: يَسَّر لَه الطَّريق؛ ليَخرُج من بَطْن أُمِّه إِلى عالَمِ المُشاهَدة، ويَسَّرَ لَه أيضًا بعد ذلِكَ مَا ذكَره تعالى فِي قَوْله: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، يَسَّرَ لَه ثَدْيَيْ أُمِّه يَتَغذَّى بهما، ويَسَّر لَه بعد ذلِك مَا فَتَح لَه من خَزائِن الرِّزْق، ويَسَّر لَه فَوْق هَذا كُلِّه مَا هُو أَهَمُّ وهُو طَريق الهُدَى وَالفَلاح، وذلِكَ بما أَرسَل إِليه من الرِّسالات، وأَنزَل إِليه من الكُتُب.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي فِي بطن أمه، رقم (٢٦٤٣).

ثُم بعدَ هَذا ﴿أَمَانَهُۥ﴾ المَوْت مُفارَقة الرُّوح للبَدَن. ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾؛ أي: جعلَه فِي قَبْر؛ أي: مَدْفونًا سَتْرًا عليه وإِكْرامًا واحتِرامًا؛ لأن البَشَر لو كانوا إِذَا ماتوا كسائِر الميتات جُثَثًا تُرمَى فِي الزِّبال لكانَ فِي ذلِك إِهانةٌ عَظيمةٌ للمَيت ولأَهْل المَيت، ولكِنْ من نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن شرَعَ لعِباده هَذا الدَّفْنَ؛ ولِهَذا قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ قالَ: أَكرَمَه بدَفْنه.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾؛ أي: إِذَا شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿أَنشَرَهُۥ﴾؛ أَيْ: بَعَثَه يَوْم النُّشور؛ ليُجازِيَه على عمَلِه.

وقَوْله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾؛ يَعنِي: أَنَّه لَا يُعجِزه عَزَّوَجَلَّ أن يُنشِره، لكِن لم يَأْتِ أَمْر الله بعدُ؛ ولِهَذا قالَ: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، ﴿لَمَّا﴾ هُنا بمَعنَى (لَمْ)، لكِنَّها تُفارِقُها فِي بعض الأَشْياء، وَالمَعنَى: أن الله تعالى لم يَقْضِ مَا أَمَره، أي: مَا أَمَرَ به كَوْنًا وقدَرًا، أي: أن الأَمْر لم يَتِمَّ لنَشْر أو لإِنْشارِ هَذا الميتِ، بَلْ له مَوعِد مُنتَظَر، وفِي هَذا رَدٌّ على المُكذِّبين بالبَعْث الَّذِين يَقولون: لو كانَ البَعْث حَقًّا لوَجَدْنا آباءَنا الآنَ، وهَذا القولُ مِنهم تَحَدٍّ مَكذوب؛ لأن الرُّسُل لم تَقُلْ لَهُم: إِنَّكم تُبعَثون الآنَ، ولكِنَّهم قالوا لهم: إِنَّكم تُبعَثون جَميعًا بعدَ أن تَموتوا جَميعًا.

ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ مُذكِّرًا للإِنسان بِما أَنعَمَ الله عليه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ أي: فلْيَنظُر إِلى طَعامه من أين جاءَ؟ ومَن جاءَ به؟ وهل أَحَدٌ خلقَه سِوى الله عَزَّوَجَلَّ؟ ويَنبَغي للإِنسان أن يَتذَكَّر عِند هذِه الآيةِ قولَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٧]، مَن الَّذِي زرَع هَذا الزَّرْعَ حتَّى استوَى، ويَسَّر

الحُصول عليه حتَّى كانَ طَعامًا لنا؟ هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولِهَذا قالَ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾؛ أي: بَعْد أن نُخرِجه نُحطِّمه؛ حتَّى لَا تَنتَفِعوا به.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ يَعنِي: من السَّحاب ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ بعدَ نُزول المَطَر علَيْها تَتَشقَّق بالنَّبات.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾؛ أي: فِي الأَرْض ﴿حَبًّا﴾ كالبُرِّ وَالرُّزِّ وَالذُّرة وَالشَّعير وغيرِ ذلِك من الحُبوب الكَثيرة ﴿وَعِنَبًا﴾ مَعروف ﴿وَقَضْبًا﴾، قِيل: إنه القَتُّ المَعْروف الَّذي تأكُله الدَّوابُّ ﴿وَزَيْتُونًا﴾ مَعروف ﴿وَنَخْلًا﴾ مَعروف ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ حَدائِقُ جَمْع حَديقة، وَالغُلْب كَثير الأَشْجار ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ يَعنِي: مَا يَتَفكَّه به الإِنْسان من أنواع الفَواكِه ﴿وَأَبًّا﴾ الأبُّ: نَباتٌ مَعروفٌ عِند العرَب تَرعْاه الإِبِل.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ يَعنِي: أننا فعَلْنا ذلِكَ مُتْعةً لكُم، يَقوم بها أَوْدُكم، وتَتَمتَّعون أيضًا بالتَّفكُّه بهذه النِّعَم.

ثُم لَمَّا ذكَّر اللهُ عَزَّوَجَلَّ الإِنسانَ بحاله مُنذ خُلِق من نُطْفة حتَّى بَقِيَ فِي الدُّنيا وعاشَ ثُم ماتَ، ذكَر حالَ الآخِرة فِي قَوْله:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس:٣٣-٤٢].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ يَعنِي: الصَّيْحة العَظيمة الَّتِي تَصُخُّ الآذان، وهَذا هُو النَّفْخ فِي الصُّور. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ من أَخيه شَقيقه أو لأبيه أو لأُمِّه ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ الأُمّ وَالأَبِ المُباشِر، وَالأَجْداد أيضًا وَالجَدَّات، يَفِرُّ من هَؤلاءِ كُلِّهم، ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زَوْجته

﴿وَبَنِيهِ﴾، وهُمْ أَقرَبُ النَّاس إِليه وأَحَبُّ النَّاس إِليه، ويَفِرُّ من هَؤلاءِ كلِّهم.

قالَ أَهْل العِلْم: يَفِرُّ مِنهم لِئَلَّا يُطالِبوه بما فرَّط به فِي حَقِّهم من أدَبٍ وغَيْره؛ لأن كُلَّ واحِدٍ فِي ذلِك اليَوْمِ لَا يُحِبُّ أَبدًا أن يَكُون له أَحَدٌ يُطالِبه بشيءٍ.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ كُلُّ إِنسانٍ مُشتَغِل بنَفْسه، لَا يَنظُر إِلى غَيْره؛ ولِهَذا لَمَّا قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ يَوْمَ القِيامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» قالَتْ عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الرِّجالُ وَالنِّساءُ يَنظُر بعضُهُم إِلى بَعْضٍ؟» قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**الأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**»(١).

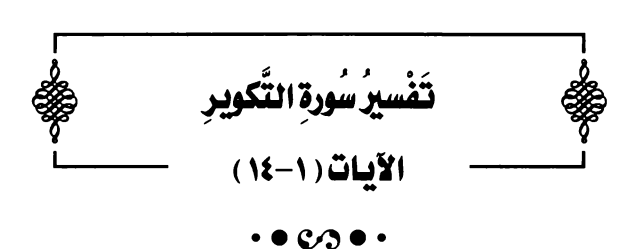
ثُم قسَّم الله النَّاسَ فِي ذلِك اليَوْم إِلى قِسْمَيْن؛ فقالَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يَعنِي: يَوْم القِيامة ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مُسفِرة من الإِسفار وهُو الوُضوح؛ لأَنَّها وُجوهُ المُؤمِنين تُسفِر عَمَّا فِي قُلوبهم من السُّرور وَالِانْشِراح. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ يَعنِي: مُتَبسِّمة، وهَذا من كَمال سُرورهم ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ أي: قَد بُشِّرَت بالخَيْر؛ لأن المَلائِكة تَتَلقَّاهم بالبُشْرى يَقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل:٣٢].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يَعنِي: يَوْم القِيامة ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾؛ أي: شيءٌ كالغُبار؛ لأَنَّها ذَميمة قَبيحة ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾؛ أي: ظُلْمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ الَّذِين جَمَعوا بين الكُفْر وَالفُجور، نَسأَل اللهَ العافِيَةَ، ونَسأَل اللهَ تعالى أن يَجعَلَنا مِمَّن وُجوهُهم مُسفِرة ضاحِكة مُستَبْشِرة، إِنه جَوادٌ كَريمٌ.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



تفسير سورة التكوير

الآيات (١-١٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١-١٤].

البَسْمَلة تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هَذا يَكُون يَوْم القِيامة، وَالتَّكوير: جَمْع الشيءِ بعضِه إِلى بَعْض ولَفُّه كَما تُكوَّر العِمامة على الرَّأْس، وَالشَّمْس كُتْلة عَظيمة كَبيرة واسِعة، فِي يَوْم القِيامة يُكوِّرها الله عَزَّوَجَلَّ، فيَلُفُّها جَميعًا، ويَطوِي بعضَها على بَعْض، فيَذهَب نُورُها، ويُلقيها عَزَّوَجَلَّ فِي النار إِغاظةً للَّذين يَعبُدونها من دونِ الله، قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: تُحصَبون فِي جهنَّم ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]، ويُستَثْنى من ذلِكَ مَن عُبِد من دون الله من أَوْلياء الله فإِنه لَا يُلقَى فِي النار كَما قالَ الله تعالى بعد هذِه الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ

لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ يَعنِي: تَساقطَتْ كما تُفسِّره الآيةُ الثانِيةُ: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار:٢]، فالنُّجوم يوْم القِيامة تَتَناثَر وتَزول عن أَماكِنها.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: أن هذِه الجِبالَ العَظيمة الصُّلْبة العالِية الرَّفيعة تكون هَباءً يَوْم القِيامة وتُسيَّرُ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ:٢٠].

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العِشارُ جَمْع عُشَراءَ، وهِي الناقةُ الحامِلُ الَّتِي تَمَّ حَمْلها عشَرةُ أَشهُر، وهِي من أَنفَس الأَمْوال عِند العَرَب، وتَجِد صاحِبَها يَرقُبها ويُلاحِظها، ويَعتَني بها، ويَأوِي إِليها، ويَحُفُّ بها فِي الدُّنْيا، لكِن فِي الآخِرة تُعطَّل ولا يُلتَفَت إِليها؛ لأن الإِنسان فِي شَأْن عَظيم مُزعِج يُنسِيه كلَّ شيءٍ، كما قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الوُحوشُ جَمْع وَحْش، وَالْمُرادُ بها جَميعُ الدَّوابِّ؛ لقَوْل اللهِ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، فتُحشَر الدَّوابُّ يَوْم القِيامة ويُشاهِدها النَّاسُ، ويُقتَصُّ لبَعْضها من بَعْض، حتَّى إِنه يُقتَصُّ للبَهيمة الجَلْحاءِ الَّتِي ليسَ لهَا قَرْن من البَهيمة القَرْناءِ، فإِذَا اقتُصَّ من بَعْض هذِه الوُحوشِ لبَعْض أَمَرَها اللهُ تعالى فكانَت تُرابًا، وإِنما يَفعَل ذلِك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لإِظْهار عَدْله بين خَلْقه.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ البِحارُ جَمْع بَحْر، وجُمِعَت لعَظَمَتها وكَثْرتها، فإنها تُمثِّل ثَلاثةَ أَرْباع الأرض تَقريبًا أو أَكثَرَ. هذِه البِحارُ العَظيمةُ إِذَا كانَ يَوْمُ القِيامة فإنها تُسجَّر، أي: تُوقَد نارًا، تَشتَعِل نارًا عَظيمة، وحِينَئِذٍ تَيْبَس الأرضُ ولَا يَبقَى فيها ماءٌ؛ لأن بِحارَها المِياه العَظيمة تُسجَّر حتَّى تكون نارًا.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ النُّفوسُ جَمْع نَفْس، وَالمُرادُ بها نُفوسُ الناسِ كُلِّها، فتُزوَّج النُّفوس، يَعنِي: يُضَمُّ كُلُّ صِنْف إِلى صِنْفه؛ لأن الزَّوْج يُراد به الصِّنْف كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة:٧]، أي: أَصْنافًا ثَلاثة، وقالَ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨]، أي: أَصْناف، وقالَ تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: أَصْنافَهم وأَشْكالَهُم، فيَوْم القِيامة يُضَمُّ كلُّ شَكْل إِلى مِثْله؛ أهلُ الخَيْر إِلى أَهْل الخَيْر، وأَهْل الشَّرِّ إِلى أَهْل الشَّرِّ، وهذِه الأُمَّةُ يُضَمُّ بَعضُها إِلى بَعْض ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وَحْدَها ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٨].

إِذَنْ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ يَعنِي: شُكِّلَت وضُمَّ بَعضُها إِلى بَعْض، كُلُّ صِنْف إِلى صِنْفه، كُلُّ أُمَّة إِلى أُمَّتِها.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ المَوْءودةُ هِي الأُنْثى تُدفَن حَيَّة، وذلِك أنَّه فِي الجاهِلية لجَهْلهم وسُوء ظَنِّهم بالله، وعَدَم تَحمُّلهم يُعيِّر بَعضُهم بعضًا إِذَا أَتَته الأُنثى، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨]، مُمتَلِئ هَمًّا وغَمًّا ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ يَعنِي: يَختَفِي مِنهم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل:٥٩]، يَعنِي: إِذَا قيل لأَحَدِهم: نُبشِّرُك أن الله جاءَ لَك بأُنْثى ببِنْت. اغتَمَّ واهتَمَّ، وامتَلأَ من الغَمِّ وَالهَمِّ، وصار يُفكِّر هَلْ يُبقِي

هذِه الأُنْثى على هُون وذُلٍّ، أَوْ يَدُسُّها فِي التُّراب ويَستَرِيح مِنها؟! فكانَ بعضُهم هكَذا، وبعضُهم هكَذا. فمِنْهم مَن يَدفِن البِنْت وهِي حَيَّة، إمَّا قَبْل أن تُميِّز أو بعد أن تُميِّز، حتَّى إِن بَعضَهم كانَ يَحفُر الحُفْرة لبِنْته فإِذَا أَصاب لِحْيَتَه شيءٌ من التُّراب نَفضَتْه عن لِحْيَته وهُو يَحفُر لهَا ليَدفِنَها ولَا يَكُون فِي قَلْبه لهَا رَحْمة، وهَذا يَدُلُّك على أن الجاهِلِيَّة أَمْرُها سِفالٌ، فإِن الوُحوش تَحْنو على أَوْلادها وهِي وُحوشٌ، وهَؤُلاءِ لَا يَحْنون على أَوْلادِهم.

يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ تُسأَل يَوْم القِيامة ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ هل أَذنَبَتْ؟ فإِذَا قالَ قائِلٌ: كيفَ تُسأَل وهِي المَظْلومةُ... هِي المَدْفونة، ثُم هِي قَد تُدفَن وهِي لَا تُميِّز، ولم يَجْرِ علَيْها قلَمُ التَّكليف، فكَيْف تُسأَل؟ قيل: إِنها تُسأَل تَوْبيخًا لِلَّذي وأَدَها، لأَنَّها تُسأَل أَمامَه فيُقال: بأيِّ ذَنْب قُتِلْتِ أو قُتِلَتْ؟ نَظير ذلِك لو أن شَخْصًا اعتَدَى على آخَرَ فِي الدُّنيا فأَتَوْا إِلى السُّلْطان -إِلى الأَمير- فقالَ للمَظلوم: بأيِّ ذَنْب ضرَبَك هَذا الرجُلُ؟ وهُو يَعرِف أَنَّه مُعتَدًى عليه، ليسَ لَه ذَنْب، لكِن من أَجْل التَّوْبيخ للظالِم، فالمَوْءُودة تُسأَل بأيِّ ذَنْب قُتِلَت تَوْبيخًا لظالِمِها وقاتِلِها ودافِنِها، نَسأَل اللهَ العافِيَةَ.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ الصُّحُف جَمْع صَحيفة، وهِي مَا يُكتَب فيها الأَعْمال. واعلَمْ أيُّها الإِنسانُ أن كُلَّ عمَل تَعمَله من قولٍ أو فِعْل فإِنه يُكتَب ويُسجَّل بصَحائِفَ على يَدِ أُمَناءَ كِرامٍ كاتِبينَ يَعلَمون مَا تَفعَل، يُسجَّل كُلُّ شيءٍ تَعمَله حتَّى تُوافَى به يَوْم القِيامة فإِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول فِي كِتابه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ يَعنِي: عمَله فِي عُنُقه ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ مَفْتوحًا ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

كَلامُنا الآنَ ونحن نَتكلَّم يُكتَب، كَلامُ بعضِكم مَع بعضٍ يُكتَب، كُلُّ كَلام يُكتَب ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]؛ ولِهَذا قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(١)، وقالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(٢)؛ لأن كُلَّ شيءٍ سيُكتَب عليه، ومَن كثُر كلمُه كثُر سَقطه، يَعنِي: الَّذِي يُكثِر الكَلام يَكثُر منه السَّقط وَالزَّلات، فاحفَظْ لِسانَك؛ فإِن الصُّحُف سَوْف يُكتَب فيها كُلُّ مَا تَقول، وسَوْف تُنشَر لَك يَوْم القِيامة.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ السَّماءُ الآنَ سَقْف محفوظٌ قَوِيٌّ شَديد، قالَ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]، أي: بقُوَّة، وقالَ تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]، أي: قوِيَّة.

وفِي يَوْم القِيامة تُكشَط يَعنِي: تُزال عن مَكانها، كَما يُكشَط الجِلْد عِند سَلْخ البَعير عن اللَّحْم، يَكشُطها الله عَزَّوَجَلَّ، ثُم يَطوِيها جَلَّوَعَلَا بيَمينِه، كَما قالَ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، يَعنِي: كَما يَطوِي السِّجِلُّ الكُتُبَ، يَعنِي: الكاتِب إِذا فرَغ من كِتابتِه طَوَى الورَقة حِفظًا لها عن التَّمزُّق وعن المَحْو، فالسَّماء تُكشَط يَوْم القِيامة ويَبقَى الأَمْر فَضاءً إِلَّا أن الله تعالى يَقول: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧]، يَكُون بدَل السَّماء الَّتِي فَوْقَنا الآنَ العَرْش؛ لأن السَّماء تُطوَى

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣١٧)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان فِي الفتنة، رقم (٣٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلَا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن خير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بيَمين الله عَزَّوَجَلَّ يَطويها بيَمينِه ويَهُزُّها، وكذلِكَ يَقبِض الأَرْض ويَقول: «**أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟!**».

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ الجَحيمُ هِي النارُ، وسُمِّيَت بذلِكَ لبُعْد قَعْرها وظُلْمة مَرْآها، تُسعَّر أي: تُوقَد، ومَا وَقودُها الذِي تُوقَد به؟ وَقودُها الَّذِي تُوقَد به قالَ الله عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، بدَل مَا تُوقَد بالحَطَب يَكُون الوَقودُ النَّاسَ، يَعنِي: الكُفَّار، وَالحِجارة حِجارة من نارٍ عَظيمة شَديدة الاشتِعال شَديدة الحَرارة، هَذا تَسعيرُ جهنَّمَ.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ﴾ الجَنَّة دارُ المُتَّقين، فيها مَا لَا عَيْنٌ رأَتْ، ولَا أُذُن سَمِعَت، ولَا خطَرَ على قَلْب بَشَرٍ، ﴿أُزْلِفَتْ﴾ يَعنِي: قُرِّبَت وزُيِّنَت للمُؤمِنين، وانظُرِ الفَرْق بين هَذا وذاك، دار الكُفَّار تُسعَّر، تُوقَد، ودارُ المُؤمِنين تُزيَّن وتُقرَّب ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ كلُّ هَذا يكُون يَوْم القِيامة.

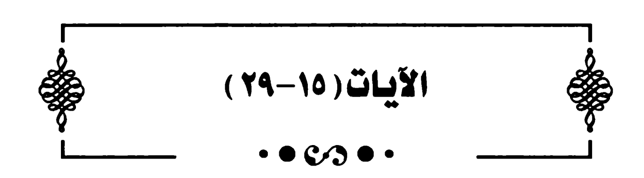
إِذَا قرَأْنا هذِه الآياتِ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ هذِه اثنَتا عَشْرةَ جُملةً إِلى الآنَ لم يَأْتِ بالجَواب. لأنها كلُّها فِي ضِمْن الشَّرْط.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ فالجَوابُ لم يَأْتِ بعدُ، ماذا يَكُون إِذَا كانَت هذِه الأَشياءُ؟ قالَ اللهُ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾؛ أي: مَا قدَّمَته من خَيْر وشَرٍّ، كما قالَ الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾

[آل عمران:٣٠]، يَعنِي: يَكُون مُحضَرًا أيضًا، ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٣٠]، فتَعلَم فِي ذلِكَ اليَوْمِ كلُّ نَفْس مَا أَحضَرَت من خَيْر أو شَرٍّ، وفِي الدُّنيا نَعلَم مَا نَعمَل من خَيْر وشَرٍّ، لكِن سُرعانَ مَا نَنْسى، نَسِينا الشيءَ الكَثيرَ لَا من الطاعاتِ ولَا من المَعاصِي، ولكِنْ هَذا لن يَذهَب سُدًى كَما نَسِيناه؟ بَلْ وَاللهِ هُو باقٍ، فإِذَا كانَ يومُ القِيامة أَحضَرْته أنتَ بإِقْرارك على نَفْسك بأَنَّك عمِلْته؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

فيَنبَغي، بَلْ يَجِب على الإِنسان أن يَتَأَمَّل فِي هذِه الآياتِ العَظيمة، وأن يَتَّعِظ بما فيها من المَواعِظ، وأن يُؤمِن بها كأَنَّه يَراها رَأْيَ عَيْن؛ لأن مَا أَخبَرَ الله به وعلِمْنا مَدلولَه فإِنه أَشَدُّ يَقينًا عِندنا مِمَّا شاهَدْناه بأَعْيُننا أو سمِعْناه بآذانِنا؛ لأن خَبَرَ الله لَا يُكذَّب، صِدْق، لكِن مَا نَراه أو نَسمَعه كَثيرًا مَا يَقَع فيه الوَهم. قَد تَرَى الشيءَ البَعيد شبَحًا تُعيِّنه في تَصوُّرك وهو خِلاف الواقِع، وقد تَسمَع الصَّوْت فتَظُنُّه شَيْئًا مُعيَّنًا فِي ذِهْنك وهو خِلافُ الواقِع، فالوَهم يَرِد على الحَواسِّ، لكِنْ خبَرُ الله عَزَّوَجَلَّ إذا عُلِم مَدلولُه لا يُمكِن أَبَدًا أن يَرِد عليه شيءٌ من الوَهم؛ لأنه خبَرُ صِدْق، فهذه الأُمورُ الَّتي ذكَرَ الله في هذ الآياتِ أُمورٌ حَقيقية يَجِب أن تُؤمِن بها كأَنَّكَ تَراها رَأْيَ عَيْن، ثُم بعد الإِيمان بها يَجِب أن تَعمَل بمُقتَضَى ما تَدُلُّ علَيْه من الِاتِّعاظ والانزِجار، والقِيام بالواجِب، وتَرْك المَنهِيَّات حتَّى تكون من أَهْل القُرآن الَّذين يَتْلونه حَقَّ تِلاوتِه.

• • ❁ • •



الآيات (١٥-٢٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:١٥-٢٩].

•••

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ قَوْله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ قَد يَظُنُّ بعضُ النَّاس أن ﴿لَآ﴾ نافِيةٌ، ولَيْس كذَلِك، بَلْ هِي مُثْبِتة للقَسَم، ويُؤتَى بها بمِثْل هَذا التَّركيبِ للتَّأْكيد. فالمَعنَى: أُقسِم بالخُنَّس، وَالخُنَّسُ جَمْع خانِسة، وهِي النُّجوم الَّتِي تَخنَس، أي: تَرجِع، فبينَما تَراها فِي أَعْلى الأُفُق إذَا بها راجِعة إِلى آخِرِ الأُفُق، وذلِك -وَاللهُ أَعلَمُ- لِارْتِفاعها وبُعْدها، فيَكُون مَا تَحتَها من النُّجوم أَسرَعَ مِنها فِي الجَرْيِ بحَسب رُؤْية العَيْن.

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ أَصْلُها: (الجَوارِي) بالياء، لكِن حُذِفَت الياءُ للتَّخفيف، و﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ هِي الَّتِي تكنُس أي: تَدخُل فِي مَغيبها، فأَقسَمَ الله بهذه النُّجومِ.

ثُم أَقسَم باللَّيْل وَالنَّهار فقالَ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مَعنَى قَوْله: ﴿عَسْعَسَ﴾ يَعنِي: أَقبَلَ، وقيل: مَعناه: أَدبَرَ، وذلِك أن الكلِمة ﴿عَسْعَسَ﴾ فِي

اللُّغة العرَبيَّة تَصلُح لِهَذا وهَذا، لكِنِ الَّذي يَظهَر أن مَعْناها: «أَقبَلَ»؛ ليُوافِق أو ليُطابِق مَا بَعدَه من القَسَم وهُو قَوْلُه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فيَكُون اللهُ أَقسَمَ باللَّيْل حالَ إقبالِه، وبالنَّهار حالَ إقبالِه، وإنَّما أَقسَم الله تعالى بهذه المَخْلوقات؛ لعِظَمها وكَوْنها من آياتِه الكُبْرى، فمَن يَستَطيع أن يَأتِيَ بالنَّهار إِذَا كانَ الليلُ، ومَن يَستَطيع أن يَأتِيَ باللَّيْل إِذَا كانَ النَّهارُ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٣].

فهَذِه المَخْلوقاتُ العَظيمةُ يُقسِم اللهُ بها لعِظَم المُقسَم علَيْه، وهُو قَوْلُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: القُرْآن ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هُو جِبريلُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإنه رَسولُ الله إلى الرُّسُل بالوَحْي الَّذي يُنزِّله علَيْهم، ووَصَفه الله بالكَرَم؛ لِحُسْن مَنظَره كما قالَ تعالى فِي آيةٍ أُخْرى: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [النجم:٦]، ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ قالَ العُلَماء: المِرَّة: الخَلْق الحَسَن والهيئَة الجميلة، فكانَ جِبريلُ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَوْصوفًا بهذا الوَصْفِ: ﴿كَرِيمٖ﴾.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ وَصَفه الله تعالى بالقُوَّة العَظيمة، فإن الرَّسولَ ﷺ رآه على صُورته الَّتي خلَقَه اللهُ عليها له سِتُّ مِئة جَناحٍ[1] قد سَدَّ الأُفقَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إِذَا قال أحدكم: آمين. والملائكة فِي السماء: آمين. رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب فِي ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

كُلَّه[1] من عَظَمته عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقَوْله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: عِند صاحِبِ العَرْش وهُو اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وَالعَرْش فَوْقَ كلِّ شيءٍ، وفوقَ العَرْش رَبُّ العالَمِين عَزَّ وَجَلَّ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:١٥]، فذُو العَرْش هُو اللهُ.

وقَوْلُه: ﴿مَكِينٍ﴾؛ أي: ذِي مَكانة، أي: أن جِبريلَ عِند الله ذُو مَكانةٍ وشَرَفٍ؛ ولِهَذا خَصَّه اللهُ بأَكبَرِ النِّعَم الَّتِي أَنعَم بها على عِباده، وهُو الوَحْيُ، فإِن النِّعَم لو نظَرْنا إِليها لوجَدْنا أنَّها قِسْمان: نِعَمٌ يَستَوِي فيها البَهائِمُ وَالإِنسان، وهِي نِعْمة مُتْعة البَدَن: الأَكْل وَالشُّرْب وَالنِّكاح وَالسَّكَن، هذِه النِّعَمُ يَستَوِي فيها الإِنسان وَالحَيوان، فالإِنسان يَتَمتَّع بما يَأْكُل، وبما يَشرَب، وبما يَنكِح، وبما يَسكُن، وَالبَهائِمُ كذَلِك.

ونِعَمٌ أُخْرى يَختَصُّ بها الإِنسانُ، وهِي الشَّرائِعُ الَّتِي أَنزَلَها اللهُ على الرُّسُل لتَستَقيم حَياة الخَلْق؛ لأَنَّه لَا يُمكِن أن تَستَقيم حَياة الخَلْق الَّتي تكون بها سَعادة الدُّنْيا والآخِرة إِلَّا بالشَّرائِع ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

فالمُؤمِن العامِلُ بالصالِحات هُو الَّذِي لَه الحَياةُ الطَّيِّبة فِي الدُّنيا وَالثَّواب الجَزيل فِي الآخِرة، ووَاللهِ لو فَتَّشْتَ المُلوكَ وأَبناءَ المُلوك، وَالوُزَراء وأَبناءَ الوُزَراء، وَالأُمَراء وأَبناءَ الأُمَراء، وَالأَغْنياءَ وأَبناءَ الأَغْنياء، مِمَّن لَيسوا من أَهْل الإِيمان والعمَل

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إِذَا قال أحدكم: آمين. والملائكة فِي السماء: آمين. رقم (٣٢٣٥)، ومسلم: كتاب الإِيمان، باب معنى قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ولقد رآه نزلة أخرى. رقم (١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الصالِح، لو فَتَّشْتَهُم وفَتَّشت مَن آمَن وعمِلَ صالِحًا لوَجَدْت الثانِيَ أَطيَبَ عِيشةً، وأَنعَمَ بالًا، وأَشرَحَ صَدْرًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ الَّذِي بيَدِه مَقاليدُ السَّموات وَالأَرْض تَكفَّل فقالَ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ فتَجِدُ المُؤمِن العامِلَ للصالِحاتِ مَسرورَ القَلْب، مُنشَرِح الصَّدْر، راضِيًا بقَضاء الله وقَدَره، إن أَصابَه خَيْر شَكَر اللهَ على ذلِك، وإِن أَصابَه ضِدُّه صَبَر على ذلِكَ واعتَذَر إلى الله مِمَّا صنَعَ، وعلِمَ أنَّه إِنَّما أَصابَه بذُنوبه، فرَجَع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1]، وصدَقَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إِذَنْ: أَكبَرُ نِعْمة أَنزَلَها الله على الخَلْق هِي نِعْمة الدِّين الَّذِي به قِوام حَياة الإِنسان فِي الدُّنْيا وَالآخِرة، وَالحَياة الحَقيقيَّة هِي حَياة الآخِرة، وَالدَّليلُ قَوْلُه تعالى فِي سُورة الفَجْر: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر:٢٤].

فالدُّنْيا ليسَت بشيءٍ، الحَياةُ الحَقيقية حَياة الآخِرة، وَالَّذِي يَعمَل للآخِرة يَحيا حَياةً طيِّبة فِي الدُّنْيا، فالمُؤمِن العامِل للصالِحات هُوَ الَّذِي كسَبَ الحَياتَيْن: حَياة الدُّنْيا، وحَياة الآخِرة، وَالكافِر هُو الَّذِي خسِر الدُّنيا وَالآخِرة ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾؛ أي: هُناك ﴿أَمِينٍ﴾ على مَا كُلِّف به. وجِبريلُ هُو المُطاعُ، فمَنِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الَّذِي يُطيعه؟ قالَ العُلَماء: تُطيعه المَلائِكة؛ لأنه يَنزِل بالأَمْر من الله، فيَأمُر المَلائِكة فتُطيع، فلَهُ إِمْرة وله طاعةٌ على المَلائِكة، ثُم الرُّسُل عليهم الصلاة وَالسلام الَّذِين يَنزِل جِبريلُ عليهِم بالوَحْي، لَهُم إِمْرة وطاعة على المُكلَّفين ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢].

فِي هَذِه الآياتِ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أَقسَمَ الله عَزَّوَجَلَّ على أن هَذا القُرْآنَ قولُ هَذا الرَّسولِ الكَريمِ المَلَكيِّ جِبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفي آيَةٍ أُخرى بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأَقسَم أن هَذا القُرْآن قولُ رَسولٍ كَريمٍ بشَريٍّ فِي قَوْله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة:٣٨-٤١].

فالرَّسولُ هُنا فِي سُورة التَّكوير رَسولٌ ملَكيٌّ، أي: من المَلائِكة وهُو جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالرَّسولُ هُناكَ رَسولٌ بشَريٌّ وهُو مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالدَّليلُ على هَذا واضِحٌ؛ هُنا قالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وهَذا الوَصْفُ لِجبريلَ، لأنَّه هُو الَّذِي عِند الله، أَمَّا مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهُو فِي الأَرْض، هُناك قالَ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ رَدًّا لقَوْل الكُفَّار الَّذِين قالوا: إِن مُحمَّدًا شاعِرٌ. ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة:٤٢]، فأَيُّهما أَعظَمُ قَسَمًا ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ﴾ أو ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؟ الثانِي أَعظَمُ، ليسَ فيه شيءٌ أعمُّ منه.

﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ كلُّ الأَشْياء إِمَّا نُبصِرها أو لَا نُبصِرها.

إِذَنْ أَقسَم اللهُ بكُلِّ شيءٍ، وهنا أَقسَم بالآيات العُلْويَّة ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ هَذِه آياتٌ عُلْوية أُفقيَّة تُناسِب الرَّسول الَّذِي أُقسِم على أنَّه قَوْلُه وهُو جِبريلُ؛ لأن جِبريلَ عِند الله.

فإِذَا قالَ قائِلٌ: كيفَ يَصِف اللهُ القُرآن بأنه قَوْل الرَّسولِ البشَرِيِّ، وَالرَّسولُ الملَكيِّ؟

فنقُول: نعَمِ، الرَّسولُ المَلَكيُّ بلَّغه إِلى الرَّسول البشَرِيِّ، وَالرَّسولُ البشَرِيُّ بلَّغَه إِلى الأُمَّة، فصار قولَ هَذا بالنِّيابة؛ قولَ جِبريلَ بالنِّيابة، وقولَ مُحَمَّد بالنِّيابة، وَالقائِلُ الأَوَّلُ هُو الله عَزَّوَجَلَّ، فالقُرْآن قولُ الله حَقيقةً؛ لأنه المُتكَلِّم به ابتِداءً، وقولُ جِبريلَ باعتِبار أَنَّه بلَّغَه لِمحمَّد، وقولُ مُحَمَّد باعتِبار أَنَّه بلَّغه إِلى الأُمَّة.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾؛ أي: مُحَمَّد رَسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتَأَمَّل أَنَّه قالَ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ فأَضافَه إليهم؛ ليَكون أَشَدَّ لَوْمًا وتَوْبيخًا لَهُمْ حين رَدُّوا دَعْوته، كأنه قالَ: مَا صاحِبُكُمُ الَّذِي تَعرِفونه وأنتُم وإِيَّاه دائِمًا، بقِيَ فيهم أَربَعين سَنَةً فِي مكَّةَ قبلَ النُّبوَّة يَعرِفونه، ويَعرِفون صِدْقه وأَمانَته، حتَّى كانوا يُطلِقون عليه اسمَ الأَمين، ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ يَعنِي ليسَ مجنونًا، بَلْ هُو أَعقَلُ العُقَلاء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أكمَلُ النَّاس عَقْلًا بلا شَكٍّ وأَسَدُّهم رَأْيًا.

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾؛ أي: رأَى مُحَمَّدٌ جِبريلَ ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ الأُفُق: جانِبُ السَّماء، والمُبينُ أي: البيِّن الظاهِر العالِي، فإِن الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رأَى جِبريلَ على صُورته الَّتِي خُلِق عليها مَرَّتَيْن[1]: مرَّة فِي غار حِراءٍ، ومرَّةً فِي السَّماء السابِعة لَمَّا عُرِج

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل

به عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهذِه الرُّؤْيةُ هِي الَّتِي فِي غار حِراءٍ؛ لأنه يَقول: ﴿رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ﴾ إذَنْ مُحَمَّدٌ فِي الأَرْض ﴿وَمَا هُوَ﴾ يَعنِي: مَا مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ يَعنِي: على الوَحْي الَّذِي جاءَه من عِند الله ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضادِ أي: ببَخيل، فهُو عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس بمُتَّهَم فِي الوَحْيِ ولَا باخِلٍ به، بل هُو أشَدُّ النَّاس بَذْلًا لِما أُوحِيَ إليه، يُعلِّم النَّاس فِي كلِّ مُناسَبة، وهُو أَبعَدُ النَّاس عن التُّهْمة؛ لكَمال صِدْقه وأَمانَته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفي قِراءَةٍ: (بِظَنِينٍ)[1] بالظاء المُشالة، أي: بمُتَّهَمٍ، من الظَّنِّ وهُو التُّهْمة.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾؛ أي: ليسَ القُرْآن بقَوْل أحَدٍ من الشَّياطين، وهُمُ الكَهَنة الَّذِين تُوحِي إليهِمُ الشَّياطينُ الوَحْيَ ويَكذِبون معه ويُخبِرون النَّاس فيَظُنُّونهم صادِقِين.

﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿إِنۡ﴾ هُنا بمَعنَى: (مَا)، وهَذِه قاعِدة: «أنَّه إِذَا جاءَتْ (إلَّا) بعدَ (إِنْ) فهِي بمَعنَى: (مَا)»، أي: أنَّها تكون نافِيةً؛ لأن «إِنْ» تَأتِي نافِية، وتَأتِي شَرْطيَّة، وتَأتِي مُخفَّفة من الثَّقيلة، وَالَّذِي يُبيِّن هذِه المَعانِيَ هُو السِّياقُ، فإِذَا جاءَتْ (إِنْ) وبعدَها (إلَّا) فهِي نافِيةٌ، أي: مَا هُو -أيِ: القُرآن الَّذِي جاءَ به مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ونزَلَ به جِبريلُ على قَلْبه- ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ذِكْر بمَعنَى: التَّذكير وَالتَّذكُّر، فهُو تَذكير للعالَمِين، وتَذكُّر لَهُم، أي: أنَّهم يَتَذكَّرون به ويَتَّعِظون به.

(والمُرادُ بالعالَمِين) مَن بُعِث إليهِم رَسولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم،

= الغروب، رقم (٤٨٥٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ولقد رآه نزلة أخرى، رقم (١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا.

(١) انظر: التيسير في القراءات السبع (ص:٢٢٠).

كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقالَ تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، فالمُرادُ بالعالَمِين هُنا مَن أُرسِل إِليهِم مُحمَّدٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿لِمَن شَآءَ﴾ هذِه الجُمْلةُ بدَلٌ مِمَّا قَبْلها، لكِنَّها بإِعادة العامِل، وهو (إِلَّا)؛ كأَنَّه قال: «إِلَّا ذِكْر لِمَن شاءَ مِنْكم أن يَستَقيم»، فخَصَّ بعدَ التَّعميم، وأمَّا مَن لَا يَشاءُ الِاستِقامةَ فإِنه لَا يَتَذكَّر بهذا القُرآنِ ولَا يَنتَفِع به؛ كَما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

فالإِنْسانُ الَّذِي لَا يُريد الاسْتِقامة لَا يُمكِن أن يَنتَفِع بهذا القُرآنِ، ولكِن إِذَا قالَ قائِلٌ: هل مَشيئَة الإِنسان باختِيارِه؟

نَقُول: نعَمْ، مَشيئة الإِنسان باختِيارِه؛ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ جعَلَ للإِنْسان اختِيارًا وإِرادةً، إِن شاءَ فعَلَ وإِن شاء لم يَفعَل؛ لأَنَّه لو لم يَكُن كذَلِك لم تَقُمِ الحُجَّة على الخَلْق الَّذِين أُرسِلَت إِليهم الرُّسُل بإِرْسال الرُّسُل، فَما نَفعَله هُو باختِيارِنا وإِرادَتِنا، ولو لا ذلِك مَا كانَ لِإرسالِ الرُّسُل حُجَّة علينا، فالإِنْسانُ لَا شَكَّ فاعِلٌ باختِياره.

وكلُّ إِنْسان يَعرِف أَنَّه إِذَا أَراد أن يَذهَب إِلى مكَّةَ فهُو باختِياره، وإِذَا أَراد أن يَذهَب إِلى المَدينة فهُو باختِياره، وإِذَا أَراد أن يَذهَب إِلى بيت المَقدِس فهُو باختِيارِه، وإِذَا أَراد أن يَذهَب إِلى الرِّياض فهُو باختِيارِه، أو إِلى أيِّ شيءٍ أَرادَه فهُو باختِياره، لَا يَرَى أن أَحَدًا أَجبَرَه عليه، ولَا يَشعُر أن أَحَدًا أَجبَره على ذلِك، كذَلِك أيضًا مَن أَراد أن يَقوم بطاعة الله فهُو باختِيارِه، ومَن أَراد أن يَعصِيَ الله فهُو باختِيارِه؛ فلِلْإِنسان

مَشيئةٌ، ولكِنْ نَعلَم عِلْم اليَقين أنَّه مَا شاءَ شَيْئًا إلَّا وقد شاءَهُ الله من قبلُ.

ولِهَذا قالَ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ مَا نَشاءُ شَيْئًا إلَّا بعد أن يَكُون الله قَد شاءَهُ، فإِذَا شِئْنا الشيءَ عَلِمْنا أن الله قَد شاءَهُ، ولولا أن الله شاءَهُ مَا شِئْناه، كَمَا قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٣].

فنحنُ إِذَا عمِلْنا الشيءَ نَعمَله بمَشيئَتِنا واختِيارنا، ولكِنْ نَعلَم أن هذِه المَشيئَةَ وَالاختِيارَ كانَت بعد مَشيئَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولو شاءَ اللهُ مَا فعَلْنا.

فإِن قالَ قائِلٌ: إِذَنْ لنا حُجَّة فِي المَعْصية؛ لأَنَّنا مَا شِئْناها إلَّا بعدَ أن شاءَها الله.

فالجوابُ: أنَّه لَا حُجَّةَ لنا؛ لأنَّنا لم نَعلَم أن الله شاءَها إلَّا بعد أن فعَلْناها، وفِعْلنا إِيَّاها باختِيارِنا؛ ولهذا لَا يُمكِن أن نَقُول: إِن اللهَ شاءَ كَذا. إلَّا بعدَ أن يَقَعَ، فإِذَا وقَعَ فبَأيِّ شيءٍ وقَعَ؟ وقَعَ بإِرادَتِنا ومَشيئَتِنا؛ لهذا لَا يَتَّجِه أن يَكُون للعاصِي حُجَّةٌ على الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد أَبطَل الله هذِه الحُجَّةَ فِي قَوْله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ﴾ [الأنعام:١٤٨]، فلَوْلا أنَّه لَا حُجَّةَ لهُم مَا ذاقوا بأسَ الله، ولسَلِموا من بَأْس الله، ولكِنَّه لَا حُجَّةَ لهم؛ فلِهذا ذاقوا بأسَ الله.

وكُلُّنا نَعلَم أن الإِنسان لو ذُكِر لَه أنَّ بلَدًا آمِنًا مُطمَئِنًّا، يَأتِيه رِزْقُه رغَدًا من كلِّ مَكان، فيه من المَتاجِر وَالمَكاسِب مَا لَا يُوجَد فِي البِلاد الأُخرى، وأن بلَدًا آخَرَ

بلَدٌ خائِفٌ غيرُ مُستقِرٍّ، مُضطَرِب فِي الاقتِصاد، مُضطَرِب فِي الخَوْف وَالأَمْن، فإلى أيِّهما يَذهَبُ؟ بالتَّأْكيد سيَذهَب إلى الأوَّل ولَا شَكَّ، ولَا يَرى أن أحَدًا أَجبَرَه أن يَذهَب إلى الأوَّل، يَرى أنَّه ذهَبَ إلى الأَوَّل بمَحْض إرادتِه، وهكَذا الآنَ طَريقُ الخَيْر وطَريق الشَّرِّ، فاللهُ بَيَّن لنا: هذِه طَريقُ جَهنَّمَ، وهذِه طَريقُ الجَنَّة، وبيَّن لنا مَا فِي الجَنَّة من النَّعيم، ومَا فِي النار من العَذاب. فأَيُّهما نَسلُك؟ بالقِياس الواضِح الجَليِّ أنَّنا سنَسلُك طَريق الجَنَّة لَا شَكَّ، كمَا أنَّنا فِي المِثال الَّذِي قبلُ نَسلُك طَريق البلَد الآمِنِ الَّذِي يَأتيه رِزْقه رغَدًا من كل مَكان.

لو أنَّنا سلَكْنا طَريق النار فإنه سيَكون علَيْنا العتَبُ وَالتَّوْبيخ وَاللَّوْم، ويُنادَى علَيْنا بالسَّفَه، كمَا لو سلَكْنا فِي المِثالِ الأوَّل طَريق البلَد المَخوف المُتزَعْزِع الَّذِي ليسَ فيه استِقرارٌ، فإن كُلَّ أَحد يَلومُنا ويُوبِّخُنا.

إِذَنْ ففي قَوْله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ تَقرير لكَوْن الإنسان يَفعَل الشيءَ بمَشيئَتِه واختِياره، ولكِنْ بعد أن يَفعَل الشيءَ ويَشاء الشيءَ نَعلَم أن الله قَد شاءَهُ من قَبلُ، ولو شاءَ الله مَا فعَلَه، وكَثيرًا مَا يَعزِم الإنسان على شيءٍ ويَتَّجِه بعد العَزيمة إلى هَذا الشيءِ، وفي لَحْظة يَجِد نَفْسه مُنصَرِفًا عنه، أو يَجِد نَفْسه مَصروفًا عنه؛ لأن الله لم يَشأْهُ، كَثيرًا مَا نُريد أن نَذهَب مثَلًا إلى المَسجِد لنَستَمِع إلى مُحاضَرة، وإِذَا بنا نَنْصَرِف بسبَب أو بغَيْر سبَبٍ، أَحيانًا بسبَبٍ بحيثُ نَتذكَّر أن لنا شُغُلًا فنَرجِع، وأَحْيانًا نَرجِع بدون سبَبٍ لَا نَدرِي إلَّا وقَدْ صرَف الله تعالى هِمَّتَنا عن ذلِكَ فرجَعْنا؛ ولهذا قيلَ لأَعْرابيٍّ: بِمَ عرَفْت ربَّكَ؟ قالَ: بنَقْض العَزائِم، وصَرْف الهِمَم.

(بنَقْض العَزائِم) يَعني: الإِنسان يَعزِم على الشيءِ عَزْمًا مُؤكَّدًا، وإِذَا به يَنتَقِض!!

فمَن نَقَض عَزيمَتَه؟ لَا يَشعُر أن هُناك مُرجِّحًا أَوْجَب أن يَعدِل عن العَزيمة الأُولى، بَلْ بمَحْض إرادة الله.

(صَرْف الهِمَم) يَهُمُّ الإنسانُ بالشيءِ ويَتَّجِه إليه تمامًا وإِذَا به يَجِد نَفْسه مُنصَرِفًا عنه سَواءٌ كانَ الصارِفُ مانِعًا حِسِّيًّا، أو كانَ الصارِفُ مُجرَّد اختِيارٍ.. اختار الإِنسانُ أن يَنصَرِف، كُلُّ هَذا مِن الله عَزَّوَجَلَّ.

فالحاصِلُ: أن الله يَقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، وَالاستِقامةُ هِي الاعتِدالُ، ولَا عَدْلَ أَقوَمُ من عَدْل الله عَزَّوَجَلَّ فِي شَريعته، فِي الشَّرائِع السابِقة كانَتِ الشَّرائِع تُناسِب حالَ الأُمَم زَمانًا ومَكانًا وحالًا، وبعدَ بَعثة الرَّسول ﷺ كانَت شَريعتُه تُناسِب الأُمَّة الَّتِي بُعِث النَّبيُّ ﷺ إليها من أوَّل بَعْثته إلى نهاية الدُّنْيا؛ ولهذا كانَ من العِبارات المَعْروفة «أن الدِّين الإِسْلاميَّ صالِحٌ لكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ وحالٍ»، لو تَمَسَّك النَّاسُ به لأَصلَح الله الخَلْق.

انظُرْ مثَلًا الإنسانُ يُصلِّي أوَّلًا قائِمًا، فإِن عجَز فقاعِدًا، فإِن عجَز فعلى جَنْب، إِذَنِ الشَّريعة تَتَطوَّر بحَسب حال الشَّخْص؛ لأن الدِّين صالِحٌ لكلِّ زَمان ومَكان وحالٍ.

يَجِب على المُحدِث أن يَتَطهَّر بالماء، فإِن تَعذَّر استِعْمال الماء لعَجْز أو عدَمٍ عَدَل إلى التَّيمُّم، فإِن لم يُوجَد ولَا تُراب، أو كانَ عاجِزًا عن استِعْمال التُّراب فإِنه يُصلِّي بلا شيءٍ، لَا بطَهارة ماءٍ ولَا بطَهارة تَيمُّم، كلُّ هَذا لأن شَريعة الله عَزَّوَجَلَّ كلُّها مَبنيَّة على العَدْل، ليسَ فيها جَوْر، وليسَ فيها ظُلْم، وليسَ فيها حرَجٌ، وليسَ فيها مَشقَّة؛ ولهذا قالَ: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ وضِدُّ الاستِقامة انحِرافان: انحِرافٌ إلى

جانِبِ الإفراط وَالغُلُوِّ، وانحِرافٌ إِلى جانِب التَّفريط وَالتَّقصير؛ ولهذا كانَ النَّاس فِي دِين الله عَزَّوَجَلَّ ثَلاثَة أَشْكالٍ: طرَفان ووَسَط، طَرَف غالٍ مُبالِغٌ مُتنَطِّع مُتعَنِّت، وطرَف آخَرُ مُفرِّط مُقصِّر مُهمِل، والثالِث: وسَطٌ بين الإفراط وَالتَّفْريط، مُستَقيم على دِين الله، هَذا هُو الَّذِي يُحمَد، أمَّا الأوَّل الغالِي، وَالثاني الجافِي فكِلاهُما هالِكٌ بحَسب مَا عِندَه من الغُلُوِّ، أو مِن التَّقْصير، وقد نَهَى النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الغُلُوِّ وَالإفْراط وَالتَّعنُّت وَالتَّنطُّع حتَّى إِنه قالَ: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنطِّعُون، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**»[1]؛ لأن التَّنطُّع فيه إِشْقاق على النَّفْس، وفيه خُروجٌ عن دِين الله عَزَّوَجَلَّ؛ كَمَا أَنَّه ذَمَّ المُفرِّطين المُهمِلين فقالَ فِي وَصْف المُنافِقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء:١٤٢].

فدِينُ الله وسَطٌ بين الغالِي فيه وَالجافِي عنه؛ ولهذا قالَ هُنا: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ لَا يَميل يَمينًا ولَا شِمالًا، يَكُون سَيْره سَيْرَ استِقامة على دِين الله عَزَّوَجَلَّ، وَالاستِقامةُ كَمَا تكون فِي مُعامَلة الخالِق عَزَّوَجَلَّ -وهِي العِبادة- تَكون أيضًا فِي مُعامَلة المَخلوق، فكُنْ مَع النَّاس بين طرَفَيْن، بين طرَفِ الشِّدَّة وَالغِلْظة وَالعُبوس، وطرَف التَّراخِي وَالتَّهاوُن وبَذْل النَّفْس وانحِطاط الرُّتْبة، كُنْ حازِمًا من وَجْه، ولَيِّنًا من وَجْه.

ولهذا قالَ الفُقَهاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي القاضِي: «يَنبَغي أن يَكُون لَيِّنًا من غَيْر ضَعْف، قوِيًّا من غَيْر عُنْف»، فلَا يَكُون لِينُه يَشطَح به إِلى الضَّعْف، ولَا قُوَّتُه إِلى العُنْف، يَكُون بين ذلِكَ، لَيِّنًا من غَيْر ضَعْف، قوِيًّا من غَيْر عُنْف؛ حتَّى تَستَقيم الأُمور،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فبعضُ النَّاس مثَلًا يُعامِل النَّاس دائِمًا بالعُبوس وَالشِّدَّة وإِشعار نَفْسه بأنه فوقَ النَّاس وأن النَّاس تحتَه، وهَذا خَطَأ، ومن النَّاس مَن يَحُطُّ قَدْر نَفْسه ويَتَواضَع إِلى حَدِّ التَّهاوُن وعدَم المُبالاة بحيثُ يَبقَى بين النَّاس ولَا حُرْمةَ له، وهَذا أيضًا خطَأٌ، فالواجِبُ أن يَكُون الإِنسانُ بَيْن هَذا وبَيْن هَذا كما هُو هَدْيُ النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإِنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَشتَدُّ فِي مَوضِع الشِّدَّة، ويَلين فِي مَوضِع اللِّين، فيَجمَع الإِنسان بين الحَزْم وَالعَزْم، وَاللِّين وَالعَطْف وَالرَّحْمة.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يَعنِي: لَا يُمكِن أن تَشاؤُوا شَيْئًا إِلَّا وقد شاءَهُ الله من قبلُ، فمَشيئةُ الإِنسان مَا كانَت إِلَّا بعدَ مَشيئة الله عز جل، لو شاءَ اللهُ لم يَشَأْ، ولو شاءَ الله أن لَا يَكُون الشيء مَا كانَ ولو شِئْته. حتَّى لو شِئْت وَالله تعالى لم يَشَأْ فإِنه لن يَكُون، بل يُقيِّض الله تعالى أَسْبابًا تَحول بينَكَ وبينَه حتَّى لَا يَقَع.

وهَذه مَسأَلة يَجِب على الإِنسان أن يَنتَبِه لهَا، أن يَعلَم أن فِعْله بمَشيئته مَشِيئة تامَّة بلا إِكراهٍ، لكِن هذِه المَشيئةُ مُقتَرِنة بمَشيئة الله، يَعلَم أَنَّه مَا شاءَ الشيءَ إِلَّا بعدَ أن شاء الله، وأن الله لو شاءَ أَلَّا يَكُون لم يَشَأْهُ الإِنسانُ، أو شاءَه الإِنسان، ولكِن يَحول الله بينَه وبينَه بأَسْباب ومَوانِع.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالَ: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إِشارة إِلى عُموم رُبوبية الله، وأن رُبوبية الله تعالى عامَّة، ولكِنْ يَجِب أن نَعلَم أن العالَمِين هُنا ليسَت كالعالَمِين فِي قَوْله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فالعالَمِين الأُولى ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ مَن أُرسِل إِليهم الرَّسولُ، أَمَّا هُنا ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالمُرادُ بالعالَمِين كُلُّ مَن سِوى الله، فكُلُّ مَن سِوى الله فهُو عالِمٌ؛ لأَنَّه مَا ثَمَّ إِلَّا رَبٌّ ومَربوبٌ، فإِذَا قيل: رَب العالَمِين. تَعيَّن أن يَكُون المُرادُ

بالعالَمِين كُلُّ مَن سِوى الله، كَمَا قالَ الإِمام شَيْخ الإِسلام مُحَمَّدُ بنُ عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكُلُّ مَا سِوى الله فهُو عالَمٌ، وأنا واحِدٌ من ذلِك العالَمِ»[1].

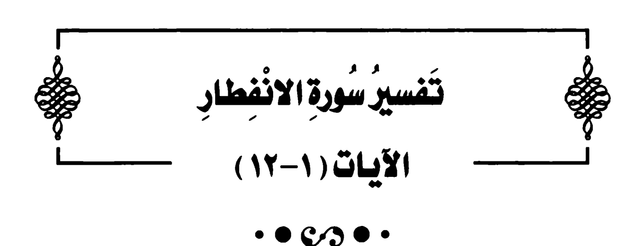
والحاصِلُ: أن هذِه السُّورةَ سُورة عَظيمة، فيها تَذكِرة ومَوْعِظة يَنبَغي للمُؤمِن أن يَقرَأَها بتَدبُّر وتَمهُّل، وأن يَتَّعِظ بها فيها، كَمَا أن الواجِب عليه فِي جَمِيع سُوَر القُرآن وآياته أن يَكُون كذَلِك حتَّى يَكُون مِمَّن اتَّعَظ بكِتاب الله وانتَفَع به.

نَسأَل اللهَ تعالى أن يَعِظَنا وإِيَّاكم بكِتابه وسُنَّة رَسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وآياتِه الكَوْنية إِنه على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ❁ ● •

---

(١) الأصول الثلاثة (ص:٩).



تَفسيرُ سُورةِ الانْفِطارِ

الآيات (١-١٢)

•• ❊ ••

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١-١٢].

•• ❊ ••

البَسْمَلة سبَقَ الكَلام علَيْها.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ يَعنِي: انشَقَّتْ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق:١-٢].

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ يَعنِي: النُّجوم صَغيرُها وكَبيرُها تَنتَثِر وتَتفرَّق وتَتساقَط؛ لأن العالَمَ انتَهى.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾؛ أي: فُجِّر بعضُها على بعضٍ ومُلِئَت الأَرْض.

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾؛ أي: أُخرِج مَا فيها مِن الأَمْوات حتَّى قاموا لله عَزَّوَجَلَّ، فهذِه الأُمورُ الأَرْبَعة إِذَا حصَلَت:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ و﴿نَفْسٌ﴾ هُنا نكِرة لكِنَّها بمَعنَى العُموم إِذْ إِن المَعنَى: علِمَت كُلُّ نَفْس مَا قدَّمَت وأَخَّرَت، وذلِك بما يُعرَض علَيْها من الكِتاب، فكُلُّ إِنْسان أَلْزَمَه الله طائِرَه فِي عُنُقه ويُخرِج لَه يَوْم القِيامة كِتابًا يَلْقاه مَنْشورًا، اقرَأْ كِتابَكَ كفَى بنَفْسِك اليَوْمَ علَيْك حَسيبًا، وفي ذلِكَ اليَوْمِ يَقول المُجرِمون: ما لِهَذا الكِتابِ لَا يُغادِر صَغيرةً ولَا كَبيرةً إِلَّا أَحْصاها. فيَعلَم الإِنْسان مَا قدَّمَ وأَخَّرَ، بينَما هُو فِي الدُّنْيا قَد نَسِيَ، لكِن يَوْم القِيامة يُعرَض العمَل فتَعلَم كُلُّ نَفْس مَا قدَّمَت وأَخَّرَت، وَالغرَضُ من هَذا تَحذيرُ العَبْد من أن يَعمَل مُخالَفة لله ورَسولِه؛ لأَنَّه سَوْف يُعلَم بذلِكَ ويُحاسَب عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المُرادُ بالإِنسان هُنا قيل: هُو الكافِرُ. وقِيل: الإِنسانُ من حيثُ هُو إِنْسان؛ لأن الإِنْسان من حيثُ هُو إِنْسان ظَلوم جَهول، ظَلوم كُفَّار ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

فيَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ويُخاطِب الإِنْسان مِن حيثُ هُو إِنسان بقَطْع النَّظَر عن دِيانَتِه ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ يَعنِي: أيُّ شيءٍ غرَّكَ بالله حيثُ تُكذِّبه فِي البَعْث، وتَعصيه فِي الأَمْر وَالنَّهْي، بَلْ رُبَّما يُوجَد مَن يُنكِر الله عَزَّوَجَلَّ فما الَّذِي غرَّكَ؟! قالَ بعضُ العُلَماء: إِن قَوْلَه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ إشارة إِلى الجَواب، وهُو أن الَّذِي غرَّ الإِنسانَ كرَمُ الله عَزَّوَجَلَّ وإِمْهالُه وحِلْمه، لكِنَّه لَا يَجوز أن يَغتَرَّ الإِنْسانُ بذلِكَ فإِن الله يُملِي للظالِمِ حتَّى إِذَا أَخذَه لم يُفلِتْه، إِذَنْ ما غرَّك برَبِّك الكَريمِ؟ الجَوابُ: كرَمُه وحِلْمُه هَذا هُو الَّذِي غرَّ الإِنسانَ وصار يَتَمادَى فِي المَعْصية وفِي التَّكْذيب، ويَتَمادَى فِي المُخالَفة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ خلقَكَ من العَدَم، وأَوْجَدَك من العَدَم، ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾؛ أي: جعَلَك مُستوِي الخِلْقة ليسَت يَدٌ أَطولَ من يَدٍ، ولَا رجُلَ أَطولُ من رجُلٍ، ولَا أُصبُعَ أَطولُ من أُصبُعٍ، بحَسب اليَدَيْن وَالرِّجْلين، فتَجِد الطَّويل فِي يَدٍ هُو الطَّويلُ فِي اليَدِ الأُخْرى، وَالقَصير هُو القَصير، وهَلُمَّ جَرًّا.

سَوَّى الله عَزَّوَجَلَّ الإِنسانَ من كُلِّ ناحِية: من ناحِية الخِلْقة ﴿فَعَدَلَكَ﴾، وفي قِراءَةٍ سَبْعية: (فَعَدَّلَكَ)؛ أي: جعَلَك مُعتَدِلَ القامة، مُستَوِي الخِلْقة لَسْت كالبَهائِم الَّتِي لم تَكُن مُعدَّلة، بَلْ تَسير على يَدَيْها ورِجْليها، أمَّا الإِنْسان فإِنه خَصَّه اللهُ بهذِه الخِصِّيصةِ.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ يَعنِي: اللهُ رَكَّبَك فِي أيِّ صُورة شاء، فمِن النَّاس مَن هُو جَميل، ومِنْهم مَن هُو قَبيحٌ، ومِنْهم المُتوسِّط، ومِنهم الأَبْيَض، ومِنهم الأَحمَر، ومِنْهمُ الأَسْوَد، ومِنهم مَا بين ذلِك، أي صُورة يُركِّبك الله عَزَّوَجَلَّ على حَسب مَشيئَتِه، ولكِنَّه عَزَّوَجَلَّ شاء للإِنسان أن تكون صُورتُه أَحسَنَ الصُّوَر.

ثُم قالَ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ للإِضْراب يَعنِي: مَع هَذا الخَلْقِ وَالإِمدادِ، وَالإِعدادُ تكْذبون بالدِّين أَيْ: بالجَزاء، وتَقولون: إِن هِيَ إِلَّا حَياتُنا الدُّنْيا نَموت ونَحْيا ومَا نحن بمَبعوثِين، فتُكذِّبون بالدِّين، أي: بالجَزاء، ورُبَّما نَقُول: وتُكذِّبون أيضًا بالدِّين نَفْسه، فلَا تُقِرُّون بالدِّين الَّذِي جاءَت به الرُّسُل وَالآيَةُ شامِلة لِهَذا وهَذا؛ لأن القاعِدة فِي عِلْم التَّفْسير وعِلْم شَرْح الحَديث: «أنَّه إِذَا كانَ النَّصُّ يَحتَمِل مَعنيَيْن لَا يُنافِي أَحَدُهما الآخَرَ فإنه يُحمَل علَيْهما».

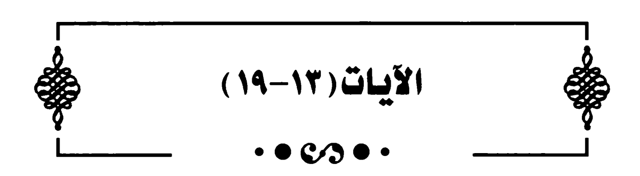
﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تأكيد بمُؤكِّدَيْن «إِنَّ» واللَّام ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ الإِنْسانُ عليه حافِظٌ يَحفَظه ويَكتُب كلَّ مَا عمِل،

قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، فعلى كُلِّ إِنْسان حفَظةٌ يَكتُبون كُلَّ مَا قالَ وكُلَّ مَا فعَلَ، وهَؤُلاءِ الحَفَظةُ كِرام لَيْسوا لِئامًا، بَلْ عِندَهُم مِن الكرَمِ مَا يُنافِي أن يَظلِموا أحَدًا، فيَكتُبوا عليه مَا لم يَعمَل، أو يُهدِروا مَا عمِل؛ لأنَّهُم مَوْصوفون بالكَرَم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ إمَّا بالمُشاهَدة إن كانَ فِعْلًا، وإمَّا بالسَّماع إن كانَ قَوْلًا، بَلْ إن عمَل القَلْب يُطلِعُهُمُ اللهُ عليه، فيَكتُبونه كما قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ هَمَّ بِالحَسَنَةِ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً كَامِلَةً**»(١)؛ لأنه ترَكَها لله عَزَّوَجَلَّ، وَالأوَّلُ يُثاب على مُجرَّد الهَمِّ بالحَسَنة.

•●۞●•

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إِذَا هم العبد بحسنة كتبت...، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآيات (١٣-١٩)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٣-١٩].

•••

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ هَذا بَيانٌ للنِّهاية وَالجَزاء ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جَمْع بَرٍّ وهُم كَثيرو فِعْل الخَيْر، المُتَباعِدون عن الشَّرِّ ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾؛ أي: نَعيم فِي القَلْب، ونَعيم فِي البَدَن؛ ولِهَذا لَا تَجِد أحَدًا أَطيَبَ قَلْبًا، ولَا أَنعَمَ بالًا من الأَبْرار أَهْل البِرِّ، حتَّى قالَ بعضُ السلَفِ: «لَوْ يَعلَم المُلوكُ، وأَبناءُ المُلوكِ مَا نحن فيه لجَالَدونا علَيْه بالسُّيوف»[1]، وهَذا النَّعيمُ الحاصِلُ يَكُون فِي الدُّنْيا وفي الآخِرة، أمَّا فِي الآخِرة فالجَنَّة، وأَمَّا فِي الدُّنْيا فنَعيم القَلْب وطُمَأْنينتُه ورِضاه بقَضاء الله وقَدَره، فإِن هَذا هُو النَّعيمُ الحَقيقيُّ، ليسَ النَّعيم فِي الدُّنْيا أن تُترَف بَدَنيًّا، بلِ النَّعيمُ نَعيمُ القَلْب.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ الفُجَّار هُمُ الكُفَّار ضِدُّ الأَبْرار ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾؛ أي: فِي نار حامِية ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يَعنِي: يَحترِقون بها ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾؛ أي: يَوْم الجَزاء وذلِك يَوْم القِيامة ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾؛ أي: لن يَغيبوا عنها فيَخرُجوا مِنها كَما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:٣٧]؛ لأَنَّهم مُخلَّدون بها أَبَدًا -والعِياذُ بالله-.

---

(١) انظر: الداء والدواء لابن القيم (ص:٢٣٣).

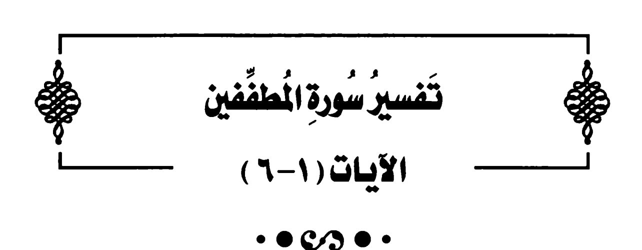
﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ هَذا الاستِفْهامُ للتَّفْخيم وَالتَّعظيم، يَعنِي: أيُّ شيءٍ أَعلَمَك بيَوْم الدِّين؟ وَالمَعنَى: اعْلَمْ هَذا اليَوْمَ، واقْدُرْه قَدْره.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ فِي يَوْم القِيامة لَا أَحَدَ يَملِك لأَحَد شَيْئًا لَا بجَلْب خَيْر ولَا بدَفْع ضرَرٍ إلَّا بإِذْن الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقَوْله:

﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ فِي الدُّنْيا هُناك أُناسٌ يَأمُرون من الأُمراء، وَالوُزَراء، وَالرُّؤَساء، وَالآباء، وَالأُمَّهات، لكِنْ فِي الآخِرة الأَمْرُ لله عَزَّوَجَلَّ، ولَا تَملِك نَفْسٌ لنَفْس شَيْئًا إلَّا بإِذن الله؛ ولهذا كانَ النَّاسُ فِي ذلِكَ اليَوْمِ يَلحَقهم من الغَمِّ وَالكَرْب مَا لَا يُطيقون، ثُم يَطلُبون الشَّفاعة من آدَمَ، ثُم نُوحٍ، ثُم إِبراهيمَ، ثُم مُوسَى، ثُم عِيسى عليهم الصلاة وَالسلام حتَّى تَنتَهيَ إِلى نَبيِّنا صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فيَشفَع بإِذْن الله، فيُريح الله العالَمَ من المَوقِف، ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾.

فإِن قالَ قائِلٌ: أَلَيْسَ الأَمْرُ لله فِي ذلِك اليَوْمِ وفي غَيْره؟

قُلْنا: بَلى، الأَمْر لله تعالى فِي يَوْم الدِّين، وفيما قَبْله، لكِن ظُهور أَمْره فِي ذلِك اليَوْمِ أكثَرُ بكَثير من ظُهور أَمْره فِي الدُّنيا؛ لأن فِي الدُّنْيا يُخالِف الإِنسانُ أَوامِرَ الله عَزَّوَجَلَّ ويُطيع أَمْر سيِّدِه، فلَا يَكُون الأمرُ لله بالنِّسْبة لِهَذا، لكِن فِي الآخِرةِ ليسَ فيه إلَّا أَمْر لله عَزَّوَجَلَّ، وهَذا كقَوْله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وَالمِلْك لله فِي الدُّنْيا وفي الآخِرة، لكِن فِي ذلِكَ اليَوْمِ يَظهَر مَلَكوت الله عَزَّوَجَلَّ وأَمْره، ويَتبَيَّن أَنَّه ليسَ هُناك آمِرٌ فِي ذلِك اليَوْم إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، وَالله أَعلَمُ، وصلَّى الله وسلم على نَبيِّنا مُحمَّدٍ.



تفسير سورة المطفِّفين

الآيات (١-٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦].

البَسْمَلة تَقدَّم الكَلام علَيْها.

﴿وَيْلٌ﴾ كلِمةُ (وَيْل) تكرَّرت فِي القُرْآن كَثيرًا، وهِي على الأَصَحِّ كلِمة وَعيدٍ يَتوعَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها مَن خالَفَ أَمْره، أوِ ارتكَب نَهيَه على الوَجْه المُفيد فِي الجُمْلة الَّتِي بعدَها فهُنا يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فمَنْ هَؤلاءِ المُطفِّفون؟ هَؤُلاءِ المُطفِّفون فسَّرَتهُمُ الآياتُ الَّتِي بعدَها فقالَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يَعنِي: اشتَرَوْا مِنهم مَا يُكال استَوْفَوْا مِنهم الحَقَّ كامِلًا بدون نَقْص ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ يَعنِي: إِذَا كالوا لَهُم، أي: هُمُ الَّذِين باعوا الطَّعام كَيْلًا، فإِنَّهم إِذَا كالوا للناس أو باعوا علَيْهم شَيْئًا وَزْنًا إِذَا وزنوا نَقَصوا ﴿يُخْسِرُونَ﴾، فهَؤُلاءِ يَستَوْفون حَقَّهم كامِلًا، ويَنقُصون حَقَّ غيرِهم، فجمَعوا بين

الأَمْرَيْن، بين الشُّحِّ وَالبُخْل، الشُّحُّ: فِي طَلَب حَقِّهم كامِلًا بدون مُراعاة أو مُسامحة، وَالبُخْل: بمَنْع مَا يَجِب علَيْهم من إِتْمام الكَيْل وَالوَزْن.

وهذا المِثالُ الَّذِي ذكَرَه الله عَزَّوَجَلَّ فِي الكَيْل وَالوَزْن هُو مِثال، فيُقاس عليه كُلُّ مَا أَشبَهَه، فكُلُّ مَن طلَبَ حقَّه كامِلًا مِمَّن هُو عليه ومنَعَ الحَقَّ الَّذِي عليه فإنه داخِلٌ فِي الآيَةِ الكَرِيمة، فمثَلًا الزَّوْج يُريد من زَوْجته أن تُعطِيَه حَقَّه كامِلًا ولَا يَتهاون فِي شيءٍ من حَقِّه، لكِنَّه عند أَداء حَقِّها يَتهاوَن ولَا يُعطِيها الَّذِي لهَا، ومَا أكثَرَ مَا تَشكو النِّساء من هَذا الطِّرازِ من الأَزْواج -وَالعِياذُ بالله- حيثُ إِن كثيرًا من النِّساءِ يُريدُ مِنها الزَّوْج أن تَقوم بحَقِّه كامِلًا، لكِنَّه هُو لَا يُعطيها حَقَّها كامِلًا، رُبَّما يَنقُص أَكثَرَ حَقِّها من النَّفَقة وَالعِشْرة بالمَعْروف وغير ذلِك، إِن ظُلْم النَّاس أَشَدُّ من ظُلْم الإِنسان نَفْسَه فِي حَقِّ الله؛ لأن ظُلْم الإنسان نَفْسَه فِي حَقِّ الله تَحتَ المَشيئة إِذَا كانَ دون الشِّرْك، إِن شاء اللهُ غفرَ لَه، وإِن شاءَ عاقَبَه عليه، لكِن حَقُّ الآدَمِيِّين لا بُدَّ أن يُوفَّى؛ ولهذا قالَ النَّبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ تَعُدُّونَ المُفْلِسَ فِيكُمْ؟**» قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لَا دِرهَمَ عِنْده ولَا مَتاعَ. فقالَ: «**إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الجِبَالِ** -كَثيرة- **فَيَأْتِي وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا، وَشَتَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[1].

فنَصيحَتِي لِهَؤُلاء الَّذِين يُفرِّطون فِي حَقِّ أَزْواجِهم أن يَتَّقوا الله عَزَّوَجَلَّ، فإِن النَّبيَّ ﷺ أَوْصى بالنِّساء فِي أَكبَر مَجمَع شَهِده العالَمُ الإِسْلاميُّ فِي حَياة الرَّسولِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي يَوْم عرفة فِي حَجَّة الوَداع، قالَ: «اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ»[1]، فأَمَرنا أن نَتَّقِيَ الله تعالى فِي النِّساء وقالَ: «اتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ»[2]، أي: بمَنزِلة الأَسْرى؛ لأن الأَسيرَ إن شاء فَكَّه الَّذِي أَسرَه وإِن شاء أَبْقاه، وَالمَرْأة عِند زَوْجها كذَلِك إن شاءَ طلَّقَها، وإِن شاء أَبْقاها، فهِي بمَنزِلة الأَسير عِنده فلْيَتَّقِ الله فيها.

كذَلِك أيضًا نَجِد بعضَ النَّاس يُريد من أَوْلاده أن يَقوموا بحَقِّه على التَّمام لكِنَّه مُفرِّط فِي حَقِّهم، فيُريد من أَوْلاده أن يَبَرُّوه ويَقوموا بحَقِّه، أن يَبَرُّوه فِي المال، وفي البَدَن، وفي كُلِّ شيءٍ يَكُون به البِرُّ، لكِنَّه هُو مُضيِّع لِهَؤُلاء الأَوْلاد، غير قائِم بما يَجِب عليه نَحوَهم، نقُول: هَذا مُطفِّفٌ. كما نَقُول فِي المَسأَلة الأُولى فِي مَسأَلة الزَّوْج مَع زَوْجته: إنه إِذَا أَراد مِنها أن تَقوم بحَقِّه كامِلًا وهُو يَبخَس حَقَّها نَقُول: إِنَّه مُطفِّف. هَذا الأَبُ الَّذِي أَراد من أَوْلاده أن يَبرُّوه تَمام البِرِّ وهُو مُقصِّر فِي حَقِّهم نَقُول: إِنَّكَ مُطفِّفٌ. ونَقُول لَه: تَذكَّر قولَ الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

ثُم قالَ تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ يَعنِي: أَلَا يَتيقَّن هَؤُلاءِ ويَعلَمون عِلْم اليَقين؛ لأن الظَّنَّ هُنا بمَعنى اليَقين، وَالظَّنُّ بمَعنى اليَقين يَأتي كَثيرًا فِي القُرآن مِثْل قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٦]، فقالَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب مَا جاء أن عرفة كلها موقف، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر ابن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الرضاع، باب مَا جاء فِي حق المرأة على زوجها، رقم (١١٦٣)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم (١٨٥١)، من حديث عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ وهُم يَتيقَّنون أنَّهم مُلاقو الله، لكِنِ الظَّنُّ يُستَعمَل بمَعنَى اليَقين كَثيرًا فِي اللُّغة العرَبية.

وهُنا يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أَلَا يَتيقَّن هَؤلاءِ أنَّهم مَبعوثون، أي: مُخرَجون من قُبورهِم لله رَبِّ العالَمِين ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هَذا اليَوْمُ عَظيم ولَا شَكَّ أنَّه عَظيم كَما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١]، عَظيم فِي طُوله، فِي أَهْواله، فيما يَحدُث فيه، فِي كُلِّ مَعنًى تَحمِله كلِمة عَظيم، لكِنْ هَذا العَظيمُ هُو على قَوْم عَسيرٌ، وعلى قَوْم يَسيرٌ، قالَ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠]، وقالَ تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر:٨]، لكِنَّه بالنِّسْبة للمُؤمِنين -جعَلَنا اللهُ مِنهم- يَسيرٌ كأَنَّما يُؤدِّي به صَلاة فَريضة من سُهولَته عليه ويُسْره علَيْه، لا سِيَّما إِذَا كانَ مِمَّن استَحَقَّ هذِه الوِقايةَ العَظيمة، وكانَ من الَّذِين يُظِلُّهم الله فِي ظِلِّه يَوْم لَا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه، فهَذا اليَوْمُ عَظيم، لكِنَّه بالنِّسبة للمُؤمِن يَكُون يَسيرًا ويَكُون على الكافِرِ عَسيرًا، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان:٢٦].

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَعنِي: هَذا اليَوْمُ العَظيم هُو ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يَقومون من قُبورهم حُفاة ليسَ علَيْهم نِعالٌ ولَا خِفافٌ، عُراة ليسَ علَيْهم ثِياب لَا قُمُصٌ ولَا سَراويلُ ولَا أُزُرٌ ولَا أَرْدِية، غُرْلًا أي: غَيْر مَختونين، بمَعنَى أن القُلْفة الَّتِي تُقْطَع فِي الخِتان تَعود يَوْم القِيامة مَع صاحِبها كَما قالَ الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، ويُعيدُه الله عَزَّوَجَلَّ لبَيان كَمال قُدْرته تعالى، وأنَّه يُعيد الخَلْق كَما بدَأَهُم، وَالقُلْفة إِنَّما قُطِعت فِي الدُّنْيا من أَجْل النَّزاهة عن الأَقْذار؛ لأنَّها إِن بَقِيَت فإِنه يَنحَبِس فيها شيءٌ من البَوْل، وتَكون عُرْضة للتَّلويث، لكِن هَذا فِي الآخِرة لَا حاجةَ إِليه؛ لأن أَهْل الجَنَّة لا يَبولون فيها

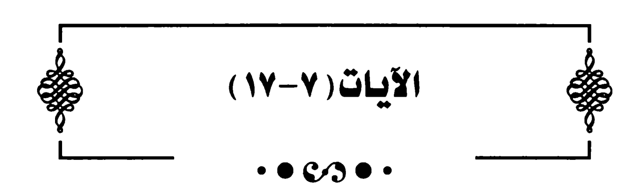
ولا يَتغوَّطون؛ ولأن الآخِرةَ ليسَتْ دارَ تَكْليف، بَلْ هِي دارُ جَزاءٍ إلَّا أن اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قَد يُكلِّف فيها امتِحانًا كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٢-٤٣].

فالنَّاسُ يَقومون على هَذا الوَصْفِ حُفاةً عُراةً غُرلًا، وفي بعضِ الأَحاديث: بُهمًا[1]، قالَ العُلَماء: البُهْم يَعنِي: الَّذِين لَا مالَ معَهم، ففي يَوْم القِيامة لَا مالَ يَفدِي به الإِنسانُ نَفْسه من العَذاب فِي يوم القِيامة، ليسَ هُناك ابنٌ يَجزِي عن أبيه شَيْئًا، ولَا أَبٌ يَجزِي عن ابنِه شَيْئًا، ولَا صاحِبة ولَا قَبيلة، كلٌّ يَقول: نَفْسي نَفْسي، ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]، نَسأَل اللهَ تعالى أن يُعينَنا على أَهْواله وأن يُيسِّره علَيْنا.

قالَ تعالى: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهُو الله جَلَّوَعَلَا، وفي هَذا اليَوْم تَتلاشَى جَميع الأَمْلاك إلَّا مِلْك رَبِّ العالَمِين جَلَّوَعَلَا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٦-١٧].

• • ❁ • •

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥)، من حديث عبدالله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيات (٧-١٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:٧-١٧].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ (كَلَّا) إِذَا ورَدَت فِي القُرآن فلهَا مَعانٍ حسبَ السِّياق، قَد تَكون حَرْف رَدْع وزَجْر، وقد تَكون بمَعنَى حَقًّا، وقد يَكُون لهَا مَعانٍ أُخْرى يُعيِّنها السِّياق؛ لأن الكلِماتِ فِي اللُّغة العرَبية ليسَ لهَا مَعنًى ذاتِيٌّ لَا تَتجاوَزُه، بل كَثيرٌ من الكلِماتِ العرَبيةِ لهَا مَعانٍ تَختَلِف بحَسب سِياق الكَلام.

فِي هذِه الآيةِ يَقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ فتَحتَمِل أن تَكون بمَعنَى: حَقًّا إِن كِتاب الفُجَّار لَفي سِجِّينٍ، أو تَكون بمَعنَى: الرَّدْع عن التَّكذيب بيَوْم الدِّين.

وعلى كل حالٍ: فقَد بيَّن الله تعالى فِي هذِه الآيَةِ الكَريمةِ أن كِتاب الفُجَّار -وهُمُ الكُفَّار- فِي سِجِّينٍ، وَالسِّجِّينُ قالَ العُلَماء: إنه مَأخوذٌ من السِّجْن وهُو الضِّيق، أي فِي مَكان ضَيِّق، وهَذا المَكانُ الضَّيِّقُ هُو نار جهَنَّمَ -وَالعِياذُ بالله- كما

قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٣-١٤].

وجاءَ فِي حَدِيثِ البَراء بنِ عازِبٍ الطَّويلِ المَشهور فِي قِصَّة المُحتَضَر ومَا يكُون بعدَ المَوْت أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقولُ: «**اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي** -يَعنِي: الكافِر- **فِي السِّجِّينِ فِي الأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى**»[1]، فسِجِّينٌ هُو أَسفَلُ مَا يَكُون من الأرض الَّذِي هُو مقَرُّ النار، نَعوذُ بالله مِنها، فهَذا الكِتابُ فِي سِجِّينٍ.

ثُم عظَّمَ الله عَزَّوَجَلَّ هَذا السِّجِّينَ بقَوْله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ فالاستِفْهام هُنا للتَّعْظيم، أي: مَا الَّذِي أَعلَمك بسِجِّين؟ وهَلْ بَحَثْتَ عنه؟ وهل سأَلْتَ عنه حتَّى يُبيِّن لَك؟ وَالتَّعظيم قَد يَكُون لعَظَمة الشيءِ رِفْعة وعُلُوًّا كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، وقد يَكُون لعظَمة الشيءِ نُزولًا، وهَذا التَّعظيمُ فِي سِجِّينٍ ليسَ لرِفعَته وعُلُوِّه ولكِنَّه لسُفوله ونُزولِه.

ثُم قالَ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ (كِتابٌ) هذِه لَا تَعود على سِجِّين، وإِنما تَعود على (كِتاب) فِي قَوْله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ كأنه قيلَ: فَما هَذا الكِتابُ؟ فقالَ: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ يَعنِي: مَكتوب لَا يُزاد فيه ولَا يُنقص ولَا يُبدَّل ولَا يُغيَّر، بَلْ هَذا مَآلُهُم ومَقرُّهم -وَالعِياذُ بالله- أبَدَ الآبِدين.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (وَيلٌ) سبَقَ الكَلامُ علَيْها فِي أَوَّل هذِه السُّورةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يُكذِّبون بيَوْم الجَزاء وهو يَوْم القِيامة، هَؤُلاءِ الَّذِين يُكذِّبون بيَوْم الدِّين تَوعَّدهم اللهُ بالوَيْل؛ لأن هَؤُلاءِ المُكذِّبين بيَوْم الدِّين لَا يُمكِن أن يَستَقيموا

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧).

على شَريعة الله، لَا يَستَقيم على شَريعة الله إِلَّا مَن آمَنَ بيَوْم الدِّين؛ لأن مَن لم يُؤمِن به وإِنما آمَنَ بالحَياة فقَطْ، فهُو لَا يَهتَمُّ بما وراءَها، ولَا يَعمَل لذلِكَ، وإِنَّما يَبقَى كالأنعام يَتَمتَّعون ويَأكُلون كَما تَأكُل الأنعام وَالنارُ مَثوًى لَهُم، وَالله يَقرُن الإِيمان به بالإِيمان باليَوْم الآخِرِ دائِمًا؛ لأن الإِيمان بالله ابتِداءً وَالإِيمان باليَوْم الآخِرِ انتِهاءً، فتُؤمِن بالله، ثُم تَعمَل لليَوْم الآخِرِ الَّذِي هُو المَقَرُّ، فهَؤُلاءِ -وَالعِياذُ بالله- كذَّبوا بيَوْم الدِّين، ومَن كذَّب به لَا يُمكِن أن يَعمَل لَه أبَدًا؛ لأن العَمَل مَبنيٌّ على عَقيدة، فإِذَا لم يَكُن هُناكَ عَقيدةٌ فلا عمَلَ.

ولهذا قالَ: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ أي: مَا يُكذِّب بيَوْم الدِّين ويُنكِره ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿مُعْتَدٍ﴾ فِي أفعالِه ﴿أَثِيمٍ﴾ فِي أَقْوالِه، وقيل: ﴿مُعْتَدٍ﴾ فِي أَفْعاله ﴿أَثِيمٍ﴾ فِي كَسْبه، أي: أن مَآلَه إِلى الإِثْم، وَالمَعنَيان مُتَقارِبان فلَا يُمكِن أن يُكذِّب بيَوْم الدِّين إِلَّا رجُلٌ مُعتَدٍ أَثيمٌ، آثِمٌ كاسِبٌ للآثام الَّتِي تُؤدِّي به إِلى نار جهَنَّمَ، نَعوذُ بالله.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يَعنِي: إِذَا تَلاها عليه أحَدٌ، وهُو يَدُلُّ علَى أن هَذا الرجُلَ لَا يُفكِّر أن يَتلوَ آياتِ الله، ولكِنَّها تُتْلى عليه فإِذَا تُلِيَت عليه ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: هذِه أَساطيرُ الأَوَّلين، وأَساطيرُ: جَمْع أُسْطورة وهِي الكَلام اللَّغْو الَّذِي يُذكَر للتَّسلِّي ولَا حَقيقةَ لَه ولَا أَصلَ لَه، فيَقول: هَذا القُرآنُ أَساطيرُ الأَوَّلين، ولم يَنتَفِع بالقُرآن وهُو أَبلَغُ الكَلام وأَشَدُّه تَأثيرًا على القَلْب حتَّى قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]؛ لأنه يُكذِّب بيَوْم الدِّين، ومَا يُكذِّب به إِلَّا كُلُّ مُعتَدٍ أَثيمٌ، فلَمْ يَكُن مُؤمِنًا فلَمْ يَصِلْ نورُ آيات

الله عَزَّوَجَلَّ إلى قَلْبه، بل يَراها مِثلَ أَساطير الأَوَّلين الَّتي يَتكلَّم بها العجائِزُ، وليس لَهَا أيُّ حَقيقةٍ وليسَ فيها أيُّ جِدٍّ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿كَلَّا بَلْ﴾؛ أي: ليسَتْ أَساطيرَ الأَوَّلين، ولكِن هَؤلاءِ ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾؛ أيِ: اجتَمَع عليها وحجَبَها عن الحقِّ ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أي: من الأَعْمال السَّيِّئات؛ لأن الأَعْمالَ السيِّئاتِ تَحول بين المَرْء وبين الهُدَى كما قالَ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

فمَنِ اهتَدَى بهَدْيِ الله واتَّبَع مَا أَمَر الله به، وترَكَ مَا نَهَى الله عنه، وصدَّقَ بما أَخبَرَ اللهُ به، وفعَلَ مِثْل ذلِك فيما جاءَ عن رَسولِ الله ﷺ فلَا شكَّ أن قَلْبه يَستَنير وأنه يَرَى الحَقَّ حقًّا، ويَرَى الباطِل باطِلًا، ويُعظِّم آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ، ويَرَى أنَّها فَوْق كُلِّ كَلام، وأن هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ فوقَ كُلِّ هَدْيٍ، هَذا مَن أَنار اللهُ قَلْبه بالإِيمان، أمَّا مَن تَلطَّخ قَلْبه بأَرجاس المَعاصِي وأَنجاسِها فإِنه لَا يَرَى هذِه الآياتِ حَقًّا، بَلْ لَا يَراها إلَّا أَساطيرَ الأَوَّلين كما فِي هذِه الآيَةِ.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وفي ﴿بَلْ﴾ سَكْتة لَطيفة عند بَعْض القُرَّاء، وعِند آخَرين لَا سَكْتةَ، فيَجوز على هَذا أن تَقولَ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ ويَجوز أن تَقول: ﴿كَلَّا بَل رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وهَذِه لَا تُغيِّر المَعنَى سَواءٌ سكَتَّ أم لم تَسكُت فالمَعنَى لَا يَتغيَّر.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؛ أي: حقًّا إِنَّهم عن رَبِّهم لَمَحْجوبون، وذلِك فِي يَوْم القِيامة فإِنَّهم يُحجَبون عن رُؤْية الله عَزَّوَجَلَّ كما حُجِبوا عن رُؤْية شَريعته وآياتِه فرَأَوْا أَنَّها أَساطيرُ الأَوَّلين.

وبهذه الآيةِ استدَلَّ أهلُ السُّنَّة وَالجماعةُ على ثُبوت رُؤْية الله عَزَّوَجَلَّ، ووَجْه الدَّلالة ظاهِر، فإنه مَا حُجِب هَؤُلاءِ فِي حال السُّخْط إلَّا وقد مُكِّن للأَبْرار من رُؤْيته تعالى فِي حال الرِّضا، فإِذَا كانَ هَؤُلاءِ مَحجوبون فإِن الأبرارَ غيرُ مَحْجوبين، ولو كانَ الحَجْب لكُلٍّ مِنْهم لم يَكُن لتَخْصيصه بالفُجَّار فائِدة إِطلاقًا. ورُؤْية الله عَزَّوَجَلَّ ثابِتةٌ بالكِتاب، ومُتواتِر السُّنَّة، وإِجْماع الصَّحابة وَالأئِمَّة، لَا إِشكالَ فِي هَذا أَنَّه تعالى يُرى حَقًّا بالعَيْن كما قالَ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وقالَ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وقد فسَّرَ النَّبيُّ ﷺ الزِّيادة بأَنَّها النَّظَر إِلى وَجْه الله تعالى[1]، وكما فِي قَوْلِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وَالمزيد هُنا هُو بمَعنَى الزِّيادة فِي قَوْلِه ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وكَما قالَ تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣]. فإِن نَفْيَ الإِدْراك يَدُلُّ علَى ثُبوت أَصْل الرُّؤْية؛ ولهذا كانَت هذِه الآيَةُ مِمَّا استدَلَّ به السلَفُ على رُؤْية الله، واستدَلَّ به الخَلَف على عدَم رُؤْية الله، ولَا شَكَّ أن الآيَةَ دَليلٌ عليهم، لأن الله لم يَنفِ بها الرُّؤْية، وإِنَّما نَفَى الإِدْراك، ونَفيُ الإِدْراك يَدُلُّ علَى ثُبوت أَصْل الرُّؤْية.

فالحاصِلُ أن القُرآن دَلَّ على ثُبوت رُؤْية الله عَزَّوَجَلَّ حَقًّا بالعَيْن، وكذلِكَ جاءَتِ السُّنَّة الصَّحيحة بذلِكَ حيثُ قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عَيَانًا كَما تَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْس دُونَهَا سَحَابٌ**»[2]، وقالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّكُمْ**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين فِي الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨١)، من حديث صهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

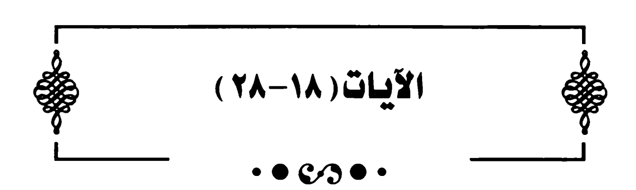
سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ»[1]، وقد آمَنَ بذلِكَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالتابِعون لَهُم بإِحْسان من سلَفِ هذِه الأُمَّةِ وأَئِمَّتها، وأَنكَر ذلِكَ مَن حُجِبت عُقولُهم وقُلوبهم عَنِ الحَقِّ فقالوا: إِن الله لَا يُمكِن أن يُرَى بالعَيْن، وإِنما المُراد بالرُّؤْية فِي الآيات هِي رُؤْية القَلْب، أيِ: اليَقين، ولَا شَكَّ أن هَذا قولٌ باطِلٌ مُخالِف للقُرآن وَالسُّنَّة وإِجْماع السلَف، ثُمَّ إِن اليَقين ثابِتٌ لغَيْرهم أيضًا حتَّى الفُجَّار يَوْم القِيامة سَوْف يَرون مَا وُعِدوا به حقًّا ويَقينًا، وليسَ هَذا مَوضِعَ الإِطالة فِي إِثباتِ رُؤْية الله عَزَّوَجَلَّ وَالمُناقَشة فِي أدِلَّة الفَريقين؛ لأن الأَمْر -ولله الحَمدُ- أَوْضَحُ من أن يُطال الكَلامُ فيه.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾؛ أي: هَؤُلاءِ الفُجَّار ﴿لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾؛ أي: يَصلَوْن حَرارتَها أو عَذابها، نَسأَل اللهَ العافِيةَ، ثُم يُقال تَقريعًا لَهُم وتَوْبيخًا: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، فيَجتَمِع عليهِمُ العَذابُ البدَنيُّ وَالأَلَم البدَنيُّ بصَلْي النارِ، وكذلِكَ العَذاب القَلْبيُّ بالتَّوْبيخ وَالتَّنديم حيثُ يُقال: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾؛ ولهذا يَقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، قالَ اللهُ تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

• • ❁ • •

= ولفظ: (عيانا) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٥)، من حديث جرير بن عبدالله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، رقم (٧٤٣٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، رقم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبدالله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيات (١٨-٢٨)

• • ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨-٢٨].

• • ● ● •

ولمَّا ذكَرَ الله تعالى أحوالَ الفُجَّار وما لَهُم من العَذاب ذكَرَ أَحْوالَ الأَبْرار وما لَهُم من النَّعيم فقالَ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨-٢٨].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ في هذِه الآيَةِ يَذكُر الله عَزَّوَجَلَّ خبَرًا مُؤكَّدًا بـ«إِنَّ»؛ لأن «إِنَّ» فِي اللُّغة العرَبية من أَدوات التَّوْكيد، فإِنَّك إِذَا قُلتَ: الرجُلُ قائِمٌ. فهَذا خبَرٌ غيرُ مُؤكَّد، فإِذَا قلت: إِن الرجُلَ قائِمٌ. صار خبَرًا مُؤكَّدًا فيَقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾، وهَذا مُقابِل: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ فكِتاب الفُجَّار فِي سِجِّين فِي أَسفَل الأرض، وكِتاب الأَبرار فِي عِلِّيِّين فِي أعلى الجَنَّة،

أي: أنَّهم فِي هَذا المَكانِ العالِي قَد كُتِب ذلِك عِند الله عَزَّوَجَلَّ قبلَ أن يَخلُق السمَواتِ وَالأرضَ بخَمسِين ألْفَ سَنةٍ.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؛ أي: مَا الَّذِي أَعلَمَك مَا عِلِّيُّون؟ وهَذا الاستِفْهامُ يُراد به التَّفخيمُ وَالتَّعظيم. يَعنِي: أيُّ شيءٍ أَدْراكَ به فإِنه عَظيم.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ﴾ هَذا بَيانٌ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾؛ أي: إن كِتاب الأَبرار كِتاب مَرْقوم مَكْتوب لَا يَتغيَّر ولَا يَتبدَّل.

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ يَشهَده أي: يَحضُره، أو يَشهَد به المُقرَّبون، و﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ عِند الله هُمُ الَّذِين تَقرَّبوا إِلى الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بطاعتِه، وكُلَّما كانَ الإِنسانُ أكثَرَ طاعةً لله كانَ أقرَبَ إِلى الله، وكُلَّما كانَ الإِنسانُ أشَدَّ تَواضُعًا لله كانَ أعَزَّ عِند الله، وكانَ أرفَعَ عِند الله، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، فالمُقرَّبون هُمُ الَّذِين تَقرَّبوا إِلى الله تعالى بصالِحِ الأَعْمال، فقرَّبَهم اللهُ من عِنده.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ الأَبْرار: جَمْع بَرٍّ، وَالبَرُّ كَثيرُ الخَيْر، كَثيرُ الطاعة، كَثيرُ الإِحسان فِي عِبادة الله وَالإِحْسان إِلى عِباد الله، فهَؤُلاءِ الأَبْرارُ الَّذِين مَنَّ الله علَيْهم بفِعْل الخَيْراتِ، وتَرْك المُنكَرات.

﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ وَالنَّعيمُ هُنا يَشمَل نَعيم البدَن ونَعيم القَلْب، أَمَّا نَعيم البدَن فلَا تَسأَل عنه، فإِن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قالَ فِي الجَنَّة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١]، وقالَ تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وأَمَّا نَعيم القَلْب فلَا تَسأَل

عنه أيضًا فإِنَّهم يُقال لَهُم وقد شاهَدوا المَوْت قَد ذُبِحَ: يا أَهْلَ الجَنَّة، خُلودٌ ولَا موتَ. ويُقالُ لَهُمُ: ادْخُلوها بسَلامٍ. ويُقال لَهُم: إِن لَكُم أن تَنعَموا فلَا تَبْأَسوا أَبدًا، وأن تَصِحُّوا فلَا تَمرَضوا أبدًا، وأن تَشِبُّوا فلَا تهرَموا أبدًا. وكُلُّ هَذا مِمَّا يُدخِل السُّرور على القَلْب، فيَحصُل لَهُم بذلِكَ نَعيم القَلْب ونَعيم البدَن، وَالمَلائِكةُ يَدخُلون علَيْهم من كل بابٍ يَقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]، جعَلنَا اللهُ مِنهم.

وقَوْلُه تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الأَرائِكُ جَمْع أَريكةٍ، وهِي السَّريرُ المُزخرَف المُزيَّن الَّذِي وُضِع عليه مِثلُ الظِّلِّ، وهُو من أَفخَر أَنْواع الأَسِرَّة فهُمْ على الأرائِكِ على هذِه الأَسِرَّةِ الناعِمة الحَسَنة البَهيَّة ﴿يَنظُرُونَ﴾ يَعنِي: يَنظُرون إلى مَا أَنعمَ الله به علَيْهم من النَّعيم الَّذِي لَا تُدرِكه الأَنفُس الآنَ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة:١٧]، وقالَ بعضُ العُلَماء: إِن هَذا النَّظَرَ يَشمَل حتَّى النَّظَر إِلى وَجْه الله، وجعَلوا هذِه الآيَةَ من الأَدِلَّة على ثُبوت رُؤْية الله عَزَّوَجَلَّ فِي الجَنَّة.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: تَعرِف أَيُّها الناظِرُ إِليهِم ﴿فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: حُسْن النَّعِيم وبَهاءَه، أي: التَّنعُّم، وأنتُمْ تُشاهِدون الآنَ فِي الدُّنْيا أن المُنعَّمين المُترَفين وُجوهُهم غيرُ وُجوهِ الكادِحين العامِلين، تَجِدها نَضِرة، تَجِدها حَسَنة، تَجِدها مُنعَّمة، فأَهْل الجَنَّة تَعرِف فِي وُجوهِهم نَضْرة النَّعيم، أيِ: التَّنعُّم وَالسُّرور؛ لأَنَّهم أَسَرُّ مَا يَكُون، وأَنعَمُ مَا يَكُون، ثُم قالَ اللهُ تعالى فِي بَيان مَا لَهُم من النَّعيمِ:

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾ الضَّميرُ فِي قَوْله: ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾ يَعنِي: الأَبْرار، يَسقيهِمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بأَيْدي الخَدَم الَّذِين وصَفَهم اللهُ بقَوْله: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ

﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٧-١٩].

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾؛ أي: مِن شَراب خالِصٍ لَا شَوبَ فيه ولَا ضرَرَ فيه على العَقْل، ولَا أَلمَ فيه فِي الرَّأْس، بخِلاف شَراب الدُّنْيا فإِنه يَغتالُ العَقْل، ويُصدِّع الرأسَ، أمَّا هَذا فإِنه رَحيقٌ خالِصٌ ليسَ فيه أيُّ أذًى ﴿مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾؛ أي: بَقيَّتُه وآخِرُه مِسْك، أي: طَيِّب الرِّيح، بخِلاف خَمر الدُّنْيا فإِنه خَبيثُ الرائِحة. فهَؤُلاءِ القَوْمُ الأَبْرار لَمَّا حَبَسوا أَنفُسَهم عن المَلاذِّ الَّتِي حرَّمَها اللهُ عليهم فِي الدُّنْيا أُعطُوها يومَ القِيامة.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾؛ أي: وفي هَذا الثَّوابِ وَالجَزاءِ ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾؛ أي: فلْيَتَسابَقِ المُتَسابِقون سِباقًا يَصِل بِهِم إِلى حَدِّ النَّفَس، وهُو كِناية عن السُّرْعة فِي المُسابَقة، يُقال: نافَسْته أي: سابَقْته سِباقًا بلَغَ بِي النَّفَس، وَالمُنافَسة فِي الخَيْر هِي المُسابَقة إِلى طاعةِ الله عَزَّوَجَلَّ وإِلى مَا يُرضِي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وَالبُعْد عمَّا يُسخِط الله.

ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: مِزاجُ هَذا الشَّرابِ الَّذِي يُسقاهُ هَؤلاءِ الأَبْرارُ ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: مِن عَيْن رَفيعة مَعنًى وحِسًّا، وذلِك لأن أَنْهار الجَنَّة تُفجَّر من الفِرْدوس، وَالفِرْدوس هُو أَعْلى الجَنَّة، وأَوْسَط الجَنَّة، وفوقَه عَرْش الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ كَما ثبَتَ ذلِكَ عن رَسولِ الله ﷺ[1]، فهَذا الشَّرابُ يُمزَج بهذا الطِّيبِ الَّذِي يَأتِي من التَّسنِيم، أي: من المَكان المُسنَّم الرَّفيع

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين فِي سبيل الله، رقم (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

العالِي، وهُو جَنَّة عَدْنٍ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ أي: أن هذِه العَيْنَ، وَالمِياهَ النابِعة، وَالأَنْهار الجارية يَشرَب بها المُقرَّبون.

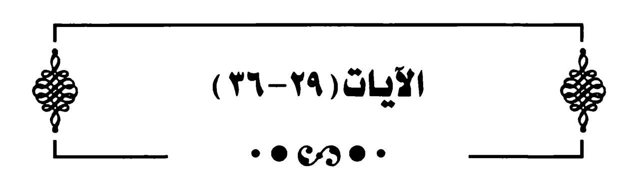
وهُنا سيَقولُ قائِلٌ: لِماذا قالَ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾؟ هل هِي إِناءٌ يُحمَل حتَّى يُقال: شرِبَ بالإِناءِ؟

فالجَوابُ: لَا؛ لأن العَيْن وَالنَّهر لَا يُحمَلان، إِذَنْ لماذا لم يَقُل: يَشرَب مِنها المُقرَّبون؟ وَالجَوابُ عن هَذا الإِشكالِ من أَحَد وَجْهَيْن: فمِن العُلَماء مَن قالَ: الباءُ بمعنى (مِن) فمَعنَى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾؛ أي: يَشرَب مِنها. ومِنهم مَن قالَ: إِنَّ (يَشرَب) بمَعنَى: يَروَى، ضُمِّنَت مَعنَى (يروى)، فمَعنَى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾؛ أي: يَروَى بِها المُقرَّبون، وهَذا المَعنَى أو هَذا الوَجْهُ أَحسَنُ من الوَجْه الَّذِي قَبلَه؛ لأن هَذا الوَجهَ يَتَضمَّن شَيْئَيْن يُرجِّحانه وهُما:

أوَّلًا: إِبقاءُ حَرْف الجَرِّ على مَعناه الأَصلِيِّ.

وَالثاني: أن الفِعْل ﴿يَشْرَبُ﴾ ضُمِّن مَعنى أَعلَى من الشُّرْب وهُو الرِّيُّ، فكَمْ من إِنسان يَشرَب ولَا يَروَى، لكِن إِذَا رَوِيَ فقَدْ شرِبَ، وعلى هَذا فالوَجهُ الثاني أَحسَنُ وهُو أن يُضمَّن الفِعْل ﴿يَشْرَبُ﴾ بمَعنَى: يَروَى.

• ● ❁ ● •



الآيات (٢٩-٣٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٦].

•••

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾؛ أي: قاموا بالجُرْم وهُو المَعْصية وَالمُخالَفة ﴿كَانُوا۟﴾؛ أي: فِي الدُّنْيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ استِهْزاءً وسُخْرية واستِصْغارًا لَهُم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟﴾ الفاعِل يَصِحُّ أن يَكُون إِذَا مَرَّ المُؤمِنون بالمُجرِمين، أو إِذَا مَرَّ المُجرِمون بالمُؤمِنين، وَالقاعِدةُ الَّتِي يَنبَغي أن تُفهَم فِي التَّفسير: أن الآيَةَ إِذَا احتَمَلَت مَعنيَيْن لَا يُنافِي أَحَدُهُما الآخَرَ وجَبَ حَمْلُها على المَعنيَيْن؛ لأن ذلِك أَعمُّ، فإِذَا جعَلْناها للأَمْرَيْن صار المَعنَى: أن المُجرِمين إِذَا مَرُّوا بالمُؤمِنين وهُم جُلوس تَغامَزوا، وإِذَا مَرَّ المُؤمِنون بالمُجرِمين وهُمْ جُلوس تَغامَزوا أيضًا، فتكون شامِلةً للحالَيْن: حالِ مُرور المُجرِمين بالمُؤمِنين، وحالِ مُرور المُؤمِنين بالمُجرِمين.

﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ يَعنِي: يَغمِز بعضُهم بعضًا: انظُرْ إِلى هَؤُلاءِ سُخرية واستِهزاءً واستِصْغارًا.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ إِذَا انقلَبَ المُجرِمون إِلى أَهلِهم ﴿ٱنقَلَبُوا۟

فَكِهِينَ ﴾ يَعنِي: مُتفكِّهين بما نالوه من السُّخْرية بهَؤُلاء المُؤمِنين، فهم يَستَهزِئون ويَسخَرون ويَتَفكَّهون بهذا، ظنًّا مِنهم أنهم نَجَحوا وأنَّهم غلَبوا المُؤمِنين، ولكِنِ الأَمرُ بالعَكْس.

ثُم قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾؛ أي: رَأَى المُجرِمون المُؤمِنين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، ضالُّون عن الصَّواب، مُتأخِّرون، مُتزمِّتون مُتَشدِّدون إِلى غير ذلِك من الأَلْقاب، ولقَدْ كانَ لهَؤُلاءِ السلَفِ خَلَف فِي زَماننا اليَوْمَ ومَا قبلَه ومَا بعدَه، فمِن النَّاس مَن يَقول عن أَهْل الخَيْر: إِنَّهم رَجعيُّون، إِنَّهم مُتخَلِّفون. ويَقولون عن المُستَقيم: إِنه مُتَشدِّد مُتزمِّت. وفوقَ هَذا كُلِّه مَن قالوا للرُّسُل عليهم الصلاة وَالسلام: إِنهم سَحَرة أو مَجانينُ. قالَ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، فورَثةُ الرُّسُل من أَهْل العِلْم وَالدِّين سينَالُهُم من أَعداء الرُّسُل مَا نال الرُّسُلَ من أَلْقاب السُّوء وَالسُّخْرية ومَا أَشبَهَ ذلِك، ومن هَذا تَلقيب أَهْل البِدَع أَهْلِ التَّعطيل للسلَفِ أَهلِ الإِثبات بأَنَّهُم حَشَويَّة، مُجسِّمة، مُشبِّهة، ومَا أَشبَه ذلِك من أَلْقاب السُّوء الَّتِي يُنفِّرون بها النَّاسَ عن الطَّريق السوِيِّ، ويُبرِّرون طَريقهم المُعوَجَّ المُلْتوِيَ.

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾؛ أي: أن هَؤُلاءِ المُجرِمين مَا بُعِثوا حافِظين لِهَؤُلاء المُؤمِنين يرقُبونهم ويَحكُمون عليهم، بلِ الحُكْم لله عَزَّوَجَلَّ، ثُم قالَ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ اليَوْمَ يَعنِي: يَوْمَ القِيامة، الَّذين آمَنوا يَضحَكون من الكُفَّار فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُبتَدَأ، و﴿يَضْحَكُونَ﴾ خبَرُه، و﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ مُتعَلِّق بـ﴿يَضْحَكُونَ﴾، وَالمَعنَى: فالَّذين آمَنوا يَضحَكون اليَوْمَ من الكُفَّار، وهَذا وَاللهِ هُو الضَّحِكُ الَّذِي

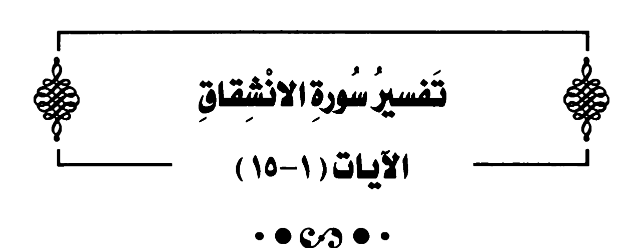
لَا بُكاءَ بعدَه، أمَّا ضحِكُ المُجرِمين بالمُؤمِنين فِي الدُّنْيا فسيَعقُبه البُكاء وَالحُزْن وَالوَيْل وَالثُّبور.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: أن المُؤمِنين على الأرائِكِ فِي الجَنَّة، وَالأَرائِكُ هِي السُّرَرُ الفَخْمة الحَسَنة النَّضِرَة ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ أي: يَنظُرون مَا أَعَدَّ الله لهُمْ من الثَّواب، ويَنظُرون أُولَئِك الَّذِين يَسخَرون بِهِم فِي الدُّنْيا، يَنظُرون إِليهِم وهُم فِي عَذاب الله، كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات:٥١-٥٤]، يَقولُ لأَصْحابه فِي الجَنَّة يَعرِض عليهم أن يَطَّلعوا إِلى قَرينِه الَّذِي كانَ فِي الدُّنيا يُنكِر البَعْث ويُكذِّب به: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥] فِي قَعْره وأَصْله قالَ لَه: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات:٥٦-٥٧]، فأَنْت تَرى أن المُؤمِنين يَرَوْن الكُفَّار وهُمْ يُعذَّبون فِي قَعْر النار، وَالمُؤمِنون فِي الجَنَّة.

ثُم قالَ تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿ثُوِّبَ﴾؛ أي: جُوزِيَ، و﴿هَلْ﴾ هُنا للتَّقرير، أي: أن الله تعالى قَد ثَوَّب الكُفَّار وجازاهُم جَزاءَ فِعْلِهم فِي الدُّنيا، وهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكَمٌ عَدْلٌ، فحُكْمه دائِرٌ بين العَدْل وَالفَضْل: بالنِّسْبة للَّذين آمَنوا حُكْمه وجَزاؤُه فَضْلٌ، وبالنِّسْبة للكافِرين حُكْمه وجَزاؤُه عَدْل، فالحَمدُ لله رَبِّ العالَمِين.

وبهذا تَمَّ الكَلامُ الَّذِي يَسَّرَه الله عَزَّوَجَلَّ على سُورة المُطفِّفين، نَسأَل اللهَ تعالى أن يَنفَعَنا وإِيَّاكُم به، وأن يَجعَلنا من المُتَّعِظين الواعِظين. إنه جَوادٌ كَريمٌ.

• ● ۞ ● •



تفسير سورة الانشقاق

الآيات (١-١٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق:١-١٥].

البَسمَلة تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ انشَقَّتِ: انفتَحت وانفرَجت كقَوْله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات:٩]، وكقَوْله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن:٣٧-٣٩]، إِذَنْ فانْشِقاقُها يَوْمَ القِيامة.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ (أَذِنَت) بمَعنَى: استَمَعت وأَطاعَت أَمْر ربِّها عَزَّوَجَلَّ أن تَنشَقَّ فانشَقَّتْ، بينما هِي كانَت كما وَصَفها اللهُ تعالى: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ:١٢]: قوِيَّة، كما قالَ

تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧]، أي: بقُوَّة فهذِه السَّماءُ القَوِيَّة العَظيمة تَنشَقُّ يَوْم القِيامة تَتَشقَّق تَتفرَّج بإِذْنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَحُقَّتۡ﴾؛ أي: حُقَّ لهَا أن تَأذَن، أي: تَسمَع وتُطيع؛ لأن الَّذِي أَمَرَها الله ربُّها وخالِقُها عَزَّوَجَلَّ، فتَسمَع وتُطيع، كَمَا أنَّها سمِعَت وأَطاعَت فِي ابتِداءِ خَلْقِها، ففِي ابتِداء خَلْقها قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

فتأمَّل أيُّها الآدميُّ البشَرَ الضَّعيف كيف كانَت هذِه المَخْلوقاتُ العَظيمةُ تَسمَع وتُطيع لله عَزَّوَجَلَّ، هذِه الطاعةُ العَظيمةُ فِي ابتِداءِ الخَلْق وفي انتِهاءِ الخَلْق؛ فِي ابتِداءِ الخَلْق قالَ: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ فِي انتِهاء الخَلْق ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ حُقَّ لَهَا أن تَأذَن تَسمَع وتُطيع، ثُم أَعاد فقالَ: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ تَأكيدًا لاستِماعِها لربِّها وطاعَتِها له.

﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ هذِه الأَرْضُ الَّتِي نحن علَيْها الآنَ هِي غير مَمدودة، أوَّلًا: أنَّها كُرة مُدوَّرة، وإِن كانَت جَوانِبُها الشَّمالية وَالجَنوبية مُنفَتِحة قَليلًا -أي: مُتَدَّة قَليلًا- فهِي مُدوَّرة الآنَ، ثانيًا: ثُم هِي أيضًا معرَّجة فيها المُرتَفِع جِدًّا، وفيها المُنخَفِض، فيها الأَوْدِية، فيها السُّهول، فيها الرِّمال، فهِي غير مُستَوِية، لكِن يَوْم القِيامة ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾؛ أي: تُمَدُّ مَدًّا واحِدًا كمَدِّ الأَديم، يَعنِي: كمَدِّ الجِلْد، كأنها تُفرَش جِلدًا أو سِماطًا، تُمَدُّ حتَّى إِن الَّذِين عليها -وهُمُ الخَلائِق- يُسمِعُهم الداعِي، ويَنفُذهم البَصَر، لكِنِ الآنَ لَا يَنفُذهم البَصَر، لوِ امتَدَّ النَّاس على الأَرْض لوجَدْت البَعيدين مُنخَفِضين لَا تَراهُم، لكِن يَوْمَ القِيامة إِذَا مُدَّت صار أَقْصاهم مِثْل أَدْناهم كَمَا جاءَ فِي الحَديثِ: «يَجْمَعُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي

صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ»[1].

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾؛ أي: جُثَث بَني آدَمَ تُلقِيها يَوْم القِيامة، تُلقِي هذِه الجُثَث فيَخرُجون من قُبورهم لله عَزَّوَجَلَّ، كَما بدَأَهُم أوَّلَ خَلْق، أي: كَما خرَجوا مِن بُطون أُمَّهاتِهم يَخرُجون من بُطون الأرض، وأنت خرَجْت من بَطْن أُمِّك حافِيًا، عارِيًا، أَغرَلَ إلَّا أن بعض النَّاس قَد يُخلَق مَختونًا، لكِن عامَّة النَّاس يَخرُجون من بُطون أُمَّهاتِهم غُرْلًا، كذَلِك تَخرُج من بطن الأرض يَوْم القِيامة حافِيًا ليسَ عليكَ نِعالٌ، عارِيًا ليسَ عَليكَ كِساءٌ، أَغرَلَ لَسْتَ مَختونًا، ولَمَّا حدَّث النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلِكَ قالت عائِشةُ: يا رَسولَ الله، الرِّجال وَالنِّساء جَميعًا يَنظُر بعضُهم إلى بعضٍ؟ قالَ: «يَا عَائِشَةُ، الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»[2]، الأَمْر شَديد، كلُّ إنسانٍ لاهٍ بنَفْسه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]، وَالإِنسانُ إِذَا تَصوَّر النَّاس فِي ذلِك الوَقْتِ مُجرَّد تَصوُّر فإنه يَرتَعِب ويَخاف، وإِذَا كانَ عاقِلًا مُؤمِنًا عمِلَ لِهَذا اليَوْمِ.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (أَذِنَت) يَعنِي: استَمَعَت وأَطاعَت لرَبِّها وحُقَّت، فبَعدَ أن كانَت مُدوَّرة فيها المُرتَفِع وَالنازِل صارَت كأنَّها جِلْد مُمتَدَّة امتِدادًا واحِدًا.

ثُمَّ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ الكادِحُ: هُو الساعِي بجِدٍّ ونَوْعِ مَشَقَّة، وقَوْلُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يَعنِي: أَنَّك تَكدَح كَدْحًا يُوصِلك إلى رَبِّك، يَعنِي: أن مُنتَهى كَدْحك مَهْما كُنت يَنتَهِي إِلى الله، لأَنَّنا سنَموت، وإِذَا مِتْنا رجَعْنا إِلى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٣٦١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

الله عَزَّوَجَلَّ، فمَهْما عمِلْت فإن الْمُنتَهى هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]؛ ولِهَذا قالَ: ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ حتَّى العاصِي كادِحٌ كَدْحًا غايتُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦]، لكِنِ الفَرْق بين الْمُطيع وَالعاصِي: أن الْمُطيع يَعمَل عمَلًا يَرضاه الله، ويَصِل به إِلى مَرضاة الله يَوْم القِيامة، وَالعاصِي يَعمَل عمَلًا يُغضِب الله، لكِن مَع ذلِك يَنتَهي إِلى الله عَزَّوَجَلَّ، إِذَن قَوْلُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يَعُمُّ كُلَّ إِنْسان مُؤمِن وكافِر.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الفاءُ يَقول النَّحوِيُّون: إِنها تَدُلُّ على التَّرتيب وَالتَّعقيب، يَعنِي: فأنتَ مُلاقِيه عن قُرْب ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ [الأنعام:١٣٤]، وكُلُّ آتٍ قَريبٌ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧].

وإِذَا شِئْتَ أن يَتبَيَّن لَك أن مُلاقاةَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ قَريبة فانظُرْ مَا مَضَى من عُمْرك الآنَ، لو مضَى لَكَ مِئة سَنَة كأَنَّما هذِه السنَّواتُ ساعةٌ واحِدةٌ، كُلُّ الَّذِي مَضى من أَعْمارِنا كأَنَّه ساعةٌ واحِدةٌ، إِذَن هُو قَريبٌ، ثُم إِذَا مات الإِنسان، فالبَرْزَخ الَّذِي بين الحَياة الدُّنْيا وَالآخِرة قَريب قَريب كاللَّحْظة، وَالإِنسانُ إِذَا نام نَوْمًا هادِئًا ولْنَقُلْ: نامَ أَرْبعًا وعِشرين ساعةً. وقام فإِنَّه يُقدِّر النَّوْم بدَقيقة واحِدة مَع أَنَّه نام أَربَعًا وعِشرين ساعةً، فإِذَا كانَ هَذا فِي مُفارَقة الرُّوح فِي الحَياة يَمضِي الوَقْتُ بهذه السُّرْعةِ، فما بالُكَ إِذَا كانَت الرُّوحُ بعد خُروجِها من البدَن مَشغولةً إِمَّا بنَعيم أو جَحيم، ستَمُرُّ السنَوات على الإِنسان كأَنَّها لَا شيءَ؛ لأن امتِدادَ الزمَن فِي حال يَقظَتِنا ليسَ كامتِداد الزَّمَن فِي حال نَوْمنا، فالإِنسانُ الْمُستَيْقِظ من طُلوع الشَّمْس إِلى زَوال الشَّمْس يُحِسُّ بأن الوَقْت طَويل، لكِن لو كانَ نائِمًا مَا كأَنَّها شيءٌ، وَالَّذِي أَماتَه اللهُ مئةَ عامٍ ثُم بعثَه: ﴿قَالَ كَمْ

لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وأَصْحاب الكَهْف لَبِثوا فِي كَهْفهم ثلاثَ مِئة سِنين وتِسْع سِنين، فلَمَّا بُعِثوا قالَ بعضُهم لبَعْضٍ: كَمْ لَبِثْتُم؟ قالوا: لَبِثْنا يومًا أو بعضَ يَوْم. وهَذا يَدلُّ علَى أن الإِنسان يَتعجَّب كيف تَذهَب السَّنَواتُ على هَؤُلاءِ الأَمْواتِ؟

نَقُول: نعَم، السَّنَواتُ مَا كأَنَّها إلَّا دَقيقة واحِدة، لأن حالَ الإِنسان بعدَ أن تُفارِق الرُّوح بدَنَه سواءٌ كانَت مُفارَقة كُلِّيَّة أو جُزْئِيَّة غير حاله إِذَا كانَتِ الرُّوح فِي البدَن، فإِذَا كانَت الرُّوح فِي البدَن يُعانِي من المَشقَّة وَالمَشاكِل وَالهواجِس وَالوَساوِس أَشياءَ تُطيلُ عليه الزَّمَن، لكِن فِي النَّوْم يَتَقلَّص الزمَنُ كَثيرًا، وفِي المَوْت يَتَقلَّص أكثَرَ وأَكثَرَ، فهَؤُلاءِ الَّذِين ماتوا مُنذُ سِنين طَويلة كأَنَّهم لم يَموتوا إلَّا اليَوْمَ فلَوْ بُعِثوا وقيل لهم: كَمْ لَبِثْتُم؟ قالوا: لَبِثْنا يَوْمًا أو بعضَ يَوْم. وهذِه مَسأَلة قَد يَرِد على الإِنْسان فيها إِشْكال، ولكِن لَا إِشكالَ فِي المَوْضوع مَهْما طالَتِ المُدَّة بأَهْل القُبور فإِنها قَصيرة.

ولهذا قالَ: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ بالفاء الدالَّةِ على التَّرتيب وَالتَّعْقيب، ومَا أَسرَعَ أن تُلاقِيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ! ثُم قسَّم الله عَزَّوَجَلَّ النَّاسَ عِند مُلاقاتِه تعالى إِلى قِسمَيْن: مِنهم مَن يَأخُذ كِتابه بيَمينه، ومِنْهم مَن يَأخُذ كِتابه من وَراءِ ظَهْره.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ لَمَّا ذكَرَ أن الإِنسان كادِحٌ إِلى رَبِّه ﴿كَدْحًا﴾؛ أي: عامِل بجِدٍّ ونَشاطٍ وأن عمَله هَذا يَنتَهي إِلى الله عَزَّوَجَلَّ كمَا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود:١٢٣]، لَمَّا ذكَرَ هَذا قالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، إِشارةً إِلى أن هَؤُلاءِ

العامِلين مِنهم مَن يُؤتَى كِتابَه بيَمينه، ومِنْهم مَن يُؤتَى كِتابه من وَراءَ ظَهْره ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ و﴿أُوتِيَ﴾ هُنا فِعْل مَبنيٌّ لِما لَمْ يُسمَّ فاعِلُه، فمَن الَّذي يُؤتِيه؟ يُحتَمَل أنَّه المَلائِكة، أو غيرُ ذلِك لَا نَدرِي، المُهِمُّ أنَّه يُعطَى كِتابَه بيَمينه، أي: يَستَلِمه باليُمْنى.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؛ أي: يُحاسِبه الله تعالى بإِحْصاء عمَله علَيْه، لكِنه حِسابٌ يَسيرٌ، ليسَ فيه أيُّ عُسْر كما جاءَتْ بذلِكَ السُّنَّة: أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَخلو بعَبْده المُؤمِن، ويُقرِّره بذُنوبه، فيَقول: عمِلْت كذا، عمِلْت كذا، عمِلْت كذا. ويُقِرُّ بذلِكَ ولَا يُنكِر فيَقول الله تعالى: «**قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[1]، ولَا شكَّ أن هَذا حِسابٌ يَسيرٌ يَظهَر فيه مِنَّة الله على العَبْد، وفرَحه بذلِكَ واستِبْشاره، وَالمُحاسِب لَه هُو الله عَزَّوَجَلَّ كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ يَنقَلِب من الحِساب إلى أَهْله فِي الجَنَّة مَسرورًا، أي: مَسرورَ القَلْب، وقد أَخبَر النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن أوَّلَ زُمْرة تَدخُل الجَنَّة على صُورة القَمَر لَيْلة البَدْر[2]، ثُم هُمْ بَعْد ذلِك درَجات، وهَذا يَدُلُّ علَى سُرور القَلْب؛ لأن القَلْب إِذَا سُرَّ استَنار الوَجْه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ألا لعنة الله على الظالمين. رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب مَا جاء فِي صفة الجنة وأنَّها مخلوقة، رقم (٣٢٤٦)، ومسلم: كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر، رقم (٢٨٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ هَؤُلاءِ هُمُ الأَشْقياء -وَالعِياذُ بالله- يُؤتَى كِتابَه وَراءَ ظَهْره وليس عن يَمينه، وفي الآيَةِ الأُخْرى فِي سورة الحاقَّة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة:٢٥]، قيل: إِن مَن لَا يُؤتَى كِتابَه بيَمينه يَنقَسِم إِلى قِسمَيْن: مِنهم مَن يُؤتَى كِتابَه بالشِّمال، ومِنْهم مَن يُؤتَى كِتابه وراءَ ظَهْره، وَالأقرَبُ -وَالله أعلَمُ- أَنَّه يُؤتَى كِتابَه بالشِّمال، ولكِنْ تُلوَى يَدُه حتَّى تَكون من وَراءِ ظَهْره، إِشارةً إِلى أَنَّه نَبْذ كِتاب الله وَراءَ ظَهْره، فيَكُون الأَخْذ بالشِّمال، ثُم تُلْوى يَدُه إِلى الخَلْف إِشارةً إِلى أَنَّه قَد وَلَّى ظَهْره كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولَمْ يُبالِ به، ولم يَرفَعْ به رأسًا، ولم يَرَ بمُخالَفَته بأسًا.

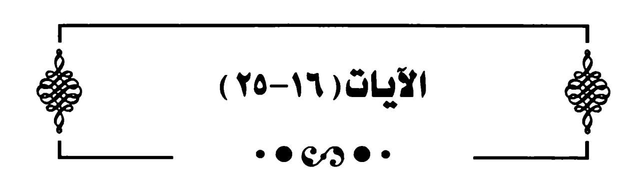
﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾؛ أي: يَدْعو على نَفْسه بالثُّبور، يَقول: واثُبوراه يا وَيْلاه، ومَا أَشبَه ذلِك من كلِمات النَّدَم وَالحَسْرة، ولكِن هَذا لَا يَنفَع فِي ذلِكَ اليَوْم؛ لأَنَّه انتَهَى وَقْت العَمَل، فوَقْت العَمَل فِي الدُّنْيا، أَمَّا فِي الآخِرة فلَا عمَلَ، وإِنَّما هُو الجَزاءُ.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾؛ أي: يَصلَى النار الَّتِي تُسعَّر به ويَكُون مُخلَّدًا فيها أبدًا، لأَنَّه كافِرٌ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ إنه كانَ فِي الدُّنيا فِي أَهْله مَسرورًا، ولكِنْ هَذا السُّرورُ أَعقَبه النَّدَم وَالحُزْن الدائِم المُستَمِرُّ، وارْبِطْ بين قَوْله تعالى فيمَن أُوتِيَ كِتابَه بيَمينه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، وهَذا ﴿كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ تَجِد فَرْقًا بين السُّرورَيْن، فسُرور الأَوَّل سُرورٌ دائِمٌ -نَسأَل الله أن يَجعَلَنا مِنهم- وسُرور الثانِي سُرور زائِلٌ ذاهِبٌ ﴿كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أَمَّا الآن فلَا سُرورَ عِنده.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾؛ أي: ألَّا يَرجِع بعدَ المَوْت، ولِهَذا كانوا يُنكِرون البَعْث ويَقولون: لَا بَعثَ. ويَقولون: مَن يُحْيِي العِظام وهِي رَميمٌ؟! ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ قالَ تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ أي: سيَحور ويَرجِع ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ يَعنِي: أنَّه سيَرجِع إِلى الله عَزَّوَجَلَّ الَّذِي هُو بَصيرٌ بأَعْماله، وسَوْف يُحاسِبه علَيْها على مَا تَقتَضِيه حِكْمته وعَدْلُه.

• • ۞ • •



الآيات (١٦-٢٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق:١٦-٢٥].

•••

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذِه الجُمْلةُ مُكوَّنة من قَسَم، ومُقسَم بِه، ومُقسَم علَيْه، ومُقسِم، فالقَسَم فِي قَوْلِه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ قَد يَظُنُّ الظانُّ أن مَعنَى (لا أُقسِمُ) نَفيٌ، وليسَ كذَلِك، بل هُو إِثبات، و(لا) هُنا جِيءَ بها للتَّنبيه، ولَها نَظائِرُ مِثل: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد:١]، ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة:١]، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ﴾ [المعارج:٤٠]، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٨].

وكُلُّها يَقول العُلَماء: إِن (لَا) فيها للتَّنبيهِ، وإِن القَسَم مُثبَت، أمَّا المُقسِم فهُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أمَّا المُقسَم به فِي هذِه الآيةِ فهُوَ الشَّفَق ومَا عُطِفَ عليه.

فإِن قالَ قائِلٌ: لماذا يُقسِم الله على خَبَره وهُو سُبحانه الصادِقُ بلا قَسَمٍ؟ وكذلِكَ يُقسِم النَّبيُّ ﷺ على خَبَرِه وهُو صادِقٌ بِلا قَسَمٍ؟

قُلْنا: إِن القسَمَ يُؤكِّد الكَلام، وَالقُرْآن الكَريم نَزَل باللِّسان العرَبِيِّ، ومِن عادَتِهم أنَّهم يُؤكِّدون الكَلام بالقَسَم صار هَذا الأُسلوبُ جارِيًا على اللِّسان العرَبِيِّ الَّذِي نزَلَ به القُرْآن.

وقَوْلُه: ﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ الشَّفَقُ هُو الحُمْرة الَّتِي تَكون بعد غُروب الشمسِ، وإِذَا غابَتْ هذِه الحُمْرةُ خرَجَ وَقْت المَغرِب ودخَلَ وَقْت العِشاء، هَذا قولُ أَكثَرِ العُلَماء.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ هَذا أيضًا مُقسَم به مَعطوف على الشَّفَق، يَعنِي: وأُقسِم باللَّيْل ومَا وسَق، وهذان قِسْمان ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ اللَّيْل مَعروف ﴿وَمَا وَسَقَ﴾؛ أي: مَا جَمَع، لأن اللَّيْل يَجمَع الوُحوش وَالهَوامَّ ومَا أَشبَهَ ذلِك، تَجتَمِع وتَخرُج وتَبرُز من جُحورها وبُيوتِها، وكذلِكَ رُبَّما يُشير إِلى اجتِماع النَّاس بعضِهِم إِلى بعضٍ.

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ القَمَر مَعروفٌ، ومَعنَى ﴿إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ يَعنِي: إِذَا اجتَمَع نُورُه وتَمَّ وكمَلَ، وذلِكَ فِي لَيالِي الإِبْدار، فأَقسَم الله عَزَّوَجَلَّ باللَّيْل ومَا وسَق؛ أي: مَا جَمَعَ، وبالقَمَر؛ لأنه آيَةُ اللَّيْل.

ثُم قالَ بعدَ ذلِكَ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذه الجُمْلةُ جَوابُ القَسَم، وهي مُؤكَّدة بثَلاث مُؤكِّدات: القَسَم واللَّام ونُون التَّوكيد، وَالخِطاب هُنا لجَميع النَّاس، أي: لتَتَحوَّلُنَّ حالًا عن حالٍ، وهُو يَعنِي أن الأَحْوال تَتَغيَّر، فَيَشمَل أَحْوال الزَّمان، وأَحْوال المَكان، وأَحوال الأَبْدان، وأَحوال القُلوب:

الأَوَّل: أَحْـوال الـزَّمـان تَتنَقَّـل ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فيَوْم يَكُون فيه السُّرور وَالانشِراح وانبِساط النَّفْس، ويَوْم آخر يَكُون

بالعَكْس، حتَّى إِن الإِنْسانَ لَيَشعُر بهذا من غَيْر أن يَكُون هُناكَ سببٌ مَعلومٌ، وفي هَذا يَقول الشاعِرُ[1]:

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَــا وَيَــوْمٌ لَنَــا وَيَــوْمٌ نُسَــاءُ وَيَــوْمٌ نُسَــرّ

وهذا شيءٌ يَعرِفه كُلُّ واحِدٍ بنَفْسه تُصبِح اليَوْمَ فرِحًا مَسرورًا وفي اليَوْمِ الثانِي بالعَكْس بدون سبَبٍ، لكِن هكذا لا بُدَّ أن الإِنسان يَركَب طَبَقًا عن طبَق، وتَتَغيَّر حالُ الزَّمان من أَمْن إلى خَوْف، ومن حَرْب إلى سِلْم، ومِن قَحْط إلى مطَر، ومِن جَدْب إلى خَصْب، إلى غَيْر ذلِك من تَقلُّبات الأَحْوال.

الثانِي: الأَمكِنة؛ يَنزِل الإِنسانُ هَذا اليَوْمَ مَنزِلًا، وفي اليَوْم التالِي مَنزِلًا آخَرَ، وثالِثًا ورابِعًا إِلى أن تَنتَهيَ به المَنازِل فِي الآخِرة، ومَا قَبلَ الآخِرة وهِي القُبور هِي مَنازِلُ مُؤقَّتة، فالقُبور ليسَتْ هِي آخِرَ المَنازِل، بل هِيَ مَرحَلة، وسمِعَ أَعْرابيٌّ رجُلًا يَقرَأ قولَ الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢]، فقالَ الأَعْرابيُّ: «واللهِ مَا الزائِرُ بمُقيمٍ»، فالأَعرابيُّ بفِطْرته عرَفَ أن وَراءَ هذِه القُبورِ شيئًا يَكُون المَصيرُ إِليه، لأَنَّه كمَا هُو مَعلوم الزائِرُ يَزور ويَمشِي، وبه نَعرِف أن مَا نَقرَؤُه فِي الجَرائِد: «فُلان تُوفِّيَ ثُم نَقَلوه إِلى مَثْواهُ الأَخيرِ» أن هذِه الكَلِمةَ غلَطٌ كَبيرٌ ومَدلولُها كُفْر بالله عَزَّوَجَلَّ، كُفْر باليَوْم الآخِر، لأَنَّك إِذَا جعَلْت القَبْر هُو المَثْوَى الأَخيرَ فهَذا يَعنِي أَنَّه ليسَ بعدَه شيءٌ، وَالَّذِي يَرَى أن القَبْر هُو المَثْوَى الأَخير وليس بعدَه مَثوًى، كافِرٌ، فالمَثْوَى الأَخيرُ إِمَّا جَنَّة وإِمَّا نارٌ.

الثالِثُ: الأَبْدان يَركَب الإِنسان فيها طَبَقًا عن طَبَق، واستَمِعْ إِلى قولِ الله تعالى:

---

(١) هو النمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤]، أوَّلَ مَا يُخلَق الإنسانُ طِفْلًا صغيرًا يُمكِن أن تَجمَع يَدَيْه ورِجْلَيْه بيَدٍ واحِدةٍ مِنْك وتَحمِله بهذه اليَدِ ضَعيفًا، ثُم لَا يَزال يَقوَى رُوَيْدًا رُوَيْدًا حتَّى يَكُون شابًّا جَلْدًا قوِيًّا، ثُم إِذَا استكْمَل القُوَّة عاد فرجَع إِلى الضَّعْف، وقد شبَّه بعضُ العُلَماء حالَ البَدَن بحال القمَرِ يَبدو هِلالًا ضَعيفًا، ثُم يَكبُر شَيْئًا فشَيْئًا حتَّى يَمتَلِئ نُورًا، ثُم يَعود يَنقُص شَيْئًا فَشَيْئًا حتَّى يَضمَحِلَّ، نَسأَل اللهَ أن يُحسِن لنا ولكُمُ الخاتِمَةَ.

الرابعُ: حال القُلوب، ومَا أَدراكَ مَا أَحوالُ القُلوب؟! أَحْوالُ القُلوب هِي النِّعْمة وهِي النِّقْمة، والقُلوب كلُّ قُلوب بَني آدَمَ بين أُصبُعَيْن من أَصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يَشاءُ، فإِن شاءَ أَزاغَه وإِن شاءَ هَداه، ولَمَّا حدَّث النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهَذا الحَديثِ قالَ: «**اللَّهُمَّ يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[1]، فالقُلُوب لهَا أَحْوال عَجيبة، فتارةً يَتعلَّق القَلْب بالدُّنْيا، وتارةً يَتعلَّق بشيءٍ من الدُّنيا، وتارةً يَتعلَّق بالمال، ويَكُون المالُ أكبرَ همِّه، وتارةً يَتعلَّق بالنِّساء، وتَكون النِّساءُ أكبرَ همِّه، وتارةً يَتعلَّق بالقُصور وَالمَنازِل، ويَكُون ذلِكَ أكبرَ همِّه، وتارةً يَتعلَّق بالمَركوبات وَالسَّيَّارات، ويَكُون ذلِكَ أكبرَ همِّه، وتارةً يَكُون مَع الله عَزَّوَجَلَّ دائِمًا مَع الله يَتعلَّق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويَرَى أن الدُّنيا كلَّها وَسيلة إِلى عِبادة الله وطاعتِه، فيَستَخدِم الدُّنْيا من أَجْل تَحقيق العُبودِيَّة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّها خُلِقَت لَه ولَا تَستَخْدِمه الدُّنيا، وهَذِه أعلى

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، والترمذي: كتاب القدر، باب مَا جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم (٣٨٣٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: حديث حسن.

الأَحْوال، وأَصْحابُ الدُّنيا هُمُ الَّذِين يَخْدُمونها، هُمُ الَّذِين أَتعَبوا أَنفُسَهم فِي تَحْصيلها، لكِن أَصْحاب الآخِرة هُمُ الَّذِين استَخْدَموا الدُّنْيا فِي طاعة رَبِّهم وعِبادته وخِدْمتهم الدُّنيا، ولذلِكَ لَا يَأْخُذونها إِلَّا عن طَريق رِضا الله، ولَا يَصرِفونها إِلَّا فِي رِضا الله عَزَّوَجَلَّ، فاستَخْدَموها أَخْذًا وصَرْفًا، لكِن أَصْحاب الدُّنْيا الَّذِين تَعِبوا بها سَهِروا الليالِيَ يُراجِعون الدَّفاتِر، يُراجِعون الشِّيكات، يُراجِعون المَصْروفات، يُراجِعون المَدْفوعات، يُراجِعون مَا أَخَذوا ومَا صرَفوا، هَؤُلاءِ فِي الحَقيقة استَخْدَمَتْهمُ الدُّنيا ولم يَستَخْدِموها، لكِنِ الرَّجُل المُطمَئِنُّ الَّذِي جعَل اللهُ رِزْقه كَفافًا يَستَغْني به عن النَّاس، ولَا يَشقَى به عن طاعة الله، هَذا هُو الَّذِي خدَمَتْه الدُّنيا.

هذه أَحْوالُ القُلوب، وأَحوالُ القُلوب هِي أعظَمُ الأَحْوال الأَربَع؛ ولِهَذا يَجِب علينا جَميعًا أن نُراجِع قُلوبَنا كلَّ ساعةٍ كل لَحْظة أين صُرِفْت أيُّها القَلْب؟ أين ذهَبْتَ؟ لماذا تَنصَرِف عن الله؟ لماذا تَلتَفِت يَمينًا وشِمالًا؟ ولكِنِ الشَّيْطان يَجرِي من ابنِ آدَمَ مَجرَى الدَّمِ، وقد غلَبَ على كَثيرٍ من النَّاس، حتَّى إِن الإنسان ليُصرَف عن صَلاته الَّتِي هِي رأسُ ماله بعد الشَّهادتَيْن، فتَجِده إِذَا دخَل فِي صَلاته ذهَبَ قَلْبه يَمينًا وشِمالًا، حتَّى يَخرُج من صَلاته ولم يَعقِل مِنها شَيْئًا، وَالناس يَصيحون يَقولون: صَلاتُنا لَا تَنْهانا عن الفَحْشاء وَالمُنكَر أينَ وَعْدُ الله؟ فيُقال: يا أَخي هل صَلاتُكَ صَلاة إِذَا كُنت من حين تَكبُر تَفتَح باب الهواجِس الَّتِي لَا نِهايةَ لهَا، فهَلْ أنتَ مُصَلٍّ؟ صلَّيْت بجِسْمك، لكِنْ لم تُصَلِّ بقَلْبك، ويُقال لِمِثْل هَؤُلاءِ: إن الصَّلاة الَّتِي تَنهَى عن الفَحْشاء والمُنكَر هي الصَّلاة الَّتِي يَعقِل فيها صاحِبُها ما يَقرَؤُه من القُرآن والأَذْكار والتَّسبيح والأَدْعية، ويُحافِظ على رُكوعها وسُجودها وخُشوعها وطُمَأْنينتها، أمَّا الصَّلاة الَّتِي يَهيم فيها القَلْب فِي كلِّ وادٍ، ويَخرُج منها ولم يَدْرِ ما

قرَأَ فلا تَنهَى عن الفَحْشاء والمُنكَر؛ من أَجْل ذلِكَ أَخبَرَ رَسولُ الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ مِنْ صَلَاتِكَ إِلَّا مَا عَقَلْتَ مِنْهَا نِصْفُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، عُشْرُهَا، خُمُسُهَا**»[1]، حسبَ مَا تَعقِل مِنها، إِذَنْ فالقُلوب تَركَب طَبَقًا عن طَبَق.

ثُم قالَ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ ﴿فَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ يَمنَعهم من الإِيمان، وماذا علَيْهم لو آمَنوا بالله وَاليَوْم الآخِر وأَنفَقوا مِمَّا رزَقَهمُ الله، أيُّ شيءٍ يَمنَعُهم من الإِيمان، وأيُّ شيءٍ يَضُرُّهم إِذَا آمَنوا، قالَ مُؤمِنُ آل فِرعونَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨].

فأيُّ شيءٍ على الإِنسانِ إِذَا آمَنَ؟ ولِهَذا قالَ مُوبِّخًا لَهُم: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾؛ أي: لَا يَخضَعون لله عَزَّوَجَلَّ، فالسُّجود هُنا بمَعنى الخُضوع لله، وإِن لم تَسجُد على الأَرْض، لكِنْ يَسجُد القَلْب ويَلين ويَذِلُّ، إِن كانَ الأمرُ كذَلِك فأنتَ من المُؤمِنين ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢]، وإِن لم يَكُن قَلْبُك كذَلِك ففِيكَ شَبَهٌ من المُشرِكين الَّذِين إِذَا قُرِئَ عليهمُ القُرآن لَا يَسجُدون.

ومن عَلامات الخُضوع لله عَزَّوَجَلَّ عِند قِراءة القُرآن أن الإِنسان إِذَا قرَأ آيَة سَجدة سجَد لله ذُلًّا لَه وخُضوعًا، وقَدِ استَدَلَّ بعضُ العُلَماء بهذه الآيَةِ على وُجوب سُجود التِّلاوة، وقالَ: إِن الإِنْسان إِذَا مَرَّ بآية سَجْدة ولَم يَسجُد كانَ آثِمًا. وَالصَّحيحُ:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٢١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب مَا جاء فِي نقصان الصلاة، رقم (٧٩٦)، من حديث عمار بن ياسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

أنَّها ليسَت بواجِبةٍ وإِن كانَ هَذا القولُ -أَعنِي: القَوْل بالوُجوب- هُو مَذهَب أبي حَنيفةَ[١] واختِيار شَيْخ الإِسلامِ ابنِ تَيميَّةَ رحمهما الله[٢]، لكِن هَذا قولٌ مَرجوحٌ، وذلِك أنَّه ثبتَ فِي الصَّحيح عن أَمير المُؤمِنين عُمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه خطَبَ النَّاس يَوْمًا فقَرَأ سُورة النَّحْل فلَمَّا وصَلَ آيةَ السَّجْدة نزَل من المِنبَر فسجَد، ثُم قرَأَها من الجُمُعة الثانية فمَرَّ بها ولم يَسجُد فقالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن اللهَ لم يَفرِضْ علَيْنا السُّجود إلَّا أن نَشاءَ[٣]، وكانَ ذلِك بمَحضَر من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولم يُنكِر عليه أَحَدٌ، وسُنَّتُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من السُّنَن الَّتِي أُمِرْنا باتِّباعِها.

وعلى هَذا فالقَوْلُ الراجِحُ أن سُجود التِّلاوة ليسَ بواجِبٍ، لكِنَّه سُنَّة مُؤكَّدة، فإِذَا مرَرْت بآيةِ سَجْدة فاسجُدْ فِي أيِّ وَقْت كُنتَ فِي الصَّباح، أو فِي المَساء، فِي اللَّيْل، أو فِي النَّهار، تُكبِّر عِند السُّجود، وإِذَا رفَعْت فلَا تُكبِّر ولَا تُسلِّم هَذا إِذَا سجَدْت خارِجَ الصَّلاة، أمَّا إِن سجَدْت فِي الصلاة فلا بُدَّ أن تُكبِّر إِذَا سجَدْت، وأن تُكبِّر إِذَا نهَضْتَ؛ لأنَّها لَمَّا كانَت فِي الصَّلاة كانَ لهَا حُكْم السُّجود فِي الصَّلاة.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ لَمَّا ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّهم إِذَا قُرِئَ علَيْهم القُرآنُ لَا يَسجُدون بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن سببَ تَرْكهم السُّجودَ هُو تَكذيبُهم بما جاءَتْ به الرُّسُل عليهم الصلاة وَالسلام، لأن كُلَّ مَن كانَ إِيمانُه صادِقًا فلَا بُدَّ أن يَمتَثِل الأَمْر، وأن يَجتَنِب النَّهيَ، لأن الإِيمان الصادِق يَحمِل

(١) انظر: المبسوط (٢/ ٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٣٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب سجود القرآن، باب من رأى أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يوجب السجود، رقم (١٠٧٧).

صاحِبَه على ذلِكَ، ولَا تَجِد شَخْصًا يَنتَهِك المَحارِم أو يَترُك الواجِباتِ إلَّا بسبَبِ ضَعْف إيمانِه؛ ولهذا كانَ الإيمانُ عِند أَهْل السُّنَّة وَالجَماعة هُو التَّصديقَ المُستَلزِمَ للقَبول وَالإذعانِ، فمَتى رأَيْت الرَّجُل يَترُك الواجِباتِ، أو بعضًا مِنها، أو يَفعَل المُحرَّماتِ فاعلَمْ أن إيمانَه ضَعيف، إذ لو كانَ إيمانُه قوِيًّا مَا أَضاعَ الواجِباتِ ولَا انتَهَكَ المَحظوراتِ.

ولهذا قالَ تعالى هُنا: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾؛ أي: أن تَرْكَهم السُّجودَ كانَ بسبَبِ تَكْذيبهم لِما جاءَت به الرُّسُل.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾؛ أي: أَنَّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أَعلَمُ بما يُوعونَه، أي: بما يَجمَعونه فِي صُدورهِم، ومَا يَجمَعونه من أَمْوالهم، ومَا يَجتَمِعون عليه من مُنابَذة الرُّسُل ومُخالَفة الرُّسُل، بل مُحارَبة الرُّسُل وقِتالِهم، وَالكُفَّار أَعداءٌ للرُّسُل من حين بعَثَ الله الرُّسُل عليهم الصلاة وَالسلام، فهُمْ يَجمَعون لهم ويَكيدون لهم، وهَذا وَعيدٌ له بدَليلِ قولِه تعالى:

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَخبِرْهم بالعَذاب الأَليم الَّذِي لا بُدَّ أن يَكُون، وَالخِطاب فِي قَوْله: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ عامٌّ للرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولكُلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه.

ثُم قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ ﴿إِلَّا﴾ هذِه بمَعنَى: لكِن، فالِاستِثْناء مُنقَطِع، ولَا يَصِحُّ أن تَكون استِثْناء مُتَّصِلًا، لأن الَّذِين آمَنوا ليسوا من المُكذِّبين فِي شيءٍ، بل هُمْ مُؤمِنون مُصدِّقون، وهَذا هُو الاسْتِثْناء المُنقَطِع، أي: إِذَا كانَ المُستَثْنى ليسَ من جِنْس المُستَثْنى مِنه فهُو استِثْناء مُنقَطِع،

وتُقدَّر ﴿إِلَّا﴾ بـ(لكِن) أي: لكِنِ الَّذِين آمَنوا وعمِلوا الصالِحاتِ لَهُم أَجْرٌ غير ممْنون، الَّذِين آمَنوا بقُلوبهم، واستَلزَم إِيمانُهم قِيامَهم بالعَمَل الصالِح، هَؤُلاءِ هُمُ الَّذِين ليسَ لهم عَذاب ولَا يَنتَظِرون العَذاب لَهُم أَجْر غيرُ ممْنون، أَيْ: ثَواب غَيْر مَقطوع، وقيل: لا يَلحَقُهم به مَنٌّ ولا أَذًى.

فإن قيل: مَا هُو العَمَلُ الصالِحُ الَّذي يَترتَّب عليه هذا الأجرُ؟

فالجَوابُ: أن العمَلَ الصالِح مَا جَمَعَ شَيْئَيْن:

الأوَّل: الإِخْلاص لله تعالى بأن لا يُريد بعمَلِه إلا وَجْه الله عَزَّوَجَلَّ، وابتِغاء مَرْضاته، وابتِغاء ثَوابِه، وابتِغاء النَّجاة من النار فلَا يُريد شيئًا من الدُّنْيا وزِينتها؛ ولهذا قال العُلَماء: إن الأَعْمال الَّتي لا تَقَع إلَّا عِبادة لا يَصِحُّ أَخْذ الأُجْرة علَيْها، كالأَذان والإِمامة وقِراءَة القُرآن ونَحْوها، لكِنْ لا بَأسَ أن يَأخُذ شيئًا من بَيْت المال على ما يَعُمُّ نَفْعُه، كالأَذان والإِمامة والتَّدريس ونَحْوها.

الثاني: أن يَكُون مُتَّبِعًا فيه رَسولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أي: أن يَتَّبِع الإِنسانُ رَسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي عمَلِه فِعْلًا لِما فَعَل، وتَرْكًا لِما ترَك، فما فعَلَه النَّبيُّ ﷺ تَعبُّدًا مَعَ وُجود سببِه فالسُّنَّة فِعْله إِذَا وُجِد سببُه، ومَا وُجِد سببُه فِي عَهْد الرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولم يَفعَله فإِنَّ السُّنَّة تَرْكه.

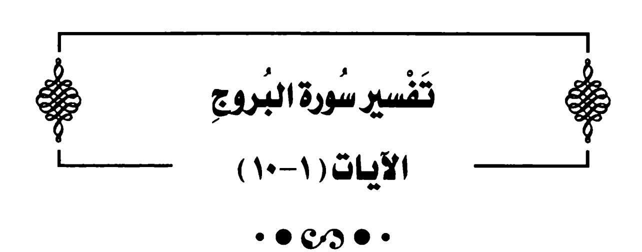
﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾؛ أي: ثَواب ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي: غَيْر مَقْطوع، بل هُو مُستَمِرٌّ أَبدَ الآبِدِين، وَالآياتُ فِي تَأبيد الجَنَّة كَثيرةٌ مَعلومة فِي الكِتاب وَالسُّنَّة، فأَجْر الآخِرة لَا يَنقَطِع أَبَدًا، ليسَ كالدُّنيا فيه وَقْت تُثمِر الأَشْجار ووَقْت لَا تُثمِر، أو وَقْت تُنبِت

الأَرْض ووَقْت لَا تُنبِت، فَالجَنَّة الأَجْرُ فيها دائِمٌ، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

نَسأَلُ اللهَ تعالى أن يَجعَلَنا من المُؤمِنين العامِلين بالصالِحات، المُجتَنِبين للسَّيِّئات، إِنه جَوَادٌ كَريمٌ.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبِيِّنا مُحمَّدٍ، وعلى آله وأَصْحابه أَجمَعِين.

• ● ❁ ● •



تَفْسيرِ سُورة البُروجِ

الآيات (١-١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١-١٠].

البَسْمَلة تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ الواوُ هَذِه حَرْف قسَم، يَعنِي: يُقسِم تعالى بالسَّماء ﴿ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾؛ أي: صاحِبة البُروج، وَالبُروج جَمْع بُرْج، وهُو المَجْموعة العَظيمة من النُّجوم وسُمِّيَت بُروجًا؛ لعُلُوها وارْتِفاعِها وظُهورها وبَيانِها، وَالبُروجُ عِند الفَلَكيِّين اثنا عشَرَ بُرْجًا جُمِعَت فِي قول الناظِمِ:

حَمَـلٌ فَثَـورٌ فَجَـوْزَاءُ	فَسَـرَطَانٌ فَأَسَـدٌ سُنبُلَةٌ مِيزَانُ
فَعَقْـرَبٌ قَـوْسٌ فَجَـدْيٌ وَكَـ	ذا دَلْـوٌ وَذِي آخِرُهَـا الـحِيتَانُ

فهي اثنا عشَرَ بُرْجًا، ثَلاثة مِنها للرَّبيع، وثَلاثة للصَّيْف، وثلاثة للخَريف، وثَلاثة للشِّتاء، فيُقسِم اللهُ تعالى بالسَّماء ذاتِ البُروج وله تعالى أن يُقسِم بما شاءَ من خَلْقه، أمَّا نحنُ فلَا نُقسِم إلَّا بالله بأَسْمائه وصِفاته، ولَا نُقسِم بشَيْء من المَخْلوقات؛ لقَوْل النَّبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[١]؛ ولقولِه عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»[٢].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ اليَوْم المَوْعود هُو يَوْم القِيامة، وعَدَ الله تعالى به وبيَّنَه فِي كِتابه، ونصَبَ عليه الأدِلَّة العَقْلية الَّتِي تَدُلُّ على أنَّه واقِعٌ حَتْمًا، كما قالَ تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ذكَرَ عُلَماء التَّفسير فِي الشاهِد وَالمَشْهود عِدَّة أَقْوال يَجمَعها أن الله أَقسَمَ بكُلِّ شاهِدٍ وبكُلِّ مَشهودٍ، وَالشُّهودُ كَثيرون، مِنْهم مُحمَّدٌ رَسولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شَهيدٌ علَيْنا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٠٤]، ومِنهم هذِه الأُمَّةُ شُهَداءُ على النَّاس ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، وأَعْضاء الإِنسان يَوْمَ القِيامة تَشهَد عليه بما عمِل مِن خَيْر وشَرٍّ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، ومِنهم المَلائِكة يَشهَدون يَوْم القِيامة،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لَا تحلفوا بآبائكم، رقم (٦٦٤٦)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب فِي كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب مَا جاء فِي كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

قال الترمذي: حديث حسن.

فكُلُّ مَن شهِدَ بحَقٍّ فهُو داخِلٌ فِي قَوْله: ﴿وَشَاهِدٍ﴾ وأمَّا (المَشْهود) فهُو يَوْم القِيامة، ومَا يَعرِض فيه من الأَهْوال العَظيمة كمَا قالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣]، فأَقسَم الله بكُلِّ شاهِدٍ وبكُلِّ مَشهودٍ.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ هذه الجُمْلةُ جَوابُ القسَم، ﴿قُتِلَ﴾ يَعنِي: أُهلِك، وقِيل: القَتْل هُنا بمَعنَى: اللَّعْن، وهُو الطَّرْد وَالإِبْعاد عن رحمة الله، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ هُم قَوْم كُفَّار أَحرَقوا المُؤمِنين بالنار، وقد ورَدَتْ قِصَص مُتعَدِّدة فِي هَؤُلاءِ القَوْمِ مِنها شيء فِي الشام، ومِنها شيء فِي اليَمَن، وَالمَقْصود أن هَؤُلاءِ الكُفارَ حاوَلوا بالمُؤمِنين أن يَرتَدُّوا عن دِينِهم، ولكِنَّهم عجَزوا فحفَروا أُخْدودًا حُفَرًا مَمدودةً فِي الأَرْض كالنَّهْر وجَمَعوا الحطَب الكَثير وأَحرَقوا المُؤمِنين بها -والعِياذُ بالله-.

ولِهَذا قالَ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ يَعنِي: أن الأُخدود هِي أُخدود النار. ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾؛ أيِ: الحَطَب الكَثير المُتأجِّج.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ يَعنِي: أن هَؤلاءِ الَّذِين حفَروا الأَخاديد وأَلْقَوْا فيها المُؤمِنين كانوا -والعِياذُ بالله- عِندهم قُوَّة وجَبَروت يَرَوْن النار تَلتَهِم هَؤُلاءِ البَشَرَ وهُم قُعود عليها على الأَسِرَّة، فَكِهون كأنَّ شيئًا لم يَكُن، وهَذا من الجَبروتِ أن يَرَى الإِنسانُ البشَرَ تَلتَهِمه النارُ وهُو جالِسٌ على سَريره يَتَفكَّه بالحَديث ولَا يُبالِي.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يَعنِي: هُم شُهود على مَا يَفعَلون بالمُؤمِنين أي: حُضور لَا يَغيب عَنْهم مَا فعَلوه بالمُؤمِنين؛ ولِذلِكَ استَحَقُّوا هَذا الوَعيدَ، بلِ استَحَقُّوا هذِه العُقوبةَ أن الله أَهلَكَهم ولعَنَهم وطرَدَهُم وأَبعَدَهُم عن رَحْمته.

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ أي: مَا أَنكَر هَؤُلاءِ الَّذِين

سَعَّروا النار بأَجْساد هَؤُلاءِ المُؤمنين إلَّا هذا، أي: إلَّا أنَّهم آمَنوا بالله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهذا من بابِ تَوْكيد الذَّمِّ بما يُشبِه المَدْح؛ لأن الإيمانَ بالله ليسَ مَحَلَّ إنكارٍ، وهَذا الإِنكارُ أَحَقُّ أن يُنكَر؛ لأن المُؤمِن بالله العَزيزِ الحَميد يَجِب أن يُساعَد ويُعان، وأن تُسهَّل له الطُّرُق، أمَّا أن يُمنَع ويُردَع حتَّى يَصِل الحَدُّ إلى أن يُحرَق بالنار فلَا شكَّ أن هَذا عُدوانٌ كَبيرٌ، وليس هَذا بمُنكَر عليهم، بل هُمْ يُحمَدون على ذلِك؛ لأنَّهم عبَدوا مَن هُو أَهلٌ للعِبادة، وهُو اللهُ جَلَّوَعَلَا، الَّذي خلَقَ الخَلْقَ؛ ليَقوموا بعِبادته، فمَن قام بهَذِه العِبادةِ فقَدْ عرَف الحِكْمة من الخَلْق وأَعْطاها حَقَّها.

وقَوْله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ العَزيز هُو الغالِبُ الَّذي لَا يَغلِبه شيءٌ، فهُو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الغَلَبة وَالعِزَّة على كل أحَدٍ والقَهْر، ولَمَّا قالَ المنافقون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

وقَوْله: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ على وَزْن فَعيل، فيَكون بمَعنَى: محمود، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محمودٌ على كلِّ حالٍ، وكانَ من هَدْيِ النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنَّه إِذَا جاءَهُ مَا يُسَرُّ به قالَ: «**الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**»، وإِذَا جاءَه خِلافُ ذلِكَ قالَ: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»[1]، وهَذا هُو الَّذي يَنبَغي للإِنسان أن يَقول عِند المَكروهِ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

أَمَّا مَا يَقولُه بعضُ النَّاس: «الحَمْد لله الَّذِي لَا يُحمَد على مَكروهٍ سِواهُ»، فهَذا

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

خِلافُ مَا جاءَتْ به السُّنَّة، بَلْ قُلْ كمَا قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**».

أمَّا أن تَقول: «الَّذِي لَا يُحمَد على مَكروهٍ سِواهُ» فكأنَّك الآنَ تُعلِن أنكَ كارِهٌ مَا قدَّر اللهُ عليك، وهَذا لَا يَنبَغي، بلِ الواجِبُ أن يَصبِرِ الإِنسانُ على مَا قدَّر الله عليه مِمَّا يَسوؤُه أو يَسُرُّه، لأن الَّذِي قدَّره الله عَزَّوَجَلَّ هُو رَبُّك وأنتَ عَبْدُه، هُو مالِكُكَ وأنت مَملوكٌ لَه، فإِذَا كانَ اللهُ هُو الَّذِي قدَّر عليك مَا تكرَه فلَا تَجزَعْ، يَجِب عليكَ الصَّبْر وألَّا تَتسخَّط لَا بقَلْبك ولَا بلِسانِك ولَا بجَوارِحك، اصْبِرْ وتَحمَّلْ، وَالأَمْر سيَزولُ ودَوام الحَالِ من المُحال، قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا**»(١)، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ محمودٌ على كُلِّ حالٍ مِن السَّرَّاء أو الضَّرَّاء؛ لأنَّه إِن قدَّر السَّرَّاء فهُو ابتِلاءٌ وامتِحان، قالَ الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، ولَمَّا رأَى سُلَيْمانُ عرشَ بَلقيسَ بينَ يَدَيْه قالَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ﴾ [النمل:٤٠]، فإِذَا أُصِبْت بالنِّعْمة فلَا تَأْخُذها على أنَّها نِعْمة فتَمرَح وتَفرَح، هِي نِعْمة لَا شَكَّ، لكِنِ اعلَمْ أنَّك مُمتَحَن بها هَلْ تُؤدِّي شُكْرها أو لَا تُؤدِّي، إِن أَصابَتْك ضرَّاءُ فاصْبِرْ فإِن ذلِك أيضًا ابتِلاءٌ وامتِحانٌ من الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليَبلُوكَ هَلْ تَصبِر أو لَا تَصبِر، وإِذَا صبَرَت واحتَسَبْت الأَجْر من الله فإِن الله يَقولُ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

ويَجوزُ أن يَكُون مَعنَى قَوْله: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أنَّه هُو الحامِدُ، فإِنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحمَد مَن يَستَحِقُّ الحَمْد، يُثْني على عِباده من المُرسَلين وَالأنبياء وَالصالِحين، وَالثَّناء علَيْهم

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

حَمْدٌ لهم، فهُو جَلَّوَعَلَا حامِدٌ، وهُو كذَلِك مَحمودٌ، وقد ثبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أن الله يَرضَى عن العَبْد يَأكُل الأُكْلة فيَحمَده علَيْها ويَشرَب الشَّرْبة فيَحمَده عليها[1]؛ لأنه لَوْلا أن الله يَسَّرَ لَك هذِه الأُكْلة وَالشَّرْبة مَا حصَلْت عليها، قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ اللهُ يَسأَلُنا، أنتُمْ تزرَعونه أم نحنُ الزارِعون؟ الجَوابُ: بل أنتَ يا رَبَّنا ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ بعدَ أن يَخرُج وتَتَعلَّق به النُّفوس يَجعَله الله حُطامًا، ولم يَأتِ التَّعبيرُ «لو نَشاءُ لم نُنبِتْهُ»؛ لأن كَوْنَه يَنبُت وتَتَعلَّق به النَّفْس ثُم يَكُون حُطامًا أَشَدُّ وَقْعًا على النَّفْس من كَوْنه لَا يَنبُت أَصْلًا ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، ثُم ذكَر الشُّرْب فقالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ الجَوابُ: بل أنتَ يا رَبَّنا ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾؛ أي: مالِحًا غيرَ عَذْب لَا يَستَطيع الإِنْسانُ أن يَشرَبَه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٧٠] يَعنِي: فهَلَّا تَشكُرون اللهَ على ذلِك، وهُنا لم يَأْتِ التَّعبيرُ: «لو نَشاءُ لم نُنزِلْه من المُزْن»، لأن كَوْنه يَنزِل ولكِنْ لَا يُشرَب ولَا يُطاقُ أَشَدُّ من كَوْنه لم يَنزِل أَصْلًا، فتَأَمَّلوا القُرآن الكَريم تَجِدوا فيه من الأَسْرار وَالحِكَم الشيءَ الكَثيرَ.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الَّذي اختَصَّ بمُلْك السَّموات والأرض، وهذه المِلْكيةُ شامِلةٌ لمُلْك الأَعْيان والتَّدبير وما فيها، فهُو يَملِك السَّموات ومَن فيها، وَالأَرَضين ومَن فيها، ومَا بينَهُما، كلُّ شيءٍ مِلْكٌ لله، ولَا يُشارِكه أَحَدٌ فِي مِلْكه ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة:١٢٠]، ومَا يُضاف إِلَيْنا من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المُلك فيُقال مثلًا: هَذا البيتُ مُلك لفُلان، هذِه السَّيَّارةُ مُلك لفُلان. فهُو مُلك قاصِرٌ، وليس مُلْكًا حَقيقيًّا؛ لأنَّه لو أن إنسانًا أرادَ أن يَهدِم بيتَه بدون سبَبٍ فلَا يَملِك ذلِك، لأن النَّبيَّ ﷺ نَهى عن إضاعة المالِ[1]، ولو أَراد إنسانٌ أن يُحرِق سَيَّارته بدون سبَبٍ فلَا يَملِك هذا، ولو أنَّه فعَلَ لحَجرَ القاضِي عليه بمَنْعه من التَّصرُّف فِي مالِه، مَع أن الله منَعه قبلُ، إِذَنْ مُلْكنا قاصِرٌ، وَالمُلْك التامُّ لله.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: مُطَّلِع عَزَّوَجَلَّ على كلِّ شيءٍ، ومِن جُمْلته مَا يَفعَله هَؤُلاءِ الكُفَّارُ بالمُؤمِنين من الإِحْراق بالنار، وسَوْف يُجازِيهم، ولكِن مَعَ ذلِك ومَع فِعْلهم هذِه الفِعْلَةَ الشَّنيعة قالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، قالَ بعضُ السلَفِ رَحِمَهُمُاللَّهُ: انظُرْ إِلى حِلْم الله عَزَّوَجَلَّ يُحرِقون أَوْلياءَه، ثُم يَعرِض عليهِمُ التَّوْبة يَقولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾.

قالَ العُلَماءُ: ﴿فَتَنُوا﴾ بمَعنَى: أَحرَقوا كَما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات:١٣-١٤]، فهَؤُلاءِ أَحرَقوا المُؤمِنين وأَحرَقوا المُؤمِناتِ فِي النار.

وقيل: فتَنوهُم أي: صَدُّوهم عن دِينهم. وَالصَّحيحُ: أن الآيَةَ شامِلة للمَعنيَيْن جَميعًا، لأنه يَنبَغي أن نَعلَم أن القُرآن الكَريم مَعانِيه أَوْسَعُ من أَفْهامِنا، وأنه مَهْما بلَغْنا من الذَّكاءِ وَالفِطْنة فلَنْ نُحيط به عِلْمًا، وَالقاعِدةُ فِي عِلْم التَّفْسير أنَّه إِذَا كانَت

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب مَا يكره من قيل وقال، رقم (٦٤٧٣)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة...، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الآيةُ تَحتَمِل مَعنيَيْن لا مُرجِّح لأَحَدِهما على الآخَرِ ولَا يَتَضادَّان فإنها تُحمَل علَيْهما جميعًا، فنَقُول: هُمْ فتَنوا المُؤمِنين بصَدِّهم عن سَبيلِ الله، وفتَنوهُم بالإِحْراقِ أيضًا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾؛ أي: يَرجِعوا إلى الله من مَعصِيَته إلى طاعَتِه ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾؛ لأنَّهم أَحرَقوا أَوْلياءَ الله فكانَ جَزاؤُهُم مِثْل عمَلِهم جَزاءً وِفاقًا، وشَتَّانَ بين نار الدُّنْيا ونار الآخِرة، فقَدْ فُضِّلَت على الأُولى بتِسْعة وتِسْعين جُزْءًا.

فِي هَذِه الآياتِ من العِبَر: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَد يُسلِّط أَعْداءَه على أَوْليائِه، فلَا تَستَغرِب إِذَا سلَّط الله عَزَّوَجَلَّ الكُفَّار على المُؤمِنين وقتَلوهم وحرَّقوهم، وانتَهكوا أَعْراضَهم، لَا تَستَغرِب، فللهِ تعالى فِي هَذا حِكْمةٌ، المُصابون من المُؤمِنين أَجْرُهم عِندَ الله عَظيمٌ، وهَؤُلاءِ الكُفَّارُ المُعتَدون أَملَى لَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويَستَدْرِجهم من حيثُ لَا يَعلَمون، وَالمُسلِمون الباقون لَهُم عِبْرة وعِظَةٌ فيما حصَلَ لإِخْوانهم، فمثَلًا نحن نَسمَع مَا يَحصُل من الانتِهاكات العَظيمة، انتِهاك الأَعْراض، وإِتلاف الأَمْوال، وتَجويع الصِّغار وَالعجائِز، نَسمَع أَشياءَ تُبكِي، فنَقُول: سُبحانَ الله! مَا هَذا التَّسليطُ الَّذِي سلَّطه اللهُ على هَؤُلاءِ المُؤمِنين؟ نَقُول: يا أَخي لَا تَستَغرِبْ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضرَبَ لَنا أَمثالًا فيمَن سبَقَ يُحرِقون المُؤمِنين بالنار، فهَؤُلاءِ الَّذِين سُلِّطوا على إِخواننا فِي بِلاد المُسلِمين هَذا رِفْعة دَرَجات للمُصابين، وتَكفيرُ السَّيِّئات، وهُو عِبْرة للباقِين، وهُو أيضًا إِغراءٌ لِهَؤُلاءِ الكافِرين حتَّى يَتَسلَّطوا فيَأْخُذهمُ الله عَزَّوَجَلَّ أَخْذَ عَزيزٍ مُقتَدِرٍ.

وفي هذِه الآياتِ من العِبَر: أن هَؤلاءِ الكُفَّارَ لم يَأْخُذوا على المُسلِمين بذَنْب إِلَّا شيئًا واحِدًا وهو: أنَّهم يُؤمِنون بالله العَزيز الحَميد، وهَذا ليسَ بذَنْب، بل هَذا

هُو الحقُّ، ومَن أَنكَره فهُو الَّذِي يُنكَر عليه، نَسأَل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يَنصُر المُسلِمين فِي كلِّ مَكانٍ، وأن يَقيَنا شَرَّ أَعْدائِنا، وأن يجعَل كَيْدَهم فِي نُحورهم إِنه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

وفي الآيَةِ إِشارة إِلى أن التَّوْبة تَهدِم مَا قَبْلها، ولكِنِ التَّوْبةُ لَا تكون تَوْبة نَصوحًا مَقبولةً عِند الله إِلَّا إِذَا اشتَمَلَت على شُروط خَمْسة:

الأَوَّلُ: الإِخلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ بأن يَكُون الحامِلُ للإِنْسان على التَّوْبة خوفَ الله عَزَّوَجَلَّ، ورَجاءَ ثَوابه؛ لأن الإِنسان قَد يَتوبُ من الذَّنْب من أَجْل أن يَمدَحه النَّاسُ، أو من أَجْل دَفْع مَذمَّة النَّاس لَه، أو من أَجْل مَرتَبة يَصِل إِليها، أو مِن أَجْل مال يَحصُل عليه، كلُّ هَؤُلاءِ لَا تُقبَل تَوبَتُهم، لأن التَّوبةَ يَجِب أن تَكون خالِصةً، وأَمَّا مَن أَراد بعمَله الدُّنيا فإِن الله تعالى يَقولُ فِي كِتابِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود:١٥-١٦].

الثاني: مِن شُروط كَوْن التَّوْبة نَصوحًا: النَّدَمُ على مَا حصَل من الذَّنْب بمَعنَى أَلَّا يَكُون الإِنسانُ كأَنَّه لم يُذنِب، لَا يَتَحسَّر ولَا يَحزَن، لا بُدَّ أن يَندَم، إِذَا ذكَر عَظَمة الله نَدِمَ، كيف أَعصِي رَبِّي وهُو الَّذِي خلَقَني ورزَقَني وهَداني؟! فيَندَم.

الثالِثُ: أن يُقلِع عن الذَّنْب، فلَا تَصِحُّ التَّوْبة مَع الإِصْرار على الذَّنْب؛ لأن التائِب هُو الراجِعُ، فإِذَا كانَ الإِنسانُ يَقول: أَستَغفِر الله وأَتوبُ إِليه من أَكْل الرِّبا. ولكِنَّه لا يَزال يُرابِي، فلَا تَصِحُّ تَوبته، لو قالَ: أَستَغفِر الله من الغِيبة. وَالغِيبةُ ذِكْرُك أَخاكَ بما يَكرَه، ولكِنَّه فِي كلِّ مجلِس يَغتاب النَّاسَ فلَا تَصِحُّ تَوْبته، كيفَ تَصِحُّ

وهُو مُصِرٌّ على المَعْصية؟! فلا بُدَّ أن يُقلِع، وإِذَا تابَ من أَكْل أَمْوال النَّاس وقَدْ سرَق مِن هذا، وأَخَذ مالَ هَذا بخِداع وغِشٍّ، فلَا تَصِحُّ تَوْبته، حتَّى يَرُدَّ مَا أَخَذ من أَمْوال النَّاس إِلى النَّاس.

ولو فرَضْنا أن شَخْصًا أَدخَل مَراسِيمه فِي مُلْك جارِه واقتَطَع جُزْءًا من أَرْضه وقالَ: إِني تائِبٌ. فنَقُول لَه: رُد المَراسيم إِلى حُدودِها الأُولى، وإِلَّا فإِن تَوْبَتك لَا تُقبَل؛ لأَنَّه لا بُدَّ من الإِقْلاع عن الذَّنب الَّذِي تاب منه.

الشَّرْط الرابع: أن يَعزِم عَزْمًا تامًّا أَلَّا يَعود إِلى الذَّنب، فإِن تابَ وهُو فِي نَفْسه لو حصَل لَه فُرْصة لعاد إِلى الذَّنْب فإِن تَوْبَته لَا تُقبَل، بَلْ لا بُدَّ أن يَعزِم عَزْمًا أَكيدًا على أَلَّا يَعود.

الشَّرْط الخامِسُ: أن تَكون التَّوْبة فِي وَقْت تُقبَل فيه التَّوْبة؛ لأنه يَأتِي أَوْقات لَا تُقبَل فيها التَّوْبة، وذلِك فِي حالَيْن:

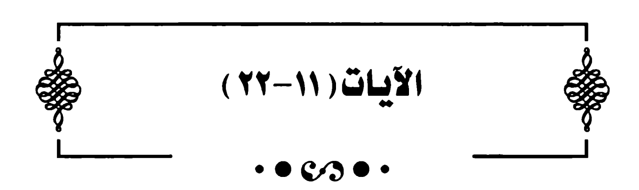
الحَالُ الأُولى: إِذَا حضَرَه المَوْت فإِن تَوْبَته لَا تُقبَل؛ لقَوْل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، بعدَما عايَنَ المَوْت وشاهَد العَذاب يَقول: تُبْتُ. فلَا يَنفَع هذا، ومِثال واقِع لِهَذه المَسأَلةِ أن فِرعونَ لَـمَّا أَدركَه الغرَقُ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، يَعنِي بالله ولم يَقُل: آمَنْتُ بالله. إِذْلالًا لنَفْسه حيثُ كانَ يُحارِب بَني إِسرائيلَ على الإِيمان بالله، وَالآن يَقول: آمَنْت بالَّذي آمَنوا به. فكأَنَّه جعَل نَفْسه تابِعًا لبني إِسرائيل إِلى هَذا الحَدِّ بلَغَ به الذُّلُّ، ومَع ذلِك قيل لَه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تتوبُ، آلآنَ تُؤمِن بالَّذي آمَنَتْ به بَنو إِسرائيلَ ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ

قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١].

إِذَنْ: إِذَا حضَر المَوْتُ فإِن التَّوْبة لَا تُقبَل، فلا بُدَّ من المُبادَرة بالتَّوْبة؛ لأَنَّك لَا تَدرِي فِي أيِّ وَقْت يَحضُرك المَوْت، أَلَمْ تَعلَم أن من النَّاس مَن نام على فِراشِه فِي صِحَّة وعافِية، ثُم حُمِل مِن فِراشه إِلى سَرير تَغْسيله؟! أَلَمْ تَعلَم أن بعض النَّاس جلَس على كُرسِيِّ العمَل يَعمَل، ثُم حُمِل من كُرسِيِّ العمَل إِلى سَرير الغُسْل؟! كُلُّ هَذا واقِعٌ؛ لذا يَجِب أن تُبادِر بالتَّوْبة قبلَ أن تُغلَق الأَبْوابُ.

الحَال الثانِيةُ: إِذَا طلَعَتِ الشَّمْس من مَغرِبها، فإِن الشَّمْسَ إِذَا طلَعَت من مَغرِبها ورَآها النَّاسُ آمَنوا؛ لأن الله تعالى يَقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]، والمُرادُ ببَعْض الآياتِ: طُلوع الشَّمْس من مَغرِبها.

• • ۞ • •



الآيات (١١-٢٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج:١١-٢٢].

•●●•

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى عِقاب المُجرِمين ذكَرَ ثَواب المُؤمِنين، وهذِه هِي طَريقة القُرْآن في عَرْض التَّرْغيب وَالتَّرْهيب، وَالقُرْآن الكَريم مَثانٍ، تُذكَر فيه المَعانِي المُتقابِلة، فيُذكَر فيه عَذابُ أَهْل النار ونَعيم أَهْل الجَنَّة، صِفات المُؤمِنين وصِفات الكافِرين، من أَجْل أن يَكُون الإِنسانُ سائِرًا إِلى الله تعالى بين الخَوْف وَالرَّجاء، فيَعرِف نِعْمة الله عليه بالإِسلام، ويَزداد نَشاطًا في طاعة الله، ويَعرِف حِكْمة الله تعالى في وُجود هَؤُلاءِ الكافِرين المُجرِمين ويَزداد حَذَرًا من ذلكَ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هُمُ الَّذِين آمَنوا بالله، ومَلائِكته، وكُتُبه، ورُسُله، وَاليَوْم الآخِر، وَالقدَر خَيْرِه وشَرِّه؛ فإِن هَذا هُو الإِيمان كما فسَّره النَّبيُّ ﷺ حين سأَله جِبريلُ عن الإِيمان فقالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ**

خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، وأمَّا قَوْلُه: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالمُراد عمِلوا الأعمالَ الصالحِة، وَالأَعْمال الصالحِة هِي الَّتِي بُنِيت على الإِخْلاص لله، واتِّباع شَريعة الله، فمَن عَمِل عمَلًا أَشرَك به مَعَ الله غيرَه فعمَله مَردودٌ عليه؛ لقَوْل النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما يَروِيه عن رَبِّه أنَّه تعالى قالَ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢).

وأمَّا المُتابَعةُ لرَسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإن مَن عمِلَ عمَلًا ليسَ على شَريعة الله فإنه باطِلٌ مَردودٌ؛ لقَوْل النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٣)، وبِناءً على ذلِك تَكون عِبادة المُرائِي الَّذِي يَعبُد الله، لكِن يُرائِي النَّاسَ، أي: يُظهِر العِبادة؛ ليَراه النَّاس فيَمدَحوه وهُو لَا يُريد التَّقرُّب إِلى النَّاس، يُريد التَّقرُّب إِلى الله، لكِن يُريد أن يَمدَحه النَّاس على تَقرُّبه إِلى الله وعِبادته لله، فهَذا مُراءٍ وعمَلُه مَردودٌ أيضًا.

كذَلِك مَن تَكلَّم بكَلام قُرآنٍ أو ذِكْر ورَفَع صَوْته؛ ليَسمَعه النَّاسُ فيَمدَحوه على ذِكْره لله، فهَذا أيضًا مُراءٍ، عمَله مَردودٌ عليه؛ لأنَّه أَشرَك فيه مَع اللهِ غَيْره، أَراد أن يَمدَحه النَّاسُ على عِبادة الله.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام...، رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أَمَّا مَن تَعبَّد للناس فهَذا مُشرِك شِرْكًا أكبَرَ، يَعنِي: مَن قام يُصلِّي أَمام شَخْص تَعظيمًا لَه، لَا لله، وركَعَ للشَّخْص وسجَد للشَّخْص فهَذا مُشرِك شِرْكًا أَكبَرَ مُخرِجًا عن المِلَّة، ومَنِ ابتَدَع فِي دِين الله مَا ليسَ منه كمَا لو رَتَّب أذكارًا مُعيَّنة فِي وَقْت مُعيَّن فإِن ذلِكَ لَا يُقبَل منه، حتَّى ولو كانَ ذِكْر الله لو كانَ تَسبيحًا، أو تَحميدًا، أو تكبيرًا، أو تَهليلًا، ولكِنَّه رتَّبَه على وَجْه لم تَرِد به السُّنَّة فإِن ذلِك ليسَ مَقبولًا عِند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه عمِل عمَلًا ليسَ عليه أَمْر الله ورَسوله، فالمُهِمُّ أن الله اشتَرَط مَع الإِيمان العمَل الصالِح.

وبهذا نَعرِف أَنَّه لَا يَنبَغي لنا أن نُركِّز دائِمًا على العَقيدة، ونَقُول: نحنُ على العَقيدة الإِسْلاميَّة وعلى كذا، وعلى كذا، ولَا نَذكُر العَمَل؛ لأن مُجرَّد العَقيدة لَا يَكفِي لا بُدَّ مِن عمَل.

فيَنبَغي عِندما تَذكُر أننا على العَقيدة الإِسلامِيَّة أن تَقول: ونَعمَل العمَلَ الصالِحَ؛ لأن الله يَقرُن دائِمًا بين الإِيمان المُتضَمِّن للعَقيدة وبين العمَل الصالِح، حتَّى لَا يَخلوَ الإِنسانُ من عمَل صالِحٍ، أَمَّا مُجرَّد العَقيدة فلَا يَنفَع، فلو أن الإِنسان يَقول: أنا مُؤمِن بالله. لكِن لَا يَعمَل فأينَ الإِيمانُ بالله؟ ولِهَذا كانَ القَوْل الراجِحُ من أَقْوال العُلَماء أن تارِك الصَّلاة كافِرٌ كُفْرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، وقد بيَّنَّا أدِلَّة ذلِكَ فِي رِسالة لنا صَغيرة، يُغنِي عن إِعادتِها هُنا.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ يَعنِي: عِند الله ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وذلِك بعد البَعْث فإِنهم يَدخُلون هذِه الجَنَّاتِ الَّتِي فيها مَا لَا عَيْنٌ رأَتْ، ولَا أُذُنٌ سمِعَت، ولَا خَطَرَ على قَلْب بشَرٍ؛ ولِهَذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ

نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

وقالَ اللهُ فِي الحَديثِ القُدسيِّ: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1]؛ لأن فيها من النَّعيم مَا لَا يَتَصوَّره الإِنسانُ، وَاللهُ تعالى يَذكُر فِي الجَنَّات: نَخْلًا، ورُمَّانًا، وفاكِهةً، ولَحْمَ طَيرٍ، وعسَلًا، ولَبَنًا، وماءً، وخَمْرًا، لكِنْ حَقائِقُ هذِه الأَشْياءِ ليسَت كحَقائِق مَا فِي الدُّنْيا أبدًا، لأَنَّها لو كانَت حَقائِقُها كحَقائِقِ مَا فِي الدُّنيا لكُنَّا نَعلَم مَا أُخفِيَ لنا من هذا، ولكِنَّها أَعظَمُ وأَعظَمُ بكَثير مِمَّا نَتصوَّره، فالرُّمَّان وإِن كُنَّا نَعرِف مَعنَى الرُّمَّان، ونَعرِف أَنَّه على شَكْل مُعيَّن، وطَعْم مُعيَّن، وذو حَبَّاتٍ مُعيَّنة، لكِن ليسَ الرُّمَّان الَّذِي فِي الآخِرة كهذه فهُو أَعظَمُ بكَثير، لَا من جِهة الحَجْم، ولَا من جِهة اللَّوْن، ولَا مِن جِهة المَذاق، كَما قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليسَ فِي الدُّنيا شيءٌ مِمَّا فِي الجَنَّة إِلَّا الأَسْماء فقَطْ»[2]، أَمَّا الحَقائِقُ فهِي غيرُ مَعلومة.

وقَوْلُه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ قالَ العُلَماءُ: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾؛ أي: مِن تَحْت أَشجارِها وقُصورِها، وإِلَّا فهِي على السَّطْح فوقُ، ثُم هذِه الأنهارُ جاءَ فِي الأَحاديث أَنَّها لَا تَحتاج إِلى حَفْر، ولَا تَحتاج إِلى بِناءِ أُخْدود، وفي هَذا يَقولُ ابنُ القَيِّم فِي النُّونيَّة[3]:

أَنْهَارُهَا فِي غَـيْرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ ... سُبْحَانَ مُمْسِـكِهَا عَـنِ الفَيَضَـانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب مَا جاء فِي صفة الجنة وأنَّها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه هناد بن السري فِي الزهد، رقم (٣)، والطبري فِي تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم فِي تفسيره (١/ ٦٦).

(٣) النونية (ص:٣٢٦).

الأَنْهارُ فِي المَعروف عِندنا تَحتاج إِلى حَفْر، أو إِلى أُخْدود تَمنَع من تَسرُّب الماء يَمينًا وشِمالًا، لكِن فِي الجَنَّة لَا تَحتاج إِلى أُخْدود، تَجري حَيثُ شاءَ الإِنسانُ، يَعنِي يُوجِّهُها كَما شاءَ بدون حَفْر، وبدون إِقامةِ أُخْدود، وَالأنهارُ فِي هذِه الآيَةِ وفي آياتٍ كَثيرةٍ مُجمَلةٍ، لكِنَّه فُصِّلَت فِي سُورة القِتال -سُورةِ مُحمَّد- قالَ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشارُ إِليه الجَنَّاتُ ومَا فيها من النَّعيم ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، يَعنِي: الَّذِي به النَّجاة من كُلِّ مَرهوبٍ وحُصول كُلِّ مَطْلوب؛ لأن الفَوْز هُو عِبارة عن حُصول المَطْلوب وزَوال المَكْروه، وَالجَنَّة كذَلِكَ فيها كُلُّ مَطلوب، وقد زالَ عَنها كُلُّ مَرْهوب، فلَا يَذوقون فيها المَوْت، ولَا المَرَض، ولَا السُّقْم، ولَا الهَمَّ، ولَا النَّصَب.

ثُم قالَ تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿بَطْشَ﴾ يَعنِي: أَخْذه بالعِقاب، والشَّديد: القوِيُّ، كَما قالَ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨]، فبَطْش الله -يَعنِي: انتِقامه وأَخْذه- شَديد عَظيم، ولكِنَّه لِمَن يَستَحِقُّ ذلِك، أَمَّا مَن لَا يَستَحِقُّ ذلِك فإِن رحمة الله تعالى أَوْسَعُ، مَا أَكثَرَ مَا يَعفو الله عن الذُّنوب! مَا أكثَرَ مَا يَستُرُ من العُيوب! مَا أَكثَرَ مَا يَدفَع من النِّقَم! ومَا أكثَرَ مَا يُجرِي من النِّعَم! لكِن إِذَا أَخَذَ الظالِمَ لم يُفلِته كَما قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»[1]، وتَلا قَوْلَه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وكذلك أخذ ربك إِذَا أخذ القرى وهِي ظالمة

وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، وعلى هَذا فنَقُول: ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾؛ أي: فيمَن يَستَحِقُّ البَطْش، أمَّا مَن لَا يَستَحِقُّه فإِن الله تعالى يُعامِله بالرَّحْمة، ويُعامِله بالكَرَم، ويُعامِله بالجُود، ورحمة الله تعالى سبقَتْ غضَبه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يَعنِي أن الأَمْر إِليه ابتِداءً وإِعادةً، وهَذا كقَوْله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧].

فهُوَ الَّذِي بدَأَ الأَشياء، وإِليه تَنتَهي الأَشْياءُ، الأشياءُ مِنه وإِليه فِي كُلِّ شيء، الخَلْق مِن الله وإِليه، الشَّرائِعُ من الله وإِليه، كُلُّ الأُمور من الله وإِليه؛ ولهذا قالَ: ﴿يُبْدِئُ﴾ ولم يَذكُر مَا الَّذِي يُبدِئه، فمَعناه يُبدِئُ كلَّ شيءٍ، ويُعيد كلَّ شيءٍ، فكُلُّ الأَمْر بيَدِه عَزَّوَجَلَّ، فاعرِفْ أيُّها العَبْد مِن أين أَنْت، وأَنَّك ابتُدِئْت مِن عدَمٍ، واعرِفْ مُنتَهاكَ وغايَتَكَ، وأن غايَتَكَ إِلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ يَعنِي ذا المَغْفرة، وَالمَغفِرة سَتْر الذَّنْب وَالعَفْو عَنه، فليسَتِ المَغفِرة سَتْر الذَّنْب فقَطْ، بَلْ سَتْره وعدَمُ المُؤاخَذة عليه كَما جاءَ فِي الحَديثِ الصَّحيحِ: «إِنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ حَتَّى يُقِرَّ بِهَا وَيَعْتَرِفَ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»[(١)]، ويُذكَر أن بَني إِسرائيلَ كانوا إِذَا أَذنَب الواحِدُ مِنهم ذَنْبًا وجَدَه مَكتوبًا على بابِ بَيْته فَضيحةً وعارًا، لكِنَّنا نحنُ -ولله الحَمدُ- قَد ستَرَ اللهُ علَيْنا، فعَلَيْنا أن نَتوبَ

= إن أخذه أليم شديد. رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ألا لعنة الله على الظالمين، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إلى الله ونَستَغفِرَه من الذَّنب، فتمحَى آثارُه؛ ولهذا قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾؛ أي: الساتِرُ لذُنوب عِباده المُتجاوِز عنها.

﴿ٱلْوَدُودُ﴾ مَأْخوذة من الوُدِّ، وَالوُدُّ هُو خالِصُ المَحبَّة فهُو جَلَّوَعَلَا وَدودٌ، ومَعنَى وَدود أنَّه محبوب وأنه حابٌّ، فهُو يَشمَل الوَجْهَيْن جَميعًا، قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة:٥٤]، فهُو جَلَّوَعَلَا وادٍ يُحِبُّ الأَعْمال، ويُحِبُّ الأَشْخاص، ويُحِبُّ الأَمكِنة، وهُو كذَلِك أيضًا محَبوبٌ يُحِبُّه أَوْلياؤُه ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١]، فكُلَّما كانَ الإِنسانُ أَتبَعَ لرَسولِ الله ﷺ كانَ أَحبَّ إلى الله، فهُو جَلَّوَعَلَا وادٍ وهُو أيضًا مَودودٌ، أي: أنَّه يُحِبُّ ويُحَبُّ، يُحِبُّ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الأَعْمال ويُحِبُّ العامِلين، ويُحِبُّ الأَشْخاص، يَعنِي: أن محَبَّة الله قَد تَتَعلَّق بشَخْص مُعيَّن مِثْل قولِ الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي يوم خَيْبَر: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»، فباتَ النَّاسُ، ثُم غَدَوْا إلى رَسولِ الله ﷺ كلُّهم يَرجو أن يُعطاها فقالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**» قالوا: يَشتكِي عَيْنيه. فدَعا به فأَتى، فبَصَق فِي عَيْنه فبَرَأ كأَنْ لم يَكُن به وجَعٌ فِي الحَالِ، ثُم أَعطاهُ الرايةَ وقالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ**»[1].

الشاهد قَوْلُه: «**يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»، فهُنا أَثْبَت أن الله يُحِبُّ هَذا الرجُلَ بعَيْنه عليَّ بنَ أَبِي طالِبٍ، ولَمَّا بعَثَ النَّبيُّ ﷺ رجُلًا على سَرِيَّة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، رقم (٢٩٤٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٢٤٠٦)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

صار يَقرَأ لَهُم فِي الصَّلاة ويَختِم القِراءة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلَمَّا رجَعوا إِلى النَّبيِّ ﷺ أَخبَروه بذلِكَ؛ لأن عمَلَه هَذا وهُو أنَّه يَختِم القِراءة بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ غيرُ مَعروف، فقالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فسَأَلوه فقالَ: إِنَّها صِفةُ الله، وأنا أُحِبُّ أن أَقرَأَها. فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»[1]، فهُنا المَحبَّة عُلِّقت بشَخْص مُعيَّن يُحِبُّه الله.

وقَدْ تَكون مَحبَّة الله بمُعيَّنِين بأَوْصافِهم مِثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، هَذه ليسَت فِي شَخْص مُعيَّن لكِنْ فِي شَخْص مَوْصوف بصِفة.

كذَلِكَ يُحِبُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأماكِنَ: «أَحَبُّ البِقَاعِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا»، وأَخبَرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن مكَّةَ أَحَبُّ البِقاع إِلى الله[2]، هذِه المَحبَّةُ مُتعلِّقة بالأماكِن، فالله تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ؛ ولِهَذا قالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾.

ثُم بيَّن عظَمَته وتَمام سُلْطانه فِي قَوْله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: صاحِب العَرْش، وَالعَرْش هُو الَّذِي استَوَى عليه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهُو أَعظَمُ المَخْلوقات وأَكبَرُها وأَوْسَعُها،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب مَا جاء فِي دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رقم (٧٣٧٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة قل هُو الله أحد، رقم (٨١٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٥)، والترمذي: كتاب المناقب، باب فِي فضل مكة، رقم (٣٩٢٥)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب ، رقم (٣١٠٨)، من حديث عبدالله بن عدي بن حمراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

وقد جاءَ فِي الأَثَر[1] أن السَّمَواتِ السَّبْعَ وَالأَرَضين السَّبْعَ بالنِّسْبة إِلى الكُرسيِّ كحَلقة أُلْقِيَت فِي فَلاةٍ من الأَرْض، وأن فَضْل العَرْش على الكُرسيِّ كفَضْل الفَلاة على هذِه الحَلقةِ، حَلقة الدِّرْع صَغيرة أُلقِيَت فِي فَلاةٍ من الأَرْض ليسَت بشَيْءٍ بالنِّسبة لهَا، وأَنَّ فَضْل العَرْش على الكُرسيِّ كفَضْل الفَلاة على هَذِه الحَلقةِ، إِذَنْ لَا أَحَدَ يُقدِّر سَعَته، وإِذَا كُنَّا نُشاهِد من المَخلوقات المَشهودة الآنَ التَّبايُن العَظيم فِي أَحْجامِها.

ولَقَدْ أَطلَعَني رجُلٌ على صُورة الشَّمْس وصُورة الأرض، فوجَدْت أن الأَرْض بالنِّسْبة لهذه الشَّمْسِ كنُقْطة غير كَبيرة فِي صَحْن واسِعٍ كَبيرٍ، وأَنَّها لَا تُنسَب إِلى الشَّمْس إِطلاقًا، فإِذَا كانَ هَذا فِي الأَشياءِ المَشْهودة الَّتِي تُدرَك بالتِّلِسكوب وغَيرِه فَما بالُكَ بالأشياءِ الغائِبة عَنَّا؛ لأن مَا غابَ عَنَّا أَعظَمُ مِمَّا نُشاهِد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

فالحاصِلُ: أن العَرْش هُو سَقْف المَخْلوقات كلِّها، عَرْش عَظيم استَوَى عليه الرَّحْمن جَلَّوَعَلَا كَما قالَ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

وقَوْلُه: ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ فيها قِراءَتان: (**المَجيدِ**) و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾[2]، فعَلى القِراءة الأُولى تَكون وَصْفًا للعَرْش، وعلى الثانِية تكون وَصْفًا للرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وكِلاهما صَحيحٌ فالعَرْش مَجيدٌ، وكذلِكَ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مَجيدٌ، ونحن نَقُول فِي التَّشهُّد: إِنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ.

---

(١) أخرجه ابن حبان، رقم (٣٦١)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) انظر: السبعة فِي القراءات (ص:٦٧٨)، و التيسير فِي القراءات السبع (ص:٢٢١).

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ هذا وَصْف لله تعالى بأنه الفَعَّال لِما يُريد، فكُلُّ مَا أَراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهُوَ يَفعَله، ولا يَمنَعه من فِعْله مانِعٌ؛ لأن له مُلْكَ السَّمواتِ والأَرْض، ولا يَمنَعه أَحَدٌ من أن يَفعَل في مُلْكه ما يَشاءُ؛ وهذا كقَوْله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧]، فالخَلْق كلُّهُم مَهْما كانوا لا يَستَطيعون أن يَفعَلوا ما يَشاؤُونَه.

بَلْ قد يُريدون الشيءَ إرادة جازِمة، ولكِنْ إذا لم يُرِد الله أن يَقَعَ مِنْهم ذلِكَ الشيءُ صرَفَهمُ اللهُ عن فِعْله، ومنَعَهم منه، وحالَ بَيْنَهم وبين تَنْفيذه، أمَّا الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فإنَّه فعَّالٌ لِما يُريد، فإذا أَراد شيئًا قال له: كُنْ. فيَكون، ففي هذه الآيَةِ الكَريمة إثباتُ إرادةِ الله إرادةً كامِلةً تامَّةً في خَلْقه، وفيما يَتَعلَّق بأَفْعال الخَلْق، فلا يَكون فِعْل من الناس إلَّا بإرادةِ الله، كما قال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، فبَيَّن الله سبحانه في هَذه الآيَةِ أن مَشيئة العِباد مُرتَبِطة بمَشيته هو سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فإرادةُ الله شامِلةٌ لِما يَكون من فِعْله، ولِما يَكون من فِعْل العِباد وأَضرِبُ لكُمْ مثَلًا بذلِك: فأنا لو تَكلَّمت بكَلامي هذا أو بغَيْره أو ما سَبَقَه من الكَلام، فكُلُّ كَلامي كائِنٌ بإرادة الله، ولَوْ شاءَ اللهُ أَلَّا أَتكَلَّم ما تكَلَّمت ولعجَزْتُ عن الكَلام، وإذا شاءَ أن أَتكَلَّم تكلَّمْت، فتَنْبَعِث من قَلْبي إِرادةٌ للكَلام فأَتكَلَّم؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٦].

ثُم قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ [البروج:١٧].

والخِطابُ هُنا مُوجَّه لرَسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو لكُلِّ مَن يَصِحُّ أن يُتوجَّه إليه بالخِطابِ، والاستِفْهام للتَّنبيهِ؛ لأن الشيءَ إذا جاء بالإسْتِفْهام انتبَهَ له الإِنْسان أكثَرَ، (الجُنودُ) جَمْع جُنْد، وهو هُنا مُبهَمٌ، لكِنَّه فسَّره بقَوْله: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج:١٨]، يَعنِي: هَلْ أَتاك خَبَرُهُم؟ والجَوابُ: نعَمْ، أَتانا خَبَرُهم؛ فقَدْ قصَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علَيْنا من نَبَأ فِرْعونَ ونَبَأ ثَمودَ ما فيه العِبْرة لِمَن كان له قَلْب أو أَلْقى السَّمْع وهو شَهيدٌ، فقِصَّة فِرْعونَ ذكَرَها اللهُ تعالى في آياتٍ كَثيرةٍ وفي سُوَر مُتَعدِّدة كمُقدِّمة بين يَدَيْ سلَفِ مُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكما هو مَعروفٌ أن مُوسى مَبْعوث لبَني إسرائيلَ، وقَصَّ اللهُ سبحانه على رَسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن نَبأ مُوسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما لم يَقُصَّه من نَبأ غَيْره؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ سَوْف يَكون مُهاجَرُه إلى المَدينة الَّتي بِها ثَلاثُ قَبائِلَ من اليَهودِ، فكانَ رَسولُ الله ﷺ يَعلَم مِن نَبئِهم الشَّيءَ الكَثيرَ من أَجْل أن يَكون على استِعْدادٍ لِمُناظَرَتِهم ومُجادَلَتِهم بالحَقِّ حتَّى لا يَخفَى عليه من أَمْرِهم شيءٌ.

وفِرْعونُ مَلِكُ مِصرَ، وهَلْ هو عَلَم شَخْص يُسمَّى باسْمِ فِرْعونَ أم وَصْف لكُلِّ مَن ملَكَ مِصْرَ وهو كافِرٌ؟ من العُلَماء مَن قال: إنه عَلَم شَخْص، أي: أنَّ الَّذي أُرسِل إليه مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو فِرعونُ، وهَذا اسْمُه. ومِنهم مَن قال: إنَّه عَلَم وَصْف لكُلِّ مَن ملَكَ مِصْرَ كافِرًا، كما يُقالُ: كِسْرى. لِكُلِّ مَن ملَكَ الفُرْس، وهِرَقْل لِكُلِّ مَن ملَكَ الرُّوم، والنَّجاشِي لكُلِّ مَن ملَكَ الحَبَشة، وما أَشبَهَ ذلِكَ.

وفِرعونُ هذا كان جَبَّارًا عَنيدًا مُتكبِّرًا يَدَّعِي أنه الرَّبُّ كما قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ

ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وادَّعى أيضًا الأُلوهيَّة حِينها قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وكان يَسْتَهزِئ بمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبما جاءَ به من الآياتِ ويَتحدَّاه، ويَقول له صَراحةً وَجْهًا لوَجْه: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الاسراء:١٠١]، ويَفتَخِر على مُوسَى وعلى قَوْمه ويَقولُ لَهُم: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥١-٥٣].

فماذا كانَتِ النَّتيجةُ؟

كانَتِ النَّتيجةُ أن كفرَ به أَخصُّ الناس بكَيْده، وهُمْ السَّحَرة، فإن السَّحَرة لَمَّا جَمَعوا كلَّ ما عِندَهم من السِّحْر، وجاؤُوا لِمُقابَلة مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيثُ إنَّ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى بآيَةٍ تُشبِه السِّحْر، ولكِنَّها ليسَت بسِحْر، بَلْ آيةٌ من آيات الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي أنه يَضَع العَصا الَّتي معَه على الأَرْض فتنقَلِب حيَّةً تَسعَى، وجَمَع السَّحَرة كلَّهم في مَكانٍ حُدِّدَ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه:٥٨] يَعنِي: مَكانًا مُستَوِيًا مُنبَسِطًا حتَّى يُشاهِد الناسُ ما يُشاهِدون من السِّحْر وأَعْمال السَّحَرة، فقال لَهُم: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩]، ويَوْم الزِّينة هو يَوْم عِيدهم، وهو يَوْم تَكثُر فيه الجُموع؛ لِتَهنِئة بعضِهم بَعضًا، واجتَمَعوا في المَوعِد المُحدَّد والمَكان المُعيَّن، وحُشِر الناسُ ضُحًى في رابِعة النَّهار، وأَلْقى السَّحَرة ما بأَيْديهم من الحِبال والعِصِي، وخُيِّل إلى الحاضِرين من سِحْرهم أنها تَسعَى، فأَوْجَسَ في نَفْسه خِيفةً

مُوسى؛ لأَنَّه شاهَد أمرًا عَظيمًا وكَيدًا كَبيرًا، فأَوْحى اللهُ عَزَّوَجَلَّ إليه أن يُلقِيَ عَصاهُ، فألْقى مُوسَى عَصاه فإذا هيَ تَلْقَفُ ما يَأفِكون، وحينَئِذٍ علِمَ السَّحَرةُ أن مُوسى صادِقٌ، وليس بساحِرٍ؛ لأنه لو كان ساحِرًا ما استَطَاع أن يَغلِبَهم بسِحْره، فآمَن السَّحَرةُ بمُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكفَروا بفِرْعونَ الطاغِيةِ، وقالوا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٤٧]، ووَقَفوا في وَجْه فِرْعَوْنَ وتَحَدَّوْه وانْقَلَبوا عليه، وفي النِّهايةِ أَغرَقَ اللهُ فِرْعونَ في الماء الَّذي كان يَفتَخِر به بالأَمْسِ.

أمَّا ثَمودُ: فإن اللهَ أَعطاهُم قُدْرة وقُوَّة حتَّى كانوا يَنحِتون من الجِبال بُيوتًا فارِهينَ، ويَتَّخِذون من السُّهول قُصورًا، وعِندَما كَذَّبوا رَسولَهُم صالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَهلَكَهُمُ الله برَجْفة وصَيْحة، فهَلَكوا عن بَكْرةِ أبيهِم، فأَصبَحوا في دِيارِهِم جاثِمين، وكان مِن نَبَأ فِرعونَ وثَمودَ فائِدَتانِ:

الأُولى: تَسْلية النَّبيِّ ﷺ وتَقْويته، وأن الَّذي نَصَر رُسُله من قبلُ سَوْف يُؤيِّده ويَنصُره ويُعزِّزه، وهذا لا شَكَّ أنه يُقوِّي العَزيمة، ويَشحَذُ الهِمَم في الدَّعْوة إلى الله وتَبليغ رِسالاتِه.

والفائِدةُ الثانِيةُ: تَهديدٌ ووَعيدٌ شَديدٌ لقُرَيْشٍ الَّذين كذَّبوا رَسولَ الله ﷺ ووقَفوا له بالمِرْصاد، وأنَّهم لَيسوا أَشَدَّ قُوَّةً من فِرْعونَ وثَمودَ، ومعَ ذلِكَ أَصابَهُمُ الدَّمارُ والهَلاكُ ووقَعَ علَيْهم كلِمة العَذاب.

قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ أَيْ: إن الَّذين كفَروا بمُحمَّد ﷺ في تَكْذيب، وكأَنَّهم مُنغَمِسون في التَّكذيب، والتَّكذيب مُحيطٌ بِهِمْ من كل جانِبٍ، وهذا أَبلَغُ من قولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق:٢٢] في هذا المَوْضِعِ، وقد

تَكون (يُكذِّبون) أبلَغَ في مَوْضِعٍ آخَرَ غير هذا المَوْضِعِ؛ لأن القُرآنَ قد يَأتِي بالكَلِمتَيْن المُختَلِفتَيْن في مَوْضِعين وتَكون كلُّ واحِدة مِنهما في مَوضِعها أبلَغَ من الأُخْرى.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يَشمَل كُلَّ مَن كفَر بالله ورَسولِه سَواءٌ كانَ من المُشرِكين، أو من اليَهود، أو النَّصارَى أو غيرِهِم؛ وذلِك لأن اليَهود وَالنَّصارَى الآنَ وبعدَ بَعْثة الرَّسولِ ﷺ ليسوا على دِينٍ مَرضِيٍّ عِند الله، ولَا تَنفَعُهم أَدْيانُهم؛ لأنه -أيِ: النَّبيَّ ﷺ- خاتَمُ الأَنبياءِ، فمَن لَمْ يُؤمِن به فلَيْس على شيءٍ من دِينِه، بل إِن مَن لم يُؤمِن برَسولٍ واحِدٍ من الرُّسُل فهُو كافِرٌ بجَمِيع الرُّسُل، فمثَلًا مَن لم يُؤمِن بنُوح أَنَّه رَسولٌ ولَوْ آمَن بغَيْره من الأَنْبياء فإنه مُكذِّب لغَيْره من الرُّسُل، والدَّليلُ على ذلِكَ قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]، فبَيَّن الله تعالى أن قَوْم نُوح كذَّبوا جُمْلة الرُّسُل مع أنَّهم لم يُدرِكوا إلَّا رَسولَهُم وهو نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكذلِكَ الَّذي كذَّب مُحمَّدًا ﷺ هو مُكذِّب لغَيْره من رُسُل الله وأَنبيائِه، فإِذَا ادَّعَتِ اليَهودُ أنَّهم على دِين، وأنَّهم يَتَّبِعون التَّوْراة الَّتِي جاءَ بها مُوسَى نَقُول لَهُم: أنتُم كافِرون بمُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كافِرون بالتَّوراة، وإِذَا ادَّعَتِ النَّصارَى الَّذِين يُسمُّون أَنفُسَهم اليَوْمَ (بالمَسيحِيِّين) أنَّهم مُؤمِنون بعِيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قُلْنا لهم: كذَبْتُم، أنتُمْ كافِرون بعِيسى؛ لأَنَّكُم كافِرون بمُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وَالعجَبُ أن هَؤُلاءِ اليَهودَ وَالنَّصارَى يَكفُرون بمُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع أنَّهُم يَجِدونه مَكتوبًا عِندَهم فِي التَّوراة وَالإِنْجيل، يَأمُرهم بالمَعروف، ويَنْهاهُم عن المُنكَر، ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ، ويُحرِّم علَيْهِمُ الخَبائِثَ، ويَضَعُ عَنْهم إِصرَهُم وَالأغلالَ الَّتِي كانَت علَيْهم، يَعرِفونه كَما يَعرِفون

أَبناءَهُم، لكِنِ العِنادُ وَالكِبْرِياءُ وَالحَسَد منعَهم أن يُؤمِنوا بمُحمَّد عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

فالحاصِلُ: أن قَوْلَه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يَشمَل كُلَّ مَن كفَرَ بمُحمَّد ﷺ حتَّى من اليَهود وَالنَّصارَى؛ ولِهَذا قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ** -يَعْنِي: أُمَّةَ الدَّعْوَةِ- **يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1].

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ يَعنِي: أن الله تعالى مُحيطٌ بِهِم مِن كُلِّ جانِبٍ لَا يَشِذُّون عَنه ولَا عن عِلْمه ولَا سُلْطانه ولَا عَن عِقابه، ولكِنَّه عَزَّوَجَلَّ قَد يُملِي للظالِمِ حتَّى إِذَا أَخذَه لم يُفلِتْه.

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: مَا جاءَ به الرَّسولُ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ ﴿قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾؛ أي: ذُو عظَمةٍ ومَجْدٍ، ووَصْف القُرآن بأَنَّه مجيدٌ لَا يَعنِي أن المَجْد وَصْف للقُرْآن نَفْسِه فقَطْ، بَلْ هُو وَصْف للقُرْآن، ولِمَن تَحمَّل هَذا القُرآنَ فحمَله وقام بواجِبِه من تِلاوَتِه حَقَّ تِلاوَته، فإِنه سيَكون لَهُمُ المَجْد وَالعِزَّة وَالرِّفْعة، وقَوْلُه تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ يَعنِي: بذلِكَ اللَّوْح المَحْفوظ عِند الله عَزَّوَجَلَّ الَّذِي هُو أُمُّ الكِتاب كَما قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإِيمان، باب وجوب الإِيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وهَذا اللَّوْحُ كتَبَ اللهُ به مَقادِيرَ كُلِّ شيءٍ، ومن جُمْلة مَا كُتِبَ به أن هَذا القُرْآن سيَنزِل على مُحمَّد ﷺ فهُو فِي لَوْح محفوظ، قالَ العُلَماءُ: ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ لَا ينالُه أَحَدٌ، محفوظٌ عن التَّغيير وَالتَّبديل، وَالتَّبديل وَالتَّغيير إنما يَكُون فِي الكُتُب الأُخْرى؛ لأن الكِتابة من الله عَزَّوَجَلَّ أَنْواعٌ:

النَّوْع الأوَّل: الكِتابة فِي اللَّوْح المَحْفوظ وهَذِه الكِتابةُ لَا تُبدَّل ولَا تُغيَّر؛ ولهذا سَمَّاه الله لَوْحًا محْفوظًا، لَا يُمكِن أن يُبدَّل أو يُغيَّر مَا فيه.

الثاني: الكِتابة على بَني آدَمَ وهُمْ فِي بُطون أُمَّهاتِهم؛ لأن الإِنسان فِي بَطْن أُمِّه إِذَا تَمَّ لَه أَربَعة أَشهُر بعَث اللهُ إِليه مَلَكًا مُوكَّلًا بالأَرْحام، فيَنفُخ فيه الرُّوح بإِذْن الله، لأن الجَسَد عِبارة عن قِطْعة من لَحْم إِذَا نُفِخَت فيه الرُّوح صار إِنسانًا، ويُؤمَر بأَرْبَع كلِماتٍ: بكَتْب رِزْقه، وأَجَلِه، وعمَلِه، وشَقيٌّ أو سَعيدٌ.

النَّوْعُ الثالِثُ: كِتابة حَوْليَّة كلَّ سَنَة، وهِي الكِتابة الَّتِي تكون فِي لَيْلة القَدْر، فإِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقدِّر فِي هذِه اللَّيْلةِ مَا يَكُون فِي تِلْكَ السَّنَةِ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤]، فيُكتَب فِي هذِه اللَّيْلةِ مَا يَكُون فِي تِلكَ السَّنَة.

النَّوْعُ الرابِعُ: كِتابة يَوْميَّة، وهي الَّتي تَقوم بها المَلائِكة، حيثُ يَكتُبون كُلَّ ما يَعمَله الإِنْسان في ذلِكَ اليَوْمِ، سَواءٌ كان قولًا بِلِسانه، أو عمَلًا بجَوارِحه، أو اعتِقادًا بقَلْبه، وذلِكَ في الصُّحُف الَّتي بأَيْدي المَلائِكة، وهذِه الكِتابةُ تَكون بعدَ العمَلِ، وَالكِتاباتُ الثَّلاثُ السابِقةُ كُلُّها قبلَ العمَل، لكِنِ الكِتابةُ الأَخيرةُ هَذِه تكون بعدَ العمَلِ، يُكتَب على الإِنسان مَا يَعمَل من قَوْل بلِسانه، أو فِعْل بجَوارِحه، أو اعتِقادٍ

بقَلْبه، فإِن المَلائِكة المُوكَّلين بحِفْظ بَني آدَمَ، أي: بحِفْظ أَعْمالِهم يكتُبون قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩-١٢]، فإِذَا كانَ يومُ القِيامة فإِنه يُعطَى هَذا الكِتابَ، كَما قالَ تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤]. يَعنِي: تُعطَى الكِتابَ ويُقال لَكَ أنتَ: اقرَأْ وحاسِبْ نَفْسَكَ.

قالَ بعضُ السلَفِ: لقَدْ أَنصفَك مَن جعَلَك حَسيبًا على نَفْسِك. وهَذا صحيحٌ، أيُّ إِنصافٍ أَبلَغُ من أن يُقال للشَّخْص: تَفضَّل هَذا مَا عمِلْت، حاسِبْ نَفْسَك؟! أَلَيْسَ هَذا هُو الإِنصافَ؟! بل أَكبَرُ إِنصاف هُو هذا، فيَوْم القِيامة تُعطَى هَذا الكِتابَ مَنْشورًا مَفتوحًا أَمامَكَ ليسَ مُغلَقًا، تَقرَأ ويَتبيَّن لَك أَنَّكَ عمِلْت فِي يَوْم كذا، فِي مَكان كذا كذا وكذا، فهُو شيءٌ مَضبوطٌ لَا يَتغيَّر، وإِذَا أَنكَرْت فهُناكَ مَن يَشهَد عليكَ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ يقول اللِّسانُ: نطَقْتُ بكَذا ﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤] تقولُ اليَدُ: بطَشْتُ. تَقولُ الرِّجْلُ: مشَيْتُ. بل يَقولُ الجِلْد أيضًا؛ لأن الجُلود تَشهَد بما لَمَسَتْ ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت:٢١].

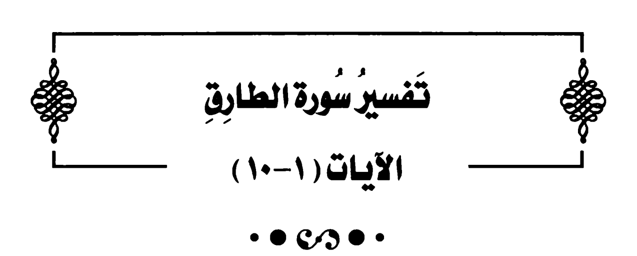
فالأَمْر ليسَ بالأَمْر الهَيِّن -نَسأَل الله تعالى أن يَتولَّانا وإِيَّاكُم بعَفْوه ومَغفِرَته- وإِلى هُنا يَنتَهي الكَلامُ على هذِه السُّورةِ العَظيمةِ الَّتِي ابتَدَأَها اللهُ تعالى بالقَسَم بالسَّماء ذاتِ البُروجِ وأَنهاها بقَوْله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾.

فمَن تمَسَّكَ بهذا القُرْآنِ العَظيمِ فلَهُ المَجْدُ وَالعِزَّة وَالكَرامة وَالرِّفْعة؛ ولِهَذا نَنصَح أُمَّتَنا الإِسلامِيَّة بادِئِين بأَفْراد شُعوبها أن يَتمسَّكوا بالقُرآن العَظيم، ونُوجِّه الدَّعْوة على وَجْهٍ أَوْكَدَ إِلى وُلاة أُمورها أن يَتَمسَّكوا بالقُرآن العَظيم، وأن لَا يَغُرَّهم البَهْرَجُ المُزَخْرَف الَّذِي يَرِدُ من الأُمَم الكافِرة الَّتِي تَضَع القَوانين المُخالَفة للشَّريعة، المُخالَفة للعَدْل، المُخالَفة لإِصْلاح الخَلْق، أن يَضَعوها مَوْضِع التَّنفيذ، ثُم يَنبِذوا كِتاب الله تعالى وسُنَّة رَسولِه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَراءَ ظُهورِهِم، فإِن هَذا -وَاللهِ- سبَبُ التَّأَخر، ولَا أَظُنُّ أَحَدًا يَتَصوَّر أن أُمَّة بهذا العدَدِ الهائِلِ تَكون مُتَأَخِّرةً هَذا التَّأَخُّرَ، وكأنَّها إِمارة فِي قَرْية بالنِّسْبة للدُّوَل الكافِرة، لكِنْ سببُ ذلِك لَا شَكَّ مَعلوم هُو أَنَّنا تركْنا مَا به عِزَّتُنا وكَرامَتُنا وهو: التَّمسُّك بهذا القُرآنِ العَظيم، وذهَبْنا نَلهَث وَراءَ أَنظِمة بائِدة فاسِدة مُخالِفة للعَدْل، مَبنِيَّة على الظُّلْم وَالجَوْر.

فنَحْنُ نُناشِد وُلاة أُمور المُسلِمين جميعًا، أُناشِدُهم أن يَتَّقوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وأن يَرجِعوا رُجوعًا حَقيقيًّا إِلى كِتاب الله تعالى، وسُنَّة رَسولِه ﷺ حتَّى يَستَتِبَّ لَهُمُ الأَمْن وَالاستِقْرار، وتَحصُل لَهُمُ العِزَّة وَالمَجْد وَالرِّفْعة، وتُطيعهم شُعوبهم، ولَا يَكُون فِي قُلوب شُعوبهم علَيْهم شيءٌ؛ وذلِك لأن الإِنسان إِذَا أَصلَح مَا بينَه وبينَ رَبِّه، أَصلَح اللهُ مَا بينَه وبين النَّاس، فإِذَا كانَ وُلاة الأُمور يُريدون أن تُذعِن لَهُمُ الشُّعوب، وأن يُطيعوا اللهَ فيهِم، فلْيُطيعوا الله أَوَّلًا حتَّى تُطيعَهم أُمَمُهُم، وإِلَّا فلَيْس من المَعْقول أن يَعْصوا مالِكَ المُلْك وهُو الله عَزَّوَجَلَّ، ثُم يُريدون أن تُطيعَهم شُعوبهم هَذا بَعيد جدًّا، بَلْ كُلَّما بَعُد القَلْب عن الله بعُدَ النَّاس عَن صاحِبِه، وكُلَّما قَرُب من الله قَرُب النَّاسُ منه.

فنَسأَل الله أن يُعيد لِهَذِه الأُمَّةِ الإِسْلامية مجْدَها وكَرامَتَها، وأن يُذِلَّ أَعْداء المُسلِمين فِي كلِّ مَكان، وأن يَكبِتَهم، وأن يَرُدَّهُم على أَعْقابهم خائِبينَ، إِنَّه على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ۞ ● •



تَفسيرُ سُورة الطارِقِ

الآيات (١-١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١-١٠].

البَسْمَلةُ سبَقَ الكَلامُ علَيْها.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ابتَدأَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذِه السُّورةَ بالقَسَم، أَقسَم اللهُ تعالى بالسَّماء وَالطارِق، وقَدْ يُشكِل على بعض النَّاس كَيْفَ يُقسِم اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالمَخْلوقات مَع أن القَسَم بالمَخْلوقات شِرْك؛ لقَوْل النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ حلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[1]، وقالَ عَلَيْهِ‌الصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[2]،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب مَا جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ‌اللَّهُ‌عَنْهُمَا.

قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب لَا تحلفوا بآبائكم، رقم (٦٦٤٦)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ‌اللَّهُ‌عَنْهُمَا.

فلَا يَجوز الحَلِف بغَيْر الله لَا بالأَنْبياءِ، ولَا بالمَلائِكة، ولَا بالكَعْبة، ولَا بالوَطَن، ولَا بأيِّ شيءٍ من المَخْلوقات؟

والجَوابُ على هَذا الإِشكالِ أن نَقُول: إن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَه أن يُقسِم بما شاءَ من خَلْقه، وإِقْسامه بما يُقسِم به مِن خَلْقه يَدُلُّ علَى عظَمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن عِظَم المَخْلوق يَدُلُّ علَى عِظَم الخالِق، وقَدْ أَقسَم اللهُ تعالى بأَشياءَ كَثيرةٍ من خَلْقه، ومِن أَحسَن مَا رأَيْته تَكلَّمَ على هَذا المَوْضوعِ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتابه (التِّبيان فِي أَقْسام القُرآن)، وهُو كِتاب جيِّد يَنفَع طالِبَ العِلْم كَثيرًا، فهُنا يُقسِم الله تعالى بالسَّماء، وَالسَّماء هُو كُلّ مَا عَلا، فكُلُّ مَا عَلاك فهُو سَماءٌ، حتَّى السَّحاب الَّذِي يَنزِل منه المَطَر يُسمَّى سَماءً، كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧]، وإِذَا كانَ يُطلَق على كُلِّ مَا عَلاكَ فإِنَّه يَشمَل مَا بين السَّماء وَالأَرْض، ويَشمَل السَّمَواتِ كلَّها؛ لأَنَّها كُلَّها قَد عَلَتْكَ وهِي فَوْقَك.

وأمَّا قَوْلُه: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ فهُو قِسْم ثانٍ، أي: أن الله أَقسَم بالطارِق فما هُو الطارِقُ؟ ليسَ الطارِقُ هُو الَّذِي يَطرُق أَهْله ليلًا، بل فسَّره الله عَزَّوَجَلَّ بقَوْله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ هَذا هُو الطارِقُ، وَالنَّجْم هُنا يُحتَمَل أن يَكُون المُرادُ به جَمِيعَ النُّجوم، فتكون (أل) للجِنْس، ويُحتَمَل أَنَّه النَّجْم الثاقِب، أيِ: النَّجْم اللامِع، قَوِيُّ اللَّمَعان؛ لأنه يَثقُب الظَّلام بنُوره، وأَيًّا كانَ فإِن هذِه النُّجومَ من آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ الدالَّة على كَمال قُدْرته، فِي سَيْرها وانتِظامها، واختِلاف أَشكالِها واختِلاف مَنافِعها أيضًا، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]، وقالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]، فهِي زِينة للسَّماء، ورُجومٌ للشَّياطين، وعَلاماتٌ يُهتَدَى بها.

ثُم بيَّنَ اللهُ الْمُقسَم علَيْه بقولِه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ﴿إِن﴾ هُنا نافِيةٌ، يَعنِي: مَا كُلُّ نَفْس، و﴿لَّمَّا﴾ بمَعنَى: (إلَّا)، يَعنِي: مَا كلُّ نَفْس إلَّا عليها حافِظٌ من الله، وبيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مهمَّةَ هَذا الحافِظِ بقولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]، هَؤُلاءِ الحفَظَةُ يَحفَظون على الإنسانِ عمَلَه، مَا لَه ومَا عليه، ويَجِده يَوْمَ القِيامة كِتابًا مَنشورًا يُقال لَه: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]، هَؤُلاءِ الحفَظَةُ يَكتُبون مَا يَقوم به الإِنْسانُ من قَوْل، ومَا يَقوم به مِن فِعْل، سَواءٌ كانَ ظاهِرًا كأقوالِ اللِّسان، وأَعْمال الجَوارِح، أو باطِنًا حتَّى مَا فِي القَلْب مِمَّا يَعتَقِده الإِنسانُ فإِنه يُكتَب عليه؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٨]، هَذا الحافِظُ يَحفَظ عمَل بَني آدَمَ، وهُناكَ حفَظةٌ آخَرون ذكَرَهُمُ اللهُ فِي قَوْله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ﴾ [الرعد:١١].

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (اللَّامُ) هُنا للأَمْر، وَالْمُراد بالنَّظَر هُنا نظَرُ الاعتِبار، وهُو النظَرُ بالبَصيرة، يَعنِي: ليُفكِّر الإِنسانُ مِمَّ خُلِق؟ هل خُلِق من حَديد؟ هَلْ خُلِق من فُولاذٍ؟ هل خُلِقَ من شيءٍ قاسٍ قوِيٍّ؟ وَالجَوابُ على هذِه التَّساؤُلاتِ: أَنَّه ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وهُو ماءُ الرَّجُلِ، ووَصَفه الله تعالى فِي آياتٍ أُخْرى بأنه ماءٌ مَهينٌ ضَعيف السَّيَلان ليسَ كالماء العادِيِّ الْمُنطَلِق، ووصَفَه اللهُ تعالى فِي آيَةٍ أُخْرى أَنَّه نُطْفَة، أي: قَليلٌ من الماءِ، هَذا هُو الَّذِي خُلِق منه الإِنسانُ، وَالعجَبُ أن يُخلَق الإِنسانُ من هَذا الماءِ المَهينِ، ثُم يَكُون قَلْبُه أَقسَى من الحِجارة -وَالعِياذُ بالله- إِلَّا مَن أَلانَ اللهُ قلبَه لِدِين الله، ثُم بيَّنَ أن هَذا الماءَ الدافِقَ:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ مِن بَيْن صُلْب الرَّجُل وتَرائِبه؛ أَعْلى صَدْره، وهَذا يَدُلُّ علَى عُمْق مَخرَج هَذا الماءِ، وأنه يَخرُج من مَكان مَكين فِي الجَسَد، وقالَ بعضُ العُلَماء: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾؛ أي: صُلْب الرَّجُل ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ تَرائِب المَرْأة، ولكِنْ هَذا خِلافُ ظاهِرِ اللَّفْظ، وَالصَّوابُ أن الَّذِي يَخرُج من بين الصُّلْب وَالتَّرائِبِ هُو ماءُ الرجُلِ؛ لأن اللهَ تعالى وصَفَه بذلِكَ.

ثُم قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: اللهُ عَزَّوَجَلَّ. ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾؛ أي: على رَجْع الإنسانِ ﴿لَقَادِرٌ﴾، وذلِكَ يَوْمَ القِيامة؛ لقَوْلِه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، فالَّذِي قدَرَ على أن يَخلُق الإنسانَ من هَذا الماءِ الدافِقِ المَهينِ، قادِرٌ على أن يُعيدَه يومَ القِيامة، وهَذا من بابِ الاستِدْلال بالمَحْسوس على المَنظورِ المُترقَّب، وهُو قِياسٌ عَقْليٌّ، فإِن الإنسانَ بعَقْله يَقول: إِذَا كانَ اللهُ قادِرًا على أن يَخلُق الإنسانَ من هَذا الماءِ المَهينِ ويُحيِيه فهُوَ قادِرٌ على أن يُعيدَه مرَّةً ثانِيةً ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]؛ ولِهَذا يَستَدِلُّ الله عَزَّوَجَلَّ بالمَبدَأ على المَعاد؛ لأَنَّه قِياسٌ جَليٌّ واضِحٌ، يَنتَقِل العَقْل من هَذا إلى هَذا بسُرعة وبدون كُلْفةٍ.

وقَوْله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾؛ أي: تُختَبَر السَّرائِر، وهِي القُلوب، فإن الحِساب يَوْم القِيامة على مَا فِي القُلوب، وَالحِساب فِي الدُّنْيا على مَا فِي الجَوارِح؛ ولهذا عامَلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم المُنافِقين مُعامَلة المُسلِمين حيثُ كانَ يُستَأْذَن فِي قَتْلِهم فيَقولُ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1]، فكانَ لَا يَقتُلُهم وهُو يَعلَم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب مَا ينهى من دعوة الجاهلية، رقم (٣٥١٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، رقم (٢٥٨٤)، من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

أن فُلانًا مُنافِق، وفُلانًا مُنافِق، لكِنِ العمَلُ فِي الدُّنيا على الظاهِرِ ويَوْم القِيامة على الباطِنِ ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾؛ أي: تُختبَر، وهَذا كقَوْله: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠].

ولِهَذا يَجِب علَيْنا العِنايةُ بعمَل القَلْب أَكثَرَ من العِناية بعمَلِ الجَوارِح، عمَل الجَوارِح عَلامة ظاهِرة، لكِنْ عمَلُ القَلْب هُو الَّذِي علَيْه المَدارُ؛ ولِهَذا أَخبَرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الخَوارِج يُخاطِب الصَّحابة يَقول: «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ** -يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَجْتَهِدونَ فِي الأَعْمالِ الظاهِرة، لكِنْ قُلوبُهم خالِيةٌ وَالعِياذُ بالله- **لَا يَتَجَاوَزُ الإِسْلَامُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[(١)].

قالَ الحَسَنُ البَصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله مَا سبَقَهم أبو بَكْر بصَلاة ولَا صَوْم، وإِنما سبَقَهم بما وقَرَ فِي قَلْبه من الإِيمان»[(٢)]. وَالإِيمان إِذَا وَقَرَ فِي القَلْب حَمَل الإِنسان على العمَل، لكِنِ العمَلُ الظاهِرُ قَد لَا يَحمِلِ الإِنسانَ على إِصْلاح قَلْبه، فعَلَيْنا أن نَعتَنِيَ بقُلوبنا وأَعْمالها، وعقائِدها، واتِّجاهاتها، وإِصلاحِها وتَخليصِها من شَوائِب الشِّرْك وَالبِدَع، وَالحِقْد وَالبَغْضاء، وكراهة مَا أَنزَل اللهُ على رَسولِه، وكَراهة الصَّحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وغَيْر ذلِكَ مِمَّا يَجِب تنزيهُ القَلْب عنه.

ثُم قالَ تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ﴾ يَعنِي: يَوْم القِيامة مَا للإِنْسان من قُوَّة ذاتِيَّة ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾ وهِي القُوَّة الخارِجيَّة، هُو بنَفْسه لَا يَستَطيع أن يُدافِع عن نَفْسه، ولَا أَحَدَ

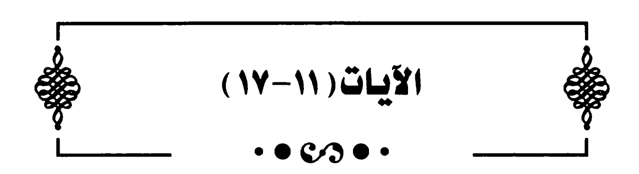
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة فِي الإِسلام، رقم (٣٦١٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: لطائف المعارف لابن رجب (ص:٢٥٤)، والسلسلة الضعيفة، رقم (٩٦٢).

يَستَطيع أن يُدافِع عنه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١]، فِي الدُّنيا يَتَساءَلون، يَسأَل بَعضُهم بعضًا، ويَحتَمي بَعضُهم ببَعْض، لكِنْ يَوْم القِيامة لَا أَنسابَ، يَعنِي: لَا قَرابةَ، لَا تَنفَع القَرابةُ ولَا يَتَساءَلون.

•• ۞ ••



الآيات (١١-١٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١١-١٧].

•●○●•

بعدَ أن ذكَر اللهُ تعالى الإقْسامَ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ إلى آخِرِه... إلى قَوْلِه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ قالَ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ هَذا هُو القَسَم الثاني بالسَّماء، وَالقَسَم الأوَّل مَا كانَ فِي أوَّل السُّورة، فهُناك قالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، وهُنا قالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، وَالمُناسَبة بين القَسَمين -وَاللهُ أَعلَمُ- أن الأوَّل فيه إشارة إِلى الطارِق الَّذِي هُو النَّجْم، وَالنَّجْم تُرمَى به الشَّياطين الَّذِين يَستَرِقون السَّمْع، وفي رَمْيِ الشَّياطين بذلِكَ حِفْظٌ لكِتاب الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا هُنا فأَقسَم بالسَّماء ذاتِ الرَّجْع أن هَذا القُرآنَ قولٌ فَصْل، فأَقسَم على أن القُرآن قَوْل فَصْل، فصار القَسَم الأوَّل مُناسَبته أن فيه الإِشارةَ إِلى مَا يُحفَظ به هَذا القُرآنُ حالَ إنزاله، وفي القَسَم الثانِي الإِشارة إِلى أن القُرآن حَياة، يَعنِي: يُقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ الرَّجْع هُو المَطَر، يُسمَّى رَجْعًا؛ لأَنَّه يَرجِع ويَتكرَّر، ومَعلوم أن المَطَر بِه حَياة الأَرْض.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ الصَّدْع هُو الانْشِقاق، يَعنِي: التَّشقُّق بخُروج النَّبات منه، فأَقسَم بالمَطَر الَّذِي هُو سببُ خُروج النَّبات، وبالتَّشقُّق الَّذِي يَخرُج منه النَّبات، وكُلُّه إِشارة إِلى حَياة الأرض بعد مَوْتها، وَالقُرآن به حَياة القُلوب بعد مَوْتها، كَما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فسَمَّى الله القُرآن رُوحًا؛ لأنه تَحْيا به القُلوب.

يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾؛ أي: ذات المَطَر. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾؛ أي: ذاتِ الانْشِقاق لِخُروج النَّبات مِنها. ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: القُرآن ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، وصَفَه الله تعالى بأنه قَوْل فَصْل، وهُو قولُ الله عَزَّوَجَلَّ، فهُو الَّذِي تَكلَّم به وأَلْقاه إِلى جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثُم نزَلَ به جِبريلُ على قَلْب النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقد أَضافَ اللهُ القُرآن قَوْلًا إِلى جِبريلَ، وإِلى مُحمَّدٍ عليهما الصلاة وَالسلام، فقالَ تعالى فِي الأوَّلِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، وقالَ فِي الثاني إِضافَته إِلى الرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]، ففي الأوَّل أَضافَ القَوْل إِلى جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لأنه بلَّغه عن الله إِلى مُحمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفي الثاني أَضافَه إِلى مُحمَّد ﷺ؛ لأَنَّه بلَّغه إِلى النَّاس، وإِلَّا فإِن الَّذِي قاله ابتِداءً هُو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فَصْل يَفصِل بين الحَقِّ وَالباطِل، وبين المُتَّقين وَالظالِمين، بَلْ إِنه فَصْل، أي: قاطِع لكُلِّ مَن ناوَأَهُ وعاداه؛ ولهذا نَجِد المُسلِمين لَمَّا كانوا يُجاهِدون الكُفَّار بالقُرآن نَجِدهم غلَبوا الكُفَّار، وقطَعوا دابِرَهم، وقُضِيَ بينَهم، فلَمَّا أَعرَضوا

عنِ القُرآن هُزِموا وأُذِلُّوا بقَدْر بُعْدهم عن القُرآن، وكُلَّما أَبعَد الإنسانُ عن كِتاب الله ابتَعَدَت عنه العِزَّة، وابتَعَد عنه النَّصْر حتَّى يَرجِع إِلى كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾؛ أي: مَا هُو باللَّعِب وَالعبَث وَاللَّغْو، بل هُو حَقٌّ، كلِماته كُلُّها حَقٌّ، أَخبارُه صِدْق، وأَحكامُه عَدْل، وتِلاوتُه أَجْر، لو تَلاه الإِنسان كُلَّ أَوانه لم يَمَلَّ منه، وإِذَا تَلاه بتَدبُّر وتَفكُّر فتَحَ اللهُ عليه من المَعاني مَا لم يَكُن عِنده من قَبلُ، وهَذا شيءٌ مُشاهَد، اقرَأِ القُرْآن وتَدبَّره، كلَّما قَرَأْته وتَدبَّرْته حصَلَ لَك من مَعانِيه مَا لم يَكُن يَحصُل لَك من قبلُ؛ كُلُّ هَذا لأنه فَصْل وليسَ بالهَزْل، لكِنِ الكَلام اللَّغْو من كَلام النَّاس كلَّما كرَّرْته مَجَجْتَهُ وكرِهْته ومَلَلته، أمَّا كِتابُ الله فلا.

ثُم قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾ يَعنِي: الكُفَّار المُكذِّبين للرَّسول ﷺ ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾؛ أي: كَيْدًا عَظيمًا، يَكيدون للرَّسول ﷺ، ويَكيدون لمَنِ اتَّبعَه، وانظُرْ ماذا كانوا يَفعَلون بالمُؤمِنين أَيَّام كانوا فِي مكَّةَ من التَّعذيب وَالتَّوْبيخ وَالتَّشْريد، هاجَرَ المُسلِمون مرَّتَيْن إِلى الحَبَشة، ثُم هاجَروا إِلى المَدينة كُلُّ ذلِكَ فِرارًا بدِينهم من هَؤُلاءِ المُجرِمين الَّذِين آذَوْهُم بكُلِّ كَيْد، وأَعظَمُ مَا فعَلوه بالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين الهِجْرة حيثُ اجتَمَع رُؤَساؤُهم وأَشرافُهم يَتَشاوَرون ماذا يَفعَلون بمُحمَّد؟ فكُلَّما ذكَروا رَأْيًا نقَضُوه، قالوا: هَذا لَا يَصلُح. حتَّى أَشار علَيْهم -فيما ذكَرَه أَهْل التاريخ- الشَّيْطانُ الَّذِي جاءَ بصورة رَجُل وقالَ لَهُم: إِني أَرَى أن تَخْتاروا عشَرة شُبَّانٍ من قَبائِلَ مُتفرِّقة، وتُعطُوا كلَّ واحِدٍ مِنهم سَيْفًا حتَّى يَقتُلوا مُحمَّدًا قَتْلة رَجُل واحِدٍ، فإِذَا فعَلوا ذلِك تَفرَّق دَمُه فِي القبائِل، فلَمْ تَستَطِعْ بنو هاشِم أن تَقتَصَّ من القَبائِل كلِّها فيَرضَخون إِلى أَخْذ الدِّيَة، وهَذا هُو الَّذِي يُريدون، فأَجمَعوا على هَذا الرَّأْيِ واستَحْسَنوا هَذا الرَّأْيَ، وفِعْلًا جلَسَ الشُّبَّانُ العَشَرة يَنتَظِرون خُروجَ النَّبيِّ

صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ ليقتُلوه، ولكِنِ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم خرَجَ من الباب وهُمْ جُلوسٌ ولم يُشاهِدوه، وذكَرَ التاريخُ أنَّه جعَل يَذَرُّ التُّرابَ على رُؤُوسهم إذلالًا لَهُم، ويَقرَأ قولَ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩].

ولَا تَتَعجَّب كيف خرَجَ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مِن بَيْنهم ولم يُشاهِدوه، لَا تَعجَب من هذا، فهاهُمْ قُريشٌ حين اختبَأ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي الغار لَمَّا خرَجَ من مكَّةَ يُريد المَدينة اختبَأ فِي الغار ثلاثة أيَّام؛ ليَخِفَّ عنه الطلَبُ؛ لأن قُرَيْشًا صارَتْ تَطلُبه، وجعَلَت لِمَن جاءَ به مِئةَ بَعيرٍ، ولِمَن جاءَ به مَع أبي بَكْر مِئَتي بَعيرٍ، وهذِه جائِزةٌ كبيرةٌ، فوَقَفوا على الغار الَّذِي فيه النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأبو بَكْرٍ، وكُلُّنا يَعلَم أن الغارَ المَفْتوحَ إِذَا كانَ فيه أَحَدٌ فسَوْف يُرَى، ولكِنَّهم لم يَرَوُا النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولَا أبا بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالَ: يا رَسولَ الله، لو نَظَر أَحَدُهم إِلى قدَمِه لأَبْصَرَنا. فقالَ: «**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!**»[1]، فاطمَأَنَّ أبو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهَؤُلاءِ القَوْمُ الَّذِين وقَفوا على الغار ليسَ عِندهم قُصورٌ فِي السَّمْع، ولَا قُصورٌ فِي البَصَر، ولَا قُصورٌ فِي الذَّكاء، ولكِنْ أَعمَى الله أَبصارَهُم عن النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصاحِبِه، فلَا تَعجَبوا أن خرَجَ من بين هَؤُلاءِ الشُّبَّانِ العَشَرة كما قالَ أهلُ التارِيخ، وجعَل يَذَرُّ التُّرابَ على رُؤُوسهم ويَقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ثاني اثنين إذ هما فِي الغار. رقم (٤٦٦٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وقالَ اللهُ تعالى فِي سورة الأَنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ يَعنِي: يَحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.

ثُمَّ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ مهِّل وأَمهِلْ مَعناهُما واحِدٌ، يَعنِي: انتَظِرْ بمُهلة قَصِيرة، ولَا تَنتَظِر بمُهلة طَويلة، ﴿رُوَيْدًا﴾؛ أي: قَليلًا، ورُوَيْدًا تَصغير رَوْد أو إِرْواد، وَالْمُرادُ به الشيءُ القَليل.

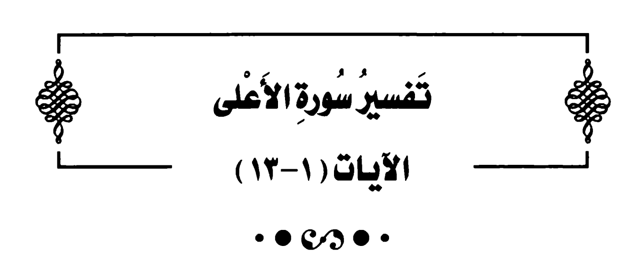
وفِي هذِه الآيةِ تَهديدٌ لقُرَيْش، وتَسليةٌ للرَّسولِ ﷺ، ووَعْد له بالنَّصر، وحصَلَ الأَمْر كَمَا أَخبَرَ الله عَزَّوَجَلَّ، خرَجَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُهاجِرًا مِنهم، وحصَلَ بينَه وبينَهُم حُروبٌ، وفي السَّنَة الثانية من الهِجْرة قُتِل من صَناديد قُرِيشٍ وكُبَرائِهم وزُعَمائِهم نحوُ أَرْبعة وعِشْرين رَجُلًا، مِنهم قائِدُهُم أبو جَهْل، وبعد ثَمانِي سَنَوات، بَلْ أَقَلَّ من ثَمانِي سَنَوات دخَلَ النَّبيُّ ﷺ مكَّةَ فاتِحًا مَنصورًا ظافِرًا، حتَّى إِنه قالَ كَمَا جاءَ فِي التاريخِ وهُو مُمْسِك بعُضادَتَيْ باب الكَعْبة وقُرَيْشٌ تَحته قالَ لهم: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟»؛ لأن أَمْرَهم أَصبَحَ بيَدِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» قالوا: أَخٌ كَريمٌ، وابنُ أَخٍ كَريمٍ. فقالَ: «إِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[1]، وإِنَّما مَنَّ علَيْهم هذِه المِنَّةَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَنَّهُم أَسلَموا، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

نَسأَل اللهَ تعالى أن يجعَلَنا مِمَّن يَتْلون كِتاب الله حَقَّ تِلاوَتِه، وأن يَنفَعَنا به، وأن يجعَله شَفيعًا لنا يَوْم القِيامة، إِنه على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، وصلَّى الله وسلم على نَبِيِّنا مُحمَّدٍ وعلى آله وأصحابِه أَجمَعين.

• ● ۞ ● •



تَفسيرُ سُورةِ الأعْلى

الآيات (١-١٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى:١-١٣].

البَسمَلة سَبَقَ الكَلامُ عليها، وأنَّها آيَةٌ من كِتابِ الله مُستَقِلَّة ليسَت من الفاتِحة ولَا من البَقَرة، ولَا مِن آل عِمرانَ، ولَا مِن أيِّ سُورة من القُرآن، لكِنَّها آيَةٌ مُستَقِلَّة تَنزل فِي ابتِداء كُلِّ سُورة سِوى سُورة (بَراءَة).

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الخِطابُ هُنا للرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وَالخِطابُ المُوجَّه للرَّسول فِي القُرآن الكَريم على ثَلاثة أَقْسامٍ:

القِسْم الأوَّل: أن يَقوم الدَّليل على أنَّه خاصٌّ به فيَختَصُّ به.

القِسْم الثاني: أن يَقومَ الدَّليل على أنَّه عامٌّ فيَعُمُّ.

القِسْم الثالِثُ: أن لَا يَدُلَّ دَليلٌ على هَذا ولَا على هذا، فيَكُون خاصًّا به لَفْظًا، عامًّا لَه وللأُمَّة حُكْمًا.

مِثالُ الأوَّلِ: قَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]، ومِثالُه أيضًا قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء:٧٩]، فإِن هَذا من المَعْلوم أنَّه خاصٌّ بالنَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومِثالُ الثاني المُوجَّه للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفيه قَرينةٌ تَدُلُّ على العُموم: قَوْلُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، فوَجَّه الخِطاب أوَّلًا للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ولم يَقُلْ: «يا أَيُّها الَّذِين آمَنوا إِذَا طلَّقْتُم» قالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، ولم يَقُل: «يا أَيُّها النَّبيُّ إِذَا طلَّقْتَ» قالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فدَلَّ هَذا على أن الخِطابَ المُوجَّه للرَّسولِ ﷺ مُوجَّه لَه وللأُمَّة.

وأَمَّا أَمْثِلة الثالِث: فهِي كَثيرة جِدًّا يُوجِّه الله الخِطاب للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالمُرادُ الخِطابُ لَه لفظًا وللعُموم حُكْمًا.

هُنا يَقول اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿سَبِّحِ﴾ يَعنِي: نَزِّهِ اللهَ عن كُلِّ مَا لَا يَليق بجَلاله وعَظَمته، فإِن التَّسبيح يَعنِي: التَّنزيه، إِذَا قُلْت: سُبحان الله. يَعنِي: أنني أُنَزِّه اللهَ عن كُلِّ سُوءٍ، وعن كُلِّ عَيْب، وعن كُلِّ نَقْص؛ ولهذا كانَ من أَسماءِ الله تعالى السَّلام، القُدُّوس؛ لأَنَّه مُنزَّهٌ عن كُلِّ عَيْب.

وأَضرِبُ أَمثِلة: من صِفات الله تعالى: الحَياة ليسَ فيها نَقْص بوَجْه من الوُجوه، وحَياة المَخْلوق فيها نَقْص، أوَّلًا: لأَنَّها مَسبوقة بالعَدَم فالإِنسانُ ليسَ أَزَليًّا.

وثانيًا: أنَّها مَلْحوقة بالفَناء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦].

مِثالٌ آخَرُ: سَمْعُ الله عَزَّوَجَلَّ ليسَ فيه نَقْص يَسمَع كُلَّ شيءٍ، حتَّى إِن المَرْأة الَّتِي جاءَت تَشتكي إِلى النَّبيِّ ﷺ وَالَّتِي ذكَرَ الله تعالى قِصَّتها فِي سُورة المُجادَلة، كانَت تُحدِّث النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعائِشةُ فِي الحُجْرة يَخفَى عليها بعضُ حَديثِها، وَاللهُ تعالى يَقولُ فِي كِتابه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]؛ ولهذا قالَتْ عائِشةُ: (الحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعه الأَصواتَ)، إِن المَرْأة المُجادِلة لتَشتكِي إِلى النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإِنه ليَخفَى عليَّ بعضُ حَدِيثها[1].

إِذَنْ مَعنَى ﴿سَبِّحِ﴾ نَزِّهِ اللهَ عن كُلِّ عَيْب ونَقْص.

وقَوْلُه: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قالَ بعضُ المُفسِّرين: إِن قَوْله: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ يَعنِي: مُسمَّى رَبِّك؛ لأن التَّسبيح ليسَ لِلاسْمِ، بَلْ لله نَفْسه، ولكِنِ الصَّحيح أن مَعناها: سَبِّح رَبَّك ذاكِرًا اسمَهُ، يَعنِي: لَا تُسَبِّحه بالقَلْب فقَطْ، بل سَبِّحْه بالقَلْب وَاللِّسان، وذلِكَ بذِكْر اسْمِه تعالى، ويَدُلُّ لِهَذا المَعنَى قَوْلُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٩٦]، يَعنِي: سَبِّحْ تَسبيحًا مَقرونًا باسْم ربِّك؛ وذلِك لأن تَسبيح الله تعالى قَد يَكُون بالقَلْب، بالعَقيدة، وقد يَكُون باللِّسان، وقَدْ يَكُون بهما جَميعًا، وَالمَقْصود أن يُسبِّح بهما جَميعًا بقَلْبه لافِظًا بِلِسانِه.

---

(١) أخرجه البخاري معلقا: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، (٩/ ١١٧).

ووصله أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وقَوْلُه: ﴿رَبِّكَ﴾ الرَّبُّ مَعناهُ: الخالِقُ المالِكُ المُدبِّر لجميع الأُمور، فاللهُ تعالى هُو الخالِقُ، وهُو المالِكُ، وهُو المُدبِّر لجميع الأُمور، وَالمُشرِكون يُقِرُّون بذلِكَ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

وأَخبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُم إِذَا سُئِلوا: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس:٣١]، فهُمْ يُقِرُّون بأن اللهَ لَه المُلْك، وله التَّدبير، وله الخَلْق، لكِن يَعبُدون معَه غَيرَه، وهَذا من الجَهْل، كيفَ تُقِرُّ بأن الله وَحْده هُو الخالِقُ، المالِكُ، المُدبِّر للأُمور كُلِّها وتَعبُد معَه غيرَه!! إِذَنْ مَعنَى الرَّبِّ هُو الخالِق، المالِكُ، المُدبِّر لجميع الأُمور، وكُلُّ إِنْسان يُقِرُّ بذلِكَ يَلزَمه أن لَا يَعبُد إِلَّا الله، كَما تَدُلُّ عليه الآياتُ الكَثيرةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، قالَ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ يَعنِي: لَا تَعبُدون غيرَه.

﴿ٱلْأَعْلَى﴾ من العُلُوِّ، وعُلُوُّ الله عَزَّوَجَلَّ نَوْعان: عُلُوُّ صِفة، وعُلُوُّ ذاتٍ، أَمَّا عُلُوُّ الصِّفة: فإِنه أَكمَل الصِّفات لله عَزَّوَجَلَّ، قالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠].

وأَمَّا عُلُوُّ الذاتِ: فهُو أن الله تعالى فَوْقَ عِباده مُستوٍ على عَرْشه، وَالإِنسانُ إِذَا قالَ: يا اللهُ أينَ يَتَّجِه؟ يَتَّجِه إِلى السَّماء إِلى فَوْقُ، فاللهُ جَلَّوَعَلَا فوقَ كُلِّ شيءٍ مُستوٍ على عَرْشه.

إِذَن: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ إِذَا قرَأْتَها فاستَشْعِرْ بنَفْسك أن الله عالٍ بصِفاته، وعالٍ بذاتِه؛ ولِهَذا كانَ الإِنسانُ إِذَا سجَدَ يَقولُ: سُبحانَ ربِّيَ الأَعْلى. يَتذَكَّر بسُفولِه هو؛ لأنه

هُو الآنَ نزَلَ، فأَشرَفُ مَا فِي الإِنْسان وأَعلى مَا فِي الإِنسان هُو وَجْهه، ومَع ذلِك يَجعَله فِي الأَرْض الَّتِي تُداسُ بالأَقْدام، فكانَ من الحِكْمة أن تَقول: سُبْحانَ ربِّيَ الأَعْلى. يَعنِي: أُنزِّهُ رَبِّي الَّذِي هُو فَوقَ كُلِّ شيءٍ؛ لأني نزَلْت أنا أَسفَلَ كُلِّ شيءٍ، فتُسبِّح اللهَ الأَعلى بصِفاته، وَالأَعْلى بذاتِه، وتَشعُر عِندما تَقول: سُبحانَ رَبِّيَ الأَعْلى. أن رَبَّك تعالى فَوْقَ كُلِّ شيءٍ، وأَنَّه أَكمَلُ كُلِّ شيءٍ فِي الصِّفات.

ثُم قالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ﴿خَلَقَ﴾ يَعنِي: أَوجَد من العَدَم، كُلُّ المَخْلوقات أَوجَدها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج:٧٣].

وهُو مَثَل عَظيم، كلُّ الَّذِين تَدْعون من دون الله لَنْ يَخلُقوا ذُبابًا، ولوِ اجتَمَعوا لَه، لو يَجتَمِع جَمِيعُ الآلِهَة الَّتِي تَعبُد من دون الله وجَمِيع السَّلاطين وجَمِيع الرُّؤَساء وجَمِيع المُهَنْدِسين على أن يَخلُقوا ذُبابًا واحِدًا مَا اسْتَطاعوا إِلى ذلِكَ سَبيلًا، ونحن فِي هَذا العَصْرِ وقد تَقدَّمَتِ الصِّناعة هَذا التَّقدُّمَ الهائِل لوِ اجتمَع كُلُّ هَؤلاءِ الخَلْقِ أن يَخلُقوا ذُبابًا مَا استَطاعوا، حتَّى لو أَنَّهم كَمَا يَقولون: صنَعوا آدمِيًّا آلِيًّا مَا يَستَطيعون أن يَخلُقوا ذُبابة، هَذا الآدَميُّ الآلِيُّ مَا هُو إِلَّا آلات تَتَحرَّك فقَطْ، لكِن لَا تَجوع، ولَا تَعطَش، ولَا تَحتَرُّ، ولَا تَبرُد، ولَا تَتَحرَّك إِلَّا بتَحريك، الذُّبابُ لَا يُمكِن أن يَخلُقَه كلُّ مَن سِوى الله، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَحْدَه هُو الخالِقُ، وبماذا يَخلُق؟ بكَلِمة واحِدة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، كلِمة واحِدة، الخَلائِق كُلُّها تَموت وتَفنَى وتَأكُلها الأَرْض، وتَأكُلها السِّباع، وتُحرِقها

النِّيرانُ، وإِذَا كانَ يَوْمُ القِيامة زَجَرَها اللهُ زَجْرةً واحِدة: اخْرُجِي. فتَخرُج: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣].

كُلُّ العالَمِ مِن إِنْسٍ وجِنٍّ، ووُحوش وحَشَرات وغيرها كُلُّها يَوْم القِيامة تُحشَر بكَلِمة واحِدة. إِذَنْ فاللهُ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَه هُو الخالِقُ، ولَا أَحَدَ يَخلُق معَه، وَالخَلْق لَا يُعسِره ولَا يُعجِزه، وهُو سَهْل عليه، ويَكُون بكَلِمة واحِدة.

وقَوْلُه: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ يَعنِي: سَوَّى مَا خلَقَه على أَحسَنِ صُورة، وعلى الصُّورة المُتَناسِبة، فالإِنسانُ مثَلًا قالَ اللهُ تعالى فِي سُورة الإِنْفِطار: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٧-٨]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

لَا يُوجَد فِي الخَلائِق شيءٌ أَحسَنُ من خِلْقة الإِنْسان، رَأْسه فَوْقُ، وقَلْبه فِي الصَّدْر، وعلى هَيْئَة تامَّة؛ ولِهَذا أوَّل مَن يَدخُل فِي قَوْله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ هُو تَسْوية الإِنْسان ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ كُلُّ شيءٍ يُسوَّى على الوَجْه الَّذِي يَكُون لائِقًا به.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قدَّرَ كُلَّ شيءٍ عَزَّوَجَلَّ كما قالَ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، قدَّرَه فِي حالِه، وفي مَآله، وفي ذاتِه، وفي صِفاته، كُلُّ شيءٍ لَه قَدْر مَحدود، فالآجالُ مَحْدودة، وَالأَحْوال مَحدودة، وَالأَجْسامُ مَحْدودة، وكُلُّ شيءٍ مُقدَّر تَقديرًا كما قالَ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

وقَوْلُه: ﴿فَهَدَىٰ﴾ يَشمَل الهِداية الشَّرْعية وَالهِداية الكَوْنية، الهِداية الكَوْنية: أن الله هَدَى كُلَّ شيءٍ لِما خُلِق لَه، قالَ فِرْعونُ لِموسَى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

تَجِدُ كُلَّ مَخْلوق قَد هَداه اللهُ تعالى لِما يَحتاج إِليه، فالطِّفْل إِذَا خرَج من بَطْن أُمِّه وأَراد أن يَرضَع يَهدِيه الله عَزَّوَجَلَّ إِلى هَذا الثَّدْيِ يرتَضِع منه، وانظُرْ إِلى أَدْنى الحَشَرات النَّمْل مثَلًا لَا تَصنَع بُيوتها إِلَّا فِي مَكان مُرتَفِع على رَبوة مِن الأَرْض تَخشَى من السُّيول تَدخُل بُيوتها فتُفسِدها، وإِذَا جاءَ المَطَرُ وكانَ فِي جُحورها، أو فِي بُيوتها طَعامٌ من الحُبوب تَخرُج به إِذَا طلَعَتِ الشَّمْس تنشُره؛ لئَلَّا يَتعفَّن، وهِي قَبل أن تَدخَره تَأكُل أَطراف الحَبَّة؛ لِئَلَّا تَنبُت فتَفسُد علَيْهم، هَذا الشيءُ مُشاهَد مُجرَّب، مَن الَّذِي هَداها لذلِكَ؟ إِنه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذِه هِداية كَوْنية أي: أنَّه هَدَى كُلَّ مَخلوقٍ لِما يَحتاجُ إِليه.

أمَّا الهِداية الشَّرْعية -وهِي الأَهَمُّ بالنِّسْبة لِبَني آدَمَ- فهِي أيضًا بَيَّنَها الله عَزَّوَجَلَّ حتَّى الكُفَّار قَد هَداهُمُ الله، يَعنِي: بيَّن لَهُم، قالَ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧]، وَالهِداية الشَّرْعية هِي المَقْصود من حَياة بَني آدَمَ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وإِنَّما أَخبَرَنا اللهُ بذلِكَ؛ لأَجْل أن نَلجَأَ إِليه فِي جَمِيع أُمورِنا، إِذَا علِمْنا أنَّه هُو الخالِقُ بعدَ العَدَم وأَصابَنا المَرَض نَلجَأ إِلى الله؛ لأن الَّذِي خلَقَك وأَوْجَدَك من العَدَم قادِرٌ على أن يُصحِّح بدَنَك.

إِذَن: الجَأْ إِلى رَبِّك، اعتَمِدْ عليه، ولَا حرَجَ أن تَتَناوَل مَا أَباح لَك من الدَّواء، لكِن مَعَ اعتِقاد أن هَذا الدَّواءَ سببٌ من الأَسْباب جعَلَه الله عَزَّوَجَلَّ، وإِذَا شُفِيت بهذا السبَبِ فالَّذِي شَفاك هُو الله عَزَّوَجَلَّ، هُو الَّذِي جعَل هَذا الدَّواءَ سَببًا لشِفائِك، ولو شاء لَجعَل هَذا الدَّواءَ سببًا لهَلاكِكَ، فإِذَا علِمنا أن اللهَ هُو الخالِقُ فنحن نَلجَأ فِي أمورنا كُلِّها إِلى الله عَزَّوَجَلَّ، إِذَا علِمنا أنَّه هُو الهادِي فإِنَّنا نَستَهْدِي بهِدايته، بشَريعته حتَّى نَصِل إِلى مَا أَعَدَّ لَنا رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ من الكَرامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى:٤-٥].

قَوْلُهُ: ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أَي: النَّباتُ، والزُّروعُ.

قَولهُ: ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ الغُثاءُ: مَعروفٌ هُو مَا يَحملهُ السَّيلُ مِنَ القشورِ وَالأعوادِ ومَا أَشْبَهَ ذَلكَ، وأَحْوى: أسود، وَقِيلَ فِي مَعنى الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى جَعلَ المرعَى أَخضَرَ خُضرةً تَامَّةً، حتَّى كادَ لشدَّةِ خُضرتهِ أَنْ يَكونَ أَسْوَدَ.

وقيلَ: المعنَى أنَّ هذَا المرعَى، والنَّباتَ الغضَّ الأخضرَ، يَجعلهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَامدًا يَابسًا، وأنَّ هذَا مثالٌ لِأعمالِ الكفَّارِ نَضِرةً حَسنةً لكنَّها لَا تَنْفعُهم، واللهُ أعلمُ.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ هَذا وَعْد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرَسولِه ﷺ أنَّه يُقرِئُه القُرْآن ولَا يَنْساه الرَّسولُ، وكانَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَتعجَّل إِذَا جاءَ جِبريلُ يُلقِي عليه الوَحْيَ، فقالَ اللهُ لَه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٩]، فصار النَّبيُّ ﷺ يُنصِت حتَّى يَنتَهِيَ جِبريلُ من قِراءة الوَحْي، ثُم يَقرَؤُه[1]، وهُنا يَقول: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يَعنِي: إلَّا ما شاءَ أن تَنْساهُ، فإنِ الأَمْر بيدِه عَزَّوَجَلَّ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]، ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٦-١٠٧]، ورُبَّما نُسِّيَ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم آيةً من

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، رقم (٤٤٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

كِتاب الله، ولكِنَّه سُرْعان مَا يَذكُرها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[١].

وقَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾؛ أي: أن اللهَ تعالى يَعلَم الجَهْر، وَالجَهْر: مَا يَجهَر به الإِنْسانُ ويَتكلَّم به مَسموعًا. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: مَا يَكُون خَفِيًّا لَا يَظهَر، فإِن الله يَعلَمه كمَا قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، فهُو يَعلَم عَزَّوَجَلَّ الجَهْر ويَعلَم أيضًا مَا يَخفَى.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وهَذا أَيْضًا وَعْد من الله عَزَّوَجَلَّ لرَسولِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُيَسِّره لليُسْرى، وَاليُسْرى أن تَكون أُمورُه مُيسَّرةً، ولا سِيَّما فِي طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولَمَّا أَخبَرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّه مَا من أَحَد من النَّاس إلَّا وقد كُتِب مَقعَده من الجَنَّة، ومَقعَده من النار، كُلُّ بَني آدَمَ مَكْتوب مَقعَده من الجَنَّة إن كانَ من أَهْل الجَنَّة، ومَقعَده من النار إن كانَ من أَهْل النار، قالوا: يا رَسولَ الله أَفَلا نَدَعُ العَمَل ونَتَّكِل؟ -يَعنِي: علَى مَا كُتِب- قالَ: «**لَا. اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»، فأَهْل السَّعادة يُيَسَّرون لعمَل أهل السَّعادة، وأَهْل الشَّقاوة يُيَسَّرون لعمَل أَهْل الشَّقاوة، ثُم قرَأَ قَوْلَه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[٢].

وهَذا الحَديثُ يَقطَع حُجَّة مَن يَحتَجُّ بالقَدَر على مَعاصِي الله، فيَعصِي الله ويَقولُ: هَذا مَكتوبٌ عليَّ. وهَذا ليسَ بحُجَّة؛ لأن الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ:

---

(١) انظر: صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب نسيان القرآن، وصحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: وأما من بخل واستغنى. رقم (٤٩٤٧)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي فِي بطن أمه...، رقم (٢٦٤٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، هَلْ أَحَد يَحجزك عن العمَل الصالِح لو أَرَدْتَه؟ أبَدًا، هل أَحَدٌ يُجبِرك على المَعْصية لو لم تُرِدْها؟ أبَدًا، لَا أَحَدَ؛ ولِهَذا لو أن أَحَدًا أَجبَرَك على المَعْصية وأَكرَهك عليْها لم يَكُن عليكَ إِثْمٌ، ولَا يَترتَّب على فِعْلِك لها مَا يَترتَّب على فِعْل المُختار لَهَا، حتَّى إن الكُفْر وهُو أَعظَمُ الذُّنوب، قالَ اللهُ تعالى فيه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:١٠٦].

إِذَنْ نَقُول: اعمَلْ أَيُّها الإِنْسان، اعمَلِ الخَيْر وتَجنَّبِ الشَّرَّ، حتَّى يُيَسِّرَك الله لليُسرَى، ويُجنِّبك العُسْرى، فرَسولُ الله ﷺ وعَدَه اللهُ بأن يُيسِّرَه لليُسْرى، فيُسهِّل عليه الأُمور؛ ولهذا لم يَقَعِ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي شِدَّة وضَنْك إِلَّا وجَدَ لَه مَخرَجًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثُم أَمَرَه تعالى أن يُذكِّر فقالَ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يَعنِي: ذكِّرِ النَّاسَ، ذكِّرْهُم بآيات الله، ذكِّرْهُم بأَيَّام الله، عِظْهُم، ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يَعنِي: فِي مَحَلٍّ تَنفع فيه الذِّكْرى، وعلى هَذا فتكُون ﴿إِن﴾ شَرْطية، وَالمَعنَى: إِن نفعَتِ الذِّكْرى فذَكِّرْ، وإِن لم تَنفَع فلَا تُذكِّر؛ لأَنَّه لَا فائِدةَ من تَذكير قَوْم نَعلَم أنهم لَا يَنتَفِعون، هَذا مَا قِيلَ فِي هذِه الآيةِ.

وقالَ بعضُ العُلَماء: المَعنَى: ذَكِّرْ على كُلِّ حالٍ، إِن كانَ هَؤلاءِ القَوْمُ تَنفَع فيهِمُ الذِّكْرى فيكُون الشَّرْط هُنا ليسَ المَقْصود به أَنَّه لَا يُذكِّر إِلَّا إِذَا نفعَت، بلِ المَعنَى: ذَكِّر إِن كانَ هَؤُلاءِ القَوْمُ يَنفَع فيهِمُ التَّذكيرُ، فالمَعنَى على هَذا القَوْلِ: ذَكِّرْ بكُلِّ حالٍ، وَالذِّكْرى سَوْف تَنفَع، تَنفَع المُؤْمِنين، وتَنفَع المُذكِّر أيضًا، فالمُذكِّر مُنتَفِع

على كلِّ حالٍ، وَالْمُذكَّر إِنِ انتفَع بها فهُو مُؤمِن، وإِن لم يَنتَفِع بها فإِن ذلِكَ لَا يَنقُص من أَجْر الْمُذكِّر شيئًا، فذَكِّر سَواءٌ نفعَتِ الذِّكْرى أم لم تَنفَع.

وقالَ بعضُ العُلَماء: إِنْ ظَنَّ أن الذِّكْرى تَنفَع وجَبَت، وإِن ظَنَّ أَنَّها لَا تَنفَع فهُو مُخيَّر إِن شاءَ ذكَّرَ، وإِن شاءَ لم يُذكِّر.

ولكِن على كلِّ حالٍ نَقُول: لا بُدَّ من التَّذكيرِ حتَّى وإِن ظَنَنْت أَنَّها لَا تَنفَع، فإِنها سَوْف تَنْفَعُك أنتَ، وسَوْف يَعلَم النَّاس أن هَذا الشيءَ الَّذِي ذَكَّرْت عنه إِمَّا واجِبٌ، وإِمَّا حَرام، وإِذَا سكَتَّ وَالناس يَفعَلون المُحرَّم، قالَ النَّاس: لو كانَ هَذا مُحَرَّمًا لذكَّر به العُلَماء، أو لو كانَ هَذا واجِبًا لذَكَّر به العُلَماء، فلا بُدَّ من التَّذكير ولا بُدَّ من نَشْر الشَّريعة سواءٌ نفَعَت أم لم تَنفَع، ثُم ذكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ مَن سيُذكِّر ومَن لَا يَتَذكَّر، فقالَ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾، فبيَّن تعالى أن النَّاس يَنقَسِمون بعدَ الذِّكْرى إِلى قِسْمين:

القِسْم الأوَّل: مَن يَخشَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ، أي: يَخافُه خَوْفًا عن عِلْم بعظَمة الخالِقِ جَلَّوَعَلَا، فهَذا إِذَا ذُكِّر بآيات رَبِّه تَذكَّر كما قالَ تعالى فِي وَصْف عِباد الرَّحْمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣]، فمَن يَخشَى اللهَ ويَخاف اللهَ إِذَا ذُكِّر ووُعِظ بآيات الله اتَّعَظ وانتفَع.

أَمَّا القِسْم الثانِي: فقالَ: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾؛ أي: يَتجنَّب هذِه الذِّكْرى ولَا يَنتَفِع بها الأَشْقى و﴿ٱلْأَشْقَى﴾ هُنا اسمُ تَفضيل من الشَّقاء، وهُو ضِدُّ السَّعادة كما فِي سُورة هُودٍ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ [هود:١٠٦]، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [هود:١٠٨]، فالأَشْقى المُتَّصِف بالشَّقاوة يَتجنَّب الذِّكْرى ولَا يَنتَفِع بها، وَالأَشْقى هُو

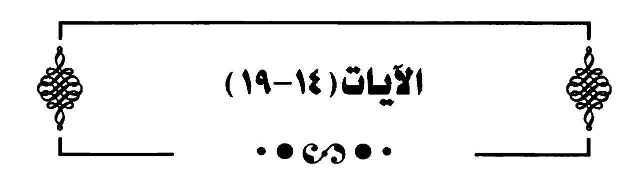
البالِغُ فِي الشَّقاوة غايَتَها، وهَذا هُو الكافِر، فإن الكافِرَ يُذكَّر ولَا يَنتَفِع بالذِّكْرى.

ولهذا قالَ: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ الَّذِي يَصلَى النار المَوْصوفة بأنها ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وهِي نارُ جهنَّمَ؛ لأن نارَ الدُّنْيا صُغرى بالنِّسْبة لهَا، فقَدْ صحَّ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أَنَّ نَارَ الدُّنْيا جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ الآخِرَةِ»[1]، أي: أن نار الآخِرة فُضِّلَت على نار الدُّنْيا بتِسْعة وسِتِّين جُزْءًا، وَالمُراد بنار الدُّنْيا كلِّها أَشَدُّ مَا يَكُون من نار الدُّنيا فإن نار الآخِرة فُضِّلَت عليها بتِسْعة وسِتِّين جُزْءًا؛ ولهذا وصَفَها بقولِه: ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، ثُم إِذَا صَلَاها ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، المَعنَى: لَا يَموتُ فيَستَرِيح، ولَا يَحيَا حياةً سَعيدةً، وإلَّا فهُمْ أَحياءٌ فِي الواقِع، لكِن أَحياءٌ يُعذَّبون ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦]، كَما قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ وهُو خازِنُ النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ يَعنِي: لِيُهلِكْنا ويُرِحْنا من هَذا العَذابِ ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ ولَا راحةَ، ويُقالُ لَهُم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف:٧٧-٨٧]، هَذا مَعنَى قَوْلِه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾؛ لأَنَّه قَد يُشكِل على بعض النَّاس كيفَ يَكُون الإِنسانُ لَا حَيًّا ولَا ميتًا، وَالإِنسان إِمَّا حَيٌّ وإِمَّا ميتٌ؟

فيُقال: لَا يَموتُ فيها مِيتة يَستريحُ بها، ولَا يَحيَا حَياةً يَسعَد بها، فهُو فِي عَذاب وجَحيمٍ، وشِدَّة يَتمنَّى الموت، ولكِن لَا يَحصُل لَه، هَذا هُو مَعنَى قَوْله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

•••

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنَّها مخلوقة، رقم (٣٢٦٥)، ومسلم: كتاب الجنة، باب فِي شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيات (١٤-١٩)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٤-١٩].

• • ◦ • •

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ ﴿أَفْلَحَ﴾ مَأْخوذٌ من الفَلاحِ، وَالفَلاحُ كلِمة جامِعة، وهو: الفَوْز بالمَطْلوب، وَالنَّجاة من المَرْهوب، هَذا هُو مَعنَى الفَلاح، فهِيَ كلِمة جامِعة لكُلِّ خَيْر، دافِعة لكُلِّ شَرٍّ. وقَوْله: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ مَأْخوذة من التَّزْكية وهي التَّطهير، ومِنه سُمِّيَتِ الزَّكاة زَكاةً؛ لأنَّها تُطهِّر الإِنْسانَ من الأَخْلاق الرَّذيلةِ، أَخْلاقِ البُخْل كما قالَ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

إِذَنْ ﴿تَزَكَّىٰ﴾ يَعنِي تَطهَّر، ظاهِرُه وباطِنُه، يَتزكَّى أَوَّلًا من الشِّرْك بالنِّسْبة لمُعامَلة الله، فيَعبُد الله مُخلِصًا له الدِّين، لَا يُرائِي، ولَا يُسمِّع، ولَا يَطلُب جاهًا، ولَا رِئاسةً فيها يَتعبَّد به اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وإِنَّما يُريد بهذا وَجهَ الله وَالدارَ الآخِرة.

تَزكَّى فِي اتِّباع الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بحيثُ لَا يَبتَدِع فِي شَريعته لَا بقَليل ولَا كَثيرٍ، لَا فِي الِاعتِقاد، ولَا فِي الأَقْوال ولَا فِي الأَفْعال، وهَذا -أَعنِي: التَّزكِّيَ- بالنِّسْبة للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهُو اتِّباعُه من غَيْر ابتِداعٍ لَا يَنطَبِق تَمامًا إِلَّا على

الطَّريقة السلَفيَّة طَريقةِ أَهْل السُّنَّة وَالجَماعة الَّذِين يُؤمِنون بكُلِّ مَا وصَفَ الله به نَفْسه فِي كِتابه، أو على لِسانِ رَسولِه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، على الطَّريقة السَّلَفية الَّذِين لَا يَبتَدِعون فِي العِبادات القَوْليَّة، ولَا فِي العِبادات الفِعْلية شيئًا فِي دِين الله، تَجِدُهم يَتَّبِعون مَا جاءَ به الشَّرْع، خِلافًا لِما يَصنَعه بعضُ المُبتَدِعة فِي الأَذْكار المُبتَدَعة، إمَّا فِي نَوْعها، وإمَّا فِي كَيْفيَّتها وصِفَتها، وإمَّا فِي أَدائِها كَما يَفعَله بعضُ أَصْحاب الطُّرُق من الصُّوفية وغيرِهِم.

كذَلِك يَتزَكَّى بالنِّسْبة لمُعامَلة الخَلْق بحَيْث يُطهِّر قَلْبه من الغِلِّ وَالحِقْد على إِخْوانه المُسلِمين، فتَجِده دائِمًا طاهِرَ القَلْب يُحِبُّ لإِخْوانه مَا يُحِبُّ لنَفْسه، لَا يَرضَى لأَحَد أن يَمَسَّه سُوء، بل يَوَدُّ أن جَمِيع النَّاس سالِمون من كُلِّ شَرٍّ، مُوفَّقون لكُلِّ خَيْر.

فـ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ أي: مَن تَطهَّر ظاهِرُه وباطِنُه، فتَطهَّر باطِنُه من الشِّرْك بالله عَزَّوَجَلَّ، ومِن الشَّكِّ، ومن النِّفاق، ومن العَداوة للمُسلِمين وَالبَغْضاء، وغير ذلِك مِمَّا يَجِب أن يَتَطهَّر القَلْب منه، وتَطهَّر ظاهِره من إطلاق لِسانه وجَوارحه فِي العُدوان على عِباد الله عَزَّوَجَلَّ، فلَا يَغتاب أحَدًا، ولَا يَنِمُّ عن أَحَد، ولَا يَسُبُّ أحَدًا، ولَا يَعتَدي على أَحَد بضَرْب، أو جَحْد مالٍ، أو غيرِ ذلِك، فالتَّزكِّي كلِمة عامَّة تَشمَل التَّطهُّر من كل درَنٍ ظاهِرٍ أو باطِن، فصارَتِ التَّزكيةُ لهَا ثَلاثُ مُتعلَّقات: الأوَّل: فِي حَقِّ الله. وَالثاني: فِي حَقِّ الرَّسول. وَالثالِث: فِي حَقِّ عامَّة النَّاس.

فِي حَقِّ الله تعالى يَتزَكَّى من الشِّرْك فيَعبُد الله تعالى مُخلِصًا لَه الدِّين. فِي حَقِّ الرَّسول يَتَزكَّى من الابتِداع، فيَعبُد الله على مُقتَضى شَريعة النَّبيِّ ﷺ فِي العَقيدة، وَالقول، وَالعمَل. فِي مُعاملة النَّاس يَتزكَّى من الغِلِّ وَالحِقْد وَالعَداوة وَالبَغْضاء،

وكُلُّ مَا يَجلِب العَداوة وَالبَغْضاء بين المُسلِمين يَتجنَّبه، ويَفعَل كلَّ مَا فيه المَوَدَّة وَالمَحَبَّة؛ ومن ذلِك: إِفْشاء السَّلام الَّذِي قالَ فيه الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ: أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»(١)، فالسَّلامُ من أَقْوى الأَسباب الَّتِي تَجلِب المَحبَّة وَالمَودَّة بين المُسلِمين وهَذا الشيءُ مُشاهَد، لو مَرَّ بكَ رَجُل ولم يُسلِّم عليك صار فِي نَفْسك شيء، وإِذَا لم تُسلِّم عليه أنت صار فِي نَفْسه شيءٌ، لكِن لو سلَّمْت عليه، أو سلَّم عليك صار هَذا كالرِّباط بَينكما يُوجِب المَوَدَّة وَالمَحبَّة، وقد قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي السلام: «**وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**»(٢)، وأكثرُ النَّاس اليَوْمَ إِذَا سلَّم يُسلِّم على مَن يَعرِف، وأمَّا مَن لَا يَعرِفه فلَا يُسلِّم عليه، وهَذا غلَطٌ؛ لأنك إِذَا سلَّمْت على مَن تَعرِف لم يَكُنِ السَّلامُ خالِصًا لله، سلِّمْ على مَن عرَفْت ومَن لم تَعرِف مِن المُسلِمين حتَّى تَنالَ بذلِكَ مَحبَّة المُسلِمين بعضِهم لبَعْض، وتَمام الإِيمان، وَالنِّهاية دُخول الجَنَّة جعلَنا الله من أَهْلها.

وقَوْلُه: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾؛ أي: ذكَرَ الله، ولكِنَّه ذكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الاسمَ من أَجْل أن يَكُون الذِّكْر باللِّسان؛ لأَنَّه يَنطِق فيه باسْمِ الله فيَقول مثَلًا: سُبحانَ الله، وَالحَمْد لله، وَاللهُ أَكبَرُ، فيَذكُر اسمَ الله، ويَعنِي أيضًا ذِكْر اسْمِ الله تعالى بالتَّعبُّد لَه، ويَدخُل فِي ذِكْر اسْمِ الله الوُضوءُ، فالوُضوءُ مِن ذِكْر اسمِ الله، أَوَّلًا: لأن الإِنسان

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن لَا يدخل الجنة إِلا المؤمنون...، رقم (٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب إِطعام الطعام من الإِسلام، رقم (١٢)، ومسلم: كتاب الإِيمان، باب بيان تفاضل الإِسلام وأي أموره أفضل، رقم (٣٩)، من حديث عبدالله بن عمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لَا يَتوضَّأ إلَّا امتِثالًا لأَمْر الله. وثانِيًا: أنَّه إذَا ابتَدَأ وُضوءَه قالَ: بِسْم الله. وإذَا انتَهى قالَ: أَشهَدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأَشهَدُ أن مُحمَّدًا عَبْده ورَسولُه، اللَّهُمَّ اجْعَلْني مِن التَّوابِين واجْعَلْني من المُتطَهِّرين. ومِن ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ خُطْبَةُ الجُمُعة، فإن خُطْبة الجُمُعة من ذِكْر الله؛ لقَوْل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة:٩]، وعلى هَذا قالَ بعضُ العُلَماء: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ يعنِي: الخطيْب يَوْم الجُمُعة ﴿فَصَلَّىٰ﴾؛ أي: صَلاة الجُمُعة.

فهَذِه الآيَةُ تَشمَل كلَّ الصَّلَوات الَّتِي يَسبِقُها ذِكْر، ومَا مِن صَلاة إلَّا ويَسبِقُها ذِكْر؛ لأن الإِنسانَ يَتوضَّأ قُبَيْل الصَّلاة، فيَذكُر اسم الله ثُمَّ يُصلِّي، لكِنِ الصَّحيحُ: أنَّها أَعَمُّ من هذا، وأن المُراد به كُلُّ ذِكْر لاسْمِ الله عَزَّوَجَلَّ، أي: كُلَّما ذكَرَ الإِنسانُ اسمَ الله اتَّعَظ وأَقبَل إلى الله وصلَّى، وَالصلاةُ مَعروفةٌ؛ هِي عِبادة ذاتُ أقوالٍ وأفعالٍ، مُفتَتَحة بالتَّكبير، مُختَتَمة بالتَّسليم.

ثُم قالَ تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ ﴿بَلۡ﴾ هُنا للإِضْراب الانتِقاليِّ؛ لأن ﴿بَلۡ﴾ تَأتِي للإِضْراب الإِبْطاليِّ، وتَأتِي للإِضْراب الانتِقاليِّ، أي: أنَّه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ انتَقَل؛ لِيُبيِّن حالَ الإِنسان أنَّه مُؤثِر للحَياة الدُّنيا؛ لأنَّها عاجِلة، وَالإِنسانُ خُلِق من عجَلٍ، ويُحِبُّ مَا فيه العجَلة، فتَجِده يُؤثِر الحَياة الدُّنيا، وهِي فِي الحَقيقة على وَصْفها دُنيا، دُنيا زَمَنًا، ودُنيا وَصْفًا، أمَّا كَوْنها دُنيا زمَنًا فلأَنَّها سابِقة على الآخِرة، فهِي مُتَقدِّمة عليها، وَالدُّنُوُّ بمَعنى القُرْب. وأمَّا كَوْنُها دُنيا ناقِصةً فكذلِكَ هُو الواقِعُ، فإن الدُّنْيا مَهْما طالَت بالإِنسان فإِن أَمَدَها الفَناء، ومُنْتَهاها الفَناء، ومَهْما ازْدَهَرت للإِنْسان فإِن عاقِبَتَها الذُّبول؛ ولِهَذا لَا يَكاد يَمُرُّ بكَ يَوْم فِي

سُرور إلَّا وعَقِبه حُزْن، وفي هَذا يَقولُ الشاعِرُ[1]:

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَــا وَيَــوْمٌ لَنَــا وَيَــوْمٌ نُسَــاءُ وَيَــوْمٌ نُسَــرّ

تَأَمَّلْ حالَكَ فِي الدُّنيا تَجِدْ أَنَّه لَا يَمُرُّ بكَ وَقْت ويَكُون الصَّفْو فيه دائِمًا، بل لا بُدَّ من كَدَر، ولَا يَكُون السُّرور دائِمًا، بل لا بُدَّ من حُزْن، ولَا تكون راحة دائِمًا، بل لا بُدَّ مِن تعَبٍ، فالدُّنْيا على اسمِها دُنْيا.

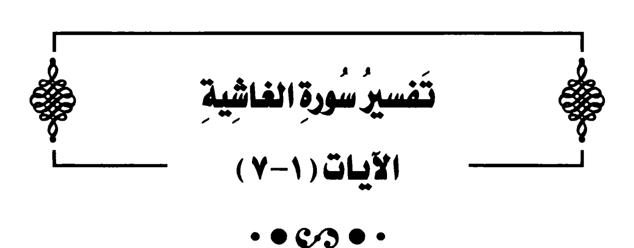
﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ الآخِرةُ خَيْر من الدُّنْيا وأَبقَى، خَيْرٌ بما فيها من النَّعيم وَالسُّرور الدائِم الَّذِي لَا يُنغَّصُ بكَدَر ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]، كذَلِك أيضًا هِي أَبقَى من الدُّنْيا؛ لأن بَقاءَ الدُّنْيا كَما أَسلَفْنا قَليلٌ زائِلٌ مُضمَحِلٌّ، بخِلاف بَقاء الآخِرة فإِنه أَبَدَ الآبِدين.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ أي: مَا ذُكِر من كَوْن الإِنسان يُؤثِر الحَياةَ الدُّنْيا على الآخِرة ويَنسَى الآخِرة، وكذلِكَ مَا تَضمَّنَتْه الآياتُ من المَواعِظ ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أيِ: السابِقة على هَذِه الأُمَّةِ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ وهِي صُحُف جاءَ بها إِبراهيمُ ومُوسَى علَيْهِما الصَّلاة وَالسَّلام، وفيها من المَواعِظ مَا تَلين به القُلوب وتَصلُح به الأَحْوال، نَسأَل الله تعالى أن يَجعَلَنا مِمَّن أُوتِيَ فِي الدُّنيا حسَنةً، وفي الآخِرةِ حسَنةً، ووَقاهُ الله عَذابَ النار، إِنه جَوَادٌ كَريمٌ.

• • ❁ • •

---

(١) هو النمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦).



تفسير سورة الغاشية

الآيات (١-٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:١-٧].

البَسْمَلة تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ يجوز أن يَكُون الخِطاب مُوجَّهًا للرَّسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَحْدَه وأُمَّتِه تبَعًا له، ويَجوز أن يَكُون عامًّا لكُلِّ مَن يَتأتَّى خِطابه، وَالاستِفْهام هُنا للتَّشويق فهُو كقَوْله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠]، ويَجوز أن يَكُون للتَّعْظيم؛ لعِظَم هَذا الحَديثِ عن الغاشِية.

﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾؛ أي: نبَؤُها، و﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ هِي الداهِيةُ العَظيمة الَّتِي تَغشَى النَّاس، وهِي يَوْم القِيامة الَّتِي تَحدَّث اللهُ عنها فِي القُرآن كثيرًا، ووصَفَها بأَوْصاف عَظيمة مِثْل قَوْلِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ

حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

ثُم قسَّم اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ النَّاسَ فِي هَذا اليَوْمِ إِلى قِسْمَيْن فقالَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ أي: ذَليلةٌ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥]، فمَعنَى خاشِعة يَعنِي: ذَليلة.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ عامِلةٌ عمَلًا يَكُون به النَّصب وهُو التَّعَب، قالَ العُلَماء: وذلِك أنَّهم يُكلَّفون يَوْمَ القِيامة بجَرِّ السَّلاسِل وَالأَغْلال، وَالخَوْض فِي نار جَهنَّمَ، كما يَخوض الرَّجُل فِي الوَحْل، فهِي عامِلة تَعِبة من العَمَل الَّذِي تُكلَّف به يَوْمَ القِيامة؛ لأنَّه عمَلُ عَذابٍ وعِقابٍ، وليس المَعنَى -كما قالَ بعضُهم- أنَّ المُرادَ بها: الكُفَّار الَّذِين ضَلَّ سَعْيُهم فِي الحَياة الدُّنْيا وهم يَحسَبون أنَّهم يُحسِنون صُنْعًا، وذلِك لأنَّ الله قيَّدَ هَذا بقَوْله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يومَئِذٍ تَأْتِي الغاشِيةُ، وهَذا لَا يَكُون إلَّا يَوْم القِيامة، إِذَنْ فهِي عامِلةٌ ناصِبةٌ بما تُكلَّف به من جَرِّ السَّلاسِل وَالأَغْلال، وَالخَوْض فِي نار جهَنَّمَ أعاذَنا اللهُ مِنها.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾؛ أي: تَدخُل فِي نار جهَنَّمَ، وَالنارُ الحامِيةُ الَّتِي بلَغَت من حَمْوها أنَّها فُضِّلت على نار الدُّنْيا بتِسْعة وسِتِّين جُزْءًا، يَعنِي: نار الدُّنيا كُلِّها بما فيها من أَشَدِّ مَا يَكُون من حَرارةٍ نارُ جهَنَّمَ أَشَدُّ مِنها بتِسْعة وسِتِّين جُزءًا، ويَدُلُّك على شِدَّة حَرارتها أن هذِه الشَّمْسَ حَرارتُها تَصِل إِلينا مَعَ بُعْد مَا بيننا وبينَها، ومَع أنَّها تَنفُذ من خِلال أَجْواء بارِدة غاية البُرودة، وتَصِل لنا هذِه الحَرارةُ الَّتِي تُدرَك ولا سِيَّما فِي أيَّام الصَّيْف، فالنارُ نارُ حامِيةٌ، ولَمَّا بيَّنَ مَكانَهم، وأنَّهم فِي نار جهَنَّمَ الحامِية بيَّنَ

طَعامَهم وشَرابَهم فقالَ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ ﴿تُسْقَىٰ﴾؛ أي: هذِه الوُجوهُ ﴿مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾؛ أي: شَديدة الحَرارة، هَذا بالنِّسْبة لشَرابهم، ومَع هَذا لَا يَأْتِي هَذا الشَّرابُ بكُلِّ سُهولة، أو كُلَّما عطِشوا سُقُوا، وإِنَّما يَأْتِي كُلَّما اشتَدَّ عطَشُهم واستَغاثوا كَما قالَ تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف:٢٩]، هَذا الماءُ إِذَا قرُبَ من وُجوهِهم شَواها وتَساقَط لَحْمُها، وإِذَا دخَل فِي أَجْوافهم قَطَّعها، يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥]، فلَا يَستَفيدون منه لَا ظاهِرًا ولَا باطِنًا، لَا ظاهِرًا بالبُرودة ببَرْد الوُجوه، ولَا باطِنًا بالرِّيِّ، ولكِنَّهم -وَالعِياذُ بالله- يُغاثون بهَذا الماءِ؛ ولهذا قالَ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾.

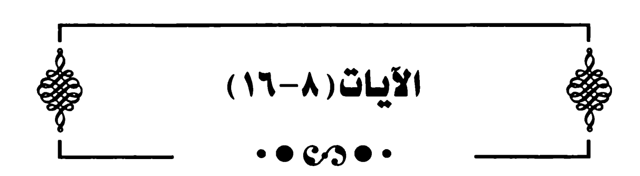
فإِذَا قالَ قائِلٌ: كَيْفَ تَكون هذِه العَيْنُ فِي نار جهَنَّمَ وَالعادةُ أن الماءَ يُطفِئ النار؟

فالجَوابُ: أوَّلًا: أن أُمور الآخِرة لَا تُقاس بأُمور الدُّنْيا، لو أنَّها قِيسَت بأُمور الدُّنيا مَا استَطَعْنا أن نَتَصوَّر كيف يَكُون، أَلَيْسَ الشَّمْس تَدْنو يَوْم القِيامة من رُؤُوس النَّاس على قَدْر مِيلٍ، وَالمِيلُ إِمَّا مِيل المُكحُلة؛ وهُو نِصْف الإِصبَع، أو مِيلُ المَسافة كِيلو وثُلُث، أو نَحوُ ذلِك، وحتَّى لو كانَ كذَلِك فإِنه لو كانَتِ الآخِرة كالدُّنْيا لشَوَتِ النَّاس شَيًّا، لكِنِ الآخِرةُ لَا تُقاس بالدُّنْيا، أيضًا يُحشَر النَّاسُ يَوْم القِيامة فِي مَكانٍ واحِدٍ، مِنهم مَن هُو فِي ظُلْمة شَديدة، ومِنْهم مَن هُو فِي نور ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم:٨]، يُحْشَرون فِي مَكانٍ واحِدٍ ويَعرَقون، مِنْهم مَن يَصِل العرَقُ إِلى كَعْبه، ومِنْهم مَن يَصِل إِلى رُكْبَتَيْه، ومِنْهم مَن يَصِل إِلى حِقْوَيْه، ومَع ذلِك هُمْ فِي مَكانٍ واحِدٍ. إِذَنْ أَحْوالُ الآخِرة لَا يَجوز أن تُقاسَ بأَحْوال الدُّنْيا.

ثانيًا: أن الله على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ؛ ها نَحْن الآنَ نَجِد أن الشجَر الأَخْضَر تُوقَد مِنه النار كَما قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠]، الشَّجَر الأَخضَر رَطْب، ومَع ذلِكَ إِذَا ضُرِب بَعْضه ببَعْض، أو ضُرِب بالزِّناد انقَدَح خرَجَ مِنه نار حارَّة يابِسة، وهُو رَطْب بارِد، فالله على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، فهُمْ يُسقَوْن من عَيْن آنِية فِي النار، ولَا يَتَنافَى ذلِكَ مَع قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا طَعامُهم فقالَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ الضَّريعُ قالوا: إِنه شجَر ذو شَوْك عَظيم إِذَا يَبِس لَا يَرْعاه ولَا البَهائِمُ، وإِن كانَ أَخضَرَ رَعَتْه الإِبِلُ، ويُسمَّى عِندنا الشبرق، فهُمْ -وَالعِياذ بالله- فِي نار جهنَّمَ ليسَ لهم طَعام إِلَّا من هَذا الضَّريعِ، ولكِنْ لَا تَظُنَّ أن الضَّريع الَّذِي فِي نار جهَنَّمَ كالضَّريع الَّذِي فِي الدُّنْيا فهُو يَختَلِف عنه اختِلافًا عَظيمًا؛ ولهذا قالَ: ﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ فلَا يَنفَع الأَبْدان فِي ظاهِرِها ﴿وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾، فلَا يَنفَعها فِي باطِنها فهُو لَا خَيْرَ فيه ليسَ فيه إِلَّا الشَّوْك، وَالتَّجرُّع العَظيم، وَالمَرارة، وَالرائِحة المُنْتِنة الَّتِي لَا يَستَفيدون مِنها شيئًا.

• • ۞ • •



الآيات (٨-١٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية:٨-١٦].

•●○●•

ثُم ذكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ القِسْم الثانِيَ من أَقْسام الناس في يَوْم الغاشِية، فقال:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية:٨-١٦].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾؛ أي: ناعِمة بما أَعْطاها الله عَزَّوَجَلَّ من السُّرور وَالثَّواب الجَزيل؛ لأنَّها علِمَت ذلِك وهِي فِي قُبورها، فإن الإِنسانَ فِي قَبْره ينعَم، يُفتَح لَه بابٌ إِلى الجَنَّة، فيَأتِيه من رَوْحها ونَعيمها، فهِي ناعِمة ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾؛ أي: لعَمَلها الَّذِي عمِلَته فِي الدُّنيا راضِية؛ لأنَّها وصَلَت به إِلى هَذا النَّعيمِ وهَذا السُّرور وهَذا الفرَحِ، فهِي راضِية لسَعْيها بخِلاف الوُجوه الأُولى فإِنَّها غاضِبة -وَالعِياذ بالله- غيرُ راضِيةٍ على مَا قدَّمَت.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ الجَنَّة هِي دارُ النَّعيم الَّتِي أَعدَّها الله عَزَّوَجَلَّ لأَوْليائه يَوْمَ القِيامة، فيها مَا لَا عَيْنٌ رأَتْ، ولَا أُذُنٌ سمِعَت، ولَا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وقالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ إلى قَوْلِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١-١١]، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١]، فهُمْ فِي ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ العُلُوُّ ضِدُّ السُّفول فهِي فَوْق السمواتِ السَّبْع، ومن المَعْلوم أنَّه فِي يَوْم القِيامة تَزول السَّمَواتُ السَّبْع وَالأَرَضون ولَا يَبقَى إلَّا الجَنَّة وَالنار، فهِي عالِيه، وأَعْلاها وَوَسطُها الفِرْدَوْس الَّذِي فَوْقَه عَرْشُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾؛ أي: لَا تَسمَع فِي هذِه الجَنَّة قولةً لاغِيةً، أو نَفْسًا لاغِيةً، بَلْ كلُّ مَا فيها جِدٌّ، كُلُّ مَا فيها سَلام، كُلُّ مَا فيها تَسبيحٌ، وتَحميدٌ، وتَهليلٌ، وتَكبير، يُلهَمون التَّسبيح كَمَا يُلهَمون النَّفَس، أي: أنَّه لَا يَشُقُّ عليهم، فهُمْ دائِمًا فِي ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ، وتَسْبيح وأُنْس وسُرور، يَأتِي بَعضُهم إِلى بَعضٍ يَزور بَعْضُهم بعضًا فِي حُبورٍ لَا نَظيرَ لَه.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وهذِه العَيْنُ بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّها أَنْهار ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥]، ﴿جَارِيَةٌ﴾؛ أي: تَجري حيثُ أَراد أَهْلها لَا تَحتاج إِلى حَفْر ساقِية، ولَا إِقامة أُخدود كَمَا قالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

أَنْهَارُهَا فِي غَـيْرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَـنِ الفَيَضَـانِ

---

(١) النونية (ص:٣٢٦).

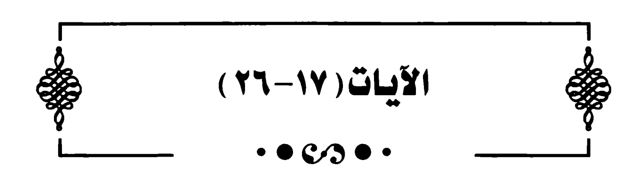
﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ انظُرْ للتَّقابُل: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ عالِية يَجلِسون علَيْها يَتفكَّهون ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس:٥٦].

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ الأَكْوابُ جَمْع كُوب وهُو الكَأْس ونَحوُه ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ يَعنِي: ليسَت مَرفوعة عنهم، بل هِي مَوْضوعة لَهُم متَى شاؤُوا شرِبوا فيها مِن هَذِه الأَنْهارِ الأَربَعة الَّتِي سبَقَ ذِكْرها.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ النَّمارِقُ جَمْع نُمرُقة وهِي الوِسادة أو مَا يُتَّكَأ علَيْه، ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ على أَحسَنِ وَجْه تَلتَذُّ العَيْن بها قبلَ أن يَلتَذَّ البدَنُ بالاتِّكاء إِليها، ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ الزَّرابِيُّ أَعْلى أَنْواع الفُرُش ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مَنْشورة فِي كُلِّ مَكان، ولَا تَظُنَّ أن هذِه النَّمارِقَ وهذِه الأَكْوابَ وهذِه السُّرَرَ وهذِه الزَّرابِيَّ تُشبِه مَا فِي الدُّنيا؛ لأَنَّها لو كانَت تُشبِه مَا فِي الدُّنْيا لكُنَّا نعلَم نَعيمَ الآخِرة، ونَعلَم حَقيقته، لكِنَّها لَا تُشبِهُه؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، إِنما الأَسْماء واحِدة وَالحَقائِقُ مُختَلِفة؛ ولهذا قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليسَ فِي الآخِرة مِمَّا فِي الدُّنْيا إِلَّا الأَسْماء فقَطْ»[1]، فنَحْن لَا نَعلَم حَقيقة هذِه النِّعَمِ المَذْكورة فِي الجَنَّة، وإِن كُنَّا نُشاهِد مَا يُوافِقها فِي الاِسْم فِي الدُّنْيا، لكِنَّه فرِّق بين هَذا وهذا.

• • ❁ • •

(١) أخرجه هناد بن السري فِي الزهد، رقم (٣)، والطبري فِي تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم فِي تفسيره (١/ ٦٦).



الآيات (١٧-٢٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:١٧-٢٦].

لَمَّا قرَّر الله عَزَّوَجَلَّ فِي هذِه السُّورةِ حَديثَ الغاشِية وهِي يَوْم القِيامة، وبيَّنَ أن النَّاس يَنقَسِمون إِلى قِسْمَيْن: وُجوهٌ خاشِعة عامِلة ناصِبة تَصلَى نارًا حامِية، ووُجوهٌ ناعِمة لسَعْيها راضِية، وبيَّن جَزاءَ هَؤلاءِ وهؤلاء، قالَ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، وهَذا الاستِفْهامُ للتَّوْبيخ، أي: أَنَّ الله يُوبِّخ هَؤلاءِ الَّذِين أَنكَروا مَا أَخبَرَ الله به عن يَوْم القِيامة، وعَنِ الثَّواب وَالعِقاب، أَنكَر عليهم إِعراضَهم عن النَّظَر فِي آيات الله تعالى الَّتِي بين أَيْديهم.

وبدَأَ بالإِبِل؛ لأن أَكثَرَ مَا يُلابِس النَّاسَ فِي ذلِكَ الوَقْتِ الإِبِلُ، فهُم يَركَبونها، ويَحلُبونها، ويَأكُلون لَحْمها، ويَنتَفِعون من أَوْبارِها إِلى غيرِ ذلِك من المَنافِع، فقالَ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ وهِي الأَباعِر ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ يَعنِي: كَيْف خلَقَها الله عَزَّوَجَلَّ، هَذا الجِسْمُ الكَبير المُتحَمِّل، تَجِد البَعير تَمشِي مَسافاتٍ طَويلةً لَا يَبلُغها الإِنسان إِلَّا بشِقِّ الأَنفُس وهِي مُتحمِّلة، وتَجِد البَعير أيضًا يَحمِل الأَثْقال وهُو بارِكٌ،

ثُم يَقوم فِي حِمْله لَا يَحتاج إِلى مُساعَدة، وَالعادة أن الحَيوان لَا يَكاد يَقوم إِذَا حُمِّل وهُو بارِكٌ، لكِنْ هذِه الإِبِلُ أَعطاها الله عَزَّوَجَلَّ قُوَّة وقُدْرة من أَجْل مَصلَحة الإِنسان؛ لأن الإِنسان لَا يُمكِن أن يَحمِل عليها وهِي قائِمة؛ لعُلُوِّها، ولكِنِ اللهُ تعالى يَسَّرَ لَهُم الحَمْل عليها وهِي بارِكةٌ، ثُم تَقوم بحِمْلها.

وكما قالَ اللهُ تعالى فِي سورة يس: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧٣]، مَنافِعها كَثيرة لَا تُحصَى، وأَهلُها الَّذِين يُمارِسونها أَعلَمُ مِنَّا بذلِك؛ فلِهذا قالَ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، ولم يَذكُر سِواها من الحَيوان كالغَنَم وَالبقَر وَالظَّبي وغيرِها؛ لأَنَّها أَعَمُّ الحَيوانات نَفْعًا، وأَكثَرُها مَصلَحةً للعِباد.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ يَعنِي: ويَنظُرون إِلى السَّماء كَيْف رُفِعَت بما فيها من النُّجوم، وَالشَّمْس، وَالقمَر، وغير هَذا من الآياتِ العَظيمة الَّتِي لم يَتبَيَّن كَثيرٌ مِنها إِلى الآنَ، ولَا نَقُول: إِن هذِه الآياتِ السَّماوِيةَ هِي كُلُّ الآياتِ، بَلْ لعَلَّ هُناكَ آياتٍ كَبيرةً عَظيمةً لَا نُدرِكها حتَّى الآنَ.

وقَوْله: ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾؛ أي: رُفِعَت هَذا الِارتِفاعَ العَظيم، ومَعَ هَذا فلَيْس لهَا عمَدٌ، مَع أن العادة أن السُّقوف لَا تَكون إِلَّا على عمَدٍ، لكِنْ هَذا السَّقْفُ العَظيم المَحْفوظ قامَ على غير عمَد ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢].

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ هذِه الجِبالُ العَظيمةُ الَّتِي تَحمِل الصُّخورَ وَالقِطَعَ المُتَجاوِراتِ المُتَبايِناتِ، الجِبالُ مُكوَّنة من أَحْجار كَثيرة وأنواع كَثيرة، فيها المَعادِن المُتنوِّعة وهِي مُتَجاوِرة، ومَع ذلِك تَجِد مثَلًا هَذا الخَطَّ فِي وسَط الصَّخر تَجِده يَشتَمِل على مَعادِنَ لَا تُوجَد فيما قرُبَ مِنه من هَذا الصَّخْرِ، ويَعرِف هَذا عُلَماءُ طَبَقات

الأَرْض (الجِيولوجيا) كيف نصَبَ اللهُ هذِه الجِبالَ العَظيمة.

ونَصَبَها جَلَّوَعَلَا بهذا الِارتِفاعِ؛ لتكون رَواسِيَ فِي الأرض؛ لئَلَّا تَميدَ بالناس، لَوْلا أن الله عَزَّوَجَلَّ خلَقَ هذِه الجِبالَ لمادَتِ الأَرْض بأَهْلها؛ لأن الأَرْض فِي وسَط الماء، فالماءُ مُحيطٌ بها من كُلِّ جانِبٍ، ومَا ظنُّكَ بكُرَةٍ تَجعَلها فِي وسَط ماءٍ؟! سَوْف تَتَحرَّك وتَضْطَرِب، وتَتَدَحْرَج أحيانًا، وتَنقَلِب أحيانًا، لكِنِ الله جعَلَ هذِه الجِبالَ رَواسِيَ تُمسِك الأرض كما تُمسِك الأَطْنابُ الخَيْمةَ، وهِي راسِيةٌ ثابِتة على مَا يَحصُل فِي الأَرْض من الأَعاصير العَظيمة الَّتِي تَهدِم البِناياتِ الَّتِي بَناها الآدَمِيُّون، لكِنْ هذِه الجِبالُ لَا تَتَزَحْزَح، راسِيةٌ، ولو جاءَتِ الأَعاصيرُ العَظيمة.

بل إِن مِن فَوائِدِها: أَنَّها تَحجُب الأَعاصير العَظيمة البالِغة الَّتِي تَنطَلِق من البِحار، أو من غير البِحار؛ لئَلَّا تَعصِف بالناس، وهَذا شيءٌ مُشاهَد، تَجِد الَّذِين فِي سُفوح الجِبال وتَحتَها فِي الأَرْض تَجِدهم فِي مَأْمَن من أَعاصِير الرِّياح العَظيمة الَّتِي تَأْتِي مِن خَلْف الجَبَل، ففِيها فَوائِدُ عَظيمةٌ، وهِي رَواسٍ، لو أن الخَلْقَ اجتَمَعوا على أن يَضَعوا سِلْسلة مِثل هذِه السِّلْسلةِ من الجِبال مَا استَطاعوا إِلى هَذا سَبيلًا مَهما بلَغَت صَنْعَتُهم، وقُوَّتُهم، وقُدْرتُهم، وطالَ أَمَدُهُم، فإِنهم لَا يَستَطيعون أن يَأْتوا بمِثْل هذِه الجِبالِ.

وقد قالَ بعضُ العُلَماء: إِن هَذِه الجِبالَ راسِيةٌ فِي الأَرْض بمِقْدار عُلُوِّها فِي السَّماء، يَعنِي: أن الجَبَل لَه جُرثومةٌ وجَذْر فِي داخِل الأرض فِي عُمْق يُساوِي ارْتِفاعَه فِي السَّماء، وليس هَذا ببَعيدٍ أن يُمكِّن اللهُ لِهَذا الجبَلِ فِي الأرض حتَّى يَكُون بقَدْرِ مَا هُو فِي السَّماء؛ لئَلَّا تُزَعْزِعه الرِّياح؛ فلِهَذا يَقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٥-١٦].

يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾؛ أَيْ: وانْظُروا كيفَ سَطَحَ الله هذِه الأَرْضَ الواسِعة، وجعَلَها سَطْحًا واسِعًا؛ ليَتمَكَّن النَّاسُ من العَيْش فيه بالزِّراعة وَالبِناء وغير هذا، ومَا ظَنُّكُم لو كانَت الأَرْض صَبَبًا غَيْر مُسَطَّحة؟! يَعنِي: مِثْل الجِبال يُرقَى لهَا ويُصعَد، لكانَتْ شاقَّة، ولَمَا استَقَرَّ النَّاسُ عليها، لكِنِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ جعَلَها سَطْحًا مُمهَّدًا للخَلْق.

وقدِ استَدَلَّ بعضُ العُلَماء بِهَذِه الآيَةِ على أن الأَرْض ليسَت كُرَوِيَّةً، بَلْ سَطْح مُمتَدٌّ، لكِنْ هَذا الاستِدْلالُ فيه نَظَرٌ، لأن هُناكَ آياتٍ تَدُلُّ على أن الأَرْض كُرَوِيَّة، وَالواقِعُ شاهِدٌ بذلِكَ، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٥]، وَالتَّكويرُ: التَّدويرُ، ومَعلومٌ أن اللَّيْل وَالنَّهار يَتَعاقَبان على الأَرْض، فإِذَا كانا مُكوَّرَيْن لزِمَ أن تَكون الأَرضُ مُكوَّرةً.

وقالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:١-٤]، فقالَ: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾، وقَدْ جاءَ فِي الحَديثِ[1] أنَّها يَوْم القِيامة تُمَدُّ مَدَّ الأَديم، أي: مَدَّ الجِلْد حتَّى لَا يَكُون فيها جِبالٌ، ولَا أَوْدِيَة، ولَا أَشْجار، ولَا بِناءٌ، يَذَرُها الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ قاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فيها عِوَجًا ولَا أَمْتًا.

فقولُه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وَالسَّماءُ لَا تَنشَقُّ إِلَّا يَوْم القِيامة، وهِي الآنَ غَيْر

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، رقم (٤٠٨١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُنشَقَّة، إِذَن قَوْلُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ يَعنِي: يَوْم القِيامة فهِي إِذَنِ الآنَ غَيْرُ ممدودة، إِذَنْ مُكوَّرة، وَالواقِعُ المَحْسوسُ المُتيَقَّن الآنَ أنَّها كُروِيَّة لَا شَكَّ، وَالدليلُ على هَذا أنكَ لو سِرْت بخَطٍّ مُستَقيم من هُنا من المَمْلَكة مُتَّجِهًا غَرْبًا لأَتَيْت من ناحِية الشَّرْق، تَدورُ على الأَرْض، ثُم تَأْتِي إِلى النُّقْطة الَّتِي انطَلَقْتَ مِنها، وكذلِكَ بالعَكْس لو سِرْتَ مُتَّجِهًا نحوَ المَشْرِق وجَدْتَك راجِعًا إِلى النُّقْطة الَّتِي قُمْت مِنها من نَحْو المَغرِب، إِذَنْ فهِي الآنَ أَمْر لَا شَكَّ فيه أنَّها كُروِيَّة.

فإِذَا قالَ الإِنسانُ: إِذَا كانَت كما ذَكَرْت كُرَوِيَّة فكَيْف تَثبُتُ مِياهُ البِحارِ علَيْها وهِي كُروِيَّة؟

نَقُول فِي الجَوابِ عن ذلِكَ: إن الَّذِي أَمسَك السَّماء أن تَقَع على الأَرْض إلَّا بإِذْنه يُمسِك البِحار أن تَفيض على النَّاس فتُغرِقهم، وَاللهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، قالَ بعضُ أَهْل العِلْم: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾؛ أي: حُبِسَت ومُنِعت من أن تَفيض على النَّاس كالشيءِ الَّذِي يُسجَّر (يُربَط)، وعلى كلِّ حال القُدرةُ الإِلَهِية لَا يُمكِن لنا أن نُعارِض فيها، نَقُول: قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ أَمسَكَت هذِه البِحارَ أن تفيضَ على أَهْل الأرض فتُغرِقهم، وإِن كانَت الأَرْض كُرَوِيَّة.

ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ لَمَّا بيَّن من آياتِه هذِه الآياتِ الأربَعَ: الإِبِل، وَالسَّماء، وَالجِبال، وَالأَرْض قالَ لنبيِّه ﷺ: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ أَمَرَه اللهُ أن يُذكِّر، ولم يُخصِّص أحَدًا بالتَّذكير، أي: لَمْ يَقُل: ذَكِّر فُلانًا وفُلانًا. فالتَّذكيرُ عامٌّ؛ لأن الرَّسولَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم بُعِث إلى النَّاس كافَّةً، أي: ذَكِّرْ كُلَّ أحَدٍ فِي كلِّ حالٍ وفِي كُلِّ مَكان، فذكَّرَ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وذكَّرَ خُلَفاؤُه مِن بَعْده الَّذِين خلَفوه فِي أُمَّته فِي العِلْم وَالعمَل

وَالدَّعْوة، ولكِنْ هذِه الذِّكْرى هَلْ يَنتَفِع بها كلُّ النَّاس؟ الجَوابُ: لَا، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، أَمَّا غَيْرُ المُؤمِن فإِن الذِّكْرى تُقيم علَيْه الحُجَّة لكِن لَا تَنفَعه، لَا تَنفَع الذِّكْرى إلَّا المُؤمِن، ونَقُول: إِذَا رأَيْت قَلْبَك لَا يَتَذكَّر بالذِّكْرى فاتَّهِمْه؛ لأن الله يَقولُ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإِذَا ذُكِّرْت ولم تَجِدْ من قَلْبَكَ تَأَثُّرًا وانتِفاعًا فاتَّهِم نَفْسَك، واعلَمْ أن فيكَ نَقْصَ إِيمانٍ؛ لأنه لو كانَ إِيمانُكَ كامِلًا لانْتَفَعْتَ بالذِّكْرى؛ لأن الذِّكْرى لا بُدَّ أن تَنفَع المُؤمِنين.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ يَعنِي: أن مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليسَ إِلَّا مُذكِّرًا مُبلِّغًا، وأمَّا الهِدايَة فبِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وقَدْ قامَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالذِّكْرى وَالتَّذْكير إِلى آخِر رمَقٍ من حَياته حتَّى إِنَّه فِي آخِرِ حَياتِه يَقولُ: «**الصَّلَاةَ! الصَّلَاةَ! وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ!**»[1]، حتَّى جعَل يُغرْغِر بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فذَكَّر صلَواتُ الله وسَلامُه عليه مُنذُ بُعِثَ وقيلَ لَه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢]، إِلى أن توَفَّاه الله، لم يَأْلُ جُهْدًا فِي التَّذْكير فِي كلِّ مَوقِف، وفي كُلِّ زَمانٍ على مَا أَصابَه من الأذَى من قَوْمه ومن غير قَوْمه، وَالَّذِي قرَأ التَّاريخ -السِّيرة النَّبويَّة- يَعرِف مَا جَرَى لَه من أَهْل مكَّةَ من قَوْمه الَّذِين هُمْ أَقربُ النَّاس إِليه، وَالَّذين كانوا يَعرِفونه، ويُلقِّبونه بالأَمينِ، يُلقِّبونه بذَلِكَ، ويَثِقُون به حتَّى حَكَّموه فِي وَضْع الحَجَر الأَسْود فِي الكَعْبة حينَما هَدَموا الكَعْبة ووَصَلوا إِلى حَدِّ الحَجَر قالوا: مَن

(١) أخرجه أحمد (١/ ٧٨)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب فِي حق المملوك، رقم (٥١٥٦)، وابن ماجه: كتاب الوصايا، باب هل أوصى رسول الله ﷺ، رقم (٢٦٩٨)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَنصِب الحَجَرَ؟ فتنازَعوا بينَهُم، كُلُّ قَبيلةٍ تَقولُ: نحنُ الَّذِين نَتوَلَّى وَضع الحَجَر فِي مَكانه. حتَّى جاءَ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحكَّموه فيما بينَهُم، وأَمَر أن يُوضَع رِداءٌ، وأن تُمسِكَ كلُّ واحِدة مِن هذِه القَبائِلِ بطَرَف من هَذا الرِّداءِ حتَّى يَرفَعوه، فإِذَا حاذَوْا محَلَّه أَخَذَه هُو بيَدِه الكَريمةِ ونصَبَه فِي مَكانه، فكانوا يُلقِّبونه بالأَمين.

لكِنْ لَمَّا أَكرَمه الله تعالى بالنُّبوَّة انقَلَبَتِ المَعاييرُ، فصاروا يَقولون: إِنه ساحِرٌ، وكاهِنٌ، وشاعِرٌ، ومجنونٌ، وكَذَّابٌ. ورَمَوْه بكُلِّ سَبٍّ، فالرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُذكِّر وليس عليه إِلَّا التَّذكير، ومن هُنا نَأخُذ أن الهِداية بيَدِ الله، فلَا يُمكِن أن نَهدِيَ أَقرَبَ النَّاس إِلينا ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

فلَا تَجزَعْ إِذَا ذكَّرْنا إِنسانًا ووجَدْناه يُعانِد، أو يُخاصِم، أو يَقول: أنا أَعمَل مَا شِئْت. أو مَا أَشبَه ذلِك، قالَ اللهُ تعالى لنَبيِّه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، لَا تُهلِك نَفْسَك إِذَا لم يُؤمِنوا، إِيمانُهم لَهُم، وكُفْرهم ليسَ علَيْك؛ ولهذا قالَ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ يَعنِي: ليسَ لَك سُلْطة علَيْهم، ولَا سَيْطرةٌ علَيْهم، السُّلْطة لله رَبِّ العالَمين، أنتَ علَيْكَ البَلاغ، بلِّغْ، وَالسُّلْطان وَالسَّيْطرة لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ قالَ العُلَماءُ: ﴿إِلَّا﴾ هُنا بمَعنَى: (لكِن)، يَعنِي أن الاستِثْناء فِي الآيَةِ مُنقَطِع، وليسَ بمُتَّصِل، وَالفَرْق بين المُتَّصِل وَالمُنقَطِع أن المُتَّصِل يَكُون فيه المُستَثْنى من جِنْس المُستَثْنى منه، وَالمُنقَطِع يَكُون

أَجنَبِيًّا منه، فمثَلًا لو قُلنا: إِنه مُتَّصِل. لصار مَعنَى الآية: (لَسْتَ علَيْهم بمُصَيْطِرٍ إِلَّا من تَولَّى وكفَر فأَنْت علَيْهم مُصَيْطِر)، وليس الأَمْر كذَلِك، بلِ المَعنَى: لكِنِ مَن تَولَّى وكفَر بعدَ أن ذكَّرْته فيُعذِّبه اللهُ العَذابَ الأَكبَرَ، فمَن تولَّى وكفَر بعدَ أن بلَغه الوَحيُ النازِلُ على رَسولِ الله ﷺ فإِنَّه سيُعذَّب.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ التَّولِّي يَعنِي: الإِعراض، فلَا يَتَّجِه للحَقِّ، ولَا يَقبَل الحَقَّ، ولَا يَسمَع الحَقَّ، حتَّى لو سمِعه بأُذُنه لم يَسمَعْه بقَلْبه كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠-٢١]، أي: لَا يَنقادُون، فهُنا يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ ﴿تَوَلَّىٰ﴾: أَعرَض، ﴿وَكَفَرَ﴾؛ أَي: استكبَر ولم يَقبَل مَا جاءَ به الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ وَالعَذابُ الأَكْبَر يَوْم القِيامة، وهنا قالَ: ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾، ولم يَذكُر المُفضَّل عليه، يَعنِي: لم يَقُلِ: الأكبَر من كذا. فهُو قَد بلَغَ الغايَةَ فِي الكِبَرَ وَالمَشقَّة وَالإِهانة، وكُلُّ مَن تولَّى وكفَرَ فإِن الله يُعذِّبه العَذاب الأَكبَر، وهُناكَ عَذابٌ أَصغَرُ فِي الدُّنْيا قَد يُبتَلى المُتولِّي المُعرِض بأَمْراض فِي بدَنه، فِي عَقْله، فِي أَهْله، فِي ماله، فِي مُجتَمَعه، وكُلُّ هَذا بالنِّسْبة لعَذاب النار عَذابٌ أَصغَرُ، لكِنِ العَذابُ الأَكبَرُ إِنَّما يَكُون يَوْم القِيامة؛ ولِهَذا قالَ بعدَها:

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾؛ أي: مَرجِعُهم، فالرُّجوع إِلى الله مَهْما فرَّ الإِنسانُ فإِنَّه راجِعٌ إِلى ربه عَزَّوَجَلَّ لو طالَتْ به الحَياة راجِعٌ إِلى الله؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

فاستَعِدَّ يا أَخي لِهَذه المُلاقاةِ؛ لأَنَّكَ سَوْف تُلاقِي رَبَّك، وقد قالَ رَسولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ** -مُباشَرة بدون مُتَرْجِم يُكلِّمه اللهُ يَوْمَ القِيامةِ- **فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ** -يَعنِي: على اليَسارِ- **فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[1]، كُلُّنا سيَخلو به ربُّه عَزَّوَجَلَّ يَوْم القِيامة ويُقرِّره بذُنوبه، يَقول: فعَلْت كذا فِي يَوْم كذا. حتَّى يُقِرَّ ويَعترِف، فإِذَا أَقَرَّ واعتَرَف قالَ اللهُ تعالى: «**قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»، وكَمْ من ذُنوب ستَرَها الله عَزَّوَجَلَّ! كَمْ من ذُنوب اقتَرَفْناها لم يَعلَم بها أَحَدٌ، ولكِنِ اللهُ تعالى علِمَ بها!.

فمَوقِفنا من هذِه الذُّنوبِ أن نَستَغفِر الله عَزَّوَجَلَّ، وأن نُكثِر من الأَعْمال الصالِحة المُكفِّرة للسَّيِّئات حتَّى نَلقَى الله عَزَّوَجَلَّ ونَحْن على مَا يُرضِيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ نُحاسِبُهم، قالَ العُلَماء: وكَيْفية الحِساب ليسَ مُناقَشة يُناقَش الإِنْسانُ، لأَنَّه لو يُناقَش هلَكَ، لو يُناقِشُك الله عَزَّوَجَلَّ على كُلِّ حِسابٍ هلَكْتَ، لو ناقَشَك فِي نِعْمة من النِّعَم كالبَصَر لَا يُمكِن أن تَجِد أيَّ شيءٍ تَعمَله يُقابِل نِعْمة البَصَر، نِعْمة النَّفَس الَّذِي يَخرُج ويَدخُل بدون أيِّ مَشَقَّة، وبدون أيِّ عَناءٍ، الإِنسانُ يَتكلَّم ويَنام، يَأكُل ويَشرَب، ومَع ذلِكَ لَا يُحِسُّ بالنَّفَس، ولَا يَعرِف قَدْر النَّفَس إِلَّا إِذَا أُصيب بما يَمنَع النَّفَس، حينَئِذٍ يَذكُر نِعْمة الله، لكِن ما دامَ فِي عافِية

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد، رقم (١٤١٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة، رقم (١٠١٦)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَقول: هَذا شيءٌ طَبيعيٌّ. لكِن لو أنَّه أُصيبَ بكَتْم النَّفَس لعرَف قَدْر النِّعْمة، فلو نُوقِش لَهلَكَ كما قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لعائِشةَ: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ**»، أو قالَ: «**عُذِّبَ**»[1].

لكِن، كَيْفية الحِساب؟

أمَّا المُؤمِن فإِن الله تعالى يَخْلو به بنَفْسه ليسَ عِندَهُما أحَدٌ ويُقرِّره بذُنوبه: فعَلْتَ كذا، فعَلْتَ كذا، فعَلْتَ كذا. حتَّى إِذَا أَقَرَّ بها قالَ اللهُ تعالى: «**قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**».

أمَّا الكُفَّار فلا يُحاسَبون هَذا الحِسابَ؛ لأنَّه ليسَ لهُمْ حسَناتٌ تَمحو سَيِّئاتِهم، لكِنَّها تُحصَى علَيْهم أَعمالُهُم، ويُقرَّرون بها أمامَ العالَمِ، ويُحصَوْن بها، ويُنادَى على رُؤوس الأَشْهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]، -نَعوذُ بالله من الخِذْلان-.

وبهذا يَنتَهِي الكَلامُ على هذِه السُّورةِ العَظيمة، وهِي إِحْدى السُّورتَيْن اللَّتَيْن كانَ النَّبيُّ ﷺ يقرَأ بهِما فِي المَجامِع الكَبيرة، فقَدْ كانَ يَقرَأ فِي صلاتَي العِيدَيْن: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، وكذلِكَ فِي صَلاة الجُمُعة[2]، ويَقرَأ أحيانًا فِي العِيدَيْن: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[3]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم (٦٥٣٦)، ومسلم: كتاب الجنة، باب إثبات الحساب، رقم (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب مَا يقرأ فِي صلاة الجمعة، رقم (٨٧٨)، من حديث النعمان ابن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

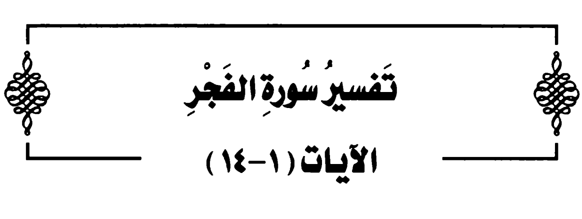
(٣) أخرجه مسلم: كتاب صلاة العيدين، باب مَا يقرأ به فِي صلاة العيدين، رقم (٨٩١)، من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الجُمُعة سُورة الجُمُعة وَالْمُنافِقين[1]، يُنوِّع؛ مرَّةً هذا، ومرَّةً هذا.

نَسأَل اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَجعَلَنا مِمَّن تكون وُجوهُهم ناعِمةً لسَعْيِها راضِيةً، وأن يَتولَّانا بعِنايتِه فِي الدُّنْيا وَالآخِرة، إِنه على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب مَا يقرأ فِي يوم الجمعة، رقم (٨٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



تَفسيرُ سُورةِ الفَجْرِ

الآيات (١-١٤)

•●●•

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر:١-١٤].

•●●•

البَسْمَلة تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ كُلُّ هذِه إِقْساماتٌ بالفَجْر، ولَيالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْع وَالوَتْر، وَاللَّيْل إِذَا يَسْرِ، خَمْسة أشياءَ أَقسَم اللهُ تعالى بها، الأوَّلُ: الفَجْر ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ هُو النُّور الساطِعُ الَّذِي يَكُون فِي الأُفُق الشَّرقيِّ قُرْب طُلوع الشَّمْس، وبينَه وبينَ طُلوع الشَّمْس مَا بين ساعةٍ واثنَتَيْن وثلاثينَ دَقيقةً، إلى ساعةٍ وسَبْعَ عشْرةَ دَقيقةً، ويَختَلِف باختِلاف الفُصول، فأَحيانًا تَطول الحِصَّة مَا بينَ الفَجْر وطُلوع الشَّمْس، وأَحيانًا تَقصُر حَسب الفُصول، وَالفَجْر فَجْران: فَجْر صادِقٌ، وفَجْر كاذِبٌ، وَالمَقْصود بالفَجْر هُنا الفَجْر الصادِق، وَالفَرْق بين الفَجْر

الصادِق وَالكاذِب من ثَلاثة وُجوهٍ:

الوَجْه الأوَّل: الفَجْر الكاذِب يَكُون مُستَطيلًا فِي السَّماء ليسَ عَرْضًا، ولكِنَّه طُولًا، وأمَّا الفَجْر الصادِق فيَكُون عَرْضًا يَمتَدُّ من الشَّمال إِلى الجَنوب.

الفَرْق الثانِي: أن الفَجْر الصادِق لَا ظُلْمةَ بعدَه، بل يَزْداد الضِّياء حتَّى تَطلُع الشَّمْس، وأمَّا الفَجْر الكاذِب فإِنه يَحدُث بعدَه ظُلْمةٌ بعدَ أن يَكُون هَذا الضِّياءُ، ولهذا سُمِّيَ كاذِبًا؛ لأَنَّه يَضمَحِلُّ ويَزول.

الفَرْق الثالِث: أن الفَجْر الصادِق مُتَّصِل بالأُفُق، أمَّا الفَجْر الكاذِب فبَينَه وبين الأُفُق ظُلْمة.

هذِه ثَلاثة فُروقٍ آفاقِيَّة حِسِّيَّة يَعرِفها النَّاس إِذا كانوا فِي البَرِّ، أمَّا فِي المُدُن فلَا يَعرِفون ذلِك؛ لأن الأَنْوار تَحجُب هذِه العَلاماتِ.

وأَقسَم اللهُ بالفَجْر لأنه ابتِداءُ النَّهار، وهُو انتِقالٌ من ظُلْمة دامِسة إِلى فَجْر ساطِع، وأَقسَم الله به؛ لأَنَّه لَا يَقدِر على الإِتْيان بهذا الفَجْرِ إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١].

وأَقسَم اللهُ بالفَجْر؛ لأنه يَترَتَّب عليه أَحْكام شَرْعية، مِثْل: إِمساكُ الصائِم، فإِنه إِذا طلَعَ الفَجْر وجَب على الصائِم أن يُمسِك إِذا كانَ صَوْمه فَرْضًا أو نَفْلًا إِذا أَراد أن يُتِمَّ صَوْمه، ويَترَتَّب عليه أيضًا: دُخول وَقْت صَلاة الفَجْر، وهُما حُكْمان شَرْعيَّان عَظيمان، أَهَمُّهما دُخولُ وَقْت الصَّلاة، أي أَنَّه يَجِب أن نُراعِيَ الفَجْر من أَجْل دُخول وَقْت الصَّلاة أكثَرَ مِمَّا نُراعِيه من أَجْل الإِمْساك فِي حالِ الصَّوْم؛ لأَنَّنا

فِي الإِمساكِ عن المُفطِّرات فِي الصِّيام لو فرَضْنا أنَّنا أَخطَأْنا فإِنَّنا بنَيْنا على أَصْل وهُو بَقاءُ اللَّيْل، لكِن فِي الصَّلاة لو أَخطَأْنا وصلَّيْنا قبل الفَجْر لم نكُن بنَيْنا على أَصْل؛ لأن الأَصْل بَقاءُ اللَّيْل، وعدَمُ دُخول وَقْت الصَّلاة؛ ولِهَذا لو أن الإِنْسان صلَّى الفَجْر قبلَ دُخول وَقْت الصَّلاة بدَقيقة واحِدة، فصَلاتُه نَفْل ولَا تَبرَأ بها ذِمَّته، ومِن ثَمَّ نَدعوكم إِلى مُلاحَظة هذِه المَسأَلِة، أَعنِي: العِناية بدُخول وَقْت صَلاة الفَجْر؛ لأن كثيرًا من المُؤذِّنِين يُؤذِّنون قبل الفَجْر، وهَذا غلَطٌ؛ لأن الأَذان قبلَ الوَقْت ليسَ بمَشروع؛ لقَوْل النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ**»[1]، ويَكُون حُضور الصَّلاة إِذَا دخَل وَقْتها، فلو أَذَّن الإِنسانُ قبلَ دُخول وَقْت الصَّلاة فأَذانُه غيرُ صَحيحٍ، ويَجِب عليه الإِعادةُ، وَالعِناية بدُخول الفَجْر مُهِمَّة جِدًّا من أَجْل مُراعاة وَقْت الصَّلاة.

وقَوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قِيلَ: المُرادُ بـ(ليالٍ عَشْرٍ) عَشْر ذِي الحِجَّة، وأَطلَق على الأَيام لَيالِيَ؛ لأن اللُّغة العرَبيَّة واسِعة، قَد تُطلَق اللَّيالِي ويُراد بها الأَيَّام، وَالأَيَّام يُراد بها اللَّيالي.

وقِيلَ: المُرادُ بـ(لَيالٍ عَشْرٍ) لَيالِي العَشْر الأَخيرة من رمَضانَ، أَمَّا على الأَوَّل الَّذين يَقولون: المُراد باللَّيالي العَشْر عَشْرُ ذِي الحِجَّة؛ فلأَنَّ عَشْر ذِي الحِجَّة أَيَّام فاضِلةٌ قالَ فيها النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ العَشْرِ**»، قالوا: ولَا الجِهادُ فِي سَبيل الله؟ قالَ: «**وَلَا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ،**

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من قال: ليؤذن فِي السفر مؤذن واحد. رقم (٦٢٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب من أحق بالإِمامة، رقم (٦٧٤)، من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»[(١)].

وأمَّا الَّذِين قالوا: إِن المُراد باللَّيالي العَشْر هِي لَيالِي عَشْر رَمَضانَ الأَخيرة. فقالوا: إِن الأَصْل فِي الليالي أنَّها اللَّيالي وليسَتِ الأَيَّام. وقالوا: إن لَيالِيَ العَشْر الأَخيرة من رمضانَ فيها لَيْلة القَدْر الَّتِي قالَ الله عنها: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣]، وقالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، وهَذا القولُ أَرجَحُ من القَوْل الأوَّلِ، وإِن كانَ القَوْل الأوَّلُ هُو قولَ الجُمْهور، لكِنِ اللَّفْظُ لَا يُسعِف قولَ الجُمهور، وإِنما يُرجِّح القَوْلَ الثانِيَ: إِنَّها اللَّيالي العَشْر الأَواخِر من رمَضانَ. وأَقسَم الله بها لشَرَفها، ولأنَّ فيها ليلة القَدْر؛ ولأنَّ المُسلِمين يَختِمون بها شَهْر رمَضانَ الَّذِي هُو وَقْت فَريضة من فَرائِض الإِسْلام وأَرْكان الإِسلام؛ فلِذلِكَ أَقسَم اللهُ بهذه اللَّيالِي.

وقَوْلُه: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قيلَ: إِن المُراد به كُلُّ الخَلْق، فالخَلْق إِمَّا شَفْع، وإِمَّا وَتْر، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقولُ: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]، وَالعِبادات إِمَّا شَفْع، وإِمَّا وَتْر، فيَكُون المُراد بالشَّفْع وَالوَتْر كُلُّ مَا كانَ مَخلوقًا من شَفْع ووَتْر، وكُلُّ مَا كانَ مَشروعًا من شَفْع ووَتْر، وقيل: المُرادُ بالشَّفْع الخَلْق كلُّهم، وَالمُراد بالوَتْر اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

واعلَمْ أن قَوْلَه: ﴿وَالْوَتْرِ﴾ فيها قِراءَتانِ صَحيحَتانِ[(٢)]: (والوِتْر)، ﴿وَالْوَتْرِ﴾؛ يَعنِي: لـو قُلْت: (والشَّفْعِ وَالوِتْرِ) صَحَّ، ولـو قُلْتَ: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ صَحَّ أيضًا،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب فضل العمل فِي أيام التشريق، رقم (٩٦٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: التيسير فِي القراءات السبع (ص:٢٢٢).

فقالوا: إِن الشَّفْع هُو الخَلْق؛ لأن المَخْلوقاتِ كُلَّها مُكوَّنة من شَيْئَيْن: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]، وَالوَتْر أو الوِتْر هُو اللهُ؛ لقَوْل النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»(١)، وإِذَا كانَتِ الآيةُ تَحتَمِل مَعنيَيْن ولَا مُنافاةَ بينَهما فلْتكُن لكُلِّ المَعاني الَّتِي تَحتَمِلها الآيةُ، وهذِه القاعِدةُ فِي عِلْم التَّفْسير أن الآيَةَ إِذَا كانَت تَحتَمِل مَعنيَيْن وأَحَدُهُما لَا يُنافِي الآخَر فهِي مَحْمولة على المَعنيَيْن جَميعًا.

قالَ تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أَقسَمَ الله أيضًا باللَّيْل إِذَا يَسرِي، وَالسَّرْيُ هُو السَّيْر فِي اللَّيْل، وَاللَّيْل يَسير يَبدَأ بالمَغرِب ويَنتَهي بطُلوع الفَجْر فهُو يَمشِي زَمَنًا لَا يَتوقَّف، فهُو دائِمًا فِي سَرَيان، فأَقسَم الله به لِما فِي ساعاتِه من العِبادات كصَلاة المَغرِب، وَالعِشاء، وقِيام اللَّيْل، وَالوِتْر، وغير ذلِك؛ ولأن فِي اللَّيْل مُناسَبة عَظيمة، وهِي أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَنزِل كُلَّ ليلةٍ إِلى السَّماء الدُّنْيا حين يَبقَى ثُلُث اللَّيْلِ الآخِرُ فيَقولُ: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟! مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟! مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟!»؛ ولهذا نَقُول: إِن الثُّلُثَ الآخِرَ من اللَّيْل وَقْت إِجابة.

فيَنبَغي أن يَنتَهِز الإِنْسانُ هذِه الفُرْصةَ فيَقوم لله عَزَّوَجَلَّ يَتهجَّد ويَدعو الله سبحانه بما شاءَ من خَيْر الدُّنيا وَالآخِرة؛ لعَلَّه يُصادِف ساعةَ إِجابةٍ يَنتَفِع بها فِي دُنْياه وأُخْراه.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ لذِي عَقْل.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ الخِطاب هُنا لكُلِّ مَن يُوجَّه إِليه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب لله مِئة اسم غير واحد، رقم (٦٤١٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فِي أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، رقم (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هَذا الكِتابُ العَزيزُ وهُمُ البشَر كلُّهم، بَلْ وَالجِنُّ أيضًا، أَلَمْ تَرَ أَيُّها المُخاطَب ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾؟! يَعنِي: مَا الَّذِي فعَلَ بهِم؟ وعادٌ قبيلةٌ مَعروفة فِي جَنوب الجَزيرة العَربية، أَرسَل الله تعالى إِليهم هُودًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فبلَّغَهم الرِّسالةَ، ولكِنَّهم عتَوْا وبغَوْا وقالوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟! قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥]، فهُمُ افتَخَروا فِي قُوَّتهم، ولكِنِ اللهُ بيَّن أنهم ضُعَفاءُ أمام قوَّة الله؛ ولهذا قالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾، وعبَّر -وَالله أَعلَمُ- بقَوْله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾؛ ليُبيِّن ضَعْفهم، وأنه جَلَّ وَعَلَا أَقْوى مِنهم؛ لأن الخالِقَ أَقْوى من المَخْلوق ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥-١٦]، وَالَّذِي فعَل اللهُ بعادٍ أَنَّه أَرسَل علَيهِمُ الرِّيح العَقيم، سخَّرَها عليهم سَبْع لَيالٍ وثَمانيةَ أيَّام حُسومًا، فتَرَى القَوْم فيها صَرْعى كأنَّهم أَعْجاز نَخْل خاوِية، فأَصبَحوا لَا يُرَى إِلَّا مَساكِنُهم، وهَذا الاستِفْهامُ الَّذِي لفَتَ الله فيه النَّظَر إِلى مَا فعَل بهَؤُلاء يُرادُ به الاعتِبارُ، يَعنِي: اعتَبِرْ أَيُّها المُكذِّب للرَّسول مُحَمَّدٍ ﷺ بهَؤُلاءِ كيفَ أُذيقوا هَذا العَذابَ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

وقَوْلُه: ﴿إِرَمَ﴾ هذِه اسمٌ للقَبيلة، وقيل: اسمٌ للقَرْية. وقيلَ غيرُ ذلِك، فسَواءٌ كانَتِ اسْمًا للقَبيلة أو اسْمًا للقَرْية فإِن اللهَ تعالى نكَّلَ بهم نكالًا عَظيمًا مَع أنَّهم أَقْوياءُ.

وقَوْله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ يَعنِي: أَصْحاب ﴿ٱلْعِمَادِ﴾: الأَبْنية القَويَّة ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾؛ أي: لم يُصنَع مِثْلها فِي البِلاد؛ لأَنَّها

قَوِيَّة ومُحكَمة، وهَذا هُو الَّذِي غرَّهُم وقالوا: مَن أَشَدُّ مِنَّا قُوةً؟ وفي قَوْله: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ مَع أن الَّذِي صنعَها الآدميُّ: دَليلٌ على أن الآدميَّ قَد يُوصَف بالخَلْق فيُقال: خلَقَ كذا. ومِنه قولُ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي المُصوِّرين: «**يُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»[1]، لكِنِ الخَلْق الَّذِي يُنسَب للمَخلوق ليسَ هُو الخَلْق المَنسوب إِلى الله، الخَلْق المَنسوب إِلى الله إِيجاد بعدَ عدَم، وتَحويلٍ، وتَغْيير، أَمَّا الخَلْق المَنْسوب لغَيْر الله فهُو مُجرَّد تَحْويل وتَغْيير، وأَضرِب لكُمْ مثلًا: هَذا البابُ من خشَبٍ، والَّذِي خلَق الخَشَب اللهُ، ولَا يُمكِن للبَشَر أن يَخلُقوه، لكِن البَشَر يَستَطيع أن يُحوِّل جُذوع الخَشَب وأَغْصان الخَشَب إِلى أَبْواب وإِلى كَراسِي، ومَا أَشبَهَ ذلِك، فالخَلْق المَنْسوب للمَخلوق ليسَ هُو الخَلْق المَنسوب للخالِق؛ لأن الخَلْق المَنْسوب للخالِق إِيجاد من عدَمٍ، وهَذا لَا يَستَطيعه أَحَد، وَالمَنْسوب للمَخلوق تَغيير وتَحوِيل، يُحوِّل الشيءَ من صِفة إِلى صِفة، أَمَّا أن يُغيِّر الذَّواتَ بمَعنَى: يَجعَل الذهَب فِضَّةً، أو يَجعَل الفِضَّة حَديدًا، أو مَا أَشبَه ذلِك فهَذا مُستَحيل، لَا يُمكِن إِلَّا لله وحدَه لَا شريكَ لَه.

ثُم قالَ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ ثَمودُ هُم قَوْم صالِحٍ، ومَساكِنُهم مَعروفةٌ الآنَ كَما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر:٨٠]، فِي سُورة (الر) ذكَرَ الله أن ثَمودَ كانوا فِي بِلاد الحِجْر، وهِي مَعروفة، مرَّ علَيْها النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي طَريقه إِلى تَبوكَ، وأَسرَع وقنَّعَ رَأْسه ﷺ وقالَ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ القَوْمِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ**

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من لم يدخل بيتا فيه صورة، رقم (٥٩٦١)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان...، رقم (٢١٠٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»[١]، هَؤُلاءِ القومُ أعطاهمُ اللهُ قوَّة حتَّى صاروا يَخرِقون الجِبال وَالصُّخور العَظيمة، ويَصنَعون مِنها بُيوتًا؛ ولهذا قالَ: ﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾؛ أي: وادِي ثَمودَ، وهُو مَعروف، هَؤلاءِ أيضًا فعَلَ اللهُ بهم مَا فعَلَ من العَذاب وَالنَّكال حيثُ قيلَ لَهُم: تَمَتَّعوا فِي دارِكُم ثلاثة أيَّام، ثُم بعدَ الثَّلاثة الأيَّام أَخَذَتْهم الصَّيْحة وَالرَّجْفة، فأَصبَحوا فِي دِيارهم جاثِمين.

فعلَيْنا أن نَعتَبِر بحال هَؤُلاءِ المُكذِّبين الَّذِين صار مَآلُهم إِلى الهَلاك وَالدَّمار، وليُعلَم أن هذِه الأُمَّةَ لن تُهلَك بما أُهلِكَت به الأُمَم السابِقة، بهذا العَذابِ العامِّ، فإِن النَّبيَّ ﷺ سأَلَ اللهَ تعالى أن لَا يُهلِكَهم بسَنَةٍ بعامَّةٍ[٢]، ولكِنْ قَد تُهلَك هذِه الأُمَّةُ بأن يَجعَل الله بَأْسَهم بينَهم، فتَجرِي بينَهُم الحُروب وَالمُقاتَلة، ويَكُون هَلاك بعضِهم على يَدِ بعض، لَا بشيءٍ يَنزِل من السَّماء كَما صنَعَ الله تعالى بالأُمَم السابِقة.

ولهذا يَجِب علينا أن نَحذَر الفِتَن مَا ظهَر مِنها ومَا بطَن، وأن نَبتَعِد عن كُلِّ مَا يُثير النَّاسَ بعضَهم على بعضٍ، وأن نَلزَم دائِمًا الهُدوء، وأن نَبتَعِد عن القِيل وَالقال، وكَثْرة السُّؤال، فإِن ذلِكَ مِمَّا نَهَى عنه النَّبيُّ ﷺ[٣]، وكَمْ من كلِمةٍ واحِدةٍ صنَعَت مَا تَصنَعه السُّيوف الباتِرة، فالواجِب الحَذرُ من الفِتَن، وأن نكون أُمَّة مُتآلِفةً

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة فِي مواضع الخسف والعذاب، رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لَا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٣)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب مَا يكره من قيل وقال، رقم (٦٤٧٣)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة...، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُتَحابَّةً، يَتَطلَّب كلُّ واحِدٍ مِنَّا العُذْر لأَخيه إِذَا رأَى مِنه مَا يَكرَه.

﴿وَفِرْعَوْنَ﴾ فِرْعونُ هُو الَّذِي أَرسَل اللهُ إِليه مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكانَ قَدِ استَذَلَّ بَني إِسرائيلَ فِي مِصْرَ؛ يُذبِّح أَبناءَهُم، ويَستَحْيِي نِساءَهُم، وقد اختَلَف العُلَماء فِي السبَبِ الَّذِي أدَّى به إِلى هذِه الفِعْلةِ القَبيحة، لماذا يَقتُل الأَبناءَ ويُبقِي النِّساءَ؟! فقالَ بعضُ العُلَماء: إِن كَهَنَته قالوا لَه: إِنه سيُولَد فِي بَني إِسرائيلَ رجُلٌ يَكُون هَلاكُك على يَدِه. فصار يُقتِّل الأَبناءَ، ويَستَبْقي النِّساءَ.

ومن العُلَماء مَن قالَ: إِنه فعَلَ ذلِك من أَجْل أن يُضعِف بَني إِسرائيلَ؛ لأن الأُمَّة إِذَا قُتِلَت رِجالُها، واستُبْقِيَت نِساؤُها ذَلَّتْ بلا شكٍّ، فالأَوَّلُ تَعليلُ أهلِ الأَثَر، وَالثاني تَعليلُ أَهْل النَّظَر -أَهْل العَقْل-، ولَا يَبعُد أن يَكُون الأَمْران جَميعًا قَد صارا عِلَّةً لهَذا الفِعْلِ، ولكِنْ بقُدرة الله عَزَّوَجَلَّ أن هَذا الرَّجُلَ الَّذِي كانَ هَلاكُ فِرْعونَ على يَدِه تَربَّى فِي نَفْس بَيْت فِرْعونَ، فإِن امرَأَةَ فِرْعونَ التَقَطَتْه ورَبَّتْه فِي بيت فِرْعونَ.

وفِرْعونُ استكْبَرَ فِي الأرض، وعلا فِي الأَرْض، وقالَ لقَوْمه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وقالَ لَهُم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وقالَ لهم: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾؛ يَعنِي: مُوسَى ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢]، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤]، وقالَ لقَوْمه مُقرِّرًا لَهُم: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، افتَخَر بالأَنْهار؛ وهِيَ المِياهُ، فأُغرِقَ بالماءِ.

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ أَي: ذِي القُوَّة؛ لأن جُنوده كانوا لَه بمَنزِلة الوَتَد، وَالوَتَد تُربَط به حِبال الخَيْمة فتَستَقِرُّ وتَثبُت، فله جُنودٌ أُمَمٌ عَظيمة مَا بين ساحِرٍ وكاهِنٍ وغير ذلِك،

لكِنِ اللهُ سبحانه فَوْقَ كلِّ شيءٍ.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ الطُّغيان: مُجاوَزة الحَدِّ، ومِنه قَوْله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، أي: لَمَّا زاد الماء حَمَلْناكم فِي الجارِية، يَعنِي بذلِكَ السَّفينة الَّتِي صنعَها نُوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فمَعنَى ﴿طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾؛ أي: زادوا عن حَدِّهم واعتَدَوْا على عِبادِ الله.

﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾؛ أيِ: الفَساد المَعْنِوي، وَالفَساد المَعنَويُّ يَتْبَعه الفَسادُ الحِسِّيُّ، ودَليلُ ذلِك قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]؛ ولهذا قالَ بعضُ العُلَماء فِي قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، قالوا: لَا تُفسِدوها بالمَعاصِي. وعلى هَذا فيَكُون قَوْله: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾؛ أي: الفَساد المَعْنَوِي، لكِنِ الفَسادُ المَعنَويُّ يَتبَعه الفَسادُ الحِسِّيُّ، وكانَ فيما سبَقَ من الأُمَم أن الله تعالى يُدمِّر هَؤلاءِ المُكذِّبين عن آخِرِهم، لكِنْ هذِه الأُمَّةُ رَفَع الله عنها هَذا النَّوْعَ من العُقوبة، وجعَل عُقوبَتَها أن يَكُون بَأْسُهم بينَهُم، يُدمِّر بَعضُهم بَعضًا.

وعلى هَذا فَما حصَل من المُسلِمين مِنِ اقتِتالِ بعضِهم ببعضٍ، ومِن تَدْمير بعضِهم بعضًا إنما هُو بسبَب المَعاصِي وَالذُّنوب، يُسلِّط اللهُ بعضَهم على بَعْض، ويَكُون هَذا عُقوبةً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ الصَّبُّ مَعروف أنَّه يَكُون من فَوْق، وَالعَذابُ الَّذِي أَتَى هَؤلاءِ من فَوْق مِن عِند الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ السَّوْطُ هُو العَصا الَّتِي يُضرَب

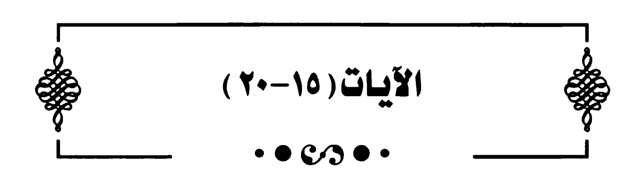
به، ومَعلوم أن الضَّرْب بالعَصا نَوْع عَذاب، لكِن هَلْ هَذا السَّوْطُ الَّذِي صبَّه الله تعالى على عادٍ وثَمودَ وفِرْعونَ، هل هُو العَصا المَعْروف الَّذِي نَعرِف، أو أَنَّه عَصا عَذابٍ أَهلَكهم؟ الجَوابُ: الثانِي، عَصا عَذاب أَهلَكَهم وأَبادَهُم.

نَسأَل اللهَ تعالى أن يَجعَل لنا فيما سبَقَ من الأُمَم عِبْرة نَتَّعِظ بها ونَنْتَفِع بها، ونَكون طائِعين لله عَزَّوَجَلَّ غَيْر طاغِين، إِنه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ الخِطابُ هُنا للنَّبيِّ ﷺ، أو لكُلِّ مَن يَتَوجَّه إِليه الخِطابُ، يُبيِّن الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّه بالمِرْصاد لكُلِّ مَن طغَى واعتَدى وتَكبَّر، فإِنه لَه بالمِرْصاد سَوْف يُعاقِبه ويُؤاخِذه، وهَذا المَعنَى لَه نَظائِرُ فِي القُرآن الكَريم مِنها قَوْلُه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠]، وكقَوْل شُعيبٍ لقَوْمه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩].

فسُنَّةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واحِدةٌ فِي المُكذِّبين لرُسُله، المُستكْبِرين عن عِبادته هُو لَهُم بالمِرْصاد، وهذِه الآيَةُ تُفيد التَّهديد وَالوعيد لِمَنِ استكْبَرَ عن عِبادة الله، أو كذَّب خَبَره.

• • ۞ • •



الآيات (١٥-٢٠)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:١٥-٢٠].

•●∞●•

ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ الابتِلاءُ من الله عَزَّوَجَلَّ يكُون بالخَيْر وبالشَّرِّ كَمَا قالَ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، فيُبتَلَى الإِنسانُ بالخَيْر؛ لِيبلُوَه الله عَزَّوَجَلَّ أَيشْكُر أم يَكفُر، ويُبتَلَى بالشَّرِّ؛ لِيَبْلُوَه أَيصبِر أم يَفجُر، وأَحوالُ الإِنسان دائِرةٌ بين خَيْر وشَرٍّ؛ بين خَيْر يُلائِمه ويَسُرُّه، وبَيْن شَرٍّ لا يُلائِمه ولَا يَسُرُّه، وكُلُّه ابتِلاءٌ من الله، وَالإِنسانُ بطَبيعته الإِنسانية المَبنيَّة على الظُّلْم وَالجَهْل إِذَا ابتَلاه رَبُّه فأَكرَمه ونعَّمَه يَقول: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ يَعنِي: أنني أَهْل للإِكْرام، ولَا يَعترِف بفَضْل الله عَزَّوَجَلَّ، وهَذا كقَوْله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، لَمَّا ذُكِّر بنِعْمة الله عليه قالَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، ولَمْ يَعترِف بفَضْل الله، ومَا أَكثَرَ النَّاسَ الَّذِين هذِه حالَهُم إِذَا أَكرَمَهمُ الله عَزَّوَجَلَّ ونَعَّمَهم، قالوا: هَذا إِكْرامٌ من الله لنا؛ لأَنَّنا أَهْلٌ لذلِكَ، ولو أن الإِنسان قالَ: إِن الله أَكرَمَني بكذا. اعتِرافًا بفَضله

وتَحدُّثًا بنِعْمته لم يَكُن عليه فِي ذلِك بأسٌ.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ يَعنِي: ضيَّقَ عليه الرِّزْق ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ يَعنِي: يَقول: إِن الله تعالى ظلَمَني، فأَهانَني ولم يَرْزُقْني كَما رزَقَ فُلانًا، ولم يُكرِمْني كَما أَكرَمَ فُلانًا. فصار عِند الرَّخاء لَا يَشكُر، يُعجَب بنَفْسه ويَقول: هَذا حَقٌّ لي. وعِند الشِّدَّة لَا يَصبِر، بل يَعتَرِض على رَبِّه ويَقولُ: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾، وهَذا حالُ الإِنسان باعتِبارِه إِنسانًا، أمَّا الْمُؤمِن فلَيْس كذَلِك، المُؤمِن إِذَا أَكرَمه الله ونعَّمَه شكَرَ ربَّه على ذلِكَ، ورأَى أن هَذا فَضْل مِن الله عَزَّوَجَلَّ وإِحْسان، ولَيْس من باب الإِكْرام الَّذِي يُقدَّم لصاحِبه على أَنَّه مُستَحِقٌّ، وإِذَا ابتَلاه اللهُ عَزَّوَجَلَّ وقَدَرَ عليه رِزْقه صبَرَ واحتَسَب، وقالَ: هَذا بذَنْبِي، وَالربُّ عَزَّوَجَلَّ لم يُهِنِّي، ولم يَظْلِمْني. فيَكُون صابِرًا عِند البَلاء، شاكِرًا عِند الرَّخاء.

وفي الآيَتَيْن إِشارة إِلى أَنَّه يَجِب على الإِنسان أن يَتبَصَّر فيَقول مثَلًا: لماذا أَعْطاني اللهُ المالَ؟ ماذا يُريدُ مِنِّي؟ يُريدُ مِنِّي أن أَشكُر. لماذا ابتَلَاني اللهُ بالفَقْر، بالمرَض ومَا أَشبَه ذلِك؟ يُريد مِنِّي أن أَصبِر. فلْيَكُن مُحاسِبًا لنَفْسه حتَّى لَا يَكُون مِثْل حال الإِنسان المَبنِيَّة على الجَهْل وَالظُّلْم.

ولهذا قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: لم يُعطِك مَا أَعطاك إِكرامًا لَكَ؛ لأَنَّكَ مُستَحِقٌّ، ولكِنَّه تَفضُّلٌ مِنه، ولم يُهِنْك حين قَدَرَ عليكَ رِزْقَه، بل هَذا مُقتَضى حِكْمتِه وعَدْله.

ثُم قالَ تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ يَعنِي: أنتُم إِذَا أَكرَمَكم الله عَزَّوَجَلَّ بالنِّعَم لَا تَعطِفون على المُستَحِقِّين للإِكرام وهُمُ اليَتامى، فاليَتيمُ هُنا اسمُ جِنْسٍ، ليسَ المُرادُ

يَتيمًا واحِدًا، بل جِنْس اليَتامى، وَاليَتيمُ قالَ العُلَماء: هُو الَّذِي مات أَبوه قبلَ بُلوغه من ذَكَرٍ أو أُنْثى، وأمَّا مَن ماتَتْ أُمُّه فليس بيَتيمٍ.

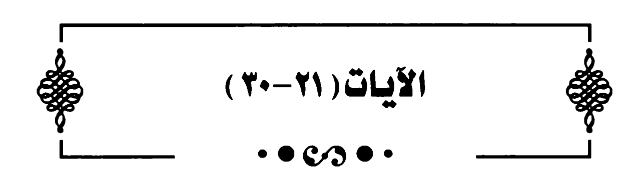
وقَوْلُه تعالى: ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ يَشمَل الفَقير من اليَتامى، وَالغَنيَّ من اليَتامى؛ لأنَّه يَنبَغي الإِحسانُ إِليه وإِكْرامه؛ لأنَّه انكَسَر قَلْبه بفَقْد أبيه ومَن يَقومُ بمَصالِحِه، فأَوْصى اللهُ تعالى به حتَّى يَزول هَذا الكَسْر الَّذِي أَصابَه.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يَعنِي: لَا يَحُضُّ بعضُكم بَعْضًا على أن يُطعِم المِسْكين، وإِذَا كانَ لَا يَحُضُ غيرَه فهُو أيضًا لَا يَفعَله بنَفْسه، فهُو لَا يُطعِم المِسْكين ولَا يَحُضُّ على طَعام المِسْكين، وفي هَذا إِشارةٌ إِلى أَنَّه يَنبَغي لنا أن نُكرِم الأَيْتام، وأن يَحُضَّ بعضُنا بعضًا على إِطْعام المَساكين؛ لأَنَّهُم فِي حاجة، وَاللهُ تعالى فِي عَوْن العَبْد مَا كانَ العبدُ فِي عَوْن أَخيه.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾: مَا يُورِثه اللهُ العَبْدَ من المالَ، سَواءٌ ورِثَه عن مَيت، أو باعَ واشتَرَى وكَسَب، أو خرَج إِلى البَرِّ وأَتَى بما يَأتِي به من عُشْب وحطَبٍ وغيرِ ذلِك، فالتُّراث مَا يَرِثه الإِنسان، أو مَا يُورِثه اللهُ الإِنْسانَ من المال، فإِن بَني آدَمَ يَأكُلونه أَكْلًا لمًّا.

وأمَّا المالُ فقالَ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾؛ أي: عَظيمًا، وهَذا هُو طَبيعة الإِنْسانِ، لكِن الإِيمان لَه مُؤثِّراته، قَد يَكُون الإِنْسان بإِيمانه لَا يَهتَمُّ بالمال، وإِن جاءَهُ شكَرَ اللهَ عليه، وأدَّى مَا يَجِب، وإِن ذهَبَ لَا يَهتَمُّ به، لكِنْ طَبيعةُ الإِنسان من حيثُ هُو كما وصَفَه الله عَزَّوَجَلَّ فِي هاتَيْن الآيتَيْن.

• • ۞ • •



الآيات (٢١-٣٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر:٢١-٣٠].

••෴••

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، يُذكِّر اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى النَّاسَ بيَوْم القِيامة ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ حتَّى لَا تَرى فيها عِوَجًا ولَا أَمْتًا، تُدكُّ الجِبال، ولَا بِناءَ، ولَا أَشْجارَ، تُمَدُّ الأَرْض كمَدِّ الأَديم، يَكُون النَّاسُ عليها فِي مَكانٍ واحِدٍ يُسمِعهم الداعِي، ويَنفُذهم البَصَر، فِي هَذا اليَوْمِ ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾، ولكِن قَد فات الأَوانُ؛ لأَنَّنا فِي الدُّنْيا فِي مَجالِ العمَل فِي زمَن المُهْلة يُمكِن للإِنسان أن يَكتَسِب لمُستَقرِّه، كما قالَ مُؤمِن آل فِرْعونَ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩]، مَتاع يَتمتَّع به الإِنْسان كما يَتمتَّع المُسافِر بمَتاع السَّفَر حتَّى يَنتَهِيَ سفَرُه، فهَكذا الدُّنْيا، واعتبَر مَا يُستَقبَل بما مَضَى، كُلُّ مَا مضَى كأَنَّه ساعة من نَهارٍ، كأَنَّنا الآنَ مَخلوقون،

فكَذلِكَ مَا يُستَقبَل سَوْف يَمُرُّ بِنا سَريعًا ويَمضِي جَميعًا، ويَنتَهي السفَر إِلى مَكانٍ آخَر ليسَ مُستَقرًّا، إِلى الأَجْداث: إِلى القُبور، ومَع هَذا فإِنَّها ليسَت محَلَّ استِقْرار؛ لقَوْل الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:١-٢]، سمِعَ أَعرابيٌّ رجُلًا يقرَأ هذِه الآيَةَ فقالَ: (واللهِ مَا الزائِرُ بمُقيم، ولا بُدَّ من مُفارَقة لِهَذا المَكانِ)، وهَذا استِنْباط قَوِيٌّ، وفَهْم جيِّد يُؤيِّده الآياتُ الكَثيرةُ الصَّريحة فِي ذلِكَ كقَوْله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦].

وذكَر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا يَكُون فِي هَذا اليَوْمِ فقالَ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾؛ أي: صَفًّا بعد صَفٍّ، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ هَذا المَجيءُ هُو مجَيئُه عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الفِعْل أُسنِد إِلى الله، وكُلُّ فِعْل يُسنَد إِلى الله فهُو قائِمٌ به لَا بغَيْره، هذِه القاعِدةُ فِي اللُّغة العرَبية، وَالقاعِدة فِي أَسماء الله وصِفاته: كلُّ مَا أَسنَدَه اللهُ إِلى نَفْسه فهُو لَه نَفْسه لَا لغَيْره، وعلى هَذا فالَّذِي يَأتِي هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وليسَ كمَا حرَّفَه أهلُ التَّعطيل حيثُ قالوا: إِنه جاءَ أَمْر الله. فإِن هَذا إِخراجٌ للكَلام عن ظاهِره بلا دَليلٍ، فنَحنُ من عَقيدتنا أن نُجرِيَ كَلامَ الله تعالى، ورَسولِه ﷺ على ظاهِره، وأن لَا نُحرِّف فيه.

ونَقُول: إِن الله تعالى يَجيءُ يَوْم القِيامة هُو نَفْسه، ولكِنْ كيفَ هَذا المَجيءُ؟ هَذا هُو الَّذِي لَا عِلْمَ لنا به لَا نَدرِي كَيْف يَجيءُ؟ وَالسُّؤال عن مِثْل هَذا بِدْعة كمَا قالَ الإِمامُ مالِكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سُئِل عن قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، فأَطرَق مالِكٌ برَأْسه حتَّى عَلاه الرُّحَضاءُ -يَعنِي: العرَق-؛ لشِدَّة هَذا السُّؤالِ على قَلْبه؛ لأَنَّه سُؤالٌ عَظيم، سُؤالُ مُتنطِّعٍ، سُؤالُ مُتَعنِّتٍ أو مُبتَدِعٍ يُريد السُّوء، ثُم رفَع رَأْسه وقالَ: «الِاسْتِواءُ غيرُ مجْهولٍ، وَالكَيْف غَيْر مَعقولٍ، وَالإِيمان

به واجِبٌ، وَالسُّؤال عنه بِدْعة»[1]، الشاهِدُ الكلِمةُ الأَخيرة: السُّؤالُ عَنْه بِدْعة. واعتَبِر هَذا فِي جَمِيع صِفاتِ الله، فلو سأَلَنا سائِلٌ قالَ: إن الله يَقولُ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، يَعنِي: آدَمَ، كَيْف خلَقَه بيَدِه؟ نَقُول: هَذا السُّؤالُ بِدْعة. قالَ: أَنا أُريد العِلْم، ولَا أُحِبُّ أن يَخفَى عليَّ شيءٌ من صِفات رَبِّي، فأُريد أن أَعلَم كيفَ خَلَقَه؟ نَقُول: نَحنُ نَسأَلُك أَسئِلةً سَهْلة: هَلْ أنتَ أَحرَصُ على العِلْم من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟ إِمَّا أن يَقولَ: نعَمْ. وإِمَّا أن يَقولَ: لَا. وَالمُتَوقَّع أن يَقول: لَا. هَلِ الَّذِي وَجَّهْتَ إِليه السُّؤالَ أَعلَمُ بكَيْفية صِفات الله عَزَّوَجَلَّ أَمِ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ سيَقول: الرَّسولُ. إِذَنِ الصَّحابةُ أَحرَصُ مِنْك على العِلْم، وَالمَسؤولُ الَّذِي يُوجَّه إِليه السُّؤالُ أَعلَمُ من الَّذِي تَسأَله ومَع ذلِك مَا سَأَلوا؛ لأَنَّهم يَلتَزِمون الأَدَبَ مَع الله عَزَّوَجَلَّ، ويَقولون بقُلوبهم ورُبَّما بأَلْسِنَتِهم: إِن الله أَجَلُّ وأَعظَمُ من أن تُحيط أَفْهامُنا وعُقولُنا بكَيْفيات صِفاته، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقولُ فِي كِتابه فِي الأُمور المَعْقولة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]، وفي الأُمور المَحْسوسة: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣].

فنَقُول: يا أَخِي الزَمِ الأَدَبَ! لَا تَسأَل كيفَ خلَقَ اللهُ آدَمَ بيَدِه؟ فإِن هَذا السُّؤالَ بِدْعة، وكذلِكَ بَقيَّة الصِّفات لو سأَلَ: كيفَ عَيْنُ الله عَزَّوَجَلَّ؟ قُلْنا لَه: هَذا بِدْعة، لو سَأَل: كيف يَدُ الله عَزَّوَجَلَّ؟ قُلْنا: هَذا بِدْعة، وعليك أن تَلزَم الأَدَب، وأن لَا تَسأَلَ عن كَيْفية صِفات الله عَزَّوَجَلَّ. لَمَّا قالَ هُنا فِي الآيَة الكَريمة: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وسأَلَ: كيفَ يَجيءُ؟ نَقُول: هَذا بِدْعة. -هَذِه القاعِدةُ التَزِمُوها-، وكُلُّ إِنسانٍ يَسأَل عن كَيْفية

---

(١) أخرجه ابن المقرئ في معجمه (١٠٢٢).

صِفاتِ الله فهُو مُبتَدِع مُتَنطِّع، سائِلٌ عمَّا لَا يُمكِن الوُصولُ إليه، فمَوقِفُنا من مِثل هذِه الآيَةِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أن نُؤمِن بأن الله يَجيءُ، لكِن على أيِّ كَيْفيَّة؟ اللهُ أَعلَمُ، وَالدليلُ قَوْلُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فنَحنُ نَعلَم النَّفيَ، ولَا نَعلَم الإِثباتَ، يَعنِي: نَعلَم أنَّه لَا يُمكِن أن يَأتِيَ على كيفيَّةِ إِتيان البَشَر، ولكِنَّنا لَا نُثبِت كَيْفيَّته، وهَذا هُو الواجِبُ علَيْنا.

وقَوْلُه: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ (أل) هُنا للعُموم، يَعنِي: جَميع المَلائِكة يَأتون يَنزِلون ويُحيطون بالخَلْق، تَنزِل مَلائِكة السَّماء الدُّنيا، ثُم مَلائِكة السَّماء الثانِية، وهلُمَّ جَرًّا، يُحيطون بالخَلْق إِظهارًا للعَظَمة، وإلَّا فإِن الخَلْق لَا يُمكِن أن يَفِرُّوا يَمينًا ولَا شِمالًا لكِن إِظهارًا لعَظَمة الله وتَهويلًا لِهَذا اليَوْمِ العَظيم، تَنزِل المَلائِكة يُحيطون بالخَلْق، وهَذا اليَوْمُ يَوْمٌ مَشهودٌ يَشهَده المَلائِكة وَالإِنسُ وَالجِنُّ وَالحشَراتُ وكُلُّ شيءٍ، ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]، فهُو يَوْم عَظيم لَا نُدرِكه الآنَ، ولَا نَتَصوَّرُه؛ لأنه أَعظَمُ مِمَّا نَتَصوَّر.

الأَمْر الثالِثُ مِمَّا به الإِنذار فِي هَذا اليَوْمِ بعدَ أن عرَفْنا الأَمْر الأَوَّل وهُو مَجيءُ الله، ثُم صُفوف المَلائِكة قالَ: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ﴾، ولم يَذكُر الجائِيَ، لكِن قَد دلَّتِ السُّنَّة أنَّه يُؤتَى بالنار تُقاد بسَبعينَ أَلْفَ زِمامٍ، كُلُّ زِمامٍ مِنها يَقودُه سَبْعون أَلْفَ ملَكٍ[1]، ومَا أَدراكَ مَا قُوَّةُ المَلائِكة؟ قُوَّةٌ ليسَت كقُوَّة البشَر، ولَا كقُوَّة الجِنِّ، بل هِي أَعظَمُ وأَعظَمُ بكَثير؛ ولِهَذا لَمَّا قالَ عِفْريتٌ من الجِنِّ لسُلَيْمانَ:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة، باب فِي شدة حر نار جهنم وبعد قعرها، رقم (٢٨٤٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ بعَرْش بَلقيس ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل:٣٩-٤٠]، قالَ العُلَماء: لأنَّ الرجُلَ هَذا دعا اللهَ، فحمَلَتْه المَلائِكةُ من اليَمَن، فجاءَتْ به إِلى سُلَيْمان فِي الشام، فقُوَّة المَلائِكة عَظيمة، وهُمْ يجُرُّون هَذِه النارَ بسَبعينَ أَلْفَ زِمامٍ، كُلُّ زِمامٍ يجُرُّه سَبْعونَ ألفَ ملَكٍ، إِذَنْ هِي عَظيمة، هَذِه النار إِذَا رأَتْ أَهْلَها من مَكان بَعيدٍ، سمِعوا لهَا تَغيُّظًا وزَفيرًا، وليسَتْ كزَفير الطائِرات أوِ المُعَدَّاتِ، زَفيرٌ تَنخَلِع منه القُلوب، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك:٨]، وقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تَكادُ تَقطَّع من شِدَّة الغَيْظ على أَهْلها؛ فلِهَذا أَنذَرَنا اللهُ تعالى مِنها، فهذِه ثَلاثة أُمور كلُّها إِنذارٌ: مجَيءُ الرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ، صُفوفُ المَلائِكة، الثالِث: الإِتيان بجَهنَّمَ.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يَعنِي: إِذَا جاءَ اللهُ فِي يَوْم القِيامة، وَجاء المَلَكُ المَلائِكةُ صُفوفًا صُفوفًا، وأَحاطوا بالخَلْق، وحصَلت الأَهْوالُ وَالأَفْزاعُ يَتَذكَّر الإِنْسانُ، يَتذكَّر أَنَّه وُعِدَ بهذا اليَوْمِ، وأَنَّه أُعلِمَ به من قِبَلِ الرُّسُل عليهم الصلاة وَالسلام، وأَنذَروا وخَوَّفوا، ولكِنْ مَن حَقَّت عليه كلِمةُ العَذاب فإِنه لَا يُؤمِن ولو جاءَتْه كُلُّ آيَةٍ، حينَئِذٍ يَتذكَّر، لكِن يَقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أَنَّى يَكُون لَه الذِّكْرى فِي هَذا اليَوْمِ الَّذِي رأَى فيه مَا أُخبِر عَنه يَقينًا؟! وأَنَّى لَه الاتِّعاظُ؟! فاتَ الأَوانُ، وَالإِيمان عن مُشاهَدةٍ لَا يَنفَع؛ لأن كلَّ إِنسان يُؤمِن بما شاهَدَ، الإِيمانُ النافِعُ هُو الإِيمانُ بالغَيْب ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣].

فيُصدِّق بما أَخبرَت به الرُّسُل عنِ الله عَزَّوَجَلَّ وعَنِ اليَوْم الآخِرِ، فِي ذلِك اليَوْمِ

يَتذكَّر الإنسانُ، ولكِنْ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: بَعيدٌ أن يَنتَفِع بهذه الذِّكْرى الَّتِي حصَلَت منه حين شاهَد الحَقَّ يَقول الإنْسانُ: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يَتمَنَّى أنَّه قدَّم لِحَياتِه، ومَا هِي حَياتُه؟ أهِيَ حَياةُ الدُّنيا؟ لَا وَاللهِ، الحَياةُ الدُّنْيا انتَهَت وقَضَتْ، وليسَتِ الحَياةُ الدُّنيا حَياة فِي الواقِعِ، الواقِعُ أنَّها هُموم وأَكْدارٌ، كُلُّ صَفْو يَعقُبه كَدَر، كُلُّ عافِية يَتْبَعها مرَضٌ، كُلُّ اجتِماع يَعقُبه تَفرُّق، انظُروا مَا حصَلَ أين الآباءُ؟ أينَ الإخوانُ؟ أينَ الأَبْناءُ؟ أينَ الأَزْواجُ؟ هل هذِه حَياةٌ؟ ولِهَذا قالَ بعضُ الشُّعَراءِ الحُكَماءِ[1]:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ

كُلُّ إنسانٍ يَتذكَّر أن مَآلَه أَحَدُ أَمْرَيْن: إمَّا المَوْت، وإمَّا الهَرَم، نحن نَعرِف أُناسًا كانوا شَبابًا فِي عُنْفوان الشَّباب عُمِّروا، لكِن رجَعوا إِلى أَرذَلِ العُمُر، يَرِقُّ لَهُمُ الإنسانُ إِذَا رآهُم فِي حالِ بُؤْس، حتَّى وإن كانَ عِنْدهم من الأَمْوال مَا عِندهم، وعِندهم من الأَهْل مَا عِنْدهم، لكِنَّهم فِي حالِ بُؤْس، وهَكَذا كُلُّ إنسان إِمَّا أن يَموت مُبكِّرًا، وإمَّا أن يُعمَّر فيُرَدُّ إِلى أَرذَلِ العُمُر، فهَلْ هذِه حَياةٌ؟ الحَياةُ هِي مَا بيَّنه اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ يَعنِي: لَهِيَ الحَياةُ التامَّةُ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

يَقولُ هذا: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يَتمنَّى، لكِنْ لَا يَحصُل ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، قالَ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فيها قِراءَتان: الأُولى: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؛ أَيْ: لَا يُعذِّب عذابَ الله أَحَدٌ، بَل

(١) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/ ٢٧٤).

عَذابُ الله أَشَدُّ، ولَا يُوثِق وَثاقَ الله أَحَدٌ، بَلْ هُو أَشَدُّ، القِراءةُ الثانِيةُ: **(لَا يُعذَّب عَذابَه أَحَدٌ ولَا يُوثَقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ)**[1]، يَعنِي: فِي هَذا اليَوْمِ، لَا أَحَدَ يُعذَّب عَذابَ هَذا الرجُلِ، ولَا أَحَدَ يُوثَق وَثاقَه، ومَعلوم أن هَذا الكافِرَ لَا يُعذَّب أَحَدٌ عَذابَه فِي ذلِك اليَوْمِ؛ لأنه يُلقَى على أَهْل النار فِي المَوقِف العَطَشُ الشَّديدُ، فيَنظُرون إِلى النار كأَنَّها السَّراب، وَالسَّرابُ هُو مَا يُشاهِده الإِنسانُ فِي أَيَّام الصَّيْف فِي شِدَّة الحَرِّ من البِقاع حتَّى يُخيَّل إِليه أَنَّه الماءُ، يَنظُرون إِلى النار كأَنَّها سَرابٌ وهُم عِطاشٌ، فيَتَهافَتون علَيْها، يَذهَبون إِليها سِراعًا، يُريدون أيَّ شيءٍ؟ يُريدون الشُّرْب، فإِذَا جاؤُوها فُتِحت أَبْوابُها وقالَ لَهُم خَزَنَتُها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر:٧١]، قَد قامَتْ علَيْكم الحُجَّة، فيُوبِّخونَهم قبل أن يَدخُلوا النار، وَالتَّوبيخُ عذابٌ قَلْبيٌّ وأَلَمٌ نَفسيٌّ قبل أن يَذوقوا أَلَمَ النار، وفِي النار يُوبِّخُهم الجَبَّارُ عَزَّوَجَلَّ تَوْبيخًا أَعظَمَ من هذا، ويَقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ قالَ اللهُ تعالى وهُو أَرحَمُ الراحِمين: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٦-١٠٨]، أَبلَغُ من هَذا الإِذلالِ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ يَقولُه أَرحَمُ الراحِمين، فمَن يَرحَمُهم بعد الرَّحْمَن؟! لَا راحِمَ لَهُم.

وقد أَخبَرَ النَّبيُّ ﷺ بأن أَهونَ أَهْل النار عَذابًا مَن عليه نَعْلان يَغلِي مِنهما دِماغُه، ولَا يَرَى أن أَحَدًا أَشَدَّ مِنه عَذابًا يَرَى أَنَّه أَشَدَّ النَّاس عَذابًا وهُو أَهوَنُهم عَذابًا[2]،

---

(١) انظر: التيسير فِي القراءات السبع (ص:٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦١)، ومسلم: كتاب الإِيمان، باب أهون أهل النار عذابا، رقم (٢١٣)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وعليه نَعْلان يَغْلِي مِنهما الدِّماغ، النَّعْلان فِي أَسفَل البَدَن، وَالدِّماغُ فِي أَعْلاه، فإذا كانَ أَعْلى البدَن يَغلِي من أَسفَله، فالوَسَط من بابِ أَشَدَّ -أَجارَنا اللهُ وإِيَّاكُم من النار- ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؛ لأَنَّهم -وَالعِياذُ بالله- يُوثَقون ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٢]، أَدخِلوه فِي هذِه السِّلْسلةِ تُغَلُّ أَيدِيهم -نسأَلُ الله العافِيَةَ- ولَا أَحَدَ يَتصوَّر الآنَ مَا هُم فيه من البُؤْس وَالشَّقاء وَالعَذاب.

إِذَنْ على الإِنسانِ أن يَستَعِدَّ قبلَ أن يَقولَ: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

ثُم ختَمَ اللهُ تعالى هذِه السُّورةَ بما يُبهِج القَلْب ويَشرَح الصَّدْر فقالَ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ يُقال هَذا القَوْلُ للإِنسان عِند النَّزْع فِي آخِرِ لَحْظة من الدُّنْيا، يُقال لرُوحِه: اخرُجِي أَيَّتُها النَّفْسُ المُطمَئِنَّة، اخْرُجي إِلى رَحْمة من الله ورِضوان. فتَستَبْشِر وتَفرَح، ويَسهُل خُروجُها من البَدَن؛ لأَنَّها بُشِّرَت بما هُو أَنعَمُ مِمَّا فِي الدُّنْيا كُلِّها، قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، سَوْط الإِنسان: العَصا القَصير، مَوضِع السَّوْط فِي الجَنَّة خَيْر من الدُّنْيا ومَا فيها، وليسَتْ دُنْياكَ أنت، بَلِ الدُّنْيا من أَوَّلِها إِلى آخِرِها، بما فيها من النَّعيم، وَالمُلْك، وَالرَّفاهية وغيرها، مَوضِع سَوْطٍ خَيرٌ من الدُّنيا ومَا فيها، فكَيْفَ بمَن يَنظُر فِي مُلْكه مَسيرةَ أَلْفَيْ عامٍ، أَلْفَيْ سَنَة يَرَى أَقْصاه كما يَرَى أَدْناه، نَعيمٌ لَا يُمكِن أن نُدرِكه بنُفوسِنا

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب مَا جاء فِي صفة الجنة وأنَّها مخلوقة، رقم (٣٢٥٠)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولَا بتَصوُّرنا ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

﴿ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ يَعنِي: المُؤمِنة الآمِنة، لأنَّك لَا تَجِد نَفْسًا أَطمَنَ من نَفْس المُؤمِن أبدًا، المُؤمِن نَفْسه طيِّبة مُطمَئِنَّة؛ ولِهَذا تَعجَّب الرَّسولُ ﷺ مِن المُؤمِن قالَ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[1]، مُطمَئِنٌّ راضٍ بقَضاء الله وقَدَره، لَا يَسخَط عِند المَصائِب، ولَا يَبطَر عند النِّعَم، بل هُو شاكِرٌ عند النِّعَم، صابِرٌ عند البَلاء، فتَجِده مُطمَئِنًّا، لكِنِ الكافِرُ أو ضَعيفُ الإِيمان لَا يَطمَئِنُّ، إِذَا أَصابَه البَلاءُ جزِعَ وسَخِط، ورأَى أنَّه مَظلوم من قِبَل الله -وَالعِياذُ بالله- حتَّى إِن بعضَهم يَنتَحِر ولَا يَصبِر، ولَا يَطمَئِنُّ، بل يَكُون دائِمًا فِي قلَقٍ، يَنظُر إِلى نَفْسه وإِذَا هُو قَليلُ المال، قَليلُ العِيال، ليسَ عِنده زَوْجة، ليسَ لَه قَوْم يَحْمونه، فيَقول: أنا لَسْت فِي نِعْمة؛ لأن فُلانًا عِندَه مالٌ، عِنده زَوْجات، عِنده أَوْلاد، عِنده قَبيلة تَحمِيه، أنا ليسَ عِندي، فلَا يَرَى لله عليه نِعْمة؛ لأنَّه ضَعيفُ الإِيمان فلَيْس بمُطمَئِنٍّ، دائِمًا فِي قلَقٍ؛ ولِهَذا نَجِد النَّاس الآنَ يَذهَبون إِلى كُلِّ مَكان؛ ليُرفِّهوا عن أَنفُسِهم؛ ليُزيلوا عنها الأَلَمَ وَالتعَبَ، لكِن لَا يُزيل ذلِك حَقًّا إِلَّا الإِيمانُ، فالإِيمانُ الحَقيقيُّ الَّذِي يُؤدِّي إِلى الطُّمَأْنينة، فالنَّفْس المُطمَئِنَّة هِي المُؤمِنة، مُؤمِنة فِي الدُّنْيا، آمِنة من عَذاب الله يَوْم القِيامة، قالَ بعضُ السلَفِ كلِمة عَجيبةً قالَ: لو يَعلَم المُلوكُ وأَبناءُ المُلوك مَا نحنُ فيه لجالَدونا علَيْه بالسُّيوفِ. هَلْ تَجِدون أَنعَمَ فِي الدُّنْيا من المُلوكِ وأَبنائِهم، لَا يُوجَد

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَحَدٌ أَنعَمُ مِنهم فِي الظاهِر، يَعنِي: نُعومة الجَسَد، لكِنْ قُلوبهم ليسَت كقُلوب المُؤمنين، المُؤمن الَّذِي ليسَ عليه إلَّا ثَوْب مُرقَّع، وكُوخ لَا يَحمِيه من المطَرِ، ولَا مِن الحَرِّ، ولكِنَّه مُؤمِن، دُنياه ونَعيمُه فِي الدُّنْيا أَفضَلُ من المُلوك وأَبناءِ المُلوكِ؛ لأن قَلْبه مُستَنير بنُور الله، بنُور الإِيمان، وهاهُو شَيْخُ الإِسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ حُبِسَ وأُوذِيَ فِي الله عَزَّوَجَلَّ، فلَمَّا أُدخِلَ الحَبْس وأَغلَقوا عليه البابَ قالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣]، يَقول هَذا تَحدُّثًا بنِعْمة الله، لَا افتِخارًا، ثُم قالَ: «مَا يَصنَعُ أَعدائِي بي -أي شيءٍ يَصنَعون- إِن جَنَّتي فِي صَدْري -أي: الإِيمان وَالعِلْم وَاليَقين- وإِن حَبْسي خَلْوة، ونَفْيِي -إِن نَفَوْه من البلَد- سِياحة، وقَتلِي شَهادةٌ»[1].

هذا هُو اليَقينُ، وهذِه هي الطُّمَأْنينة، وَالإِنسانُ لو دخَلَ الحَبْس كانَ يُفكِّر مَا مُستَقْبَلِي، مَا مُستَقْبَل أَوْلادي، وأَهْلي، وقَوْمي؟ وشَيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ يَقول: «جَنَّتي فِي صَدْري»، وصدَقَ، ولعَلَّ هَذا هُو السِّرُّ فِي قَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦]، يَعنِي: فِي الجَنَّة لَا يَذوقون فيها المَوْت إِلَّا المَوْتة الأُولى، ومَعلومٌ أن الجَنَّة لَا مَوْتَ فيها لَا أُولى ولَا ثانِية، لكِنْ لَمَّا كانَ نَعيم القَلْب مُمتَدًّا من الدنيا إِلى دُخول الجَنَّة صارَتْ كأَنَّ الدُّنيا وَالآخِرة كلها جَنَّة، وليس فيها إِلَّا مَوْتة واحِدة.

﴿رَاضِيَةً﴾ بما أَعطاك اللهُ من النَّعيم ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عِند الله عَزَّوَجَلَّ كما قالَ تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

---

(١) انظر: الوابل الصيب (ص:٤٨)، وذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٥١٩).

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾؛ أي: ادْخُلي فِي عِبادي الصالِحين، من جُملَتِهم؛ لأن الصالِحين من عِباد الله الَّذِين أَنعَم الله عليهم، الَّذِين هُمْ خيرُ طبَقاتِ البشَر، وَالبشَرُ طبَقاته ثَلاثٌ: مُنعَم عليهم، ومَغضوب عليهم، وضالُّون، وكُلُّ هذِه الطبَقاتِ مَذكورة فِي سُورة الفاتِحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

الطبَقةُ الأُولى: الَّذِين أَنعَم الله عليهِم وهم: النَّبيُّون، وَالصِّدِّيقون، وَالشُّهَداء، وَالصالِحون.

والثانِية: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهُمُ اليَهود وأَشْباه اليَهود من كُلِّ مَن علِم الحَقَّ وخالَفَه، فكُلُّ مَن علِمَ الحَقَّ وخالَفه ففِيه شَبَهٌ مِن اليَهود، كَما قالَ سُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مَن فسَدَ من عُلَمائِنا ففيه شَبَهٌ من اليَهود(١).

والثالِثةُ: (الضالُّون) وهُمُ النَّصارى الَّذِين جهِلوا الحَقَّ، أَرادوه، لكِن عَمُوا عنه، مَا اهتَدَوْا إِليه، قالَ ابنُ عُيَيْنَةَ: وكُلُّ مَن فسَدَ من عُبَّادنا فِفيه شَبَهٌ من النَّصارَى(٢)؛ لأن العُبَّاد يُريدون الخَيْر ويُريدون العِبادة، لكِنْ لَا عِلْمَ عِندهم، فهُمْ ضالُّون.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾؛ أيِ: الطَّبَقة الأُولى المُنعَم علَيْهم.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾؛ أي: جَنَّته الَّتِي أَعَدَّها الله عَزَّوَجَلَّ لأَوْليائِه، أَضافَها اللهُ إِلى نَفْسه تَشْريفًا لهَا وتَعْظيمًا، وإِعلامًا للخَلْق بعِنايته بها جَلَّوَعَلَا، وَاللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قَد خلَقَها

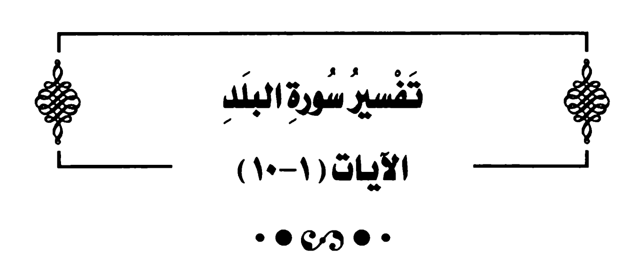
(١) انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٨٢٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٢١).
(٢) انظر: البداية والنهاية (١٤/ ٨٢٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ١٢١).

خَلْقًا غير خَلْق الدُّنْيا، خلَقَ لنا فِي الدُّنْيا فاكِهةً، ونَخْلًا، ورُمَّانًا، وفِي الجَنَّة فاكِهة، ونَخْلًا، ورُمَّانًا، ولكن مَا فِي الجَنَّة ليسَ كالَّذي فِي الدُّنْيا أبدًا؛ لأن اللهَ يَقولُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، ولو كانَ مَا فِي الجَنَّة كالَّذي فِي الدُّنْيا لكُنَّا نَعلَم، إِذَنْ هُو مِثْله فِي الاِسْم، لكِن ليسَ مِثْله فِي الحَقيقة ولَا فِي الكَيْفيَّة؛ ولهذا قالَ: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾، فأَضافَها اللهُ إِلى نَفْسه للدَّلالة على شَرَفها وعِناية الله بها، وهَذا يُوجِب للإِنْسان أن يَرغَب فيها غاية الرَّغْبة، كَمَا أَنَّه يَرغَب فِي بُيوت الله الَّتِي هِي المَساجِد، لأن الله أَضافَها إِلى نَفْسه، فكذلِكَ يَرغَب فِي هذِه الدارِ الَّتِي أَضافَها الله إِلى نَفْسه، وَالأَمْر يَسيرٌ، قالَ رجُلٌ للرَّسولِ ﷺ: دُلَّني على عمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّة ويُباعِدني مِن النارِ، فقالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيم -وَهُوَ عَظِيمٌ، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]- وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ...» وذكَر الحَديثَ[1].

فالدِّين -وَالحَمْدُ لله- يَسيرٌ وسَهْل، لكِنِ النُّفوس الأَمَّارة بالسُّوء، وَالشَّهَوات، وَالشُّبُهات، هِي الَّتِي تَحول بينَنا وبينَ دِينِنا، رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حسَنةً، وفِي الآخِرةِ حَسَنةً، وقِنا عَذابَ النارِ، ربَّنا لَا تُزِغْ قُلوبَنا بعد إِذْ هَدَيْتَنا، وهَبْ لنا من لَدُنْكَ رَحْمةً، إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب مَا جاء فِي حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان فِي الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.



تفسير سورة البلد

الآيات (١-١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١-١٠].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الحَديثُ علَيْها.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ ﴿لَآ﴾ لِلاستِفْتاح، أيِ: استِفْتاح الكَلام وتَوْكِيده، وليسَتْ نافِية، لأن المُرادَ إِثباتُ القَسَم، يَعنِي: أنا أُقسِم بهذا البلَدِ، لكِنْ (لَا) هذِه تَأتِي هُنا للتَّنبيهِ وَالتَّأْكيد، و﴿أُقْسِمُ﴾ القَسَم تَأْكيد الشيءِ بذِكْر مُعظَّم على وَجْه مَخصوص، فكُلُّ شيءٍ مَحلوفٍ به لا بُدَّ أن يَكُون مُعظَّمًا لَدَى الحالِفِ، وقد لَا يَكُون مُعظَّمًا فِي حَدِّ ذاتِه، فمثَلًا الَّذِين يَحلِفون باللَّات وَالعُزَّى هِي مُعظَّمة عِنْدهم، لكِن هِي فِي الواقِعِ ليسَت عَظيمةً ولَا مُعظَّمة، فالحَلِف، أو القَسَم، أو اليَمين المَعنَى واحِد، هِي تَأكيد الشيءِ بذِكْر مُعظَّم عند الحالِفِ على صِفة مَخصوصة، وحُروفُ القَسَم هي: الباءُ، وَالواوُ، وَالتاءُ، وَالَّذي فِي الآيَة الكَريمة هُنا: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ (الباءُ).

﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ البلَدُ هُنا مكَّةُ، وأَقسَم الله بها لشَرَفها وعِظَمها، فهِي أَعظَمُ بِقاع الأَرْض حُرْمةً، وأَحَبُّ بِقاع الأَرْض إِلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولِهَذا بُعِث مِنها رَسولُ الله ﷺ الَّذِي هُو سَيِّد البشَر صلوات الله وسلامه عليه، فجَديرٌ بهذا البلَدِ الأَمين أن يُقسَمَ به، ولكِنْ نحن لَا نُقسِم به؛ لأنه مَخلوقٌ، وليس لنا الحَقُّ أن نُقسِم بمَخلوق. كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[(١)].

أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإِنه سبحانه يُقسِم بما شاءَ؛ ولِهَذا أَقسَم هُنا بمَكَّةَ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ قيلَ: المَعنَى: أُقسِم بهذا البلَدِ حالَ كَوْنك حالًّا فيه؛ لأن حُلول النَّبيِّ ﷺ فِي مكَّةَ يَزيدُها شرَفًا إِلى شرَفها. وقيلَ: المَعنَى: وأنتَ تَستَحِلُّ هَذا البلَد، فيَكُون إِقْسام الله تعالى بمكَّةَ حالَ كَوْنها حِلًّا للرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وذلِك عامَ الفَتْح؛ لأن مكَّةَ عام الفَتْح أُحِلَّت للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولم تَحِلَّ لأَحَد قَبْله، ولَا تَحِلُّ لأَحَد بعدَ ذلِك، كما قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ»[(٢)]، فيَكُون إِقْسام الله تعالى بهذا البلَدِ مُقيَّدًا بما إِذَا كانَت حِلًّا للرَّسول ﷺ عامَ الفَتْح؛ لأنَّها فِي ذلِك اليَوْمِ تَزداد شرَفًا إِلى شرَفها، حيثُ طُهِّرت من الأَصْنام، وهُزِم المُشرِكون، وفُتِحَت عليهِم بِلادُهم عَنوةً، وصارَت هذِه البَلْدة بعد أن كانَت بَلدة كُفْر صارَت بِلاد إِيمان، وبعدَ أن كانَت بِلاد شِرْك صارت

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٥)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب فِي كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب مَا جاء فِي كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها، رقم (١٣٥٤)، من حديث أبي شريح العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِلاد تَوْحيد، وبعدَ أن كانَت بِلاد عِناد صارَت بِلاد إِسْلام، فأَشرَفُ حال لَمكَّةَ كانَت عِند الفَتْح.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ يَعنِي: وأُقسِم بالوالِد ومَا ولَدَ، فمَن المُرادُ بالوالِد؟ ومَن المُرادُ بالولَدِ؟ قيلَ: المُرادُ بالوالِدِ آدَمُ، وبالولَد بَنو آدَمَ، وعلى هَذا تكون (مَا) بمَعنَى (مَنْ)، أي: ووالِدٍ ومَنْ ولَدَ؛ لأنَّ (مَن) للعُقَلاء، و(مَا) لغَيْر العُقَلاء.

وقيلَ: المُرادُ بالوالِد ومَا ولَدَ كُلُّ وَالِدٍ ومَا ولَدَ، الإِنسانُ وَالبَهائِمُ، وكُلُّ شيءٍ؛ لأن الوالِدَ وَالمَوْلود كِلاهُما من آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ، كيفَ يَخرُج هَذا المَوْلودُ حَيًّا سَوِيًّا سَميعًا بَصيرًا من نُطْفة من ماءٍ، فهَذا دَليلٌ على كَمال قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ، هَذا الولَدُ السَّويُّ يَخرُج من نُطْفة ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧]، كذَلِك الحَشَراتُ وغيرُها تَخرُج ضَعيفة هَزيلة، ثُم تَكبُر إِلى مَا شاءَ الله تعالى من حَدٍّ، وَالصَّحيحُ أن هذِه عامَّة تَشمَل كُلَّ وَالِد وكُلَّ مَوْلود.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ اللَّام هُنا واقِعةٌ فِي جَواب القَسَم؛ لتَزيد الجُمْلة تَأكيدًا، و(قَد) تَزيد الجُمْلة تَأكيدًا أيضًا فتكون جُمْلة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مُؤكَّدة بثلاثة مُؤكِّدات، وهي: القَسَم، وَاللَّام، و(قَدْ)، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الإِنسانُ اسمُ جِنْس يَشمَل كُلَّ واحِد من بَني آدَمَ، ﴿فِى كَبَدٍ﴾ فيها مَعنَيانِ:

المَعنَى الأَوَّل: فِي استِقامة، يَعنِي: أَنَّه خُلِق على أَكمَل وَجْه فِي الخِلْقة، مُستَقيمًا يَمشِي على قدَمَيْه، ويَرفَع رَأْسه، وبدَنُه مُعتَدِل، وَالبَهائِمُ بالعَكْس الرَّأْس على حِذاء الدُّبُر، أمَّا بَنو آدَمَ فالرَّأْس مُرتَفِع أَعلى البَدَن، فهُو كَما قالَ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

وقيلَ: المُرادُ بـ﴿ كَبَدٍ﴾ مُكابَدة الأَشْياء ومُعاناتها، وأن الإِنسان يُعانِي المَشقَّة فِي أُمور الدُّنيا، وفي طلَبِ الرِّزْق، وفي إِصْلاح الحَرْث وغير ذلِك. ويُعانِي أيضًا مُعاناةً أشَدَّ مَع نَفْسه ومُجاهَدَتها على طاعة الله، واجتِناب مَعاصِي الله، وهَذا الجِهادُ الَّذِي هُو أشَقُّ من مَعاناة طلَب الرِّزْق، ولا سِيَّما إِذَا ابتُلِيَ الإِنْسان ببيئة مُنحَرِفة، وصار بينَهم غَريبًا، فإِنه سيَجِد المَشَقَّة فِي مُعاناة نَفْسه، وفي مُعاناة النَّاس أيضًا.

فإِن قالَ قائِلٌ: أَفَلا يُمكِن أن تَكون الآيةُ شامِلةً للمَعنيَيْن؟

فالجَوابُ: بلى، وهكَذا يَنبَغي إِذَا وَجَدْتَ فِي الكِتاب العَزيز آيةٌ تَحتَمِل مَعنيَيْن، وليسَ بينَهما مُناقَضة فاحْمِلْها على المَعنيَيْن؛ لأن القُرْآن أَشمَلُ وأَوسَعُ، فإِن كانَ بينَهما مُناقَضة فانظُرِ الراجِحَ؛ فمثَلًا قَوْلُه تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨]، (قُروء) جَمْع (قَرْء) بفَتْح القاف فَما هُو القَرْءُ؟ قيل: هُو الحَيْض. وقيلَ: هُو الطُّهْر. هُنا لَا يُمكِن أن تُحمَل الآية على المَعنيَيْن جَميعًا؛ للتَّناقُض، لكِنِ اطلُبِ المُرجِّح لأَحَد القَوْلين، وخُذْ به، فهُنا نَقُول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ يَصِحُّ أن تَكون الآيةُ شامِلةً للمَعنيَيْن، أي: فِي حُسْن قامة واستِقامة، و﴿فِى كَبَدٍ﴾ فِي مُعاناة لَمشاقِّ الأُمور.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾؛ أي: أن الإِنْسان فِي نَفْسه وقُوَّته يَظُنُّ أن لن يَقدِر عليه أحَدٌ؛ لأنه فِي عُنفوان شَبابه وقُوَّته وكِبْريائه وغَطْرسته، فيَقول: لَا أحَدَ يَقْدِر عليَّ، أنا أَعمَلُ مَا شِئْت. ومنه قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، إِذَنْ فالإِنْسان فِي حال صِحَّته وعُنْفوان شَبابه

يَظُنُّ أنَّه لَا يَقدِر عليه أحَدٌ، حتَّى الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ يَظُنُّ أنَّه لَا يَقدِر عليه، وهَذا لَا شَكَّ بالنِّسْبة للكافِر، أمَّا المُؤمِن فإنه يَعلَم أن الله قادِرٌ عليه، وأنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ فيَخاف منه.

﴿يَقُولُ﴾؛ أي: يَقول الإنسانُ أيضًا فِي حال غِناهُ وبَسْط الرِّزْق لَه: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾؛ أي: مالًا كَثيرًا فِي شَهواته وفي مَلذَّاته.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾؛ أَيظُنُّ هَذا أنَّه لَا يَراهُ أَحَدٌ فِي تَبذيره المالَ، وصَرْفه فِي مَا لَا يَنفَع، وكلُّ هَذا تَهديدٌ للإِنْسان أن يَتَغطْرَس، وأن يَستكبِر من أَجْل قُوَّته البدَنِيَّة، أو كَثْرة ماله.

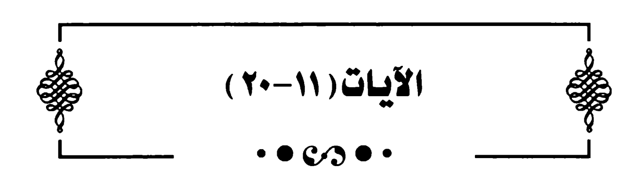
قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ هذِه ثَلاثُ نِعَم من أَكبَر النِّعَم على الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يَعنِي: يُبصِر بهما ويَرَى فيهما، وهاتانِ العَيْنانِ تُؤدِّيان إِلى القَلْب مَا نَظَر إِليه الإنسان، فإِن نظَرَ نَظْرة مُحرَّمة كانَ آثِمًا، وإِن نظَرَ نَظَرًا يُقرِّبه إِلى الله كانَ غانِمًا، وإِذَا نظَرَ إِلى مَا يُباحُ لَه فإِنه لَا يُحمَد ولَا يُذَمُّ مَا لم يَكُن هَذا النظَرُ مُفضِيًا إِلى محَظورٍ شَرْعيٍّ فيَكُون آثِمًا بهذا النظَرِ.

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ لِسانًا يَنطِق به، وشَفَتَيْن يَضبِط بهما النُّطْق، وهذِه من نِعَم الله العَظيمة؛ لأنه بهذا اللِّسانِ وَالشفَتَيْن يَستَطيع أن يُعبِّر عمَّا فِي نَفْسه، ولولا هَذا مَا استَطاع، لو كانَ لَا يَتكلَّم، فكَيْف يُعبِّر عمَّا فِي قَلْبه؟ كيفَ يُعلِم النَّاسَ بما فِي نَفْسه؟ اللَّهُمَّ إلَّا بإِشارة تُتعِب، يَتعَب المُشيرُ، ويَتعَب الَّذِين أُشير إِليهِم، ولكِنْ من نِعْمة الله أن جعَلَ لَه لِسانًا ناطِقًا، وشفَتَيْن يَضبِط بهما النُّطْق، وهَذا من نِعْمة الله، وهُو

أيضًا من عَجائِب قُدْرته: يَأتِي النُّطْق من هَواءٍ يَكُون من الرِّئَة يَخرُج من مَخارِجَ مُعيَّنة، إِن مَرَّ بشيءٍ صار حَرْفًا، وإِن مَرَّ بشيء آخَرَ صار حَرْفًا آخَرَ، وهُو هَواءٌ واحِدٌ من مَخرَج واحِدٍ، لكِن يَمُرُّ بشُعَيْرات دَقيقة فِي الحَلْق، وفي الشَّفَتَيْن، وفي اللثَة هذِه الشُّعَيْرات تُكوِّن الحُروف، فتَجِد مثَلًا الباء وَالشين كُلها بهَواء يَندَفِع من الرِّئة، ومَع ذلِك تَختَلِف باختِلاف مَا تَمُرُّ عليه فِي هَذا الفَمِ، ومَخارِج الحُروف المَعْروفة، هَذا من تَمام قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ قيلَ: أي بيَّنَّا لَه طَريق الخَيْر، وطَريق الشَّرِّ. القولُ الثانِي: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ دلَلْناه على مَا به غِذاؤُه وهُو الثَّدْيان؛ فإِنَّهما نَجْدان لارتِفاعِهما فوق الصَّدْر، فهَداهُ الله تعالى وهُو رَضيعٌ لَا يعرِف، فمِن حينَ أن يَخرُج وتَضَعه أُمُّه يَطلُب الثَّدْيَ، وَالَّذِي أَعلَمه الله عَزَّوَجَلَّ، فبَيَّن الله عَزَّوَجَلَّ مِنَّتَه على هَذا الإِنسانِ من حين أن يَخرُج يهتَدِي إِلى النَّجْدَيْن. وفي بَطْن أُمِّه يَتَغذَّى عن طريق السُّرَّة؛ لأَنَّه لَا يَستَطيع أن يَتغذَّى من غير هذا، فلَوْ تَغذَّى عن طَريق الفَمِ لَاحْتاج إِلى بَوْل وغائِطٍ، وكيف ذلِكَ؟ لكِنَّه عن طريق السُّرَّة يَأتيه الدَّمُ من دَمِ أُمِّه ويَنتَشِر فِي عُروقه حتَّى يَحْيا إِلى أن يَأذَن الله تعالى بإِخْراجه.

• ● ❁ ● •



الآيات (١١-٢٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ [البلد:١١-٢٠].

•••

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾؛ أي: الإِنسانُ الَّذِي كانَ يَقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ يَعنِي: هلَّا اقتحَم العقَبة؟ وَالإِقْتِحامُ هُو التَّجاوُز بمَشَقَّة، و﴿الْعَقَبَةَ﴾ هِي الطَّريق فِي الجَبَل الوَعْر، ولَا شَكَّ أن اقْتِحام هذِه العَقَبةِ شاقٌّ على النُّفوس، لَا يَتَجاوَزُه أو لَا يَقوم به إلَّا مَن كانَ عِنده نِيَّة صادِقة فِي تَجاوُز هذِه العقَبةِ.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ هَذا الاستِفْهامُ للتَّشْويق وَالتَّفْخيم أيضًا، يَعنِي: مَا الَّذِي أَعلَمَك شَأْن هذِه العَقَبةِ الَّتِي قالَ اللهُ عنها: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ بيَّنَها الله فِي قَوْلِه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فقَوْلُه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ هِي خبَرٌ لِمُبْتدَأ مَحذوف، وَالتَّقدير: «هي فَكُّ رقَبة» وفَكُّ الرقَبة لَه مَعنَيان:

المَعنَى الأَوَّلُ: فَكُّها من الرِّقِّ، بحيث يُعتِق الإِنسانَ العَبيدَ المَمْلوكين سَواءٌ كانوا فِي مُلْكه فيُعتِقُهم، أو كانوا فِي مُلْك غَيرِه فيَشتَرِيهم ويُعتِقُهم.

المَعنَى الثاني: فَكُّ رقَبة من الأَسْر، فإِن فِكاك الأَسير من أَفضَل الأَعْمال إِلى الله عَزَّوَجَلَّ، وَالأَسيرُ رُبَّما لَا يَفُكُّه العَدوُّ إِلَّا بفِدْية ماليَّة، ورُبَّما تَكون هذِه الفِدْيةُ فِديةً باهِظةً كَثيرةً لَا يَقتَحِمها إِلَّا مَن كانَ عِنده إِيمانٌ بالله عَزَّوَجَلَّ بأن يُخلِف عليه مَا أَنفَق، وأن يُثيبَه على مَا تَصدَّق.

﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ ﴿أَوْ﴾ هذِه للتَّنْويع، يَعنِي: وإِمَّا ﴿إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾؛ أي: ذِي مَجاعة شَديدة، لأن النَّاس قَد يُصابون بالمَجاعة الشَّديدة، إِمَّا لِقِلَّة الحاصِل من الثِّمار وَالزُّروع، وإِمَّا لأَمْراض فِي أَجْسامهم يَأكُل الإِنسان ولَا يَشبَع، وهَذا قَد وقَعَ فيما نَسمَع عنه فِي البِلاد النَّجْدية، ورُبَّما فِي غَيْرها أيضًا؛ أن النَّاسَ يَأكُلون ولَا يَشبَعون، يَأكُل الواحِد مَأكَل العَشَرة ولَا يَشبَع، ويَموتون من الجُوع فِي الأَسْواق ويَتَساقَطون فِي الأَسْواق من الجُوع، هذِه من المَساغِب، أو قِلَّة المَحْصول بحَيْثُ لَا تُثمِر الأَشْجار، ولَا تُنبِت الزُّروع، فيَقِلُّ الحاصِلُ وتَحصُل المَسغَبة، ويَموت النَّاسُ جوعًا، ورُبَّما يُهاجِرون عن بِلادِهم.

﴿يَتِيمًا﴾ اليَتيمُ هُو مَن مات أَبوه قبلَ أن يَبلُغ سَواءٌ كانَ ذكَرًا أم أُنْثى، فإِن بلَغَ فإِنه لَا يَكُون يَتيمًا؛ لأَنَّه بلَغَ وانفَصَل، وكذلِكَ لو ماتَت أُمُّه فإِنه لَا يَكُون يَتيمًا، خِلافًا لِما يَظُنُّه بعضُ العامَّة أن اليَتيم مَن ماتَتْ أُمُّه، وهَذا ليسَ بصَحيحٍ، فاليَتيمُ مَن ماتَ أَبوهُ؛ لأَنَّه إِذَا ماتَ أَبوهُ لم يَكُن لَه كاسِبٌ من الخَلْق يَكسِب لَه.

وقَوْلُه: ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ذا قَرابةٍ من الإِنسان؛ لأَنَّه إِذَا كانَ يَتيمًا كانَ لَه حَظٌّ من الإِكرام وَالصدَقات، وإِذَا كانَ قَريبًا ازداد حَظُّه من ذلِكَ؛ لأَنَّه يَكُون واجِبَ الصِّلة، فمَن جَمَع هذَيْن الوَصْفَيْن اليُتْم وَالقَرابة فإِن الإِنْفاق عليه مِنِ اقْتِحام العَقَبة إِذَا كانَ ذلِك فِي يَوْم ذِي مَسغَبة.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ يَعنِي: أو إطعامٌ فِي يَوْم ذِي مَسغَبة ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، المِسكينُ: هُو الَّذِي لَا يَجِد قُوتَه، ولَا قُوتَ عِياله، والمَتْربة: مَكانُ التُّراب، وَالمَعنَى: أَنَّه مِسكين ليسَ بيَدَيْه شيءٌ إلَّا التُّراب، ومَعلوم أَنَّه إِذَا قيل عن الرَّجُل: ليسَ عِنده إلَّا التُّراب، فالمَعنَى: أَنَّه فَقيرٌ جِدًّا ليسَ عِنده طَعام، وليس عِنده كِساءٌ، وليس عِنده مالٌ فهُو مِسكين ذو مَتْربة.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ يَعنِي: ثُم هُو بعدَ ذلِك ليسَ مُحسِنًا إلى اليَتامى وَالمَساكين فقَطْ، بل هُو ذو إِيمانٍ، آمَنَ بكُلِّ مَا يَجِب الإِيمانُ به، وقد بيَّنَ الرَّسولُ ﷺ الَّذِي يَجِب الإِيمانُ به، فقالَ حين سأَلَه جِبريلُ عن الإِيمان: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1].

وقَوْلُه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؛ أي: أَوصَى بعضُهم بعضًا بالصَّبْر، وَالصَّبْر ثلاثةُ أَنْواع: صَبْر على طاعة الله، وصَبْر عن مَعصِية الله، وصَبْر على أَقْدار الله المُؤلِمة، فهُمْ صابِرون مُتَواصُون بالصَّبْر بهذه الأنواعِ: الصَّبْر على طاعة الله، ثُم الصَّبْر عن مَعْصية الله، ثُم الصَّبْر على أَقْدار الله المُؤلِمة.

وقَدِ اجتَمَعَت هذِه الأنواعُ الثَّلاثة، فِي الرُّسُل عليهم الصلاة وَالسلام وأَتْباعِهم، فهاهُو الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صابِرٌ على طاعة الله، يُجاهِد فِي سَبيل الله، ويَدعو إِلى الله، ويُؤذَى ويُعتَدَى عليه بالضَّرْب، حتَّى هَمَّ المُشْرِكون بقَتْله، وهُو مَع ذلِك صابِرٌ مُحتَسِب، وهُو أَيضًا صابِرٌ عن مَعصية الله، لَا يُمكِن أن يَغدِر بأَحَد،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإِيمان، باب بيان الإِيمان والإِسلام...، رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولَا أن يَكذِب أَحَدًا، ولَا أن يَخون أحَدًا، وهُو أيضًا مُتَّقٍ لله تعالى بقَدْر مَا يَستَطيع، كذَلِك صابِرٌ على أَقْدار الله، كم أُوذِيَ فِي الله عَزَّوَجَلَّ من أَجْل طاعَتِه! أَلَيْست قُريشٌ قَد آذَوْه حتَّى إِذَا رأَوْه ساجِدًا تَحتَ الكَعْبة أَمَروا مَن يَأتِي بسَلى ناقة فيَضَعُه على ظَهْره، وهُو ساجِدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[1]؟! وهُو صابِرٌ فِي ذلِك كُلِّه.

ويُوسُف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صبرَ على أَقْدار الله فقَدْ أُلقِيَ فِي البِئْر فِي غَيابة الجُبِّ، وأُوذِيَ فِي الله بالسَّجْن، ومَع ذلِك فهُو صابِرٌ مُحتَسِب لم يَتَضجَّر ولم يُنكِر مَا وقَعَ به.

وقَوْله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾؛ أي: أَوصَى بعضُهم بَعْضًا أن يَرحَم الآخَر، ورَحمة الإِنسان للمَخْلوقات تكون فِي البَهائِم، وتَكون فِي الناطِق، فهُو يَرحَم آباءَه، وأُمَّهاتِه، وأبناءَه، وبَناتِه، وإِخوانَه، وأَخَواتِه، وأَعمامَه، وعَمَّاتِه، وهكذا، ويَرحَم كذَلِك سائِرَ البَشَر، وهُو أيضًا يَرحَم الحَيَوان البَهيم؛ فيَرحَم ناقَتَه، وفرَسَه، وحِمارَه، وبقَرَته، وشاتَه، وغير ذلِك، وقد قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: هَؤلاءِ المَوْصوفونَ بهَذه الصِّفاتِ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؛ أي: أَصْحاب اليَمين، الَّذِين يُؤتَوْن كِتابهم يَوْمَ القِيامة بأَيْمانِهم، فمَن أُوتِيَ كِتابه بيَمينه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إِذَا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة، لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب مَا لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب فِي الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب مَا جاء فِي رحمة المسلمين، رقم (١٩٢٤)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

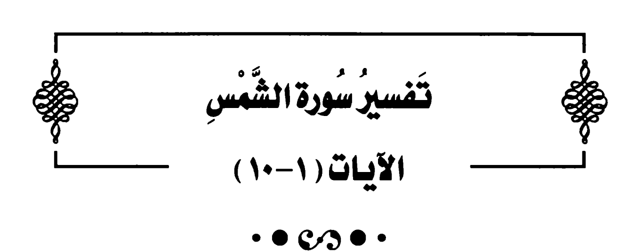
فسَوْف يُحاسَب حِسابًا يَسيرًا ويَنقَلِب إِلى أَهْله مَسرورًا.

ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: جحَدوا بها ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ ﴿هُمْ﴾: الضَّمير هُنا جاءَ للتَّوْكيد، ولو قيل فِي غَيْر القُرآن: وَالَّذين كفَروا بآياتِنا أَصْحاب المَشْأَمة. لصَحَّ لكِن هَذا من بابِ التَّوْكيد.

﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ يَعنِي: الشِّمال أو الشُّؤْم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾؛ أي: علَيْهم نارٌ مُغلَقة، لَا يَخرُجون مِنها ولَا يَستَطيعون إلى ذلِكَ سَبيلًا، نَسأَل الله أن يَجعَلَنا من الَّذِين آمَنوا، وعمِلوا الصالِحات، وتَواصَوا بالصَّبر، وتَواصَوْا بالمَرْحمة إِنه سَميع مُجيبٌ.

• • ۞ • •



تَفسيرُ سُورة الشَّمْسِ

الآيات (١-١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس:١-١٠].

البَسْملة تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أَقسَمَ اللهُ تعالى بالشَّمْس وضُحاها وهُو ضَوْؤُها لِما فِي ذلِك من الآياتِ العَظيمة الدالَّة على كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكَمال عِلْمه ورَحْمته، فإن فِي هَذِه الشَّمْسِ من الآياتِ مَا لَا يُدرِكه بعضُ النَّاس، فإذَا طلَعَتِ الشَّمْس فكَمْ تُوفِّر على العالَمِ من طاقة كَهْربائِيَّة؟ تُوفِّر آلافَ المَلايين؛ لأنهم يَستَغْنون بها عن هذِه الطاقةِ، وكم يَحصُل للأَرْض من حَرارتها، من نُضْج الثِّمار، وطِيب الأَشْجار، مَا لَا يَعلَمه إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ويَحصُل فيها فَوائِدُ كَثيرةٌ لَا أَستَطيع أن أَعُدَّها؛ لأن غالِبَها يَتعلَّق فِي عِلْم الفَلَك وعِلْم الأَرْض وَالجِيولوجيا، لكِنَّها من آيات الله العَظيمة.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ قيلَ: إِذَا تَلاها فِي السَّيْر. وقيل: إِذَا تَلاها فِي الإِضاءَةِ. وما دامَتِ الآيَةُ تَحتَمِل هَذا وهَذا فإِن القاعِدةَ فِي عِلْم التَّفْسير أن الآيَة إِذَا احتَمَلَت مَعنيَيْن لَا تَعارُض بينَهما وجَبَ الأَخْذ بهما جميعًا، لأنَّ الأَخْذ بالمَعنيَيْن جميعًا أَوسَعُ للمَعنَى.

فنقُولُ: إِذَا تَلاها فِي السَّيْر؛ لأن القمَر يَتأَخَّر كلَّ يَوْم عن الشَّمْس، فبينَما تَجِده فِي أَوَّلِ الشَّهْر قريبًا مِنها فِي المَغرِب، إِذَا هُو فِي نِصْف الشَّهْر أَبعَدُ مَا يَكُون عَنها فِي المَشْرِق؛ لأنه يَتأَخَّر كُلَّ يَوْم، أو إِذَا تَلاها فِي الإِضاءة؛ لأنها إِذَا غابَتْ بدَأَ ضَوْء القَمَر لا سِيَّما فِي الرُّبُع الثانِي إِلى نِهاية الرُّبُع الثالِث، فإِن ضَوْء القمَر يَكُون بَيِّنًا واضِحًا، يَعنِي: إِذَا مضَى سَبْعة أَيَّام إِلى أن يَبقَى سَبْعة أَيَّام يَكُون الضَّوْء قوِيًّا، وأَمَّا فِي السَّبْعة الأُولى وَالأَخيرة فهُوَ ضَعيف.

وعلى كلِّ حالٍ فإِن إِضاءَةَ القمَر لَا تكون إِلَّا بعد ذَهابِ ضَوْء الشَّمْس كما هُو ظاهِرٌ، فأَقسَم الله تعالى بالشَّمْس؛ لأَنَّها آيَةُ النَّهار، وبالقمَر؛ لأَنَّه آيَةُ اللَّيْل.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ مُتَقابِلات، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ إِذَا جلَّى الأَرْض وبيَّنَها ووَضَّحَها؛ لأَنَّه نَهارٌ تَتبَيَّن به الأَشياءُ وتَتَّضِح ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ إِذ يُغطِّي الأَرْض حتَّى يَكُون كالعَباءَة المَفْروشة على شيءٍ من الأَشْياء، وهَذا يَتَّضِح جَلِيًّا فيما إِذَا غابَتِ الشَّمْس وأنت فِي الطائِرةِ تَجِد أن الأَرْض سَوداءُ تَحتَك؛ لأَنَّك أنتَ الآنَ تُشاهِد الشَّمْس لارتِفاعِك، لكِنِ الأَرْض الَّتِي تَحتَك حيثُ غرَبَتْ عليها الشَّمْس تَجِدها سَوداء كأنَّها مُغطَّاة بعَباءَة سَوداءَ، وهَذا مَعنَى قَوْله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ﴾ السَّماء وَالأَرْض مُتقابِلات، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ قالَ المُفسِّرون: إن ﴿مَا﴾ هُنا مَصدَرِيَّة، أي: وَالسَّماءِ وبِنائِها؛ لأن السَّماء عَظيمة بارْتِفاعِها وسَعَتِها وقُوَّتِها، وغير ذلِك مِمَّا هُو من آياتِ الله فيها، وكذلِكَ بِناؤُها بِناءً مُحكَمًا، كما قالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ يَعنِي: الأَرْض ومَا سَوَّاها حتَّى كانَت مُستَوِية، وحتَّى كانَت ليسَت لَيِّنة جِدًّا، وليسَتْ قَوِيَّة صُلْبة جِدًّا، بل هِي مُناسِبة للخَلْق على حَسب مَا تَقوم به حوائِجُهم، وهَذا من نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عِباده أن سَوَّى لهُمُ الأَرْضَ وجعَلَها بين اللِّين وَالخُشونة إلَّا فِي مَواضِعَ، لكِنْ هَذا القَليلُ لَا يُحكَم به على الكَثيرِ.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ نَفْس هُنا وإِن كانَت واحِدة لكِنِ المُرادُ العُموم، يَعنِي: كُل نَفْس ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ يَعنِي: سَوَّاها خِلْقة، وسَوَّاها فِطْرة، سَوَّاها خِلْقة حيثُ خَلَق كُلَّ شيءٍ على الوَجْه الَّذِي يُناسِبه ويُناسِب حالَه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾؛ أي: خَلْقه المُناسِب لَه ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، أي: هَداهُ لِمَصالِحِه، وكذلِكَ سَوَّاه فِطْرة ولَا سِيَّما البَشَر فإِن الله جعَلَ فِطْرَتهم هِي الإِخْلاصَ وَالتَّوحيدَ كَما قالَ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾؛ أي: اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَلْهَمَ هَذِه النُّفوسَ ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ بَدَأ بالفُجور قبلَ التَّقْوى مَع أن التَّقْوى لَا شَكَّ أَفضَلُ، قالوا: مُراعاةً لفَواصِل الآياتِ.

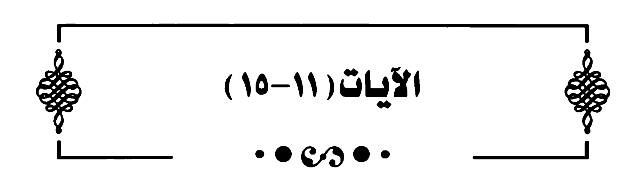
﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ الفُجورُ هُو مَا يُقابِل التَّقوى، وَالتَّقْوى طاعةُ الله، فالفُجور مَعْصية الله، فكُلُّ عاصٍ فهُو فاجِر، وإِن كانَ الفاجِرُ خُصَّ عُرْفًا بأنه مَن ليسَ بعَفيف، لكِن هُو شَرْعًا يَعُمُّ كلَّ مَن خرَج عن طاعة الله كما قالَ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، والمُرادُ الكُفَّار، وإِلْهامها تَقْواها هُو المُوافِق للفِطْرة؛ لأن الفُجور خارِجٌ عن الفِطْرة، لكِن قَد يُلهِمه اللهُ بعضَ النُّفوس لانْحِرافها؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وَاللهُ تعالى لَا يَظلِم أحَدًا، لكِن مَن عَلِم منه أنَّه لَا يُريد الحَقَّ أَزاغَ الله قَلْبه.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾؛ أي: فاز بالمَطْلوب ونجا من المَرْهوب، ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾؛ أي: مَن زكَّى نَفْسه، وليسَ المُراد بالتَّزْكية هُنا التَّزْكية المَنْهيُّ عنها فِي قَوْله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]، المُرادُ بالتَّزْكية هُنا: أن يُزكِّيَ نَفْسه بإِخْلاصها من الشِّرْك وشَوائِب المَعاصِي، حتَّى تَبقَى زَكيَّةً طاهِرةً نَقيَّةً.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ أي: مَن أَرْداها فِي المَهالِك وَالمَعاصِي، وهَذا يَحتاج إِلى دُعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَثبُت الإِنسانُ على طاعَتِه، وعلى القولِ الثابِتِ فِي الحَياة الدُّنْيا وفِي الآخِرة.

فعلَيْكَ دائِمًا أن تَسأَل اللهَ الثَّباتَ وَالعِلْم النافِع، وَالعمَل الصالِح فإِن الله تعالى قالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

• • ❁ • •



الآيات (١١-١٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:١١-١٥].

•••

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ ثَمودُ اسمُ قَبيلةٍ، ونَبيُّهم صالِحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ودِيارُهُم فِي الحِجْر مَعروفة فِي طَريق النَّاس، هَؤُلاءِ كذَّبوا نَبيَّهم صالِحًا، ونَبيُّهم صالِحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كغَيْره من الأَنْبياء يَدْعوهم إِلى عِبادة الله وَحْدَه لَا شَريكَ لَه، كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، دَعاهُم إِلى عِبادة الله وحدَه لَا شَريكَ لَه، وأَعطاهُ اللهُ سبحانه آيَةً تَدُلُّ على نُبوَّته وهِي الناقة العَظيمة الَّتِي تَشرَب من البِئْر يومًا وتَسقِيهم لبنًا فِي اليَوْم الثانِي، وقد قالَ بعضُ العُلَماء: إنه كلَّما جاءَ إِنسانٌ وأَعْطاها من الماءِ بقَدْرٍ أَعطَتْه من اللبَنِ بقَدْرِه. ولكِنِ الَّذِي يَظهَر مِن القُرْآن خِلافُ ذلِكَ؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥]، فالناقةُ تَشرَب من البِئْر يَوْمًا، ثُم تُدِرُّ اللبَنَ فِي اليوم الثانِي، ولكِن لم تَنفَعْهم هذِه الآيَةُ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾؛ أي: بطُغْيانها وعُتُوِّها، وَالباء هُنا للسبَبِيَّة، أي: بسبَبِ كَوْنها طاغِيةً كذَّبَتِ الرَّسولَ.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ هَذا بَيانٌ للطُّغيان الَّذِي ذكَره الله عَزَّوَجَلَّ وذلِك حين انبعَثَ أَشْقاها، و﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ يَعنِي: انطَلَق بسُرْعة ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾؛ أي: أَشقَى ثَمودَ، أي: أَعْلاهُم فِي الشَّقاء -وَالعِياذُ بالله- يُريد أن يَقضِيَ على هذِه الناقةِ، فقالَ لهم صالِحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ أي: ذَرُوْا ناقةَ الله؛ لقَوْلِه تعالى فِي آيَةٍ أُخْرى: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ [الأعراف:٧٣]، يَعنِي اتْرُكوا الناقةَ لَا تَقتُلوها ولَا تَتعرَّضوا لهَا بسُوء، ولكِنْ كانَتِ النَّتيجةُ بالعَكْس.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ أي: كذَّبوا صالِحًا وقالوا: إنَّك لَسْت برَسولٍ، وهكَذا كُلُّ الرُّسُل الَّذِين أُرسِلوا إِلى أَقْوامِهم يَصِمُهم أَقوامُهم بالعَيْب، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، كُلُّ الرُّسُل قيل لَهُم: هَذا ساحِرٌ أو مجنونٌ. كما قيلَ للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: إِنه ساحِرٌ، كذَّابٌ، مجنونٌ، شاعِر، كاهِن. ولكِن أَلْقابُ السُّوء الَّتِي يُلقِّبُها الأَعْداء لأَوْلياء الله لَا تَضُرُّهم، بَلْ يَزدادون بذلِكَ رِفعةً عِند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإِذَا احتَسَبوا الأَجْر أُثيبوا على ذلِكَ.

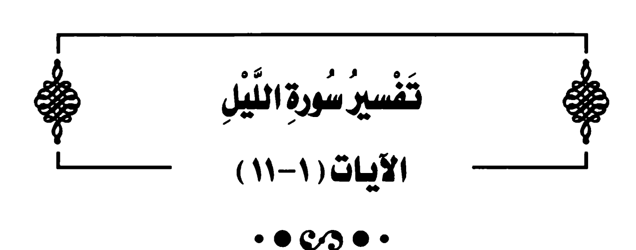
فيقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ أي: فذَبَحوا الناقةَ عَقْرًا حصَلَ به الهَلاك.

﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم﴾ يَعنِي: أَطبَق علَيْهم فأَهلَكهم كما تَقول: دَمْدَمْتُ البِئر: أي أُطبقْتُ عليها التُّراب ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾؛ أي: بسبَبِ ذُنوبهم؛ لأن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَظلِم النَّاسَ شَيْئًا ولكِنْ النَّاس أَنفُسَهم يَظلِمون، فالذُّنوب سببٌ للهَلاك وَالدَّمار وَالفَساد؛ لقَوْل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وقالَ تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ

قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦]، وقالَ اللهُ تعالى يُخاطِب أَشرَفَ الخَلْق وخَيْرَ القُرون: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]، فالإِنْسانُ يُصاب بالمَصائِب من عِند نَفْسه؛ ولهذا قالَ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾؛ أي: بسبَبِ ذَنْبهم ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾؛ أي: عمَّها بالهَلاك حتَّى لم يَبقَ مِنهم أحَدٌ وأَصبَحوا فِي دِيارِهم جاثِمين.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ يَعنِي: أن اللهَ لَا يَخاف من عاقِبة هَؤُلاءِ الَّذِين عذَّبَهم، ولَا يَخاف مِن تَبِعَتهم، لأن لَه المُلْكَ، وبيَدِه كُلُّ شيءٌ، بخِلاف غيرِه من المُلوك لو انتَصَروا على غَيْرهم، أو عاقَبوا غَيْرهم تَجِدهم فِي خَوْف يَخشَوْن أن تكون الكَرَّة عليهِم، أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإِنَّه لَا يَخاف عُقْباها، أي: لَا يَخاف عاقِبة مَن عَذَّبَهم؛ لأَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَه المُلْك كلُّه، وَالحَمْد كلُّه، فسبحانه وتعالى مَا أَعظَمَهُ! ومَا أَجَلَّ سُلْطانَه!.

•●❁●•



تفسير سورة الليل

الآيات (١-١١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل:١-١١].

البَسْمَلة تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أَقسَم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باللَّيْل إِذَا يَغشَى، يَعنِي: حينَ يَغشَى الأَرْض ويُغطِّيها بظَلامه؛ لأن الغِشاءَ بمَعنَى الغِطاء.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ أي: إِذَا ظهَر وبانَ، وذلِك بطُلوع الفَجْر الَّذِي هُو النُّور الَّذِي هُو مُقدِّمة طُلوع الشَّمْس، وَالشَّمْسُ هِي آيَةُ النَّهار كما أن القمَرَ آيَةُ اللَّيْل.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ يَعنِي: وخَلْق الذَّكر وَالأُنْثى على أَحد التَّفْسيرَيْن الَّذِي جعَل (مَا) هُنا مَصْدرِيَّة، وَالَّذِي خَلَق الذَّكر وَالأُنْثى وهُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ على التَّفْسير الآخَرِ، فعلى المَعنَى الأَوَّلِ: يَكُون اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَقسَمَ بخَلْق الذَّكَر وَالأُنْثى. وعلى الثانِي: يَكُون اللهُ تعالى أَقسَمَ بنَفْسه، لأَنَّه هُو الَّذِي خلَقَ الذَّكَر وَالأُنْثى.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ يَعنِي: إن عمَلَكُم ﴿لَشَتَّىٰ﴾؛ أي: لَمتَفرِّق تفرُّقًا عَظيمًا.

فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أَقسَم بأَشياءَ مُتضادَّةٍ على أَشياءَ مُتضادَّةٍ: اللَّيْل ضِدُّ النَّهار، الذَّكَر ضِدُّ الأُنْثى، السَّعْيُ مُتَضادٌّ صالِحٌ وسيِّئٌ، فتَناسَب الْمُقسَم به وَالْمُقسَم عليه، وهَذا من بَلاغة القُرآن، فالمَعنَى: أن اختِلاف اللَّيْل وَالنَّهار وَالذَّكَر وَالأُنثى أَمْر ظاهِر لَا يَخفَى، فكَذلِكَ أَعْمال العِباد مُتبايِنةٌ مُتَفاوِتةٌ، مِنها الصالِحُ، ومِنها الفاسِدُ، ومِنها مَا يَخلِط صالِحًا وفاسِدًا، كُلُّ ذلِك بتَقدير الله عَزَّوَجَلَّ، وَاللهُ يَهدِي مَن يَشاءُ إِلى صِراط مُستَقيم، ثُم فصَّل هَذا السَّعيَ المُتفرِّق فقالَ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾؛ أي: أَعطَى مَا أُمِر بإِعْطائه من مال، أو جاهٍ، أو عِلْم ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ اتَّقى مَا أُمِر باتِّقائِه من المُحرَّمات. ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: صدَّق بالقَوْلة الحُسْنى وهِي قولُ الله عَزَّوَجَلَّ، وقولُ رَسولِه ﷺ؛ لأن أَصدَقَ الكَلام، وأَحسَنَ الكَلام كَلامُ الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ السينُ: هُنا للتَّحقيق، أي: أن مَن أَعطَى واتَّقَى، وصدَّق بالحُسْنى، فسيُيَسِّره الله عَزَّوَجَلَّ لليُسْرى فِي أُموره كُلِّها، فِي أُمور دِينه ودُنْياه؛ ولهذا تَجِد أَيسَرَ النَّاس عمَلًا هُو مَنِ اتَّقَى الله عَزَّوَجَلَّ، مَن أَعطَى واتَّقى وصدَّق بالحُسْنى، وكُلَّما كانَ الإِنْسان أَتقى لله كانَتْ أُموره أَيسَرَ لَه، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

وكلَّما كانَ الإِنسانُ أَبعَدَ عن الله كانَ أَشَدَّ عُسْرًا فِي أُموره؛ ولِهَذا قالَ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ فلَمْ يُعطِ مَا أُمِر بإِعْطائه ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ استَغْنى عَنِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يَتَّقِ ربَّه، بل رأَى أَنَّه فِي غِنًى عن رحمة الله.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ أي: بالقَوْلة الحُسْنى، وهِي قَوْلُ الله تعالى وقولُ رَسولِه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ يُيَسَّر للعُسْرى فِي أُمورِه كُلِّها، ولكِنْ قَد يَأْتِي الشَّيْطان للإِنْسان فيقول: نَجِد أن الكُفَّار تُيسَّر أُمورُهم. فيُقال: نَعَمْ. قَد تُيسَّر أُمورُهم، لكِن قُلوبهم تَشتَعِل نارًا وضِيقًا وحرَجًا كَما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، ثُم مَا يُنعَّمون به فهُو تَنعيم جَسَد فقَطْ، لَا تَنعيم رُوح، ثُم هُو أيضًا وَبالٌ علَيْهم؛ لقَوْل الله تعالى فيهم: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]، وقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»(١)، وتَلا قَوْلَه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وهَؤُلاءِ عُجِّلَت لَهُم طَيِّباتُهم فِي حَياتِهم الدُّنْيا، ومَع ذلِك فإِن هذِه الدُّنيا جَنَّةٌ لَهُم بالنِّسْبة للآخِرة، وقد ذَكَروا عنِ ابنِ حجَرٍ العَسْقلانيِّ شارِح البُخارِيِّ بالشَّرْح الَّذِي سَمَّاه (فتح الباري) وكانَ قاضِي القُضاة بمِصرَ، أَنَّه مَرَّ ذاتَ يَوْم وهُو على عرَبَتِه تَجُرُّه البِغالُ وَالناسُ حَوْله، مَرَّ برَجُل يَهوديٍّ سَمَّانٍ، يَعنِي: يَبيعُ السَّمْن وَالزَّيْت، ومِن المَعْلوم أن الَّذِي يَبيعُ السَّمْن وَالزَّيْت تَكون ثِيابُه وَسِخة وحالُه سَيِّئة، فأَوقَف العرَبة وقالَ لابنِ حجَرٍ: إِن نَبيَّكُم يَقول: «**الدُّنْيا سِجْنُ المُؤْمِنِ،**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهِي ظالمة إن أخذه أليم شديد، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

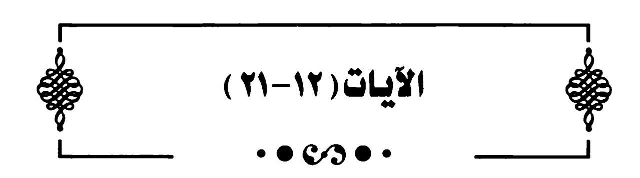
وَجَنَّةُ الكَافِرِ»[١]، فكَيْف أنا أكون بهذه الحَالِ وأنتَ بهَذِه الحَالِ؟ فقالَ لَه ابنُ حجَرٍ على البَديهة: أنا فِي سِجْن بالنِّسْبة لِمَا أَعَدَّ اللهُ للمُؤمِنين من الثَّواب وَالنَّعيم؛ لأن الدُّنْيا بالنِّسبة للآخِرة ليسَت بشيءٍ كَمَا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[٢]، وأمَّا أنتَ أيُّها اليَهودِيُّ، فأنتَ فِي جَنَّةٍ بالنِّسْبة لِما أُعِدَّ لَك من العَذاب إِن مِتَّ على الكُفْر. فاقْتَنَع بذلِكَ اليَهودِيُّ، وصار ذلِك سببًا فِي إسلامِه وقالَ: أَشهَدُ أن لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ، وأن مُحَمَّدًا رَسولُ الله.

ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ يَعنِي: أيُّ شيءٍ يُغنِي عنه مالُه إِذَا بخِلَ به وتَردَّى، أي: هلَكَ، فأَيُّ شيءٍ يُغنِي المالُ؟ لَا يُغنِي شَيْئًا.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب مَا جاء فِي صفة الجنة وأنَّها مخلوقة، رقم (٣٢٥٠)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.



الآيات (١٢-٢١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٢-٢١].

•••

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ فيه التِزامٌ من الله عَزَّوَجَلَّ أن يُبيِّن للخَلْق مَا يَهتَدون به إِليه، وَالُمراد بالهُدَى هُنا: هُدَى البَيان وَالإِرْشاد فإِن الله تعالى التَزَم على نَفْسه بَيانَ ذلِك حتَّى لَا يَكُون للناس على الله حُجَّة، وهَذا فِي قَوْله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣] إلى أن قالَ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، فلَا يُمكِن للعَقْل البَشَريِّ أن يَستَقِلَّ بمَعرِفة الهُدَى؛ ولذلِكَ التَزَم الله عَزَّوَجَلَّ بأن يُبيِّن الهُدَى للإِنْسان ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، ولْيُعلَمْ أن الهُدَى نَوْعان:

١- هُدَى التَّوفيق. فهَذا لَا يَقدِر عليه إِلَّا اللهُ.

٢- هُدَى إِرشاد ودَلالةٍ، فهَذا يَكُون مِن الله، ويَكُون من الخَلْق: من الرُّسُل علَيْهم الصلاة وَالسلام، ومن العُلَماء.

كمَا قالَ الله لنبيِّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]،

أَمَّا هِدايَة التَّوْفيق فهِي إِلى الله لَا أَحَدَ يَستَطيع أن يُوفِّق شَخْصًا إِلى الخَيْر كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

وإِذَا نظَرْنا إِلى هذِه الآيَةِ الكَريمة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ وجَدْنا أن الله تعالى بيَّن كُلَّ شيءٍ، بيَّن مَا يَلزَم النَّاسَ فِي العَقيدة، ومَا يَلزمهم فِي العِبادة، ومَا يَلزَمهم فِي الأَخْلاق، ومَا يَلزَمهم فِي المُعامَلات، ومَا يَجِب عليهم اجتِنابُه فِي هَذا كُلِّه، حتَّى قالَ أَبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ تُوفِّيَ رسولُ الله ﷺ وما طائِرٌ يُقلِّبُ جَناحَيْه فِي السَّماءِ إِلَّا ذكَرَ لَنا مِنه عِلْمًا. وقالَ رجُلٌ من المُشرِكين لسَلْمانَ الفارِسيِّ: علَّمَكُمْ نَبيُّكُم حتَّى الخِراءَة. قالَ: أَجَلْ، علَّمَنا حتَّى الخِراءَة[1]. يَعنِي: حتَّى آداب قَضاء الحاجة علَّمَها النَّبيُّ ﷺ أُمَّتَه، ويُؤَيِّد هَذا قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يَعنِي: لنا الآخِرة وَالأُولى، الأُولى مُتقَدِّمة على الآخِرة فِي الزَّمَن، لكِنَّه فِي هذِه الآيَةِ أَخَّرَها لفائِدَتَيْن:

الفائِدةُ الأُولى: مَعنَوِيَّة.

الفائِدةُ الثانِية: لَفْظيَّة.

أَمَّا المَعْنويَّة فلأَنَّ الآخِرة أَهَمُّ من الدُّنيا؛ ولأن الآخِرة يَظهَر فيها مُلْك الله تعالى تَمامًا. فِي الدُّنيا هُناكَ رُؤَساءُ، وهُناك مُلوكٌ، وهُناكَ أُمَراءُ يَملِكون مَا أَعْطاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ من المُلْك، لكِنْ فِي الآخِرة لَا مُلْكَ لأَحَدٍ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]؛ فلِهَذا قدَّم ذِكْر الآخِرة من أَجْل هذِه الفائِدةِ المَعنوِيَّة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَمَّا الفائِدة اللَّفْظيَّة: فهِي مُراعاة الفَواصِل يَعنِي: أَواخِر الآياتِ، كُلُّها آخِرُها أَلِف.

فإِن قيل: إِن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قالَ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ فما الفَرْقُ؟

الجَوابُ: الفَرْقُ أن الهُدَى التَزَم الله تعالى ببَيانِه وإِيضاحِه للخَلْق، أَمَّا المُلْك فهُو لله مُلْك الآخِرة وَالأُولى؛ ولهذا قالَ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾، ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ يَعنِي: خَوَّفْتُكم ﴿نَارًا﴾ يَعنِي بها نارَ الآخِرة، ﴿تَلَظَّىٰ﴾ تَشتَعِل، ولها أَوْصافٌ كَثيرةٌ فِي القُرآن وَالسُّنَّة.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ يَعنِي: لَا يَحترِق بها ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ يَعنِي: الَّذِي قُدِّرَت لَه الشَّقاوةُ، وَالشَّقاوةُ ضِدُّ السَّعادة؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ [هود:١٠٦]، وقَوْله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ﴾ [هود:١٠٨]، فالمُرادُ بالأَشْقى يَعنِي: الَّذِي لم تُكتَبْ لَه السَّعادة، هَذا هُو الَّذِي يَصلَى النار الَّتِي تَلظَّى.

ثُم بيَّن هَذا بقَوْله: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ التَّكْذيب فِي مُقابِل الخَبَر، وَالتَّولِّي فِي مُقابِل الأَمْر وَالنَّهْي، فهَذا كذَّب الخَبَر ولم يُصدِّق، قيل لَه: إِنَّك ستُبْعَث. قالَ: لَا أُبعَثُ. قيل لَه: هُناكَ جَنَّةٌ ونارٌ. قالَ: ليسَ هُناكَ جَنَّة ونارٌ. قيلَ لَه: سيَكون كذا وكذا. قالَ: مَا يَكُون. هَذا تَكذيبٌ، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ يَعنِي: أَعرَض عن طاعة الله، وأَعرَض عمَّا جاءَت به رُسُله، فهَذا هُو الشَّقيُّ.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾؛ أي: يُجنَّب هذِه النارَ الَّتِي تَلظَّى ﴿الْأَتْقَى﴾، وَالأَتْقى اسمُ تَفضيلٍ من التَّقْوى، يَعنِي: الَّذِي اتَّقَى الله تعالى حَقَّ تُقاتِه.

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ يَعنِي: يُعطِي مالَه مَن يَستَحِقُّه على وَجْه يَتزَكَّى به، أي: يَتَطهَّر به، قالَ اللهُ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، فقولُه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ يُفيد أنَّه لَا يُبذِّر ولَا يَبخَل، وإِنَّما يُؤتِي المال على وجهٍ يَكُون به التَّزْكية، وضابِطُ ذلِك مَا ذكَرَه الله فِي سُورة الفُرقان ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

نَجِد بعض النَّاس يُعطيه الله مالًا، ولكِنَّه يَبخَل يَقتُر حتَّى الواجِب عليه لزَوْجته وأَوْلاده وأَقارِبه لَا يَقوم به، ونَرَى بعض النَّاس قَدَرَ الله عليه الرِّزْق، وضيَّق عليه بعضَ الشيءِ، ومَع هَذا يَذهَب يَتدَيَّن من النَّاس من أَجْل أن يُكمِل بَيْته حتَّى يَكُون مثل: بَيْت فُلان وفُلان، أو من أَجْل أن يَشتَرِيَ سيَّارةً فَخْمة كسَيَّارة فُلان وفُلان، وكِلا المَنهَجَيْن وَالطَّريقَيْن مَنهَج باطِلٌ، الأوَّل: قصَّر. وَالثاني: أَفرَطَ. وَالواجِبُ على الإِنسان أن يَكُون إِنفاقُه بحَسب حالِه.

فإِن قالَ قائِلٌ: هل يَجوز أن يَتَديَّن الإِنسانُ لِيَتَصدَّق؟

فالجَوابُ: لَا؛ لأن الصَّدَقة تَطوُّع، وَالتِزامُ الدَّيْن خَطَر عَظيم، لأن الدَّيْن ليسَ بالأَمْر الهيِّن، فالإِنسان إِذَا مات وعليه دَيْن فإِن نَفْسه مُعلَّقة بدَيْنه حتَّى يُقضَى عنه، وكَثيرٌ من الورَثة لَا يَهتَمُّ بدَيْن المَيِّت، تَجِده يَتأَخَّر يُماطِل، ورُبَّما لَا يُوفِّيه، وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا قدِمَت إِليه جَنازةٌ سأَل: «**هَلْ عليَهِ دَيْنٌ؟ أَلَهُ وَفاءٌ؟**» فإِن قالوا: لَا. قالَ: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**»[1]، وأَخبَرَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن الشَّهادة فِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز، رقم (٢٢٨٩)، من حديث سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَبيل الله تُكفِّر كُلَّ شيءٍ إلَّا الدَّيْن[1]، فالدَّيْن أَمْرُه عَظيمٌ، ولَا يَجوز للإِنسان أن يَتَهاوَن به.

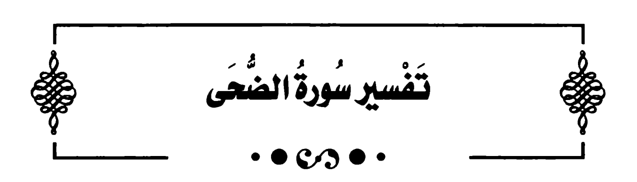
ثُم قالَ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ يَعنِي: أَنَّه لَا يُعطِي المال مُكافَأَة على نِعْمة سابِقة من شَخْص، فلَيْس لأَحَد علَيْه فَضْل حتَّى يُعطِيَه مُكافَأَة، ولكِنَّه يُعطِي ابتِغاءَ وَجْه الله؛ ولهذا قالَ:

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فهُو لَا يُنفِق إلَّا طلَب وَجْه الله، أي: طلَب الوُصول إِلى دار كَرامة الله الَّتِي يَكُون بها رُؤْية الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ يَعنِي: سَوْف يُرضيه الله عَزَّوَجَلَّ بما يُعطِيه من الثَّواب الكَثير، وقد بَيَّن اللهُ ذلِك فِي قَوْله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]، نَسأَلُ اللهَ أن يَجعَلَنا من هَؤُلاءِ البَرَرة الأَطْهار الكِرام، إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• • ❁ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإِمارة، باب من قتل فِي سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين، رقم (١٨٨٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.



تَفْسيرسُورَةُ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١-١١].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ الضُّحَى: هُو أَوَّل النَّهار، وفيه النُّور وَالضِّياء.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾؛ أيِ: اللَّيْل إِذَا غطَّى الأَرْض وسدَل علَيْها ظَلامَه، فأَقسَم الله تعالى بشَيْئَيْن مُتَبايِنَيْن: أَوَّلُها: الضُّحَى إذا انتَشَر ومَلَأَ الأَرْض ضِياءً ونُورًا. وَالثانِي: اللَّيْل إِذَا يَغشَى وفيه الظُّلْمة.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: مَا ترَكَكَ وأَهمَلَكَ ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾؛ أي: ومَا أَبغَض، بل أَحَبُّ الخَلْقِ إِليه -فيما نَعلَم- مُحَمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ ولِهَذا اخْتارَه اللهُ لأَعظَمِ الرِّسالات، وأَفضَلِ الأُمَم، وجعَلَه خاتَمَ النَّبيِّين، فلَا نَبيَّ بَعدَه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكان رَسولُ الله ﷺ أَحَدَ الخَليلَيْن اللَّذَيْنِ اختُصَّا بهذه الصِّفةِ العَظيمة

وهي الخُلَّة، والخُلَّة أَعْلى أنواع المَحَبَّة، وليسَ من عِبادِ الله فيما نَعلَم مَن هُو خَليلُ الله إلَّا إِبْراهيمَ ومُحمدًا عليهما الصلاة والسلام كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**»(١)، يَقولُ عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨]، فعَيْنُ الله تعالى تَكْلَؤُه وتَرْعاه وتَحْميه وتَحفَظُه، وهُو الَّذِي قالَ لَه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٩]، فما تركَه الله عَزَّوَجَلَّ، بَلْ أَحاطَه بعِلْمه، ورَحْمته، وعِنايَتِه، وغير ذلِك مِمَّا يَقتَضِي رِفعَتَه فِي الدُّنْيا وَالآخِرة. كَما قالَ فِي السُّورة الَّتِي تَليها: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤].

﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هذِه الجُمْلةُ مُؤَكَّدة باللَّام، لامِ الابتِداءِ، و(الآخِرة) هِي اليَوْم الَّذِي يُبعَث فيه النَّاس، ويَأْوُون إِلى مَثْواهُمُ الأَخيرِ؛ إلى الجَنَّة أو إِلى النارِ، فيَقولُ الله لنَبيِّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: مِن الدُّنيا؛ وذلِك لأنَّ الآخِرة فيها مَا لَا عَيْنٌ رأَتْ، ولَا أُذُنٌ سمِعَت، ولَا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، ومَوْضِع سَوْط أَحَدِنا فِي الجَنَّة خَيْرٌ من الدُّنْيا ومَا فيها، كَمَا جاءَ ذلِك عن رَسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم(٢).

ولِهَذا لَمَّا خَيَّر الله نَبيَّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي مَرَضه بين أن يَعيش فِي الدُّنيا مَا يَعيش وبين مَا عِند الله، اختارَ مَا عِند الله، كَما أَعلَن ذلِك صلى الله عليه

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد، على القبور، رقم (٥٣٢)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب مَا جاء فِي صفة الجنة وأنَّها مخلوقة، رقم (٣٢٥٠)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعلى آله وسلم فِي خُطبته حيثُ قالَ وهُو على المِنبَرِ: «**إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يَعِيشَ فِي الدُّنْيَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَعِيشَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**»، فبَكَى أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتَعجَّب النَّاسُ من بُكائِه كيفَ يَبكِي من هذا؟! ولكِنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانَ أَعلَمَ النَّاس برَسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم[1]، علِمَ أن المُخيَّر هُو الرَّسولُ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأنه اخْتَار مَا عِند الله وهُو الآخِرة، وأن هَذا إِيذانٌ بقُرْب أَجَلِه.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ﴿وَلَسَوْفَ﴾ اللَّامُ هذِه أيضًا للتَّوْكيد، وهِي مُوطِّئة للقَسَم، و(سَوْف) تَدُلُّ على تحقُّق الشيءِ، لكِن بعدَ مُهْلة وزمَنٍ ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: يُعطيك مَا يُرضِيك فتَرضَى، ولقَدْ أَعطاه اللهُ مَا يُرضِيه ﷺ، فإِن الله تعالى يَبعَثُه يَوْم القِيامة مَقامًا محَمودًا، يحَمَدُه فيه الأَوَّلون وَالآخِرون، حتَّى الأَنْبياء وأُولو العَزْم من الرُّسُل لَا يَستَطيعون الوُصولَ إِلى مَا وصَلَ إِليه، فإِذَا كانَ يَوْمُ القِيامة، وعَظُم الكَرْب وَالغَمُّ على الخَلْق، وضاقَتْ عليهمُ الأُمورُ طلَب بعضُهم من بعض أن يَلتَمِسوا مَن يَشفَع لَهُم إِلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيَأتون إِلى آدَمَ، ثُم نُوحٍ، ثُم إِبراهيمَ، ثُم مُوسَى، ثُم عِيسى، هَؤلاءِ خَمْسة أَوَّلُهم أبو البشَرِ، ونُوحٌ، وإِبراهيمُ، ومُوسَى، وعِيسَى، وهَؤُلاءِ الأَرْبَعة عليهم الصلاة وَالسلام من أُولِي العَزْم، كلُّهم يَعتَذِرون عن الشَّفاعة للخَلْق حتَّى تَصِل إِلى النَّبيِّ ﷺ فيَقوم ويَشفَع، ولَا شَكَّ أن هَذا عَطاءٌ عَظيم لم يَنلْهُ أَحَدٌ من الخَلْق.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (٣٩٠٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُم بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نِعَمَه عليه السابِقة حتَّى يَستَدِلَّ بها على النِّعَم اللَّاحِقة فقالَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ وَالاستِفْهام هُنا للتَّقريرِ، يَعنِي: قَد وجَدَكَ اللهُ تعالى يَتيمًا فآواكَ، يَتيمًا من الأَبِ، ويَتيمًا من الأُمِّ، فإن أَباه تُوفِّيَ قبلَ أن يُولَد، وأُمَّه تُوفِّيَت قبلَ أن تُتِمَّ إِرْضاعه، ولكِنِ الله تعالى تَكفَّل به ويَسَّرَ لَه مَن يَقوم بتَربِيتِه وَالدِّفاع عنه، حتَّى وصَلَ إلى الغاية الَّتِي أَرادَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقَوْلُه: ﴿يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ وجاءَ التَّعبير -واللهُ أَعلَمُ- بـ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ لسببٍ لَفْظيٍّ، وسببٍ مَعنوِيٍّ؛ أمَّا السببُ اللَّفْظيُّ: فلأَجْل أن تَتَوافَق رُؤُوس الآياتِ من أوَّل السُّورة، وأمَّا السبَبُ المَعنَوِيُّ: فإنه لو كانَ التَّعبيرُ: (فآواكَ) اختُصَّ الإِيواءُ به صلى الله عليه وعلى آله وسلم وَالأَمْر أَوسَعُ من ذلِك، فإنَّ اللهَ تعالى آواهُ، وآوَى به، آوَى به المُؤمِنين فنصَرَهم وأَيَّدَهم، ودفَعَ عَنْهم، بل دافَعَ عنهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾؛ أي: غَيْر عالِمٍ؛ لأن النَّبيَّ ﷺ لم يَكُن يَعلَم شَيْئًا قبلَ أن يَنزِل عليه الوَحيُ، كَما قالَ تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣]، وقالَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، فهُو ﷺ لم يَكُن يَعلَم شَيْئًا، بَلْ هُو من الأُمِّيِّين ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]، لَا يَقرَأ ولَا يَكتُب، لكِن وصَلَ إلى هذِه الغايةِ العَظيمةِ بالوَحْيِ الَّذِي أَنزَله الله عليه، فعَلِم وعُلِّم، وهُنا قالَ: ﴿فَهَدَىٰ﴾ ولم يَأْتِ التَّعبيرُ -وَالله أَعلَمُ- فهَداكَ؛ ليَكون هَذا أَشمَلَ وأَوسَعَ، فهُو قَد هُدِيَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهَدَى اللهُ به، فهُو هادٍ مَهدِيٌّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إِذَنْ: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فهَداكَ وهَدَى بِكَ.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾؛ أي: وجَدكَ فقيرًا لَا تَملِك شَيْئًا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾؛ أي: أغناكَ وأَغنَى بِكَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح:٢٠]، ومَا أَكثَرَ مَا غنِمَ المُسلِمون من الكُفَّار تَحتَ ظِلال السُّيوف، غَنائِمَ عَظيمةً كثيرةً، كُلُّها بسبَب هَذا الرَّسولِ الكَريمِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين اهتَدَوْا بهَدْيِه، واتَّبَعوا سُنَّتَه، فنَصَرَهمُ الله تعالى به وغنِموا من مَشارِق الأَرْض ومَغارِبها، ولو أن الأُمَّة الإِسْلامِيَّة عادَتْ إِلى مَا كانَ عليه السَّلَف الصالِحُ لعاد النَّصْر إِليهم، وَالغِنَى، وَالعِزَّة، وَالقُوَّة، ولكِن مَع الأَسَف أن الأُمَّة الإِسلامية فِي الوَقْت الحاضِر كُلٌّ مِنها يَنظُر إِلى حُظوظ نَفْسه بقَطْع النَّظَر عَمَّا يَكُون به نُصْرة الإِسلام أو خِذْلان الإِسلام.

ولَا يَخفَى على مَن تَأمَّل الوَقائِع الَّتِي حدَثَت أَخيرًا أَنَّها فِي الحَقيقة إِذْلال للمُسلِمين، وأَنَّها سببٌ لشَرٍّ عَظيمٍ كَبيرٍ يُتَرقَّب مِن وَراء مَا حدَثَ، ولا سِيَّما من اليَهود وَالنَّصارى الَّذِين هُمْ أَوْلياءُ بعضُهم لبَعْض كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١]، وهُمْ -أَعنِي: اليَهودَ وَالنَّصارَى- مُتَّفِقون على عَداوة المُسلِمين، كُلٌّ لَا يُريد الإِسْلام، ولَا يُريد أَهْل الإِسلام، ولَا يُريد عِزَّ الإِسلام، ولكِنْ سيَنصُر اللهُ تعالى دِينَه مَهْما كانَتِ الأَحْوالُ، فالله تعالى ناصِرٌ دِينَه وكِتابَه، وإِن حصَلَ على المُسلِمين مَا يَحصُل فإِن الله يَقولُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، وسيَأتِي اليَوْم الَّذِي يُجاهِد فيه المُسلِمون اليَهودَ حتَّى يَختَبِئَ اليَهوديُّ تَحتَ الشجَر، فيُنادِي الشَّجَرُ: يا مُسلِمُ، يا عَبدَ الله، هَذا يَهودِيٌّ تَحتِي. فيَأتِي المُسلِم ويَقتُلُه، ومَا ذلِك على الله بعَزيزٍ.

ولكِنَّ المُسلِمين يَحتاجون إِلى قِيادة حَكيمةٍ عَليمةٍ بأَحْكام الشَّريعة قبلَ كُلِّ شيءٍ؛ لأن القِيادة بغَيْر الاسْتِفادة بنُور الشَّريعة عاقِبتُها الوَبالُ، مَهْما علَتْ، ولو علَتْ

إِلى أَعْلى قِمَّة فإنها سَوْف تَنزِل إِلى أَسفَل قَعْر، فالهِداية بالإِسْلام، بنُور الإِسلام، لَا بالقَوْمِيَّة، ولَا بالعَصبيَّة، ولَا بالوَطنِيَّة، ولَا بغَيْر ذلِك، بالإِسْلام فقَطْ، فالإِسْلامُ وحدَه هُو الكَفيلُ بعِزَّة الأُمَّة، لكِن تَحتاج إِلى قِيادة حَكيمة تَضَع الأَشْياء مَواضِعها، وتَتَأَنَّى فِي الأُمور ولَا تَستَعجِل، لَا يُمكِن أن يُصلَح النَّاسُ بين عَشِيَّة وضُحاها، ومَن أَراد ذلِك فإِنه قَد أَراد أن يُغيِّر الله سُنَّتَه، وَالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُغيِّر سُنَّتَه، فهَذا نَبيُّ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَقِيَ فِي مكَّةَ ثلاثَ عَشْرةَ سَنَةً يَنزِل عليه الوَحيُ، ويَدعو إِلى الله بالَّتي هِي أَحسَنُ، ومَع ذلِك فِي النِّهاية خرَج من مَكَّةَ خائِفًا مُختَفِيًا لم تَتِمَّ الدَّعْوة فِي مكَّةَ، فلِماذا نُريد أن نُغيِّر الأُمَّة الَّتِي مضَى علَيْها قُرونٌ وهِي فِي غَفْلة وفي نَوْم بين عَشِيَّة وضُحاها، هَذا سَفَهٌ فِي العَقْل، وضَلالٌ فِي الدِّين.

الأُمَّة تَحتاج إِلى عِلاج رَفيقٍ هادِئٍ ودَعْوة بالَّتي هِي أَحسَنُ، الأُمَّة الإِسلامِيَّة تَحتاج بعد الفِقْه فِي دِين الله وَالحِكْمة فِي الدَّعْوة إِلى الله، تَحتاج إِلى العِلْم بالواقِع وَالفِطْنة وَالخِبْرة، ونَظَر فِي الأُمور الَّتِي تَحتاج إِلى نَظَر بَعيدٍ؛ لأن النَّتائِج قَد لَا تَتبَيَّن فِي شَهْر، أو شَهْرَيْن، أو سَنَة، أو سنَتَيْن، لكِنِ العاقِلُ يَصبِر ويَنظُر ويَتأَمَّل حتَّى يَعرِف، وَالأُمور تَحتاج أيضًا إِلى عَزْم وتَصميم وصَبْر؛ لأَنَّه لا بُدَّ من هَذا لا بُدَّ مِن عَزْم يَندَفِع به الإِنسانُ، ولا بُدَّ مِن صَبْر يَثبُت به الإِنسان وإِلَّا لفاتَتِ الأُمور، أو فاتَ كَثيرٌ مِنها، وَاللهُ المُستَعانُ.

قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ هَذا فِي مُقابَلة ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾، فإِذَا كانَ اللهُ آواكَ فِي يُتْمِك فلَا تَقهَرِ اليَتيمَ -إِلَّا أن يَكون قَهْرًا في مَصلَحة له، فهذا ليسَ قَهْرًا في الحَقيقة، وإن كان قَهْرًا ظاهِرِيًّا، ولكن لَمصلَحة عَظيمة لِهَذا اليَتيمِ-؛ فلا تَقهَرِ اليَتيمَ، بَلْ أَكرِمِ اليَتيمَ، وَالإِحسانُ إِلى اليَتامى وإِكرامُهُم من أَوامِر الشَّريعة

ومن حسَناتِ الشَّريعة؛ لأن اليَتيمَ الَّذِي مات أَبوهُ قبلَ أن يَبلُغ مُنكَسِر الخاطِر، يَحتاج إِلى جَبْر، يَحتاج إِلى مَن يُسلِّيه، وإِلى مَن يُدخِل عليه السُّرور لا سِيَّما إِذَا كانَ قد بلَغَ سِنًّا يَعرِف به الأُمورَ كالسابِعة وَالعاشِرة، ومَا أَشبَهَ ذلِكَ.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ هَذا فِي مُقابِل ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أوَّلُ مَا يَدخُل فِي السائِلِ السائِلُ عن الشَّريعة عن العِلْم فلَا تَنْهَرْه؛ لأَنَّه إِذَا سأَلَكَ يُريد أن تُبيِّن لَه الشَّريعة وجَبَ عليك أن تُبيِّنها لَه؛ لقَوْل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]، لَا تَنْهَرْه، إِن نَهَرْتَه نفَّرْتَه، ثُمَّ إِنك إِذَا نَهَرْتَه وهُو يَعتَقِد أنكَ فَوْقَه؛ لأَنَّه لم يَأْتِ يَسأَل إِلَّا أَنَّه يَعتَقِد أَنَّك فَوْقَه، إِذَا نَهَرْتَه وهُو يَشعُر أَنَّكَ فَوْقَه أَصابَه الرُّعْبُ واختَلَفَت حَواسُّه، ورُبَّما لَا يَفقَهُ مَا يُلقِي إِلَيكَ من السُّؤال، أو لَا يَفقَه مَا تُلقِيه إِليه من الجَوابِ، وقِسْ نَفْسَك أنتَ لو كَلَّمْت رجُلًا أكبَرَ مِنْكَ مَنزِلةً، ثُم نَهَرَكَ ضاعَتْ حَواسُّك، ولم تَستَطِع أن تُرتِّب فِكْرَك وعَقْلَك؛ لهذا لَا تَنهَرِ السائِلَ.

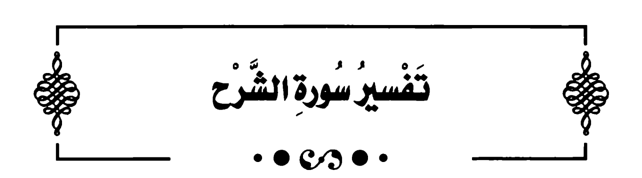
ورُبَّما يَدخُل فِي ذلِك أيضًا سائِلُ المالِ، يَعنِي إِذَا جاءَكَ سائِلٌ يَسأَلُك مالًا فلَا تَنهَرْه، لكِنْ هَذا العُمومُ يَدخُله التَّخصيصُ: إِذَا عرَفْت أن السائِلَ فِي العِلْم إِنَّما يُريد التَّعنُّت، وأَخْذ رَأْيك وأَخْذ رَأْيِ فُلان وفُلان حتَّى يَضرِب آراءَ العُلَماء بعضَها ببَعْض، فإِذَا علِمْت ذلِك فهُنا لَكَ الحَقُّ أن تَنهَرَه، وأن تَقولَ: يا فُلانُ، اتَّقِ الله، أَلَمْ تَسأَل فُلانًا؟! كيفَ تَسأَلُني بعدَما سأَلْته؟! أَتَلْعَب بدِينِ الله؟! أَتُريدُ إِن أَفتاكَ النَّاسُ بما تُحِبُّ سكَتَّ، وإِن أَفتوك بما لَا تُحِبُّ ذهَبْتَ تَسأَل؟!. هَذا لَا بأسَ أن تَنهَرَه؛ لأن هَذا النَّهْرَ تَأديبٌ لَه.

وكذلِكَ سائِلُ المالِ إِذَا علِمْت أن الَّذِي سأَلَك المالَ غَنِيٌّ فلَكَ الحَقُّ أن تَنهَره، ولَك الحَقُّ أيضًا أن تُوبِّخَه على سُؤالِه وهُو غَنيٌّ، إِذَنْ هَذا العُمومُ: ﴿ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ مَخْصوص فيما إِذَا اقتَضَتِ المَصْلحةُ أن يُنهَر فلَا بأس.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ نِعْمة الله تعالى على الرَّسول ﷺ الَّتِي ذُكِرَت فِي هَذِه الآياتِ ثَلاثٌ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، وبِهَذِه الثَّلاثِ تَتِمُّ النِّعَمُ، حدِّثْ بنِعْمةِ الله قُلْ: كُنتُ يَتيمًا فآوانِي اللهُ، كُنتُ ضالًّا فهَداني اللهُ، كُنتُ عائِلًا فأَغْناني اللهُ، لكِنْ تَحدَّث بها إِظهارًا للنِّعْمة وشُكْرًا للمُنعِم، لَا افتِخارًا بها على الخَلْق؛ لأَنَّكَ إِذَا فعَلْت ذلِك افتِخارًا على الخَلْق كانَ هَذا مَذمومًا، أمَّا إِذَا قُلْتَ أو إِذَا ذكَرْت نِعْمة الله عليكَ تَحدُّثًا بالنِّعَم، وشُكْرًا للمُنعِم فهَذا مِمَّا أَمَرَ اللهُ به.

هذه كلِماتٌ يَسيرةٌ على هذِه السُّورةِ العَظيمةِ، ومَا نَقوله نَحنُ أو غيرُنا من أَهْل العِلْم فإِنه لَا يَستوعِب مَا دَلَّ علَيْه القُرْآنُ من المَعانِي العَظيمة، نَسأَل اللهَ أن يَرزُقَنا الفَهْم فِي دِين الله، وَالعَمَل بما علِمْنا، إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ۞ ● •



تَفْسِيرُ سُورةِ الشَّرْح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح:١-٨].

•••

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مُبيِّنًا نِعمَتَه على نَبيِّه مُحمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هَذا الاسْتِفْهامُ يَقول العُلَماء: إنه استِفْهامُ تَقريرٍ، واستِفْهامُ التَّقرير يَرِد فِي القُرآن كَثيرًا، ويُقدَّر الفِعْل بفِعْل ماضٍ مَقرونٍ بـ(قَدْ)، ففي قَوْلِه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ يُقدَّر بأن المَعنَى قَد شرَحْنا لَك صَدْرك؛ لأن الله يُقرِّر أنَّه شرَح لَه صَدْره، وهكَذا جَمِيع مَا يَمُرُّ بِكَ من استِفْهام التَّقرير فإنه يُقدَّر بِفِعْل ماضٍ مَقرونٍ بـ(قَدْ)، أمَّا كَوْنه يُقدَّر بفِعْل ماضٍ؛ فلأَنَّه قَد تَمَّ وحصَل، وأمَّا كونُه مَقرونًا بـ(قَدْ)؛ فلأَنَّ (قَدْ) تُفيد التَّحقيق إِذَا دخَلَت على الماضِي، وتُفيدُ التَّقليل إِذا دخَلَت على المُضارِع، وقد تُفيد التَّحْقيق، ففي قولِ النَّاس: (قَد يَجودُ البَخيلُ) (قَد) هذِه للتَّقليل، لكِن فِي قَوْلِه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤]، هذِه للتَّحقيق ولَا شَكَّ.

يَقولُ اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ أي: نُوسِّعه، وهَذا الشَّرْحُ شَرْح مَعنَوِيٌّ ليسَ شَرْحًا حِسِّيًّا، وشَرْح الصَّدْر أن يَكُون مُتَّسِعًا لحُكْم الله عَزَّوَجَلَّ بنَوْعَيْه، حُكْمِ الله الشَّرْعِيِّ وهُو الدِّين، وحُكْمِ الله القدَرِيِّ وهُو المَصائِبُ الَّتِي تَحدُث على الإنسان؛ وذلِك لأن الشَّرْع فيه مُخالَفة للهَوَى، فيَجِد الإِنْسان ثِقَلًا فِي تَنفيذ أَوامِر الله، وثِقَلًا فِي اجتِناب مَحارِم الله؛ لأنَّه مُخالِف لِهَوى النَّفْس، وَالنَّفْس الأَمَّارة بالسُّوء لَا تَنشَرِح لأَوامِر الله ولَا لنَواهِيه، تَجِد بعض النَّاس تَثقُل عليه الصلاةُ كما قالَ اللهُ تعالى فِي المُنافِقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء:١٤٢]، ومن النَّاس مَن تَخِفُّ عليه الصلاة، بَلْ يَشْتاق إِليها ويَتَرَقَّب حُصولَها كما قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[1].

إِذَن فالشَّرْع فيه ثِقَل على النُّفوس، كاجْتِناب المُحرَّمات، فبعضُ النَّاس يَهوَى أَشياءَ مُحرَّمةً عليه كالزِّنا وشُرْب الخَمْر ومَا أَشبَه ذلِك فتَثقُل عليه، ومن النَّاس مَن يَنشَرِح صَدْره لذلِكَ ويَبتَعِد عَمَّا حرَّمَ الله.

وانظُرْ إِلى يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا دَعَتْه امرأةُ العَزيز بعْدَ أن غلَّقَتِ الأَبْوابَ وقالت: هَيتَ لَكَ. وتَهيَّأَتْ لَه بأَحسَنِ مَلبَس وأَحسَنِ صُورة، وَالمَكانُ آمِنٌ أن يَدخُل أحدٌ، غَلَّقَتِ الأَبوابَ، وقالت: هَيْتَ لَكَ. قالَ: مَعاذَ الله. استَعاذَ برَبِّه؛ لأن هذِه حالٌ حرِجةٌ، شابٌّ وامرأةُ العَزيز، ومَكانٌ خالٍ وآمِنٌ، وَالإِنسان بشَرٌ رُبَّما تُسوِّل لَه نَفْسه أن يَفعَل، ولِهَذا قالَ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف:٢٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٩٣٩)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ. وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»[1]، وَالشاهِدُ من هَذا قَوْلُه: «**رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»، فشَرْح الصَّدْر للحُكْم الشَّرْعيِّ مَعناه قَبولُ الحُكْم الشَّرعيِّ وَالرِّضا به وامتِثالُه، وأن يَقول القائِلُ: سمِعْنا وأَطَعْنا. وأنتَ بنَفْسك أَحيانًا تَجِد قَلْبَكَ مُنشَرِحًا للعِبادة تَفعَلها بسُهولة وانقِيادٍ وطُمَأْنينة ورِضًا، وأَحيانًا بالعَكْس لولا خَوفُك من الإِثْم مَا فعَلْت، فإِذَا كانَ هَذا الاختِلافُ فِي الشَّخْص الواحِد فمَا بالُكَ بالأَشْخاص.

وأمَّا انشِراحُ الصَّدْر للحُكْم القَدَرِيِّ، فالإِنسانُ الَّذِي شرَح اللهُ صَدْره للحُكْم الكَوْنيِّ تَجِده راضِيًا بقَضاء الله وقدَرِه، مُطمَئِنًّا إِليه، يَقول: أنا عَبْد، وَالله رَبٌّ يَفعَل مَا يَشاءُ. هَذا الرَّجُل الَّذِي على هذِه الحَالِ سيَكون دائِمًا فِي سُرور لَا يَغتَمُّ ولَا يَهتَمُّ، هُو يَتَأَلَّم، لكِنَّه لَا يَصِل إِلى أن يَحمِل هَمًّا أو غَمًّا؛ ولِهَذا جاءَ فِي الحَديثِ الصَّحيح أن النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالَ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس فِي المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إِخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنْ: (شَرْح الصَّدْر) يَعنِي: تَوسِعته وتَهْيِئته لأَحْكام الله الشَّرْعيَّة وَالقَدَريَّة، لَا يَضيق بأَحْكام الله ذَرْعًا إِطلاقًا، ونَبيُّنا مُحمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له الحَظُّ الأَوفَرُ من ذلِك؛ ولِهَذا تَجِده أَتقى النَّاسِ لله، وأَشَدَّهُم قِيامًا بطاعة الله، وأَكثَرهُم صَبْرًا على أَقدار الله، ماذا فعَلَ النَّاس به حين قامَ بالدَّعْوة؟ وماذا يُصيبه من الأَمْراض؟ حتَّى إِنه يُوعَكُ كَما يُوعَكُ الرَّجُلان مِنَّا، يَعنِي أن المَرَض يَشدُد عليه، يَعنِي: كرَجُلَيْن مِنَّا، فعَنْ عبدِ الله بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: دخَلْتُ على رَسولِ الله ﷺ وهُو يُوعَكُ، فقُلْتُ: يا رَسولَ الله، إِنَّكَ تُوعَكُ وَعْكًا شَديدًا. قالَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَما يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنكُمْ»[1]، وحتَّى إِنَّه شُدِّد عليه عند النَّزْع عِند المَوْت عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتَّى يُفارِق الدُّنْيا وهُو أَصبَرُ الصابِرين، وَالصَّبْر درَجةٌ عالِيةٌ لَا تُنالُ إِلَّا بوُجود شيءٍ يُصبَرَ عليه، أَمَّا الشيءُ اليَسيرُ البارِد فلَا صَبرَ عليه؛ لهذا نَجِد الأَنْبياءَ أكثَرَ النَّاسِ بَلاءً، ثُمَّ الصالِحِين الأَمْثَل فالأَمْثَل.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ قَد يَقولُ قائِلٌ: إِن بين الجُمْلَتَيْن تَنافُرًا، الجُمْلة الأُولى فِعْل مُضارِع: ﴿نَشْرَحْ﴾، وَالثانِيةُ فِعْل ماضٍ (وضَعْنا)، لكِن بِناءً على التَّقرير الَّذِي قُلْت وهُو أن ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بمَعنَى: قَد شرَحْنا. يَكُون عَطْف ﴿وَوَضَعْنَا﴾ عَطْفه على نَظيرِه ومَثيلِه، ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وضَعْناه أي: طرَحْناه وعفَوْنا وسامَحْنا وتَجاوَزْنا عَنْك ﴿وِزْرَكَ﴾؛ أي: إِثْمَكَ ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يَعنِي: أَقَضَّه وآلَمَه؛ لأنَّ الظَّهْر هُو مَحَلُّ الحِمْل، فإِذَا كانَ هُناك حِمْل يُتعِب الظَّهْر فإِتْعاب غيرِه

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء، رقم (٥٦٤٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، رقم (٢٥٧١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

من بابِ أَوْلى؛ لأن أَقْوى عُضوٍ فِي أَعضائِكَ للحِمْل هُو الظَّهْر، وانظُرْ للفَرْق بين أن تَحمِل كِيسًا على ظَهْرك أو تَحمِله بين يَدَيْك، بينهما فَرْق.

فالمَعنَى أن الله تعالى غفَرَ للنَّبيِّ ﷺ وِزْرَه وخَطيئَتَه حتَّى بَقِيَ مَغفورًا له، قالَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١-٢]، وقيلَ للنَّبيِّ ﷺ وهُو يَقوم اللَّيْل ويُطيل القِيام حتَّى تَتورَّم قدَماهُ أو تَتفطَّر، قيل لَه: أَتَصْنَعُ هذا، وقَدْ غفَرَ اللهُ لَك مَا تَقدَّم من ذَنْبِكَ ومَا تَأَخَّر؟! فقالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[1].

إِذَنْ: مَغفِرة الذُّنوب المُتقَدِّمة وَالمُتأخِّرة ثابِتة بالقُرْآن وَالسُّنَّة، وهَذا من خَصائِصِ الرَّسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، لَا أَحَدَ من النَّاس يُغفَر لَه مَا تَقدَّم ومَا تَأخَّر إلَّا الرَّسولَ ﷺ، أمَّا غيرُه فيَحتاجُ إلى تَوْبة من الذَّنْب، وقد يَغفِر اللهُ لَه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بدون تَوْبة مَا دون الشِّرْك، لكِنِ الرَّسولُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ نَجزِم بأنه قَد غُفِرَ لَه مَا تَقدَّم من ذَنْبه ومَا تَأخَّر؛ ولهذا قالَ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

فإِن قالَ قائِلٌ: هذِه الآيَةُ ومَا سُقْناه شاهِدًا لهَا يَدُلُّ عَلَى أن الرَّسولَ ﷺ قَد يُذنِب، فهلِ النَّبيُّ ﷺ يُذنِب؟

فالجَوابُ: نعَمْ، ولَا يُمكِن أن نَرُدَّ النُّصوص لمُجرَّد أن نَستَبْعِد وُقوع الذَّنْب منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ونحن لَا نَقُول: الشَّأْن أَلَّا يُذنِب الإِنْسانُ. بَلِ الشَّأْن أن يُغفَر للإِنْسان، هَذا هُو المُهِمُّ أن يُغفَر لَه، أمَّا أن لَا يَقَع منه الذَّنْب فقَدْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ الليل حتَّى ترم قدماه، رقم (١١٣٠)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال والاجتهاد فِي العبادة، رقم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[1]، لا بُدَّ من خَطيئة، لكِن هُناكَ أَشياءُ لَا يُمكِن أن تَقَع من الأَنْبياء مِثْل الكَذِب وَالخِيانة، فإِن هَذا لَا يُمكِن أن يَقَع مِنهم إِطلاقًا؛ لأن هَذا لو فُرِض وُقوعُه لكان طَعْنًا فِي رِسالَتِهم، وهَذا شيءٌ مُستَحيل، وسَفاسِفُ الأَخْلاق من الزِّنا وشِبْهه هَذا أيضًا مُمتَنِع؛ لأنه يُنافِي أَصْل الرِّسالة، فالرِّسالةُ إِنَّما وُجِدَت لتَتْميم مَكارِم الأَخْلاق كَما قالَ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[2].

فالحاصِلُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وضَعَ عن مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وِزْره، وبيَّن أن هَذا الوِزْرَ قَد أَنقَضَ ظَهْره، أَيْ: أَقَضَّه وأَتعَبَه، وإِذَا كانَ هَذا وِزْر الرَّسول ﷺ فكَيْف بأَوْزار غيرِه، أَوْزارُنا تُقِضُّ ظُهورَنا وتَنقُضها وتُتْعِبها، ولكِن كأَنَّنا لم نَحمِل شيئًا؛ وذلِك لضَعْف إِيمانِنا وبَصيرَتِنا وكَثْرة غَفْلتنا، نَسأَل الله أن يُعامِلَنا بالعَفْو.

فِي بعض الآثار أن المُؤمِن إِذَا أَذنَب ذنبًا صار عِنده كالجَبَل فوقَ رَأْسه، وأن المُنافِق إِذَا أَذنَب ذَنْبًا صار عِنده كذُبابٍ وَقَع على أَنْفِه فقالَ به هكذا، يَعنِي أَنَّه لَا يَهتَمُّ، فالمُؤمِن تُهِمُّه خَطاياهُ وتَلحَقه الهُموم حتَّى يَتَخلَّص مِنها بتَوْبة واستِغْفار، أو حسَنات جَليلة تَمْحو آثار هذِه السَّيِّئةِ، وأنت إِذَا رأَيْتَ من قَلْبِكَ الغَفْلة عن ذُنوبك فاعلَمْ أن قَلْبكَ مَريضٌ؛ لأن القَلْب الحَيَّ لَا يُمكِن أن يَرضَى بالمَرَض، ومَرَض القُلوب

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١)، والبزار، رقم (٨٩٤٩)، والبيهقي (١٠/ ١٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هِي الذُّنوب كَمَا قالَ عبدُ الله بنُ المُبارَك رَحِمَهُ اللَّهُ[١]:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

فيَجِب علينا أن نَهتَمَّ بأَنْفُسنا وأن نُحاسِبها، وإِذَا كانَ التُّجَّار لَا يَنامون حتَّى يُراجِعوا دَفاتِر تِجارَتِهم: ماذا صرَفوا؟ وماذا أَنفَقوا؟ وماذا كسَبوا؟ فإِن تُجَّار الآخِرة يَنبَغي أن يَكونوا أشدَّ اهتِمامًا؛ لأن تِجارَتَهم أَعْظمُ، فتِجارة أَهْل الدُّنيا غاية مَا تُفيدهم -إِن أَفادَتْهم- هُو إِتْراف البدَن فقَطْ، على أن هذِه التِّجارةَ يَلحَقُها من الهَمِّ وَالغَمِّ مَا هُو مَعلوم، وإِذَا خسِرَ فِي سِلعة اهتَمَّ لذَلِكَ، وإِذَا كانَ فِي بلَده مَخاوِفُ: قُطَّاع طَرِيق، أو سُرَّاق صار أَشَدَّ قلَقًا، لكِن تِجارة الآخِرة على العَكْس من هَذا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الصف:١٠-١٢]، تُنجِي من العَذاب، ويَغفِر الله بها الذُّنوب، ويُدخِل بها الجَنَّاتِ، جَنَّاتِ عَدْن، أي: جَنَّات إِقامة؛ ومَساكِن طَيِّبة فِي جَنَّات عَدْن، مَساكِن طَيِّبة فِي بِنايَتها، وفي مادَّة البِناء، كَمَا قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[٢]، وَاللهِ لو يَبقَى الإِنسان فِي سَجْدة مُنْذُ بلَغَ إِلى أن يَموت لكانَ هَذا ثَمَنًا قَليلًا بالنِّسْبة إِلى هذِه الغَنيمةِ

---

(١) انظر: الداء والدواء (ص:٥٩)، والآداب الشرعية (١/ ١٤٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ومن دونهما جنتان، رقم (٤٨٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (١٨٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العَظيمة، ولو لم يَكُن إلَّا أن يَنجوَ الإنسانُ من النارِ لكَفَى، أَحيانًا الإِنسانُ يُفكِّر يَقول: لَيْتَني لم أُولَد، أو يَكفِيني أن أَنجُوَ من النار.

وها هُو عُمرُ بنُ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ: لَيْتَني شجَرة تُعضَد، ليتَ أُمِّي لم تَلِدْني[1]؛ لأن الإنسان يَظُنُّ أنَّه آمِنٌ؛ لأنَّه يُصلِّي، ويَصوم، ويَتَصدَّق، ويَحُجُّ، ويَبَرُّ الوالِدَيْن، ومَا أَشبَه ذلِك، لكِن قَد يكُون فِي قَلْبه حُسَيْكة تُؤدِّي إلى سُوء الخاتِمة، -والعِياذُ بالله- كَما قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ**»[2]، يَعنِي: مُدَّة قَريبة لِمَوْته مَا هُو إلَّا ذِراع فِي العمَل؛ لأن عمَلَه كلَّه هَباءٌ، هُو يَعمَل بعمَلِ أَهْل الجَنَّة فيما يَبدو للناسِ، وهُو من أَهْل النار كَما جاءَ فِي الحَديث الصَّحيحِ[3]، لكِنْ قَوْلُه ﷺ: «**حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ**»، ليسَ مَعناه: أن عمَلَه أَوْصَلَه إلى قَريبٍ من الجَنَّة، وإِنَّما المَعنَى حتَّى لَا يَبقَى عليه إلَّا مُدَّة قَليلة فِي الحَياة، «**ثُمَّ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلَهَا**»، لكِن هَذا فيما إِذَا كانَ عمَل الإِنسان للناس كَما قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، وَالإِنسانُ إِذَا مَرَّ على مِثْل هذِه النُّصوصِ يَخاف على نَفْسه، يَخاف من الرِّياء، يَخاف من العُجْب، يَخاف من الإِذْلالِ.

---

(١) أخرجه ابن المبارك فِي الزهد والرقائق، رقم (٢٣٤)، وابن أبي شيبة، رقم (٣٥٦٢١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي فِي بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لَا يقول فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ رَفع ذِكْر الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَا أَحَدَ يَشُكُّ فيه:

أَوَّلًا: لأَنَّه يُرفَع ذِكْره عند كُلِّ صَلاة فِي أعلى مَكان، وذلِك فِي الأَذان: أَشهَدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشهَدُ أن مُحَمَّدًا رَسولُ الله.

ثانيًا: يُرفَع ذِكْره فِي كُلِّ صَلاة فرضًا فِي التَّشهُّد، فإن التَّشهُّد مَفروض، وفيه: أَشهَدُ أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأَشهَدُ أن مُحَمَّدًا عَبْده ورَسولُه.

ثالثًا: يُرفَع ذِكْره عِند كُل عِبادة، فكُلُّ عِبادة مَرفوعٌ فيها ذِكْر الرَّسول ﷺ؛ وذلِكَ لأَنَّ كُلَّ عِبادة لا بُدَّ فيها من شَرْطَيْن أَساسَيْن هُما: الإِخْلاص لله تعالى، وَالْمُتابَعة للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومِن المَعْلوم أن المُتابع للرَّسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم سَوْف يَستَحضِر عِند العِبادة أنَّه مُتَّبع فيها رَسولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهَذا من رَفْع ذِكْره.

قَوْلُه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هَذا بِشارةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولِسائِر الأُمَّة، وجرَى على الرَّسول ﷺ عُسْر حينَما كانَ بمكَّةَ يُضيَّق عليه، وفي الطائِف، وكذلكَ أيضًا فِي المَدينة من المُنافِقين فالله يَقولُ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ يَعنِي: كما شَرَحْنا لَك صَدْرَك، ووَضَعْنا عَنْك وِزْرك، ورَفَعْنا لَك ذِكْرك، وهذِه نِعَم عَظيمة كذَلِك هَذا العُسْرُ الَّذِي يُصيبُك لا بُدَّ أن يَكُون له يُسْرٌ.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قالَ ابنُ عبَّاسٍ عِند هذِه الآيَةِ: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»، وتَوْجيه كَلامِه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مَع أن العُسْر ذُكِر مرَّتَيْن، وَاليُسْر ذُكِر مرَّتَيْن.

قالَ أَهْل البَلاغة: تَوْجيهُ كلامِه أن العُسْر لم يُذكَر إِلَّا مرَّةً واحِدةً ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ العُسْر الأوَّل أُعيد فِي الثانية بـ(أل)، فـ(أل) هُنا للعَهْد الذِّكْرِيِّ، وأمَّا (يُسْر) فإِنه لم يَأْت مُعرَّفًا بل جاءَ مُنكَّرًا، وَالقاعِدة: أنَّه إِذَا كُرِّر الاِسْم مرَّتَيْن بصِيغة التَّعريف فالثانِي هُو الأوَّل إِلَّا مَا ندَر، وإِذَا كُرِّر الاِسْم مرَّتَيْن بصيغة التَّنكير فالثاني غَيرُ الأوَّل؛ لأن الثانِيَ نَكِرة، فهُو غَيْر الأوَّل، إِذَنْ فِي الآيَتَيْن الكَريمتَيْن يُسْران، وفيهِما عُسْر واحِدٌ؛ لأن العُسْر كُرِّر مرَّتَيْن بصِيغة التَّعريف ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هَذا الكَلامُ خَبَر من الله عَزَّوَجَلَّ، وخبَرُه جَلَّوَعَلَا أَكمَلُ الأَخْبار صِدْقًا، ووَعْدُه لَا يُخلَف، فكُلَّما تَعسَّر عليكَ الأَمْر فانتَظِر التَّيْسير، أمَّا فِي الأُمور الشَّرْعيَّة فظاهِرٌ، ففي الصَّلاة: صَلِّ قائِمًا، فإِن لم تَستَطِعْ فقاعِدًا، فإِن لم تَسْتَطِعْ فعلى جَنْب، فهَذا تَيْسيرٌ، إِذَا شَقَّ عليكَ القِيامُ اجلِسْ، إِن شَقَّ علَيْك الجُلوس صَلِّ وأنتَ على جَنْبك، وفِي الصِّيام إِن قدَرْت وأنت فِي الحَضَر فصُمْ، وإِن لم تَقدِرْ فأَفطِرْ، إِذَا كُنْت مُسافِرًا فأَفطِر، فِي الحَجِّ إِنِ استَطَعْت إِليه سَبيلًا فحُجَّ، وإِن لم تَستَطِعْ فلَا حَجَّ عليكَ، بل إِذَا شَرَعْت فِي الحَجِّ وأُحصِرْتَ ولم تَتمكَّن معه من إِكْمال الحَجِّ فتَحلَّل، وافسَخِ الحَجَّ وأَهْدِ؛ لقَوْل الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة:١٩٦].

إِذَنْ كُلُّ عُسْر يَحدُث للإِنسان فِي العِبادة يَجِد التَّسهيل وَاليُسْر، كذَلِكَ فِي القَضاء وَالقَدَر، يَعنِي: تَقدير الله على الإِنسان من مَصائِب، وضِيق عَيْش، وضِيق صَدْر وغيره فلَا يَيْأَس، فإِن مَع العُسْر يُسْرًا، وَالتَّيْسير قَد يَكُون أمرًا ظاهِرًا حِسِّيًّا، مِثْل: أن يَكُون الإِنْسان فَقيرًا فتَضيق عليه الأُمورُ، فيُيَسِّرِ الله لَه الغِنَى.

مِثالٌ آخَرُ: إِنسانٌ مَرِيض يَتعَب يَشُقُّ عليه المَرَض، فيَشفِيه الله عَزَّوَجَلَّ، هَذا أيضًا تَيْسيرٌ حِسِّيٌّ.

هُناكَ تَيْسيرٌ مَعنَوِيٌّ وهُو مَعونةُ الله الإنسانَ على الصَّبْر هَذا تَيْسيرٌ، فإِذَا أَعانَك الله على الصَّبْر تَيسَّر لَك العَسيرُ، وصار هَذا الأَمْرُ العَسيرُ الَّذِي لو نزَل على الجِبال لدَكَّها، صار بما أَعانَك اللهُ عليه من الصَّبْر أَمْرًا يَسيرًا، وليس اليُسْر مَعناه أن يَنفَرِج الشيءُ تمَامًا فقَطِ، اليُسْر أن يَنفرِج الكَرْب ويَزول، وهَذا يُسْر حِسِّيٌّ، وأن يُعينَ اللهُ الإِنسانَ على الصَّبْر حتَّى يَكُون هَذا الأَمْرُ الشَّديدُ العَسير أمرًا سَهْلًا عليه؛ نَقُول هَذا لأَنَّنا واثِقون بوَعْد الله.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾؛ أي: إِذَا فرَغْت من أَعْمالِك فانصَبْ لعمَلٍ آخَرَ، يَعنِي: اتْعَبْ لعمَلٍ آخَرَ، لَا تجعَلِ الدُّنْيا تَضيع عليكَ؛ ولِهذا كانَت حَياةُ الإِنسان العاقِلِ حَياةَ جِدٍّ، كُلَّما فرَغ من عمَلٍ شرَعَ فِي عمَل آخَرَ، وهكَذا؛ لأن الزَّمَن يَفوت على الإِنسان -فِي حال يَقظَته ومَنامه، وشُغْله وفَراغه- يَسيرًا، ولَا يُمكِن لأَحَد أن يُمسِك الزَّمَن، لوِ اجتمَع الخَلْق كلُّهُم ليُوقِفوا الشَّمْس حتَّى يَطولَ النَّهار مَا تمَكَّنوا، فالزمَنُ لَا يُمكِن لأَحَد أن يُمسِكه، إِذَنِ اجعَلْ حَياتَك حَياةَ جِدٍّ، إِذَا فرَغْت من عمَلٍ فانْصَبْ فِي عمَلٍ آخَرَ، إِذَا فرَغْت من عمَلِ الدُّنْيا عليكَ بعمَل الآخِرة، وإذا فرَغْتَ من عمَل الآخِرة اشتَغَلْت بأَمْر الدُّنْيا، فإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاة يَوْم الجُمُعة فانْتَشِرْ فِي الأَرْض، وابتَغِ من فَضْل الله، وصَلاةُ الجُمُعة يَكتَنِفها عمَلانِ دُنْيوِيَّان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾، يَعنِي: وأَنتم مُشتَغِلون فِي دُنْياكم ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩-١٠]، فإِذَا فرَغْنا من شُغْل

اشتَغَلْنا فِي آخرَ، وإِذَا فرَغْنا منه اشتَغَلْنا فِي آخَرَ، وهكذا يَنبَغي أن يَكُون الإِنسانُ دائِمًا فِي جِدٍّ.

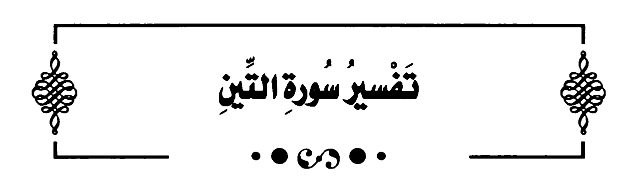
فإِذَا قالَ قائِلٌ: لو أَنَّني استَعْمَلْت الجِدَّ فِي كُلِّ حَياتي لتَعِبْت ومَلَلْت.

قُلْنا: إِن استِراحَتَك لتَنشيط نَفْسِك وإِعادة النَّشاط يُعتَبَر شُغْلًا وعمَلًا، يَعنِي: لَا يَلزَم الشُّغْل الحَرَكات، ففراغُك من أَجْل أن تَنشَط للعَمَل الآخَرِ يُعتبَر عمَلًا، المُهِمُّ أن تَجعَل حَياتَك كُلَّها جِدًّا وعمَلًا.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ يَعنِي إِذَا عمِلْت الأَعْمال الَّتِي فرَغْت مِنها ونَصَبْت فِي الأُخْرى، فارْغَبْ إِلى الله عَزَّوَجَلَّ فِي حُصول الثَّواب، وفي حُصول الأَجْر، وفي الإِعانة، كُنْ مَع الله عَزَّوَجَلَّ قبلَ العمَلِ وبعدَ العمَلِ، قبلَ العمَل كُنْ مَع الله تَستَعينه عَزَّوَجَلَّ، وبعدَه تَرجو منه الثَّوابَ.

وفي قَوْله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ فائِدةٌ بَلاغِيَّة (إِلى رَبِّكَ) مُتعَلِّقة من حيثُ الإِعراب بـ(ارْغَبْ) وهِي مُقدَّمة عليها، وتَقديم المَعْمول يُفيدُ الحَصْر، يَعنِي: إِلى الله لَا إِلى غيرِه فارْغَبْ فِي جَمِيع أُمورِك، وثِقْ بأَنَّك متَى علَّقْتَ رَغْبَتَك بالله عَزَّوَجَلَّ فإِنَّه سَوْف يُيَسِّر لَك الأُمور، وكَثيرٌ من النَّاس تَنقُصُهم هذِه الحَالُ، أي: يَنقُصُهم أن يَكونوا دائِمًا راغِبين إِلى الله، فتَجِدُهم يَختَلُّ كَثيرٌ من أعمالِهم؛ لأَنَّهم لم يَكُن بينَهُم وبين الله تعالى صِلَةٌ فِي أَعْمالهم، نَسأَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَجعَلَنا مُمتَثِلين لأَوامِره، مُصَدِّقين بأَخْباره، إِنَّه على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

• • ۞ • •



تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:١-٨].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أَقسَمَ اللهُ تعالى بهَذِه الأَشياءِ الأَربعَةِ: بالتِّين، وَالزَّيْتون، وبطُور سِينِينَ، وهَذا البلَدِ الأَمين، يَعنِي: مكَّةَ، لأنَّ السُّورة مكِّيَّةٌ، فالمُشارُ إليه قَريبٌ وهُو مكَّةُ، ﴿وَالتِّينِ﴾ هُو الثَّمر المَعْروفُ، ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ مَعروفٌ، وأَقسَمَ الله بهما؛ لأَنَّهما يَكثُران في فِلَسطِينَ، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أَقسَمَ الله به؛ لأَنَّه الجَبَل الَّذِي كلَّمَ الله عِنْده مُوسَى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أَقسَمَ اللهُ به، أَعنِي: مكَّةَ؛ لأَنَّها أَحبُّ البِقاع إلى الله، وأَشرَفُ البِقاعِ عِندَ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قالَ بعضُ أَهْل العِلْم: أَقسَمَ اللهُ بهَذِه الثَّلاثة، لأنَّ الأَوَّلَ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ أَرْض فِلَسطينَ الَّتِي فيـها الأَنْبياءُ، وآخِـرُ أنبياءِ بَني إِسرائيلَ هُـو عِيسَى ابنُ مَريَمَ

عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبطُور سِينِينَ؛ لأَنَّه الجَبَل الَّذِي أَوْحَى اللهُ تعالى إِلى مُوسَى حَولَه، وأَمَّا البلَدُ الأَمينُ فهُو مكَّةُ الَّذِي بعَثَ الله مِنه مُحَمَّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قالَ العُلَماءُ: ومَعنَى قَوْله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾؛ أي: طُور البَرَكة؛ لأن اللهَ تعالى وصَفَه أو وصَفَ مَا حَوْلَه بالوادِي المُقدَّس.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هَذا هُو المُقسَم عليه، أَقسَم الله تعالى أَنَّه خَلَقَ الإِنسان فِي أَحسَنِ تَقْويم، وهذِه الجُمْلةُ الَّتِي فيها المُقسَم عليه مُؤكَّدة بثَلاثة مُؤكِّدات: القَسَم، وَاللَّام، و(قَدْ)، أَقسَمَ الله أَنَّه خَلَق الإِنسانَ ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فِي أَحسَنِ هَيْئة وخِلْقة و﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فِطْرةً وقَصْدًا؛ لأَنَّه لَا يُوجَد أَحَدٌ من المَخْلوقاتِ أَحسَنُ من بَني آدَمَ خِلْقةً، فالمَخْلوقاتُ الأَرْضيَّةُ كُلُّها دونَ بَني آدَمَ فِي الخِلْقة؛ لأنَّ الله تعالى قالَ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

قَوْلُه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ هذِه الرِّدَّةُ الَّتِي ذكَرَها الله عَزَّوَجَلَّ تَعنِي أن اللهَ تعالى يَرُدُّ الإِنسان أسفَلَ سافِلين خِلْقةً كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النحل:٧٠].

فكُلَّما ازدادَتِ السِّنُّ فِي الإِنسان تَغيَّرَ إِلى أَرْدَأَ فِي القُوَّة الجَسَديَّة، وفي الهَيْئة الجَسَديَّة، وفي نَضارة الوَجْه، وغيرِ ذلِكَ يُرَدُّ أَسفَلَ سافِلين، وإِذَا قُلنا: إن ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تَشمَل حتَّى الفِطْرة الَّتِي جبَلَ الله الخَلْقَ عليها، وَالعِبادةُ الَّتِي تَترَتَّب أو تَنبَني على هذِه الفِطْرةِ، فإِن هَذا إِشارة إِلى أن مِن النَّاس مَن تَعودُ به حالُه -وَالعِياذُ بالله- إِلى أن يَكُون أَسفَلَ سافِلين بعدَ أن كانَ فِي الأَعْلى وَالقِمَّة من الإِيمان وَالعِلْم، وَالآيَةُ تَشمَل المَعنيَيْن جَميعًا.

ثُمَّ قالَ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هَذا استِثْناءٌ من قَوْله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ يَعنِي: إلَّا المُؤمِنين الَّذِين آمَنوا وعمِلوا الصالِحاتِ فإِنَّهم لَا يُرَدُّون إِلى أَسفَل السافِلين؛ لأنَّهم مُتمَسِّكون بإِيمانهم وأَعْمالِهم، فيَبقَوْن عليها إِلى أن يموتوا.

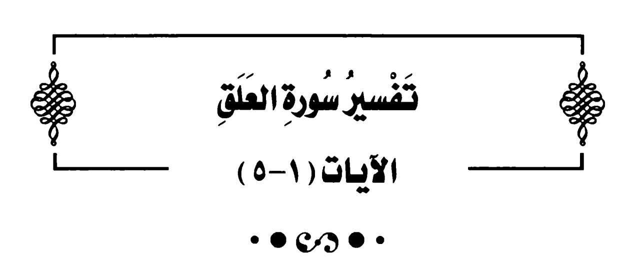
وقَوْله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾؛ أي: ثَوابٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غيرُ مَقْطوع، ولَا مَمْنون به أيضًا، فكلِمةُ ﴿مَمْنُونٍ﴾ صالِحةٌ لَمعنَى القَطْع، وصالِحةٌ لِمعنَى المِنَّة، فهُمْ لَهُم أَجْر لَا يَنقَطِع، ولَا يُمَنُّ عليهم به، يَعنِي أنَّهم إِذَا استَوْفَوْا هَذا الأَجْرَ لَا يُمَنُّ عليهم فيُقال: أَعْطَيْناكُم وفعَلْنا وفعَلْنا، وإِن كانَتِ المِنَّة لله عَزَّوَجَلَّ عليهم بالإِيمان وَالعمَل الصالِح وَالثَّواب، كلُّها مِنَّة من الله، لكِن لَا يُمَنُّ علَيْهم به، أي: لَا يُؤذَوْن بالمَنِّ كَما يَجرِي ذلِك فِي أُمور الدُّنْيا، إِذَا أَحسَنَ إِليك أحَدٌ من النَّاس فرُبَّما يُؤذِيك بمَنِّه عليكَ، فِي كُلِّ مُناسَبة يَقول: فعَلْت بكَ، أَعطَيْتُك. ومَا أَشبَهَ ذلِكَ.

ثُم قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ انتَقَل اللهُ تعالى من الكَلام على وَجه الغَيْبة إِلى الكَلام على وَجه المُقابَلة وَالخِطاب قالَ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ يُكذِّبك أيُّها الإِنسانُ بعد هَذا البَيانِ ﴿بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: بما أَمَرَ الله به من الدِّين؛ ولِهَذا كلَّما نظَرَ الإِنْسانُ إِلى نَفْسه وأَصْله وخِلْقته، وأن الله اجتَباهُ وأَحسَنَ خِلْقته، وأَحسَن فِطْرته فإِنه يَزداد إِيمانًا بالله عَزَّوَجَلَّ، وتَصديقًا بكِتابه وبما أَخبَرَتْ به رُسُله.

ثُم قالَ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وهَذا الاستِفْهامُ للتَّقرير يُقرِّر الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّه أَحكَمُ الحاكِمينَ، و(أَحكَمُ) هُنا اسمُ تَفْضيلٍ، وهُو مَأْخوذ من الحِكْمة، ومن

الحُكْم، فالحُكْم الأَكبَرُ الأَعظَمُ الَّذِي لَا يُعارِضه شيءٌ هُو حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ، وَالحِكْمة العُلْيا البالِغة هِي حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ فهُو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَحكَمُ الحاكِمين قَدَرًا وشَرْعًا، وله الحُكْم، وإِليه يُرجَع الأَمْرُ كلُّه، نَسأَل اللهَ تعالى أن يَرزُقَنا العِلْم بكِتابه، وسُنَّة رَسولِه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ۞ ● •



تَفْسِيرُ سُورَةِ العَلَقِ

الآيات (١-٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [اقرأ:١-٥].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هذِه الآياتُ أوَّلُ مَا نزَلَ على الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من القُرْآن الكَريم، نزَلَت عليه وهُو يَتَعبَّد فِي غارِ حِراءٍ، وكانَ رَسولُ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أوَّلَ مَا بُدِئَ بالوَحْي أنَّه يرَى الرُّؤْيا فِي المَنام، فتَأتِي مِثْل فلَقِ الصُّبْح[1]، يَعنِي: يَحدُث مَا يُصدِّق هذِه الرُّؤْيا، وأوَّلُ مَا كانَ يرَى هذِه الرُّؤْيا فِي رَبيعٍ الأوَّلِ، فبَقِيَ سِتَّة أَشهُر يرَى مِثْل هذِه الرُّؤْيا، ويَراها تَجِيءُ مِثْل فلَق الصُّبْح، وفي رمَضانَ نزَل الوَحْيُ الَّذِي فِي اليَقَظة، وَالمُدَّة بين رَبيعٍ الأوَّلِ ورمَضانَ سِتَّة شُهورٍ، وزمَنُ الوَحْيِ ثَلاثٌ وعِشْرون سَنَةً؛ ولِهَذا جاءَ فِي الحَديثِ: «أَنَّ الرُّؤْيَا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الصَّالِحَةَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[(١)]، لَمَّا كانَ يَرَى هَذِه الرُّؤْيا الَّتِي تَجِيء مِثْل فلَق الصُّبْح حُبِّب إِلَيه الخَلاءُ، يَعنِي: أن يَخلُوَ بنَفْسه ويَبتَعِد عن هَذا المُجتَمَع الجاهِلِيِّ، فرَأَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن أَحسَنَ مَا يَخْلو به هَذا الغارُ الَّذِي فِي جَبَل حِراءٍ، وهُو غارٌ فِي قِمَّة الجَبَل لَا يَكاد يَصعَد إِلَيه الإِنسانُ القَوِيُّ إِلَّا بمَشَقَّة، فكانَ يَصعَده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويَتحَنَّث، يَتعبَّد لله عَزَّوَجَلَّ بما فتَحَ اللهُ عليه فِي هَذا الغارِ اللَّيالِيَ ذَوات العَدَد، يَعنِي: عِدَّةَ لَيالٍ، ومعَه زادٌ أَخذَه يَتزوَّد به من طَعام وشَراب، ثُم يَنزِل ويَتزَوَّد لِمِثْلها من أَهْله، ويَرجِع ويَتَحنَّث لله عَزَّوَجَلَّ، إِلى أن نَزَل عليه الوَحْيُ وهُو فِي هَذا الغارِ، أَتاه جِبرِيلُ وأَمَرَه أن يَقرَأ فقالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»[(٢)].

ومَعنَى: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» يَعنِي: لَسْتُ من ذَوِي القِراءة، وليس مُرادُه المَعصية لأَمْر جِبرِيلَ، لكِنَّه لَا يَستَطيع، ليسَ من ذَوِي القِراءة، إذ إِنَّه ﷺ كانَ أُمِّيًّا كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]، فكانَ لَا يَقرَأ ولَا يَكتُب، وهَذا من حِكْمة الله أَنَّه لَا يَقرَأ ولَا يَكتُب، حتَّى تَتَبيَّن حاجَتُه وضَرورتُه إِلى هذِه الرِّسالةِ، وحتَّى لَا يَبقَى لشاكٍّ شَكٌّ فِي صِدْقه، وقد أَشار الله إِلى هَذِه فِي قَوْلِه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨]، قالَ لَه: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فغَطَّه مرَّتَيْن أو ثَلاثًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، رقم (٦٩٨٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ثُم قالَ لَه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ خَمس آياتٍ نزَلَت، فرجَعَ بها النَّبيُّ ﷺ يَرجُف فُؤادُه من الخَوْف وَالفزَع حتَّى أَتَى إِلى خَديجَةَ، وحَديثُ الوَحْيِ وابتِدائِه مَوْجودٌ فِي أوَّلِ صَحيحِ البُخاريِّ[1]، مَن أَحَبَّ أن يَرجِع إِليه فلْيَرجِعْ.

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ قَوْله: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ قيلَ: مَعناهُ: مُتَلبِّسًا بذلِكَ. وقيل: مُستَعينًا بذلِك. يَعنِي: اقْرَأْ مُستَعينًا باسْمِ الله؛ لأن أَسماءَ الله تعالى كُلُّها خَيْرٌ، وكُلُّها إِعانةٌ، يَستَعين بها الإِنْسانُ؛ يَستَعين بها على وُضوئِه، ويَستَعين بها على أَكْله، ويَستَعين بها على جِماعِهِ، فهِي كُلُّها عَوْنٌ، وقالَ: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ دونَ أن يَقولَ: باسْمِ الله؛ لأنَّ المَقام مَقامُ رُبوبِيَّة وتَصرُّف وتَدبير للأُمور وابتِداء رِسالةٍ؛ فلِهَذا قالَ: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ إِلَّا أنَّه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَد رَبَّاه الله تعالى تَرْبية خاصَّة، ورَبَّاه كذَلِك رُبوبِيَّة خاصَّة.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ أي: خلَقَ كُلَّ شيءٍ كَما قالَ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]، وقالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىۡءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢]، فَما من شيءٍ فِي السَّماء ولَا فِي الأرض، من خَفِيٍّ وظاهِرٍ، وصَغيرٍ وكَبيرٍ إِلَّا وهُو مَخلوقٌ لله عَزَّوَجَلَّ؛ ولِهَذا قالَ: ﴿خَلَقَ﴾ وحَذَف المَفْعول إِشارةً للعُمومِ؛ لأن حَذْف المَفْعول يُفيد العُموم، إِذ لَوْ ذَكَر المَفْعول لتَقيَّد الفِعْل به، لو قالَ: خَلَقَ كَذا. تَقيَّد الخَلْق بما ذكَرَ فقَطْ، لكِن إِذَا قالَ ﴿خَلَقَ﴾ وأَطلَق صار عامًّا فهُو خالِقُ كُلِّ شيءٍ جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (٣).

ثُم قالَ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى خَلْق الإِنسانِ تكريمًا للإِنسانِ وتَشريفًا لَه؛ لأن اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]؛ فلِهَذا نَصَّ على خَلْق الإِنسان ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ أي: ابتَدَأ خَلْقَه ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جَمْع، أو اسْمُ جَمْع عَلَقة، كشَجَر اسمُ جَمْع شجَرة، وَالعَلَق عِبارة عن دُودة حَمراءَ من الدَّمِ صَغيرة، وهَذا هُو المَنْشَأ الَّذِي به الحَياة؛ لأن الإِنْسان دَمٌ لو تَفرَّغ من الدَّمِ لهَلَكَ.

وقد بَيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّه خلَقَ الإِنسانَ من علَقٍ، ولكِنَّه يَتَطوَّر، وبيَّن فِي آياتٍ أُخرى أَنَّه خلَق الإِنسان من تُرابٍ، وفي آياتٍ أُخْرى خلَقَه من طين، وفي آياتٍ أُخرَى من صَلْصالٍ كالفَخَّار، وفي آياتٍ أُخرى من ماءٍ دافِقٍ، وفي آياتٍ أُخْرى من ماءٍ مَهينٍ، وفي هَذِه الآيَةِ من عَلَق، فهَلْ فِي هَذا تَناقُضٌ؟

الجَوابُ: ليسَ هُناك تَناقُض، ولَا يُمكِن أن يَكُون فِي كَلام اللهِ تعالى، أو مَا صَحَّ عن رَسولِه ﷺ شيءٌ من التَّناقُض أبَدًا، فإِن اللهَ يَقولُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، لكِنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَذكُر أحيانًا مَبدَأ الخَلْق من وَجْه، ومَبدَأ الخَلْق من وَجْه آخَرَ، فخَلْقه من تُرابٍ؛ لأن أوَّلَ مَا خُلِقَ الإِنسانُ من التُّراب، ثُم صُبَّ عليه الماءُ فكانَ طينًا، ثُم استَمَرَّ مُدَّةً فكانَ حَمَأً مَسْنونًا، ثُم طالَتْ مُدَّتُه فكانَ صَلْصالًا، يَعنِي: إِذَا ضرَبْتَه بيَدِك تَسمَع لَه صَلْصلة كالفَخَّار، ثُم خلَقه عَزَّوَجَلَّ لَحمًا، وعَظْمًا، وعَصَبًا إِلى آخِره، هَذا ابتِداءُ الخَلْق المُتعلِّق بآدَمَ.

وَالخَلْق الآخَرُ من بَنيه أوَّل مَنشَئِهم من نُطْفة، وهِي الماءُ المَهينُ، وهِي الماءُ الدافِقُ، هذِه النُّطْفةُ تَبقَى فِي الرَّحِم أَربَعين يومًا، ثُم تَتحوَّل شيئًا فشيئًا، وبتَمام

الأَرْبَعين تَتَقلَّب بالتَّطوُّر وَالتَّدريج حتَّى تكون دمًا علَقةً، ثُم تَبدَأ بالنُّموِّ وَالثُّخونة وتَتَطوَّر شيئًا فشيئًا، فإِذَا تمَّتْ ثَمانون يَومًا انتَقَلَت إِلى مُضْغة -قِطْعة من لَحْم بقَدْر مَا يَمضَغُه الإِنْسانُ- وتَبقَى كذَلِك أَربَعين يَوْمًا، فهَذِه مِئة وعِشْرون يومًا، وهِي بالأَشهُر أَرْبَعة أَشهُر، بعد أَربَعة أَشهُر يَبعَث الله إِليه الملَكَ المُوكَّل بالأَرْحام، فيَنفُخ فيه الرُّوحَ، فتَدخُل الرُّوح فِي الجَسَد بإِذْن الله عَزَّوَجَلَّ.

والرُّوحُ لَا نَستَطيع أن نَعرِف كُنْهها وحَقيقَتها ومادَّتَها، أَمَّا الجَسَد فأَصْله من التُّراب، ثُم فِي أَرْحام النِّساء من النُّطْفة، لكِنِ الرُّوحُ لَا نَعرِف من أيِّ جَوهَرٍ هيَ؟ ولَا مِن أيِّ مادَّةٍ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، فيَنفُخ المَلَك الرُّوحَ فِي هَذا الجَنينِ فيَبدَأ يَتحرَّك؛ لأن نَماءَهُ الأَوَّل كنَماء الأَشْجار بدون إِحْساس، بعد أن تُنْفَخ فيه الرُّوح يَكُون آدَمِيًّا يَتَحرَّك؛ ولِهذا إِذَا سقَطَ الحَمْل من البَطْن قبلَ أَربَعة أَشهُر دُفِن فِي أيِّ مَكان من الأَرْض، بدون تَغْسيل، ولَا تكْفين، ولَا صَلاةٍ عليه، ولَا يُبعَث؛ لأَنَّه ليسَ آدَمِيًّا، وبعد أَربَعة أَشهُر إِذَا سقَطَ يَجِب أن يُغسَّل، ويُكفَّن، ويُصلَّى عليه، ويُدفَن فِي المَقابِر؛ لأَنَّه صار إِنسانًا، ويُسمَّى أيضًا؛ لأَنَّه يَوْم القِيامة سيُدعَى باسْمِه، ويُعَقُّ عنه، لكِنِ العَقيقة عنه ليسَتْ فِي التَّأكيد كالعَقيقة عمَّن بلَغَ سَبْعةَ أَيَّام بعد خُروجِه، على كُلِّ حالٍ هَذا الجَنينُ فِي بَطْن أُمِّه يَتطوَّر حتَّى يَكُون بشَرًا، ثُم يَأذَن اللهُ عَزَّوَجَلَّ له بعد المُدَّة الَّتِي أكثَرَ مَا تَكون عادة تِسعة أَشهُر، فيَخرُج إِلى الدُّنْيا.

وبهَذه المُناسَبة أُبيِّن أن للإِنسانِ أَربَعَ دُورٍ:

الدارُ الأُولى: فِي بَطْن أُمِّه.

الدارُ الثانِية: فِي الدُّنْيا.

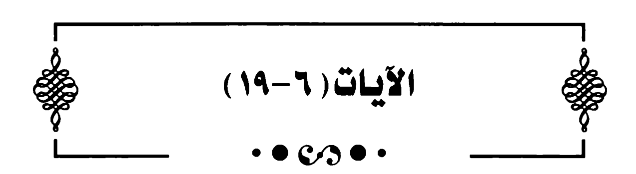
الدارُ الثالِثةُ: فِي البَرْزَخ.

الدارُ الرابِعةُ: فِي الجَنَّة أو النار وهِي المُنتَهَى.

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ ﴿ٱقْرَأْ﴾ تكرارٌ للأُولى، لكِن هل هِيَ تَوْكيدٌ أو هِي تَأْسيسٌ؟ الصَّحيحُ أنَّها تَأْسيسٌ، وأن الأُولى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ قُرِنَت بما يَتَعلَّق بالرُّبوبية.

و﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ قُرِنَت بما يَتَعلَّق بالشَّرْع، فالأُولى بما يَتَعلَّق بالقَدَر، وَالثانِية بما يَتَعلَّق بالشَّرْع؛ لأن التَّعليم بالقَلَم أكثَرَ مَا يَعتَمِد الشَّرْع عليه، إِذ إن الشَّرْع يُكتَب ويُحفَظ، وَالقُرْآن يُكتَب ويُحفَظ، وَالسُّنَّة تُكتَب وتُحفَظ، وكَلام العُلَماء يُكتَب ويُحفَظ؛ فلِهَذا أَعادَها اللهُ مرَّة ثانِيةً.

• • ❁ • •



الآيات (٦-١٩)

• ● ✿ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [اقرأ:٦-١٩].

• ● ✿ ● •

قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ فِي القُرْآن الكَريم تَرِد على عِدَّة مَعانٍ، مِنها: أن تَكون بمَعنَى حَقًّا كَما فِي هذِه الآيةِ فـ﴿كَلَّآ﴾ بمَعنَى: حقًّا، يَعنِي: أن الله تعالى يُثبِت هَذا إثباتًا لَا مِرْيةَ فيه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ الإِنسانُ هُنا ليسَ شَخْصًا مُعيَّنًا، بلِ المُرادُ الجِنْس، كلُّ إِنسانٍ من بَني آدَمَ إِذَا رأَى نَفْسه استغْنى فإِنه يَطغَى، من الطُّغْيان وهُو مُجاوَزة الحَدِّ، إِذَا رأَى أنَّه استغْنى عن رحمة الله طغَى ولم يُبالِ، إِذَا رأَى أنَّه استغْنى عن الله عَزَّوَجَلَّ فِي كَشْف الكُرُبات وحُصول المَطْلوبات صارَ لَا يَلتَفِت إِلى الله ولَا يُبالِي، إِذَا رأَى أنَّه استغْنى بالصِّحَّة نَسِيَ المَرَض، وإِذَا رأَى أنَّه استغْنى بالشِّبَع نَسِيَ الجُوع، إِذَا رأَى أنَّه استغْنى بالكِسْوة نَسِيَ العُرِيَّ، وهكَذا فالإِنسانُ من طَبيعته الطُّغْيان وَالتَّمرُّد متَى رأَى نَفْسه فِي غِنًى، ولكِن هَذا يَخرُج منه المُؤمِن؛ لأن المُؤمِن لَا يَرَى أنَّه استغْنى عن الله طَرْفةَ عَيْن، فهُو دائِمًا مُفتَقِر إِلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، يَسأَل رَبَّه كلَّ حاجةٍ، ويَلجَأ إِليه عِند كُلِّ مَكروهٍ، ويَرَى أنَّه إِن وكَلَه الله

إِلى نَفْسه وكَلَه إِلى ضَعْف وعَجْز وعَوْرة، وأَنَّه لَا يَملِك لنَفْسه نَفْعًا ولَا ضَرًّا، هَذا هُو المُؤمِن، لكِنِ الإِنسانُ من حيثُ هُو إِنسانٌ من طَبيعتِه الطُّغْيان، وهَذا كقَوْله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ مُهدِّدًا هَذا الطاغِيةَ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾؛ أَي: المَرجِع، يَعنِي مَهْما طغَيْت وعلَوْت واستكْبَرْت واستَغْنَيْت فإِن مَرجِعَك إِلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٣-٢٦]، وإِذَا كانَ المَرجِع إِلى الله فِي كُلِّ الأُمور فإِنه لَا يُمكِن لأَحَد أن يَفِرَّ من قَضاءِ الله أَبدًا، ولَا من ثَوابِ الله وعَدْله.

وقَوْلُه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ رُبَّما نَقُول: إِنه أَعَمُّ من الوَعيد وَالتَّهديد، يَعنِي: أَنَّه يَشمَل الوَعيد وَالتَّهديد، ويَشمَل مَا هُو أَعَمُّ، فيَكُون المَعنَى: إن إِلى الله المَرجِع فِي كُلِّ شيءٍ: فِي الأُمور الشَّرْعية التَّحاكُمُ إِلى الكِتاب وَالسُّنَّة ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، وَالأُمورُ الكَوْنيةُ المَرجع فيها إِلى الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٩]، فلَا رُجوعَ للعَبْد إِلَّا إِلى الله، كُلُّ الأُمور تَرجِع إِلى الله عَزَّوَجَلَّ، يَفعَل مَا يَشاءُ، حتَّى مَا يَحصُل بين النَّاس من الحُروبِ وَالفِتَن وَالشُّرور فإِن اللهَ هُو الَّذِي قدَّرَها، لكِنَّه قدَّرَها لِحِكْمة كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، إِذَنْ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ يَكُون فيها تَهديدٌ لِهَذا الإِنسانِ الَّذِي طغَى حينَ رأَى نَفْسه مُستَغْنِيًا عن رَبِّه، وفيها أيضًا مَا هُو أَشمَلُ وأَعَمُّ، وهُو أن المَرجع إِلى الله تعالى فِي كُلِّ الأُمور.

ثُم قالَ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ يَعنِي: أَخبِرْني عن حالِ هَذا الرَّجُلِ وتَعجَّب من حال هَذا الرَّجُلِ الَّذِي يَنهَى عبدًا إِذَا صلَّى، ففي الآيةِ ناهٍ ومَنهيٌّ، فالناهِي هُو طاغِيةُ قُرَيْشٍ أبو جَهْل، وكانَ يُلقَّب فِي قُرَيْشٍ أبا الحَكَم؛ لأنَّهم يَتَحاكَمون إِليه، ويَرجِعون إِليه، فاغتَرَّ بنَفْسه، وشرِقَ بالإِسلام، ومات على الكُفْر كَما هُو مَعروفٌ، هَذا الرجُلُ سَمَّاه النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أبا جَهْلٍ ضِدَّ تَسمِيَتهم إِيَّاه أبا الحَكَم.

وأمَّا المَنهِيُّ فهُو مُحَمَّدٌ ﷺ وهُو العَبْد ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ أبو جَهْل قيل لَه: إِن مُحَمَّدًا يُصلِّي عِند الكَعْبة أمام النَّاس، يَفتِن النَّاس ويُصَدُّهم عن أَصْنامِهم وآلِهَتِهم، فمَرَّ به ذاتَ يَوْم وهُو ساجِد فنهَى النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقالَ: لقَدْ نَهَيْتُك فلِماذا تَفعَل؟ فانتَهَره النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فرَجَعَ[1]، ثُم قيل لأَبي جَهْل: إِنه -أي: مُحَمَّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ما زال يُصلِّي فقالَ: وَاللهِ لَئِنْ رَأَيْتُه لأَطَأَنَّ عُنقَه بقَدَمي، ولأُعفِّرَنَّ وَجْهه بالتُّراب. فلَمَّا رآه ذاتَ يَوْم ساجِدًا تَحت الكَعْبة، وأَقبَل عليه يُريد أن يَبَرَّ بيَمينه وقسَمِه، لَمَّا أَقبَل عليه وجَدَ بينَه وبينَه خَندَقًا من النار وأَهْوالًا عَظيمةً، فنكَص على عَقِبَيْه، وعجَزَ أن يَصِل إِلى رَسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هَذا العَبْدُ الَّذِي يَنهَى عبدًا إِذَا صلَّى يَتَعجَّب من حاله كيفَ يَفعَل هذا؟ ولِهَذا جاءَ فِي آخِرِ الآياتِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ وأنَّه سيُجازِيه.

ثُم قالَ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يَعنِي: أَخبِرْني أَيُّها المُخاطَبُ إِن كانَ هَذا الساجِدُ مُحَمَّدٌ ﷺ على الهُدَى فكَيْف تَنْهاه عَنْه؟!

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، باب قوله: إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، رقم (٢٧٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ قالَ بعضُ المُفسِّرين: ﴿أَوۡ﴾ هُنا بمَعنَى الواو، يَعنِي: وأَمَر بالتَّقوَى، ولكِنِ الصَّحيحُ أنَّها على بابِها للتَّنويع، يَعنِي: أَرأَيْت إِن كانَ على الهُدَى فيما فعَل من السُّجود وَالصَّلاة، أو أَمَر غيرَه بالتَّقوَى؛ لأن النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم يَأمُر بالتَّقوَى بلا شَكٍّ فهُو صالِحٌ بنَفْسه مُصلِحٌ لغَيْره.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ يَعنِي: يَرَى المَنهِيَّ وهُو الساجِد مُحَمَّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم الآمِر بالتَّقوَى ويَرَى هَذا العَبْدَ الطاغِيةَ الَّذِي يَنهَى عَبْدًا إِذَا صلَّى ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ يَرَى سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عِلْمًا ورُؤْية، فهُو سبحانه يَرَى كُلَّ شيءٍ مَهْما خَفِيَ ودَقَّ، ويَعلَم كُلَّ شيءٍ مَهْما بعُدَ، ومَهْما كثُرَ أو قَلَّ، فيَعلَم الآمِرَ وَالناهِيَ، ويَعلَم المُصلِّيَ وَالساجِد، ويَعلَم مَن طَغَى، ومَن خضَعَ لله عَزَّوَجَلَّ، وسيُجازِي كُلَّ إِنْسانٍ بعَمَله.

والمَقْصودُ من هَذا تَهديدُ الَّذِي يَنهَى عبدًا إِذَا صلَّى، وبَيانُ أن الله تعالى يَعلَم بحالِه، وحالِ مَن يَنْهاهُ، وسيُجازِي كُلًّا مِنْهما بما يَستَحِقُّ، فهَذا تَهديدٌ لِهَذا الرَّجُلِ الَّذِي كانَ يَنهَى رَسولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الصَّلاة، يَعنِي: أَلَمْ يَعلَم هَذا الرَّجُلُ أن الله تعالى يَراهُ ويَعلَمه، وهُو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مُحيطٌ بعمَلِه، فيُجازِيه عليه إِمَّا فِي الدُّنْيا، وإِمَّا فِي الدُّنْيا وَالآخِرة.

ثُم قالَ: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ هذِه بمَعنَى: حَقًّا، ويُحتَمَل أن تَكون للرَّدْع، أي: لرَدْعه عن فِعْله السَّيِّئِ الَّذِي كانَ يَقوم به تُجاهَ رَسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو بمَعنَى: حَقًّا ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾، وجُمْلة ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾ جَوابٌ لقَسَم مُقدَّر وَالتَّقدير: وَاللهِ لئِنْ لم يَنتَهِ لنَسْفَعَنْ بالناصِية، وحَذف جَوابُ الشَّرْط وبَقِيَ

جَوابُ القَسَم؛ لأن هذِه هِي القاعِدة فِي اللُّغة العرَبِية أنَّه إِذَا اجتمَع قَسَمٌ وشَرْط فإِنه يُحذَف جَوابُ المُتأخِّر، قالَ ابنُ مالِكٍ فِي أَلْفِيَّتِه[1]:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلْتَـزَمْ

وهُنا المُتأخِّر هو الشَّرْط ﴿لَئِن﴾، وَالقَسَم مُقدَّر قَبلَه، إِذ تَقديرُه: وَالله لئِنْ لم يَنتَهِ لنَسْفعَنْ، ومَعنَى: ﴿لَنَسْفَعًا﴾؛ أي: لنَأْخُذَنَّ بشِدَّة، و(الناصِيةُ) مُقدَّم الرَّأْس و(أل) فيها أي: فِي (الناصِية) للعَهْد الذِّهْنيِّ، وَالمُرادُ بالناصِية هُنا ناصِية أبي جَهْل الَّذِي تَوعَّد النَّبيَّ ﷺ على صَلاتِه ونَهاهُ عنها، أي: لنَسْفَعَنْ بناصِيَتِه، وهلِ المُرادُ الأَخْذ بالناصِية فِي الدُّنْيا، أو فِي الآخِرة يُجَرُّ بناصِيَتِه إلى النار؟ يُحتَمَل هَذا وهذا، يُحتَمَل أنَّه يُؤخَذ بالناصِية، وقَدْ أُخِذ بناصِيته فِي يَوْم بَدْر حين قُتِل مَع مَن قُتِل من المُشرِكين، ويُحتَمَل أن يَكُون يُؤخَذ بناصِيَتِه يَوْم القِيامة فيُقذَف فِي النار كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١]، وإِذَا كانَتِ الآيةُ صالِحةً لَمِعْنَيَيْن لَا يُناقِض أحَدُهُما الآخَرَ فإِن الواجِبَ حَمْلها على المَعنيَيْن جَميعًا كَما هُو المَعْروف، وَالَّذِي قرَّرْناه سابِقًا وهُو أن الآيَةَ إِذَا كانَت تَحتَمِل مَعنيَيْن لَا يُنافِي أحَدُهُما الآخَرَ فالواجِبُ الأَخْذُ بالمَعنيَيْن جَميعًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ (ناصِية) بدَلٌ من (الناصِية) الأُولى، وهِي بدَلُ نَكِرة من مَعرِفة، وهِي جائِزة فِي اللُّغة العرَبية وإِنَّما قالَ: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ من أَجْل أن يَكُون ذلِكَ تَوطِئة للوَصْف الآتِي بعدَها، وهُو قَوْله: ﴿كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

﴿كَـٰذِبَةٍ﴾؛ أي: أنَّها مَوْصوفة بالكَذِب، ولَا شَكَّ أن مِن أَكبَرِ مَا يَكُون كذِبًا مَا

(١) ألفية ابن مالك (ص:٥٩).

يَحصُل مِن الكُفَّار الَّذِين يَدَّعون أن مَعَ الله آلِهَةً أُخرى، فإِن هَذا أَكذَبُ القَوْل وأَقبَحُ الفِعْل.

﴿خَاطِئَةٍ﴾؛ أي: مُرتكِبة للخَطَأ عَمْدًا، ولْيُعلَم أن هُناكَ فَرْقًا بين خاطِئ ومُخطِئ، الخاطِئُ مَنِ ارتكَب الخطَأ عَمْدًا، وَالمُخطِئُ مَنِ ارتكَبَه جَهْلًا، وَالثاني مَعذورٌ، وَالأوَّلُ غيرُ مَعذورٍ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة:٣٧]، أيِ: المُذنِبون ذَنْبًا عن عَمْد، وقالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فقالَ اللهُ: قَد فعَلْتُ. ومِثْل ذلِكَ القاسِطُ وَالمُقسِط، القاسِطُ هُو الجائِرُ، وَالمُقسِط هُو العادِلُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]، وقالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥]، إِذَن ﴿خَاطِئَةٍ﴾؛ أي: مُرتَكِبة للإِثْم عَمْدًا.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ اللَّامُ هُنا للتَّحدِّي، يَعنِي: إِن كانَ صادِقًا وعِندَه قُوَّة، وعِنده قُدْرة فلْيَدْعُ نادِيَه، وَالنادِي هُو مُجتَمَع القَوْم للتَّحدُّث بينَهم وَالتَّخاطُب وَالتَّفاهُم وَالاستِئْناس بعضِهم ببَعْض، وكانَ أبو جَهْل مُعظَّمًا فِي قُرَيْشٍ، وله نادٍ يَجتَمِع النَّاسُ إِليه فيه، ويَتكلَّمون فِي شُؤُونِهم فهُنا يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: إِن كانَ صادِقًا فلْيَدْعُ نادِيَه. وهَذا لَا شَكَّ أنَّه تَحَدٍّ، كَما تَقولُ لعَدُوِّك: إِن كانَ لَكَ قَوْم فتَقدَّمْ. ومَا أَشبَهَ ذلِك من الكلِماتِ الدَّالَّة على التَّحدِّي.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ يَعنِي: عِندنا مَن هُم أَعظَمُ من نادِي هَذا الرجُلِ وهُمُ الزَّبانية مَلائِكة النار، وقد وصَفَ اللهُ مَلائِكة النار بأَنَّهم غِلاظ شِدادٌ، غِلاظ فِي الطِّباع، شِداد فِي القُوَّة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، بَلْ يَمتَثِلون كُلَّ ما أَمَرَهُمُ اللهُ به ﴿وَيَفْعَلُونَ

مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦]، لَا يَعجِزون عن ذلِك، فوصَفَهُم بوَصْفَيْن أنَّهم فِي تَمام الانقِياد لله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، وأنَّهُم فِي تَمام القُدْرة ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وعدَمُ تَنفيذُ أَمْر الله عَزَّوَجَلَّ إمَّا أن يَكُون للعَجْز، وإمَّا أن يَكُون للمَعْصية، فمثلًا الَّذِي لَا يُصلِّي الفَرْض قائِمًا قَد يَكُون للعَجْز، وقد يَكُون للعِناد فهُو لَا يُنفِّذ أَمْر الله، لكِنِ المَلائِكةُ الَّذِين على النار ليسَ عِندَهم عَجْز، بل عِنْدهم قُوَّة وقُدْرة، وليسَ عِنْدهمْ استِكْبار عن الأَمْر، بل عِنْدهم تَمام التَّذلُّل وَالخُضوع.

هَؤُلاءِ الزَّبانيةُ لَا يُمكِن لِهَذا وقَوْمه ونادِيه أن يُقابِلوهم أَبَدًا؛ ولِهَذا قالَ: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

فإِن قالَ قائِلٌ: أين الواوُ فِي قَوْلِه: ﴿سَنَدْعُ﴾؟

قُلنا: إنها مَحْذوفةٌ؛ لالتِقاءِ الساكِنَيْن؛ لأن الواوَ ساكِنة وَالهَمْزة هَمْزة الوَصْل ساكِنة، وإِذَا التَقَى ساكِنانِ فإِنَّه إن كانَ الحَرْفُ صَحيحًا كُسِر، وإِن كانَ غيرَ صَحيحٍ حُذِف، قالَ ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لِينًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

يَعنِي: إِذَا التَقى ساكِنان إن كانَ الحَرْف الأَوَّلُ صَحيحًا ليسَ من حُروف العِلَّة كُسِر مِثْل قَوْله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة:١]، وأَصْلُها: (لَمْ يَكُنْ)؛ لأنَّ (لَمْ) إِذَا دخَلَت على الفِعْل جزَمَتْه كَما فِي قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١]، لكِن هُنا التَقَى ساكِنان، وكانَ الأَوَّلُ حَرْفًا صَحيحًا فكُسِر، أَمَّا إِذَا كانَ الأَوَّلُ حَرْف لِين، يَعنِي: حَرْفًا من حُروف العِلَّة فإِنَّه يُحذَف كَما فِي هذِه

(١) انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني (١/ ١٣٣).

الآيَةِ: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ يُقال فِي ﴿كَلَّا﴾ مَا قيلَ فِي الأُولى الَّتِي قَبْلها، وَالخِطابُ فِي قَوْلِه: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾؛ أي: لَا تُطِعْ هَذا الَّذِي يَنهاكَ عن الصَّلاة، بلِ اسْجُدْ ولَا تُبالِ به، وإِذَا كانَ الله نَهى نَبيَّه ﷺ أن يُطيع هَذا الرجُلَ فهَذا يَعنِي أَنَّه جَلَّوَعَلَا سيُدافِع عنه، يَعنِي: افعَلْ مَا تُؤمَر، ولَا يَهِمَّنَّكَ هَذا الرجُلُ، واسجُدْ لله عَزَّوَجَلَّ، وَالمُرادُ بالسُّجود هُنا الصَّلاة، لكِن عبَّر بالسُّجود عن الصلاة؛ لأن السُّجود رُكْن فِي الصَّلاة لَا تَصِحُّ إلَّا به، فلِهَذا عبَّر به عَنها.

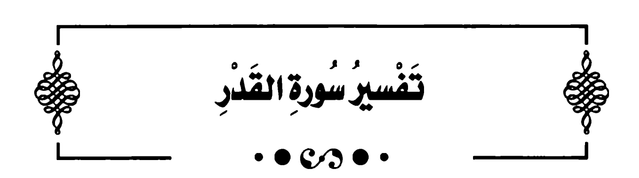
وقَوْلُه: ﴿وَٱقْتَرِب﴾؛ أي: اقْتَرِبْ من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الساجِدَ أَقرَبُ مَا يَكُون من رَبِّه كمَا قالَ ذلِك رَسولُ الله ﷺ حيثُ قالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[1]، وقالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ القُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَكْثِرُوا فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[2]، أي: حَرِيٌّ أن يُستَجابَ لكُمْ.

هذه السُّورةُ (العلَقُ) سُورة عَظيمة ابتَدَأَها اللهُ تعالى بما مَنَّ به على رَسولِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من الوَحْيِ، ثُم اختَتَمَها بالسُّجود وَالاقتِرابِ من الله عَزَّوَجَلَّ، نَسأَل الله تعالى أن يَرزُقَنا القِيامَ بطاعَتِه وَالقُرْب منه، وأن يَجعَلنا من أَوْليائِه المُتَّقين، وحِزْبه المُفلِحين، وعِبادِه الصالِحين، إِنَّه على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب مَا يقال فِي الركوع والسجود، رقم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن فِي الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:١-٥].

•●෴●•

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ الضَّميرُ هُنا يَعود إِلى الله عَزَّوَجَلَّ، وَالهاء فِي قَوْلِه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يَعود إِلى القُرآن، وذكَرَ الله تعالى نَفْسه بالعَظَمة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ لأَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العَظيمُ الَّذي لَا شيءَ أَعظَمُ منه.

وَاللهُ تعالى يَذكُر نَفْسه أحيانًا بِصِيغة العَظَمة مِثْل هَذِه الآيةِ الكَريمةِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، ومِثْل قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ومِثْل قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]، وأَحْيانًا يَذكُر نَفْسه بِصِيغة الواحِد مِثْل: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه:١٤]، وذلِك لأَنَّه واحِدٌ عَظيمٌ، فباعْتِبار الصِّفة يَأتِي ضَمير العَظَمة، وباعتِبار الوَحْدانية يَأتِي ضَمير الواحِدِ، وَالضَّمير فِي قَوْلِه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ ضَميرُ المَفْعول به، وهِي الهاءُ يَعودُ إِلى

القُرآن، وإن لم يَسبِقْ لَه ذِكر؛ لأن هَذا أَمْر مَعلومٌ، ولَا يمتَرِي أَحَدٌ فِي أن المُرادَ بذلِك إِنزال القُرْآن الكَريم، أَنزَلَه اللهُ تعالى فِي لَيْلة القَدْر فَما مَعنَى إِنزالِه فِي لَيْلة القَدْر؟

الصَّحيحُ أن مَعناها: ابتَدَأْنا إِنزالَه فِي لَيْلة القَدْر، ولَيْلة القَدْر فِي رمَضانَ لَا شَكَّ فِي هَذا، ودَليلُ ذلِكَ قَوْلُه تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، فإِذَا جَمَعْت هذِه الآيَةَ، أَعنِي: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ إِلى هَذِه الآيَةِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ تَبيَّن أن لَيْلة القَدْر فِي رمَضانَ.

وبهذا نَعرِف أن مَا اشتُهر عِند بعض العامَّة من أن لَيْلة القَدْر هِي لَيْلة النِّصْف من شَهْر شَعْبانَ لَا أصلَ لَه، ولَا حَقيقةَ لَه، فإِن لَيْلة القَدْر فِي رمَضانَ، ولَيْلة النِّصْف من شَعْبانَ كلَيْلة النِّصْف من رجَب، وجُمادَى، ورَبيع، وصفَر، ومُحرَّم وغَيْرِهِن من الشُّهور لَا تَختَصُّ بشَيْء، حتَّى مَا ورَد فِي فَضْل القِيام فيها فهُو أَحاديثُ ضَعيفةٌ لَا تَقوم بها حُجَّة، وكذلِكَ مَا ورَدَ من تَخْصيص يَوْمها، وهُو يَوْم النِّصْف من شَعْبانَ بصِيام فإِنَّها أَحادِيثُ ضَعيفةٌ لَا تَقومُ بها حُجَّة[1]، لكِنْ بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَتَساهَلون فِي ذِكْر الأحادِيث الضَّعيفة فيما يَتَعلَّق بالفضائِلِ: فَضائِل الأَعْمال، أو الشُّهور، أو الأَماكِن، وهَذا أَمْر لَا يَنبَغي؛ وذلِك لأَنَّك إِذَا سُقْتَ الأَحاديث الضَّعيفة فِي فَضْل شيءٍ مَا، فإِن السامِعَ سَوْف يَعتَقِد أن ذلِك صَحيحٌ، ويَنسُبه إِلى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهَذا شيءٌ كَبيرٌ.

---

(١) انظر: لطائف المعارف (ص:١٣٥).

فالمُهِمُّ أن يَوْم النِّصْف من شَعْبانَ وليلة النِّصْف من شَعْبانَ لَا يَختَصَّان بشيءٍ دون سائِر الشُّهور، فلَيْلةُ النِّصْف لَا تَختَصَّ بفَضْل قِيام، ولَيْلة النِّصْف ليسَت لَيْلة القَدْر، ويوم النِّصْف لَا يَختَصُّ بصِيام، نعَمْ شَهْر شَعبانَ ثَبَتَتِ السُّنَّة بأن النَّبيَّ ﷺ يُكثِر الصِّيام فيه حتَّى لَا يُفطِر منه إلَّا قَليلًا[1]، ومَا سِوى ذلِك مِمَّا يَتعلَّق بصِيامه لم يَثبُت عن النَّبيِّ ﷺ إلَّا مَا لسائِرِ الشُّهور كفَضْل صَوْم ثلاثة أيَّام من كُلِّ شَهْر، وأن تَكون فِي الثالِثَ عشَرَ، وَالرابعَ عشَرَ، وَالخامِسَ عشَرَ[2]، وهِي أيَّامُ البِيضِ.

وقَوْلُه تعالى: ﴿فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ من العُلَماء مَن قالَ: القَدْر هُو الشَّرَف كَما يُقال: «فُلانٌ ذو قَدْر عَظيمٍ، أو ذو قَدْرٍ كَبيرٍ»، أي: ذو شرَفٍ كَبيرٍ. ومِنَ العُلَماء مَن قالَ: المُرادُ بالقَدْر التَّقديرُ؛ لأنه يُقدَّر فيها مَا يَكُون فِي السَّنَة؛ لقَوْل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤]، أي: يُفصَل ويُبيَّن.

والصَّحيحُ أنَّه شامِلٌ للمَعنيَيْن، فلَيْلةُ القَدْر لَا شَكَّ أنَّها ذاتُ قَدْر عَظيم، وشرَفٍ كَبيرٍ، وأنَّه يُقدَّر فيها مَا يَكُون فِي تِلْكَ السَّنَة من الإِحياء وَالإِماتة وَالأَرْزاق وغيرِ ذلِكَ.

ثُم قالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ هَذِه الجُمْلةُ بهذه الصِّيغةِ يُستَفادُ مِنها التَّعظيمُ وَالتَّفخيمُ، وهِي مُطَّرِدة فِي القُرآن الكَريم، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب صوم شعبان، رقم (١٩٦٩)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان، رقم (١١٥٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، رقم (١١٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار:١٧-١٨]، وقالَ تعالى: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣]، ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣]، فهذِه الصِّيغةُ تَعنِي التَّفخيم وَالتَّعظيمَ.

فهُنا قالَ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ أي: مَا أَعلَمَك ليلةَ القَدْر وشَأْنَها وشَرَفَها وعِظَمَها؟! ثُم بيَّن هَذا بقَوْله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ وهَذِه الجُمْلة كالجَواب للاسْتِفْهام الَّذِي سبقَها، وهُو قَوْلُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ الجَوابُ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾؛ أي: مِن أَلْف شَهْر ليسَ فيه لَيْلةُ القَدْر، وَالمُراد بالخَيْرِيَّة هُنا ثَوابُ العمَل فيها، ومَا يُنزِل اللهُ تعالى فيها من الخَيْر وَالبَرَكة على هذِه الأُمَّةِ؛ ولذلِكَ كانَ مَن قامَها إيمانًا واحْتِسابًا غُفِر لَه مَا تَقدَّم من ذَنْبِه، ثُم ذكَر مَا يَحدُث فِي تِلكَ اللَّيْلةِ فقالَ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾؛ أي: تَنزِل شَيْئًا فشَيْئًا؛ لأن المَلائِكة سُكَّان السموَاتِ، وَالسَّموَاتُ سَبْع، فتَتَنزَّل المَلائِكةُ إلى الأرض شَيْئًا فشَيْئًا حتَّى تَملَأَ الأَرْض، ونُزول المَلائكة فِي الأَرْض عُنوان على الرَّحْمة وَالخير وَالبَرَكة؛ ولِهَذا إِذَا امتَنَعَتِ المَلائِكة من دُخول شيْء كانَ ذلِك دَليلًا على أن هَذا المَكانَ الَّذِي امتَنَعَتِ المَلائِكةُ من دُخوله قَد يَخْلو من الخَيْر وَالبرَكة كالمَكان الَّذِي فيه الصُّوَر، فإِن المَلائِكة لَا تَدخُل بيتًا فيه صُورة، يَعنِي: صُورة مُحرَّمة؛ لأن الصُّورة إِذَا كانَتْ مُمتَهَنة فِي فِراشٍ أو مِخَدَّة، فأكثَرُ العُلَماء على أَنَّها جائِزةٌ، وعلى هَذا فلَا تَمتَنِع المَلائِكة من دُخول المكان؛ لأَنَّه لو امتَنَعَت لكان ذلِك مَمنوعًا، فالمَلائكةُ تَتنزَّل فِي لَيْلة القَدْر بكَثْرة، ونُزولُهُم خَيْر وبرَكة.

﴿وَٱلرُّوحُ﴾ هُو جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خَصَّه الله بالذِّكْر لشَرَفه وفَضْله، وقَوْلُه تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾؛ أي: بأَمْره، وَالمُرادُ به الإِذْنُ الكَوْنيُّ؛ لأن إِذْنَ الله -أَيْ: أَمْره- يَنقَسِم

إِلى قِسْمَيْن: إِذْنٌ كَوْنيٌّ، وإِذْنٌ شَرْعيٌّ، فقَوْله تعالى: ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، أي: مَا لم يَأذَنْ به شَرْعًا؛ لأنه قَد أَذِنَ به قَدَرًا، فقَدْ شرَع من دون الله، لكِنَّه ليسَ بإِذْنِ الله الشَّرعيِّ، إِذَنْ هذِه الآيَةُ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾؛ أي: بأَمْره القدَريِّ.

وقَوْله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قيل: إِنَّ ﴿مِّن﴾ بمَعنَى الباء، أَيْ: بكُلِّ أَمْر مِمَّا يَأمُرُهمُ اللهُ به، وهُو مُبهَمٌ لَا نَعلَم مَا هو، لكِنَّنا نَقُول: إِن تَنزُّلَ المَلائِكة فِي الأرض عُنوانٌ على الخَيْر وَالرَّحْمة وَالبرَكة.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ الجُمْلة هُنا مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَرٍ، وَالخبَرُ فيها مُقدَّم، وَالتَّقديرُ: «هِيَ سَلامٌ» أي: هذِه اللَّيْلةُ سَلامٌ، ووصَفَها الله تعالى بالسَّلام؛ لكَثْرة مَن يَسلَم فيها من الآثام وعُقوباتِها، قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1]، ومَغفِرة الذُّنوب لَا شَكَّ أنَّها سَلامة من وَبالِها وعُقوباتِها.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ أي: تَتنزَّل المَلائِكةُ فِي هذِه اللَّيْلةِ حتَّى مَطلِع الفَجْر، أي: إِلى مَطلِع الفَجْر، وإِذَا طلَعَ الفَجْر انتَهَتْ لَيْلة القَدْر.

تَنبيهٌ: سبَقَ أن قُلنا: إِن لَيْلة القَدْر فِي رمَضانَ، لكِن فِي أيِّ جُزْء من رمَضانَ أَفي أوَّلِه، أو وسَطه، أو آخِره؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا ونية، رقم (١٩٠١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان، رقم (٧٦٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نَقُول فِي الجَواب على هذا: إِن النَّبيَّ ﷺ اعتكَف العَشْر الأُوَل، ثُم العَشْر الأَوْسَط تَحرِّيًا للَيْلة القَدْر، ثُم قيل لَه: إِنَّها فِي العَشْر الأواخِر فاعتكِفِ العَشْر الأواخِرَ[١].

إِذَن فلَيْلة القَدْر فِي العَشْر الأواخِر من رَمَضانَ. وفي أَيِّ لَيْلة مِنها؟ اللهُ أَعلَمُ قَد تَكون فِي لَيْلة إِحدَى وعِشْرين، أو فِي لَيْلة الثلاثين، أو فيما بينَهُما، فلَمْ يَأْتِ تَحديدٌ لَهَا فِي لَيْلة مُعيَّنة كلَّ عامٍ، ولِهَذا أُرِيَ النَّبيُّ ﷺ لَيْلة القَدْر لَيْلة إِحدَى وعِشْرين ورَأَى فِي المَنام أَنَّه يَسجُد فِي صَبيحَتها فِي ماءٍ وطِين، فأَمطَرَتِ السَّماءُ تِلكَ اللَّيْلةَ، أي: لَيْلة إِحدى وعِشْرين، فصَلَّى النَّبيُّ ﷺ فِي مَسجِده، وكانَ مَسجِده من عَريشٍ لَا يَمنَع تَسرُّب الماء من السُّقُف، فسَجَد النَّبيُّ ﷺ صَباحَها، أي: فِي صَلاة الفَجْر فِي الماء وَالطِّين، ورأَى الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على جَبْهته أَثَر الماء وَالطِّين[٢]، ففي تِلْكَ السَّنَةِ كانَت فِي لَيْلة إِحدَى وعِشْرين، ومَع ذلِك قالَ: «**التَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ**»، وفي رِوايةٍ: «**فِي الوِتْرِ مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ**»[٣]، ورآها الصَّحابةُ ذاتَ سَنَة من السِّنين فِي السَّبْع الأواخِر، فقالَ ﷺ: «**أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ**

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على الأنف، والسجود على الطين، رقم (٨١٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر، رقم (١١٦٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على الأنف والسجود على الطين، رقم (٨١٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر، رقم (١١٦٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب فضل ليلة القدر، باب تحري ليلة القدر فِي الوتر من العشر الأواخر، رقم (٢٠١٧)، ومسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال، رقم (١١٦٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كَانَ مُتَحَرِّيَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ»[(١)]، يَعنِي: فِي تِلْكَ السَّنَةِ.

أَمَّا فِي بَقيَّة الأَعْوام فهِي فِي كُلِّ العَشْر، فليسَتْ مُعيَّنة، ولكِن أَرجاها لَيْلة سَبْع وعِشْرين، وقد تَكون (مثلًا) فِي هَذا العامِ لَيلةَ سَبْع وعِشْرين، وفِي العام الثاني لَيْلة إِحدَى وعِشْرين، وفِي العام الثالِثِ لَيْلة خَمْسٍ وعِشْرين وهكذا.

وإِنَّما أَبهَمَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ لفائِدَتَيْن عَظيمَتَيْن:

الفائِدةُ الأُولى: بَيانُ الصادِق فِي طلَبِها من المُتكاسِل؛ لأن الصادِقَ فِي طلَبها لَا يُهِمُّه أن يَتعَبَ عَشْرَ لَيالٍ من أَجْل أن يُدرِكَها، وَالمُتكاسِل يَكسَل أن يَقوم عَشْرَ لَيالٍ من أَجْل ليلة واحِدةٍ.

الفائِدةُ الثانيةُ: كَثْرة ثَواب المُسلِمين بكَثْرة الأَعْمال؛ لأَنَّه كُلَّما كثُرَ العَمَل كَثُر الثَّوابُ.

وبهَذه المُناسَبةِ أَوَدُّ أن أُنبِّهَ إِلى غلَط كَثير من النَّاس فِي الوَقْت الحاضِر حيثُ يَتحَرَّوْن ليلةَ سَبْع وعِشْرين فِي أداء العُمْرة، فإِنَّك فِي ليلة سَبْع وعِشْرين تَجِد المَسجِد الحَرام قَد غُصَّ بالناس وكَثُروا، وتَخْصيص لَيْلة سَبْع وعِشْرين بالعُمْرة من البِدَع؛ لأن رَسولَ الله ﷺ لم يُخصِّصْها بعمرة فِي فعله، ولم يُخَصِّصْها، أي: لَيْلة سَبْع وعِشرين بعُمْرة فِي قَوْلِه، فلم يَعتَمِر لَيْلة سَبْع وعِشْرين من رمَضانَ مَع أَنَّه فِي عامِ الفَتْح ليلة سَبْع وعِشْرين من رمَضانَ كانَ فِي مكَّةَ ولم يَعتَمِر، ولم يَقُلْ للأُمَّة:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضل ليلة القدر، باب التماس ليلة القدر فِي السبع الأواخر، رقم (٢٠١٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل ليلة القدر، رقم (١١٦٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

تَحَرَّوْا ليلةَ سَبْع وعِشْرين بالعُمْرة، وإِنما أَمَر أن نَتَحرَّى ليلة سَبْع وعِشْرين بالقِيام فيها لَا بالعُمرة، وبه يَتَبيَّن خطَأ كَثيرٍ من النَّاس، وبه أيضًا يَتبيَّن أن النَّاس رُبَّما يَأخُذون دِينَهم كابِرًا عن كابِرٍ، على غير أَساسٍ من الشَّرْع، فاحْذَرْ أن تَعبُد الله إِلَّا على بَصيرةٍ، بدَليلٍ من كِتاب الله، أو سُنَّة رَسولِه ﷺ أو عمَلِ الخُلَفاء الراشِدين الَّذِين أُمِرْنا باتِّباع سُنَّتِهم.

وفي هذِه السُّورةِ الكَريمةِ فَضائِلُ مُتَعدِّدة للَيْلة القَدْر:

الفَضيلةُ الأُولى: أن الله أَنزَل فيها القُرآن الَّذِي به هِداية البَشَر وسَعادتُهم فِي الدُّنْيا وَالآخِرة.

الفَضيلةُ الثانِيةُ: مَا يَدُلُّ عليه الاسْتِفْهامُ من التَّفخيم وَالتَّعظيم فِي قَوْله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾.

الفَضيلةُ الثالِثةُ: أنَّها خَيْر من أَلْف شَهْر.

الفَضيلةُ الرابِعةُ: أن المَلائِكة تَتنَزَّل فيها، وهم لَا يَنزِلون إِلَّا بالخَيْر وَالبرَكة وَالرَّحْمة.

الفَضيلةُ الخامِسةُ: أنَّها سَلام؛ لكَثْرة السَّلامة فيها من العِقاب وَالعَذاب بما يَقومُ به العَبْد من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

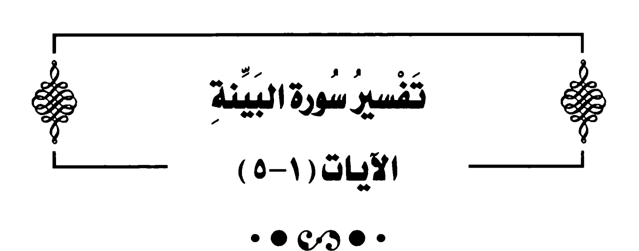
الفَضيلةُ السادِسةُ: أن الله أَنزَل فِي فَضْلها سُورة كامِلة تُتْلى إِلى يَوْم القِيامة.

ومِن فَضائِل لَيْلة القَدْر مَا ثبَتَ فِي الصَّحيحَيْن من حَديث أَبي هُرَيْرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

ذَنْبِهِ»(١)، فقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» يَعنِي: إِيمانًا بالله وبما أَعَدَّ الله من الثَّوابِ للقائِمين فيها، واحتِسابًا للأَجْر وطلَب الثَّواب، وهَذا حاصِلٌ لِمَن عَلِم بها ومَن لم يَعلَم، لأن النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يَشتَرِطِ العِلْم بها فِي حُصول هَذا الأَجْرِ، وبِهَذا انتَهى الكَلامُ على سورة القَدْر.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا ونية، رقم (١٩٠١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب فِي قيام رمضان، رقم (٧٦٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



تفسير سورة البيِّنة

الآيات (١-٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:١-٥].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ يَعنِي: مَا كانَ الكُفَّار من ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهُمُ اليَهودُ وَالنَّصارَى، سُمُّوا بذلِكَ لأنَّ صُحُفَهم بَقِيَت إِلى أن بُعِثَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَع مَا فيها من التَّحْريف وَالتَّبديل وَالتَّغيير، ولكِنْ هُم أَهْل الكِتاب، فاليَهودُ لَهُمُ التَّوْراة، وَالنَّصارَى لَهُمُ الإِنْجيل ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المُشرِكون هُم عَبَدةُ الأَوْثان مِن كُلِّ جِنْس من بَني إِسرائيلَ ومِن غَيْرِهِم، لم يَكُن هَؤُلاءِ ﴿مُنفَكِّينَ﴾؛ أي: تارِكين لما هُمْ عليه من الشِّرْك وَالكُفْر ومُنفَكِّين عنه.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وَالبيِّنة مَا يَبينُ به الحَقُّ فِي كُلِّ شيءٍ، فكُلُّ شيءٍ يَبِينُ به الحَقُّ

فإِنَّه يُسمَّى بَيِّنة؛ ولِهَذا قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**البيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي**»[1]، فكُلُّ مَا بانَ به الحَقُّ فهُو بَيِّنة، ويَكُون فِي كُلِّ شيءٍ بحَسَبه، فمَا هِي البَيِّنة الَّتِي ذكَرَها اللهُ هُنا؟ البَيِّنة قالَ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهَذا الرَّسولُ هُو النَّبيُّ ﷺ مُحمَّدٌ رَسولُ الله ابنُ عَبْد الله الهاشِميُّ القُرَشيُّ صلوات الله وسلامه عليه، وجاء بصِيغة النَّكِرة ﴿رَسُولٌ﴾ تَعظيمًا لَه؛ لأَنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَديرٌ بأن يُعظَّم التَّعظيمَ اللَّائِقَ به من غير نَقْص ولَا غُلُوٍّ ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: أن اللهَ أَرسَلَه إِلى العالَمِين بَشيرًا ونَذيرًا، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء:٧٩]، وقالَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، فهُو مُحمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُرسَل من عِند الله بواسِطة جِبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن جِبريلَ هُو رَسولُ رَبِّ العالَمِين إِلى رُسُله، مُوكَّل بالوَحْيِ يَنزِل به على مَن شاءَ اللهُ مِن عِبادِه.

﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يَعنِي: يَقرَأ لنَفْسه وللناس، ﴿صُحُفًا﴾ جَمْع صَحيفة وهِي الورَقةُ، أو اللَّوْح، أو مَا أَشبَهَ ذلِك مِمَّا يُكتَب به ﴿مُّطَهَّرَةً﴾؛ أي: مُنقَّاة من الشِّرْك، ومن رَذائِل الأَخْلاق، ومن كُلِّ مَا يَسوءُ؛ لأَنَّها نَزيهة مُقدَّسة ﴿فِيهَا﴾؛ أي: فِي هَذِه الصُّحُفِ ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ كُتُب: أي: مَكْتوبات قَيِّمة، فكُتُب جَمْع كِتابٍ، بمَعنَى: مَكْتوب، وَالمعنى: أن فِي هَذِه الصُّحُفِ مَكتوباتٍ قَيِّمةً كَتَبها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومِن المَعْلوم أن الإِنْسان إِذَا تَصفَّح القُرآن وجَدَه كذَلِك، وجَدَه يَتَضمَّن كُتُبًا، أي: مَكْتوبات قَيِّمة، انظُرْ إِلى مَا جاءَ به القُرآن من تَوْحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وَالثَّناء عليه، وحَمْده وتَسبيحه تَجِده مَمْلوءًا بذلِكَ، انظُرْ إِلى مَا فِي القُرْآن من وَصْف النَّبيِّ ﷺ ووَصْف أَصْحابه

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب مَا جاء فِي أن البينة على المدعي، رقم (١٣٤١)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المُهاجِرين وَالأَنْصار ووَصْف التابِعين لَهُم بإِحْسان، انظُرْ إِلى مَا جاءَ به القُرآن من الأَمْر بالصَّلاة، وَالزَّكاة، وَالصِّيام، وَالحَجِّ، وغير ذلِكَ من الأَخْلاق الفاضِلة تَجِد أن كُلَّ مَا جاءَ به القُرآن فهُو قَيِّم بنَفْسه، وكذلك هُو مُقيم لغَيْره ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

إِذَنْ أَخبَرَ اللهُ فِي هذِه الآيَةِ أَنَّه لَا يُمكِن أن يَنفَكَّ هَؤُلاءِ الكُفَّارُ من أَهْل الكِتاب وَالْمُشرِكين حتَّى تَأتِيَهم البَيِّنة، فلَمَّا جاءَتْهُمُ البَيِّنة هَلِ انْفَكُّوا عن دِينهم، عن كُفْرهم وشِرْكهم؟ الجَوابُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يَعنِي: لَمَّا جاءَتْهُمُ البَيِّنة اختَلَفوا، مِنهم مَن آمَن، ومِنهم مَن كَفَرَ، فمِن النَّصارَى مَن آمَنَ مِثْل النَّجاشِيِّ ملِكِ الحَبَشة، ومِن اليَهود مَن آمَنَ أيضًا مِثْل عَبدِ الله بنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمِنهم مَن آمَن، ومِنهم مَن كَفَر، فمَن علِمَ اللهُ منه أَنَّه يُريد الخَيْر، ويُريد الدِّين لله آمَن ووُفِّق للإِيمان، ومَن لم يَكُن كذَلِك وُفِّق للكُفْر، كذَلِك أيضًا من المُشرِكين مَن آمَن، ومَا أَكثَرَ المُشرِكين من قُرَيْش الَّذِين آمَنوا! فصار النَّاسُ قبلَ بَعْثة الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَزالوا على مَا هُم علَيْه من الكُفْر حتَّى جاءَتْهُمُ البَيِّنة، ثُم لَمَّا جاءَتْهمُ البَيِّنة تَفرَّقوا واختَلَفوا كَما قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥].

ثُم قال تعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: إِنَّ النَّاسَ لم يُؤمَرُوا بشَيْءٍ يتَعَلَّقُ بأمورِ الدُّنْيَا، أو بشيءٍ يُكَلِّفُهُمْ، بل هو بشَيْءٍ سَهْلٍ علَيْهم، وهو عبادَةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥]، فما هِيَ العِبادَةُ؟ العبادَةُ تُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ:

المعْنَى الأَوَّلِ: التَّعَبُّدُ، يقال: هذا الرَّجُلُ تَعَبَّدَ لله عِبادَةً.

والمعنى الثَّاني: المتَعَبَّد به، فيقالُ: الصَّلَاة عِبَادَةٌ، والزكاةُ عبادَةٌ، والصَّوْمُ عِبادَةٌ، وهكذا.

فعلى المعْنَى الأَوَّلِ يكونُ مَعْنَى العِبادَةِ: تَذَلُّلُ العَبْدِ لرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ محبَّةً وتَعْظِيمًا بِفِعْلِ أوامِرِهِ، واجتِنَابِ نَواهِيهِ.

وعلى المعنى الثَّاني تكونُ العِبَادَةُ هي المتعبَّدُ بِهِ، ويكونُ معناها، كَمَا ذَكَرَهُ شيخُ الإسْلَام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله[1]: «هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاه مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ».

فالصَّلَاة عِبَادةٌ، والطَّهارَةُ عبادَةٌ، والزكَاةُ عبادَةٌ، والصَّوْمُ عبادَةٌ، والحجُّ عبادةٌ، وبِرُّ الوالِدَيْنِ عبادَةٌ، وصِلةُ الأرحامِ عبادةٌ، وكلُّ عمَلٍ يُقَرِّب إلى الله تعَالَى فإنَّه عِبادَةٌ، ولكِنَّ الله تعَالَى ذكَر أنَّ هذا الأمْرَ مَقْرونٌ بشَيْئَيْنِ:

الأوَّل: الإخْلاصُ للهِ تعَالَى، أي: أن يَقْصِدَ الإِنْسَانُ بعِبادَتِهِ وجْهَ اللهِ والدارَ الآخِرَةَ، لا يقصدُ دُنيا يُصِيبُهَا، ولا امرأةً يَتَزَوَّجُهَا، ولا جَاهًا يُشْهَرُ به عندَ النَّاس، ولا غير هذا مِنْ الأمُورِ الدُّنيويَّةِ، فمَنْ قَصَد سِوى الله بعِبَادَتِهِ فهو مُشْرِكٌ، حابطٌ عَمَلُهُ، ودَليلُ هذا قولُ الله تعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

وفي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ الصَّحيح: أن الله تعَالَى قـال: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[١].

وفي الحَدِيث النبويِّ الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّـيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[٢].

هذِه أدلَّة وُجُوبِ الإخلاصِ للعِبَادَةِ.

وأما الثَّاني: فهو الاتِّبَاعُ، يعني: اتباعَ شَرِيعَةِ اللهِ، ودَلِيلُهُ قولُه تعالَى: ﴿حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥] والحَنِيفُ: هو المائلُ عَمَّا سِوَى شَرِيعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، مأخُوذٌ مِنَ الحَنَفِ، وهو مَيْلُ الإصْبَعِ.

فلا بُدَّ مِنَ اتِّبَاعِ الشَّريعَةِ، والدَّلِيلُ على ذلكَ قولُ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلى آلِه وسلَّم-: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[٣]. وقوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٤]. فلا بُدَّ في العبادَةِ من الإخلاصِ والمتابَعَةِ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البينة:٥] هذه مَعْطُوفَةٌ على قولِه: ﴿لِيَعْبُدُواْ﴾ أي: ما أُمِرُوا إلا بإقَامَةِ الصَّلَاة وإيتَاءِ الزكَاةِ، ونَصَّ عليهما؛ لأنَّهما أعظمُ أركانِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

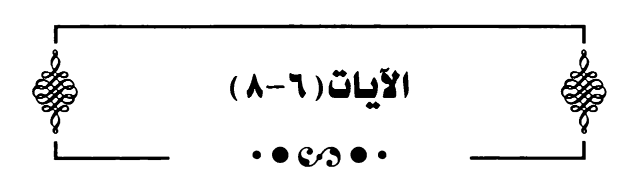
(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الحدود، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

(٤) أخرجه البخاري تعليقا: كتاب البيوع، باب النجش، ومن قال: «لا يجوز ذلك البيع»، ومسلم: كتاب الحدود، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

الإسْلَام بعدَ الشهَادَتَيْنِ، والصَّلَاة أوْكدُ مِنَ الزكَاةِ، ولهذا كان تَرْكُ الصَّلَاة كُفْرًا ولم يكن البُخْلُ بالزكاةِ كُفْرًا.

ثُم قـال تعَالَى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ ذلكَ المشارُ إليه مِمَّا ذُكِـرَ من عِبادَةِ اللهِ على الوَجْهِ المذْكُورِ: الإخلاصِ والمتَابَعَةِ، وإقامةِ الصَّلَاة وإيتاءِ الزكاةِ، هو ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾، أي: دِينُ الملَّةِ القَيِّمَةِ؛ لأنها شَرِيعَةُ اللهِ التي جاءَ بها رَسُولُه مُحَمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِه وسلَّم-.

• ● ۞ ● •



الآيات (٦-٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٦-٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ بيَّن الله تعالى فِي هَذِه الآيَةِ بَيانًا مُؤكَّدًا بـ(إِنَّ) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: فِي النار الَّتِي تُسمَّى جهنَّم، وسُمِّيت جهنَّمَ؛ لبُعْد قَعْرِها وسَوادِها، فهُو مَأخوذ مِن الجُهْمة، وقيل: إنه اسمٌ أَعْجميٌّ عرَّبَته العرَبُ، وأيًّا كانَ فإنه -أَعنِي: لَفْظ (جهنَّم)- اسمٌ مِن أَسْماء النار.

وقَوْلُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنْ﴾ هُنا بيانٌ للإِبْهام، أَعنِي: إبهام الاِسْم المَوْصول فِي قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وعلى هَذا فيَقتَضِي أن أَهْل الكِتاب كُفَّار، وهُمُ (اليَهودُ وَالنَّصارَى)، وَالأَمْر كذَلِك، فإن اليَهودَ وَالنَّصارَى كُفَّار حين لم يُؤمِنوا برَسولِ الله مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإِن قالوا: إِنَّهم مُؤمِنون بالله وَاليَوْم الآخِرِ، ويَدْعون لمَوْتاهم بالرَّحْمة، ومَا أَشبَهَ ذلِك من العِبارات الَّتِي يَتزَلَّفون بها فإِنَّهم كاذِبون، إِذ لو كانوا يُؤمِنون بالله وَاليَوْم الآخِر لآمَنوا بمُحمَّد

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ لآمَنوا برُسُلهم؛ لأن النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَد وُجِد وَصْفُه فِي التَّوْراة وَالإِنْجيل كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي سُورة الأَعْراف: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

بَلْ إن عِيسَى ﷺ قالَ لبَني إِسرائيلَ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، فلَمَّا جاءَ هَذا الرَّسولُ الَّذِي بشَّر به عِيسى بالبيِّنات، قالوا: هَذا سِحْر مُبينٌ. وكَذَّبوه ولم يَتَّبعوه إلَّا نَفَرًا قَليلًا من اليَهودِ وَالنَّصارَى، فقَدْ آمَنوا بمُحمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم واتَّبَعوه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾؛ أي: شَرُّ الخَليقةِ؛ لأن البَرِيَّة هِي الخَليقةُ، وعلى هَذا فيَكُون الكُفَّار من بَني آدَمَ من اليَهود وَالنَّصارَى وَالْمُشرِكين ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ شَرُّ الخَلائِق، وقَدْ بيَّن الله ذلِكَ تمامًا فِي قَوْلِه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال:٥٥]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣].

فهَؤُلاءِ الكُفَّارُ من اليَهود وَالنَّصارَى وَالْمُشرِكين هُم شَرُّ البَريَّة عِند الله عَزَّوَجَلَّ، وإِذَا كانوا هُمْ شَرَّ البَريَّة فلَنْ نَتوقَّع مِنهم إلَّا كُلَّ شَرٍّ؛ لأن الشِّرِّير يَنبَثِق منه الشَّرُّ، ولَا يُمكِن أبَدًا أن نُحسِن الظَّنَّ بهِم، قَد نَثِقُ بالصادِقِين مِنهم كما وَثِق النَّبيُّ ﷺ

بالمُشرِك، عبدِ الله بنِ أُرَيْقِط[1]، حين استَأْجَرَه؛ ليَدُلَّه على طريق الهِجْرة، لكِن غالِبهم وجُمهورهم لَا يُوثَق بِهِم؛ لأنَّهم شَرٌّ.

ولَمَّا ذكَرَ الله حُكْم هَؤُلاءِ الكُفَّارِ من اليَهود وَالنَّصارَى وَالمُشرِكين ذكَرَ حُكْم المُؤمِنين فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، وَالقُرْآن الكَريمُ مَثانٍ تُثنَّى فيه المَعانِي، فيُؤتَى بالمَعنَى ومَا يُقابِله، ويَأتِي بأَصْحاب النار وأَصْحاب الجَنَّة، ويَأتِي بآيات التَّرْهيب وآيات التَّرْغيب، وهَلُمَّ جَرًّا؛ لأَجْل أن يَكُون الإِنسانُ سائِرًا إِلى الله عَزَّوَجَلَّ بين الخَوْف وَالرَّجاء؛ ولِئَلَّا يَمَلَّ، فإِن تَنويع الأَساليب وتَنويع المَواضِيع لَا شَكَّ أَنَّه يُعطِي النَّفْس قُوَّة واندِفاعًا، بخِلاف مَا لو كانَ الكَلامُ على وَتيرةٍ واحِدةٍ، فإِن الإِنسانَ قَد يَمَلُّ ولَا تَتَحرَّك نَفْسه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ فخَيرُ خَلْق الله عَزَّوَجَلَّ هُمُ الَّذِين آمَنوا وعمِلوا الصالِحاتِ، وهُمْ على طَبَقاتٍ أَربَع بيَّنَها اللهُ فِي قَوْله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

هذه الطَّبَقاتُ الأَربَعُ هِي طبَقاتُ المُؤمِنين أَعْلاها: طَبَقة النُّبوَّة، وأَعْلى طبقاتِ النُّبوَّة طبقة الرِّسالة، ثُم بعد النُّبوَّة الصِّدِّيقيَّة، وعلى رَأْس الصِّدِّيقين أبو بَكْر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. الطَّبَقة الثالِثة: الشُّهَداءُ، قيل: إِنَّهم أُولو العِلْم. وقيل: إِنَّهم الَّذِين قُتِلوا فِي سَبيل الله، وَالآيَةُ تَحتَمِل المَعنيَيْن جَميعًا بدون مُناقَضة، وَالَّذِي يَنبَغي لمُفسِّر القُرْآن معرِفتُه أن الآيَةَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإِجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إِذَا لم يوجد أهل الإِسلام، رقم (٢٢٦٣)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

إِذَا كانَت تَحتَمِل مَعنيَيْن بدون مُناقَضة أن يَحمِلها على المَعنيَيْن جَميعًا، فالشُّهَداءُ هُم أُولو العِلْم، وهُمُ الَّذِين قُتِلوا فِي سَبيل الله، وكُلُّهم مَرتَبَتُهم عالِية فَوْق سائِر المُتَّبِعين للرُّسُل إِلَّا الصِّدِّيقين؛ قالَ تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهُمْ أَدنَى الطَّبَقات، فالَّذِين آمَنوا وعمِلوا الصالِحاتِ على اختِلافِ طبَقاتِهم هُمْ خَيْر البَرِيَّة، أي: خَيْر مَا خَلَق اللهُ عَزَّوَجَلَّ من البَرايا.

ثُم بيَّنَ جَزاءَهُم فقالَ: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهُنا قَدَّم اللهُ الثَّناءَ على المُؤمِنين الَّذِين عمِلوا الصالِحاتِ على ذِكْر جَزائِهم؛ لأن ثَناءَ الله علَيْهم أَعظَمُ مَرتَبةً وأَعلى مَنقَبةً؛ فلِذلِكَ قدَّمَه على الجَزاء الَّذِي هُو جَزاؤُهُم فِي يَوْم القِيامةِ ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿جَنَّٰتُ﴾ جَمَعها؛ لاخْتِلاف أَنْواعها؛ لأن النَّبيَّ ﷺ قالَ: إن الجَنَّاتِ «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[1]، وإِلى هَذا يُشيرُ قولُ الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، ثُمَّ ذكَر أَوْصاف هاتَيْن الجَنَّتَيْن، ثُم قالَ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢].

فلَهُم جَنَّاتٌ وَالجَنَّاتُ الَّتِي ذكَرَها اللهُ تعالى جَزاءً للمُؤمِنين العامِلين الصالِحاتِ هِي عِبارة عن مَنازِلَ عَظيمةٍ أَعدَّها اللهُ عَزَّوَجَلَّ للمُؤمِنين المُتَّقِين، فيها مَا لَا عَيْنٌ رأَتْ، ولَا أُذُنٌ سمِعَت، ولَا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، ولَا يُمكِن لإِنسان فِي هذِه الدُّنْيا أن يَتصوَّر كيفَ نَعيمُ الآخِرة أَبدًا؛ لأنه أَعْلى وأَجَلُّ مِمَّا نَتصوَّر، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ومن دونهما جنتان، رقم (٤٨٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، رقم (١٨٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

«لَيسَ فِي الجَنَّةِ مِمَّا فِي الدُّنْيا إلَّا الأَسْماء»[1]، لكِنِ الحَقائِقُ تَختَلِف اختِلافًا عَظيمًا.

قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ العَدْنُ بمَعنَى: الإِقامة فِي المَكان وعدَم النُّزوحِ عنه، ومِن تَمام نَعيم أَهْل الجَنَّة أن كُلَّ واحِدٍ مِنهم لَا يَطلُب تَحوُّلًا عمَّا هُو عليه من النَّعيم؛ لأَنَّه لَا يَرَى أن أحَدًا أكمَلُ منه، ولَا يُحِسُّ فِي قَلْبه أَنَّه فِي غَضاضة بالنِّسْبة لِمَن هُو أَرْقى مِنه وأَكمَلُ، قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]، أي: لَا يبْغون تَحوُّلًا عمَّا هُمْ عليه؛ لأن اللهَ قَد أَقنَعَهُم بما أَعْطاهم فلَا يَجِدون أحَدًا أَكمَلَ نَعيمًا مِنهم؛ ولهذا سَمَّى اللهُ تعالى هذِه الجَنَّاتِ جَنَّاتِ عَدْن.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ قالَ العُلَماءُ: مِن تَحت قُصورِها وأَشجارِها، وإِلَّا فهُو على سَطْحها وليس أَسفَل، إِنَّما هُو مِن تَحت هذِه القُصورِ وَالأَشْجارِ، وَالأَنهارُ الَّتِي ذكَرَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ هُنا مُجمَلة فصَّلَها فِي سُورة (مُحمَّد) فقالَ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

وقَدْ جاءَ فِي الآثار من وَصْف هذِه الأنهارِ أنَّها تَجرِي بغَيْر أُخدودٍ وبغَيْر خَنادِقَ[2] بمَعنَى: أن النَّهْر يَجرِي على سَطْح الأرض يَتَوجَّه حيثُ وجَّهَه الإِنسانُ، ولَا يَحتاج إِلى شَقِّ خَنادِقَ، ولَا إِلى بِناءِ أُخدود تَمنَع سَيَلان الماءِ يَمينًا وشِمالًا، وفي هَذا يَقولُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتابه النُّونِيَّة[3]:

---

(١) أخرجه هَنَّاد بن السَّري فِي الزهد، رقم (٣)، والطبري فِي تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم فِي تفسيره (١/ ٦٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة فِي مصنفه، رقم (٣٥٠٩١)، من قول مسروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) نونية ابن القيم (ص:٣٢٦).

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ   سُبْحَانَ مُمْسِـكِهَا عَـنِ الفَيَضَـانِ

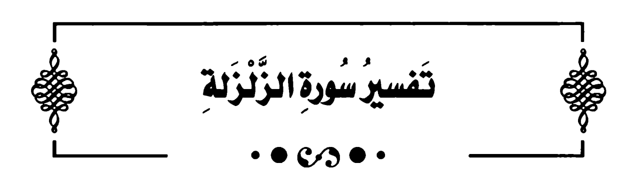
﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾؛ أي: ماكِثِين فيها أبدًا، لَا يموتون، ولَا يمرَضون، ولَا يَيْأَسون، ولَا يَأْلَمون، ولَا يَحزَنون، ولَا يَمَسُّهم فيها نصَبٌ، فهُمْ فِي أَكمَل النَّعيم دائِمًا وأَبدًا -أَبدَ الآبِدِين-.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ وهَذا أَكمَلُ نَعيمٍ أن الله تعالى يَرضَى عنهم، فيُحِلُّ عليهم رِضوانَه، فلَا يَسخَط بعدَه أبدًا، بَلْ وينظُرون إِلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بأَعيُنِهم كمَا يرَوْن القَمَر لَيْلة البَدْر، لَا يَشُكُّون فِي ذلِك، ولَا يمترُون فِي ذلِك، ولَا يَتَضامُّون فِي ذلِك، أي: لَا يَنضَمُّ بعضُهم إِلى بعضٍ؛ ليُرِيَه الآخَر، بَلْ كُلُّ إِنْسان يَراه فِي مَكانِه حَسبَ مَا أَرادَ الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾؛ أي: ذلِكَ الجَزاءُ لِمَن خَشِيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وَالخَشْيةُ هِي خَوْف الله عَزَّوَجَلَّ المَقْرون بالهَيْبة وَالتَّعْظيم، ولَا يَصدُر ذلِك إِلَّا مِن عالِمٍ بالله كمَا قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨]، أيِ: العُلَماء بعَظَمَته وكَمال سُلْطانه، فالخَشْية أَخصُّ من الخَوْف، ويَتَّضِح الفَرْق بينَهُما بالمِثالِ: إِذَا خِفْتَ من شَخْص لَا تَدرِي هل هُو قادِرٌ عليكَ أم لَا؟ فهَذا خَوْف، وإِذَا خِفْتَ من شَخْص تَعلَم أَنَّه قادِرٌ علَيْك فهذِه خَشْية.

وبهذا تمَّتْ هذِه السُّورةُ العَظيمةُ، وتَمَّ مَا تَيسَّر لَنا من الكَلامِ على تَفْسيرِها، ونَسأَل اللهَ أن يَجعَلَنا مِمَّن يَتْلون كِتابَ الله حَقَّ تِلاوَتِه إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• • ۞ • •



تفسير سورة الزَّلْزَلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:١-٨].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ المُرادُ بذلِكَ مَا ذكَرَه اللهُ تعالى فِي قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١-٢].

وقَوْلُه: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ يَعنِي: الزِّلْزال العَظيم الَّذِي لم يَكُن مِثْله قَطُّ؛ ولِهَذا يَقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج:٢]، يَعنِي: مِن شِدَّة ذُهولِهم ومَا أَصابَهُم تَجِدهم كأَنَّهم سُكارَى، ومَا هُمْ بسُكارَى، بَلْ هُم صُحاةٌ، لكِن لشِدَّة الهَوْل صار الإِنسانُ كأَنَّه سَكْرانُ لَا يَدرِي كيفَ يَتصرَّف، ولَا كيفَ يَفعَل.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ المُرادُ بهم: أَصْحاب القُبور، فإنه إِذَا نُفِخَ فِي الصُّور فصَعِقَ مَن فِي السَّمَواتِ ومَن فِي الأَرْض إلَّا مَن شاءَ اللهُ، ثُم نُفِخَ فيه أُخْرى فإِذَا هُم قِيامٌ يَنظُرون، يَخرُجون من قُبورِهم لرَبِّ العالَمِين عَزَّوَجَلَّ كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ الإِنسانُ المُرادُ به الجِنْس، يَعنِي: أن الإِنسانَ البَشَرَ يَقولُ: مَا لَهَا؟ أيُّ شيءٍ لَهَا هَذا الزِّلزالُ؟ ولأنَّه يَخرُج وكأنَّه كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ فيقول: مَا الَّذِي حدَثَ لَهَا؟ ومَا شَأْنُها؟ لشِدَّة الهَوْل.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: فِي ذلِك اليَوْمِ إِذَا زُلْزِلَت ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾؛ أي: تُخبِر عَمَّا فعَلَ النَّاسُ علَيْها من خَيْر أو شَرٍّ، وقد ثبَتَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن المُؤذِّن إِذَا أَذَّنَ فإِنَّه لَا يَسمَع صوتَه شَجَر، ولَا مَدَر، ولَا حَجَر، ولَا شيءٌ إِلَّا شهِدَ لَه يَوْمَ القِيامة[1]، فتَشهَد الأَرْضُ بما صنَعَ علَيْها مِن خَيْر أو شَرٍّ.

وهَذه الشَّهادةُ من أَجْل بَيان عَدْل الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا يُؤاخِذ النَّاس إِلَّا بما عمِلوه، وإِلَّا فإِنَّ اللهَ تعالى بكُلِّ شيءٍ مُحيطٌ، ويَكفِي أن يَقول لعِبادِه جَلَّ وَعَلَا: عمِلْتُم كذا، وعمِلْتُم كذا... لكِن من باب إِقامة العَدْل وعدَم إِنكار المُجرِم؛ لأن المُجرِمين يُنكِرون أن يَكونوا مُشرِكين، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]؛ لأنَّهم إِذَا رأَوْا أَهْل التَّوْحيد قد خَلَصوا من العَذاب ونَجَوْا منه أَنكَروا الشِّرْك لعَلَّهُم يَنجون، ولكِنَّهم يُختَمُ على أَفْواهِهم، وتَتكلَّم الأَيْدي، وتَشهَد الأَرجُل وَالجُلودُ وَالأَلْسُن كُلُّها تَشهَد على الإِنسان بما عمِلَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب رفع الصوت بالنداء، رقم (٦٠٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحينَئِذٍ لَا يَستَطيع أن يَبقَى على إِنْكاره، بَلْ يُقِرُّ ويَعترِف، إِلَّا أَنَّه لَا يَنفَع النَّدَم فِي ذلِكَ الوَقْتِ.

وقَوْلُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ هُو جَوابُ الشَّرْط فِي قَوْلِه تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾.

قَوْلُه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾؛ أي: بسبَب أن اللهَ أَوْحَى لَهَا، يَعنِي: أَذِنَ لهَا فِي أن تُحدِّثَ أَخْبارَها، وهُو سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ إِذَا أَمَرَ شَيْئًا بأَمْر فإِنه لا بُدَّ أن يَقَع، يُخاطِب اللهُ الجَمادَ فيَتكلَّم الجَمادُ كَمَا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، وقالَ اللهُ تعالى للقلَمِ: اكتُبْ. قالَ: رَبِّ، وماذا أَكتُبُ؟ قالَ: اكتُبْ مَا هُو كائِنٌ إِلى يَوْم القِيامة. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ إِذَا وجَّه الكَلامَ إِلى شيءٍ ولَوْ جَمادًا فإِنه يُخاطِب اللهَ ويَتكَلَّم؛ ولهذا قالَ: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾.

قَوْلُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يَعنِي: يومَئِذٍ تُزَلْزِل الأَرْض زِلْزالَها ﴿يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا﴾؛ أي: جَماعاتٍ مُتفرِّقين، يَصدُرون كُلٌّ يَتَّجِه إِلى مَأْواه، فأَهْل الجَنَّة -جعَلَنا اللهُ مِنهم- يَتَّجِهون إِليها، وأَهْلُ النار -وَالعِياذُ بالله- يُساقُون إِليها ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ۝٨٦ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم:٨٥-٨٧]، فيَصدُر النَّاسُ جَماعاتٍ وزُمَرًا على أَصْناف مُتبايِنة تَختَلِف اختِلافًا كَبيرًا كَمَا قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء:٢١].

﴿لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ يعني: يَصدُرون أَشتاتًا فيُرَوْا أَعْمالهم، يُريهم اللهُ تعالى أَعْمالَهُم إن خَيْرًا فخَيرٌ، وإِن شَرًّا فشَرٌّ، وذلِك بالحِساب وبالكِتاب، فيُعطَى الإِنْسانُ كِتابَه إِمَّا بيَمينه، وإِمَّا بشِماله، ثُم يُحاسَب على ضَوْء مَا فِي هَذا الكِتابِ، يُحاسِبه الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا المُؤمِن فإِن الله تعالى يَخْلو به وحدَه ويُقرِّره بذُنوبه ويَقول: فعَلْتَ كَذا، وفعَلْتَ كذا وكذا، وفعَلْتَ كذا. حتَّى يُقِرَّ ويَعترِف، فإِذَا رأَى أَنَّه هلَكَ، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»، وأَمَّا الكافِرُ -وَالعِياذُ بالله- فإِنه لَا يُعامَل هذِه المُعامَلَةَ، بَلْ يُنادَى على رُؤُوس الأَشْهاد: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

وقَوْله: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ هَذا مُضافٌ، وَالمُضافُ يَقتَضِي العُموم، وظاهِرُه أَنَّهم يُرَوْن الأَعْمال الصَّغير وَالكَبير وهُو كذَلِك، إِلَّا مَا غفَرَه اللهُ من قَبْلُ بحَسَناتٍ، أو دُعاءٍ، أو مَا أَشبَه ذلِك فهَذا يُمحَى كما قالَ اللهُ تعالى ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]، فيُرَى الإِنْسانُ عمَله، يُرَى عمَله القَليل وَالكَثير حتَّى يَتبيَّن لَه الأَمْرُ جَليًّا، ويُعطَى كِتابَه ويُقال: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤]؛ ولهذا يَجِب على الإِنْسان أن لَا يُقدِم على شيءٍ لَا يُرضِي الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه يَعلَم أَنَّه مَكتوبٌ عليه، وأنه سَوْف يُحاسَب عليه.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (مَنْ) شَرْطيَّة تُفيدُ العُموم، يَعنِي: أيُّ إِنسان يَعمَل مِثْقال ذَرَّة فإِنه سيَراهُ، سَواءٌ من الخَيْر، أو من الشَّرِّ ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يَعنِي: وَزْن ذَرَّة، وَالمُراد بالذَّرَّة: صِغار النَّمْل كما هُو مَعروفٌ، وليس المُراد بالذَّرَّة: الذَّرَّة المُتعارَف علَيْها

اليَوْم كَما ادَّعاه بعضُهم؛ لأن هذِه الذَّرَّةَ المُتعارَف عليها اليَوْمَ ليسَت مَعروفةً فِي ذلِك الوَقْتِ، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يُخاطِب النَّاس إلَّا بما يَفهَمون، وإِنَّما ذكَر الذَّرَّة؛ لأنها مَضرَب المَثَل فِي القِلَّة، كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء:٤٠].

ومِن المَعْلوم أن مَن عمِل ولو أَدْنى من الذَّرَّة فإنه سَوْف يَجِده، لكِن لَمَّا كانَت الذَّرَّة مَضرَب المَثَل فِي القِلَّة قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾.

وقَوْله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يُفيد أن الَّذِي يُوزَن هُو الأَعْمال، وهذِه المَسأَلةُ اختلَف فيها أَهْلُ العِلْم:

فمِنَ العُلَماء مَن قالَ: إِن الَّذِي يُوزَن العمَلُ.

ومِنهم مَن قالَ: إِن الَّذِي يُوزَن صَحائِفُ الأَعْمال.

ومِنهم مَن قالَ: إِن الَّذِي يُوزَن هُو العامِل نَفْسه.

ولكُلٍّ دَليلٌ، أمَّا مَن قالَ: إِن الَّذِي يُوزَن هُو العمَلُ. فاستَدَلَّ بهذِه الآيَةِ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ لأن تَقدير الآية: فمَن يَعمَل عمَلًا مِثْقال ذَرَّة. واستَدَلُّوا أيضًا بقَوْل النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

لكِن يُشكِل على هَذا أن العمَلَ ليسَ جِسْمًا يُمكِن أن يُوضَع فِي المِيزان، بَلِ العمَلُ عمَلٌ انتَهى وانقَضى.

ويُجابُ عن هَذا بأن يُقال:

أوَّلًا: على المَرْء أن يُصدِّق بما أَخبرَ اللهُ تعالى به ورَسولُه ﷺ من أُمور الغَيْب، وإن كانَ عَقْله قَد يَحار فيه، ويَتَعجَّب ويَقول: كَيْف يَكُون هذا؟ فعلَيْه التَّصديقُ؛ لأن قُدْرة الله تعالى فَوْقَ مَا نَتَصوَّر، فالواجِبُ على المُسلِم أن يُسلِّم ويَستَسْلِم ولَا يَقول: كَيْفَ؟ لأنَّ أُمور الغَيْب فوقَ مَا يُتَصوَّر.

ثانِيًا: أن الله تعالى يَجعَل هذِه الأَعْمالَ أَجْسامًا تُوضَع فِي المِيزان وتَثقُل وتَخِفُّ، وَالله تعالى قادِرٌ على أن يَجعَل الأُمور المَعنَويَّة أَجْسامًا، كَما صَحَّ عن النَّبيِّ ﷺ فِي أن المَوْت يُؤتَى به على صُورة كَبْش ويُوقَف بين الجَنَّة وَالنار فيُقالُ: يا أَهْل الجَنَّة. فيَشرَئِبُّون ويَطَّلِعون ويُقال: يا أَهْل النارِ. فيَشْرَئِبُّون ويَطَّلِعون فيُقال لَهُم: هَلْ تَعرِفون هذا؟ فيَقولون: نعَمْ، هَذا المَوْتُ، مَع أنَّه فِي صُورة كَبْش، وَالمَوْت مَعنًى ليسَ جِسْمًا، ولكِنِ اللهُ تعالى يَجعَله جِسْمًا يَوْمَ القِيامة، فيَقولون: هَذا المَوْتُ. فيُذبَح أَمامَهم ويُقال: يا أَهْل الجَنَّة، خُلودٌ ولَا مَوْت، ويا أَهْل النار خُلودٌ ولَا مَوْت[1]. وبهذا يَزولُ الإِشْكالُ الوارِدُ على هَذا القَوْلِ.

أمَّا مَن قالَ: إن الَّذِي يُوزَن هُو صَحائِفُ الأعمال فاستَدَلُّوا بحَديثِ صاحِبِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وأنذرهم يوم الحسرة، رقم (٤٧٣٠)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

البِطاقة الَّذِي يُؤتَى يَوْم القِيامة به، ويُقال: انظُرْ إلى عمَلِكَ. فتُمَدُّ له سِجلَّاتٌ مَكتوبٌ فيها العمَلُ السيِّئُ، سِجلَّات عَظيمة، فإذَا رأَى أنَّه قَد هلَك أُتِيَ ببِطاقة صَغيرة فيها لَا إِلَهَ إِلَّا الله فيَقول: يا رَبِّ، مَا هذِه البِطاقةُ مَع هذِه السِّجلَّاتِ؟ فيُقال لَه: إنَّك لَا تُظلَم شَيْئًا. ثُم تُوزَن البِطاقة فِي كِفَّة، وَالسِّجلَّات فِي كِفَّة، فتَرجُح بِهِنَّ البِطاقة وهِي لَا إِلَهَ إِلَّا الله»[1] قالوا: فهَذا دَليلٌ على أن الَّذِي يُوزَن هُو صَحائِف الأَعْمال.

وأمَّا الَّذِين قالوا: إِن الَّذِي يُوزَن هُو العامِلُ نَفْسه فاستَدَلُّوا بحَديث عبدِ الله ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّه كانَ ذاتَ يَوْم مَع النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فهَبَّتْ رِيحٌ شَديدةٌ، فقام عَبدُ الله بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فجعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُه؛ لأَنَّه نَحيفُ القدَمَيْن وَالساقَيْن، فجعَل النَّاسُ يَضحَكون، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ -أَوْ- مِمَّ تَعْجَبُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ سَاقَيْهِ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ»[2]، وهَذا يَدُلُّ علَى أن الَّذِي يُوزَن هُو العامِلُ.

فيُقال: نَأخُذ بالقَوْل الأوَّل: أن الَّذِي يُوزَن العمَل، ولكِن رُبَّما يَكُون بعضُ النَّاس تُوزَن صَحائِفُ أَعْماله، وبعضُ النَّاس يُوزَن هُو بنَفْسه.

فإِن قالَ قائِلٌ: على هَذا القولِ أن الَّذِي يُوزَن هُو العامِلُ هل يَنبَنِي هَذا على أَجْسام النَّاس فِي الدُّنْيا وأن صاحِبَ الجِسْم الكَبير العَظيم يَثقُل مِيزانُه يَوْم القِيامة؟

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب مَا جاء فيمن يموت وهُو يشهد أن لَا إِله إِلا الله، رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب مَا يرجى من رحمة الله يوم القيامة، رقم (٤٣٠٠)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠).

فالجَوابُ: لَا يَنبَني على أَجْسام الدُّنْيا، فعَنْ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رَسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**»[1]، وقالَ: اقرَؤُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]، وهَذا عَبدُ الله بنُ مَسعودٍ يَقول النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ سَاقَيْهِ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ**»[2]، فالعِبْرة بثِقَل الجِسْم، وثِقَله يَوْم القِيامة بما كانَ معَه من أَعْمال صالِحة، يَقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

وهذه السُّورةُ كُلُّها فِيها التَّحذيرُ وَالتَّخْويفُ من زَلْزَلة الأَرْض، وفيها الحَثُّ على الأَعْمال الصالِحة، وفيها أن العمَلَ لَا يَضيع مَهْما قلَّ، حتَّى لو كانَ مِثقال ذَرَّة أو أَقَلَّ، فإِنه لا بُدَّ أن يَراهُ الإِنسان ويَطَّلِع عليه يَوْم القِيامة.

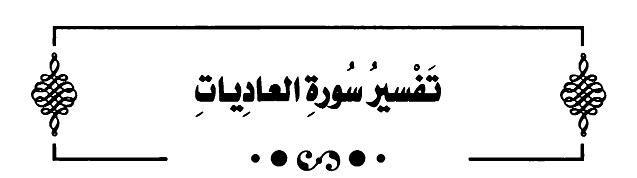
نَسأَل الله تعالى أن يَختِم لنا بالخَيْر وَالسَّعادة وَالصَّلاح وَالفَلاح، وأن يَجعَلنا مِمَّن يُحشَرون إِلى الرَّحْمن وَفْدًا، إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ۞ ● •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم، رقم (٤٧٢٩)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠).



تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١-١١].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ هَذا قسَمٌ، وَالعادِياتُ صِفة لِمَوْصوفٍ مَحْذوفٍ فما هُو هَذا المَوْصوفُ؟ هل المُرادُ الخَيْلُ، يَعنِي: (والخَيْل العادِيات) أو المُرادُ الإِبِلُ، يَعنِي: (والإِبِل العادِياتُ)؟ فِي هَذا قَوْلان للمُفسِّرين: فمِنْهم مَن قالَ: إِن المَوْصوف هِي الإِبِل، وَالتَّقديرُ (والإِبِل العادِيات) ويَعنِي بها الإِبِل الَّتِي تَعْدوا من عرَفةَ إِلى مُزدَلِفةَ، ثُم إِلى مِنًى، وذلِكَ فِي مَناسِكِ الحَجِّ، واستَدَلُّوا لِهَذا بأن هذِه السُّورةَ مَكِّيَّةٌ، وأنه ليسَ فِي مكَّةَ جِهادٌ على الخَيْل حتَّى يُقسِم بها.

أمَّا القَوْل الثانِي لجُمهور المُفسِّرين وهُو الصَّحيحُ فإِن المَوْصوف هُو الخَيْل، وَالتَّقديرُ: (والخَيْل العادِيات) وَالخَيْل العادِيات مَعلومةٌ للعَرَب حتَّى قَبْل مَشْروعية الجِهاد، هُناك خَيْل تَعدُو على أَعْدائِها سواءٌ بحَقٍّ أو بغَيْر حَقٍّ فيما قبلَ الإِسْلام، أمَّا

بعد الإِسْلام فالخَيْل تَعْدو على أَعْدائها بحَقٍّ.

يَقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾، وَالعادِي اسمُ فاعِلٍ من العَدْوِ وهُو سُرْعة المَشْيِ وَالانطِلاق، وقَوْلُه: ﴿ضَبْحًا﴾ الضَّبْح: مَا يُسمَع من أَجْواف الخَيْل حين تَعْدو بسُرعة، يَكُون لهَا صَوْت يَخرُج من صُدورها، وهَذا يَدُلُّ علَى قُوَّة سَعْيها وشِدَّته.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ المُورياتُ مِن أَوْرَى أو وَرِيَ بمَعنَى: قدَحَ، ويَعنِي بذلِكَ قَدْح النار حينها يَضرِب الأَحْجار بعضَها بعضًا، كمَا هُو مَشهور عِنْدنا فِي حَجَر المَرْو، فإِنَّك إِذَا ضرَبْت بعضَه ببَعْض انقَدَح، هذِه الخَيْلُ لقُوَّة سَعْيها وشِدَّته، وضَرْبها الأرض، إِذَا ضرَبْتَ الحَجَر ضرَبَ الحَجَرُ الحجرَ الثانِيَ، ثُم يَقدَح نارًا، وذلِك لِقُوَّتها وقُوَّة سَعْيها وضرَبها الأَرْض.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾؛ أي: الَّتِي تُغير على عَدُوِّها فِي الصَّباح، وهَذا أَحسَنُ مَا يَكُون فِي الإِغارة على العَدُوِّ أن يَكُون فِي الصَّباح؛ لأنه فِي غَفْلة ونَوْم، وحتَّى لوِ استَيْقَظ من الغارة فسَوْف يَكُون على كَسَل وعلى إِعْياء، فاخْتارَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ للقَسَم بهذه الخُيولِ أَحسَنَ وَقْت للإِغارة وهُو الصَّباح، وكانَ النَّبيُّ ﷺ لَا يُغير على قَوْم فِي اللَّيْل، بَلْ يَنتَظِر فإِذَا أَصبَح إِن سمِعَ أَذانًا كفَّ وإِلَّا أَغارَ[1].

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾؛ أي: أَثَرْنَ بهذا العَدوِّ، وهذِه الإِغارةُ ﴿نَقْعًا﴾ وهُو الغُبارُ الَّذِي يَثورُ من شِدَّة السَّعْي، فإِن الخَيْل إِذَا سعَتْ واشتَدَّ عَدْوُها فِي الأرض، وصار لهَا غُبارٌ من الكَرِّ وَالفرِّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إِلى الإِسلام والنبوة، رقم (٢٩٤٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الإِمساك عن الإِغارة على قوم فِي دار الكفر إِذَا سمع فيهم الأذان، رقم (٣٨٢)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾؛ أي: تَوسَّطْن بهذا الغُبارِ ﴿جَمْعًا﴾؛ أي: جُموعًا من الأَعْداء، أي: أنَّها ليسَ لهَا غايةٌ، ولَا تَنتَهي غايَتُها إلَّا وَسَط الأَعْداء، وهذِه غايَةُ مَا يَكُون من مَنافِع الخَيْل، مَع أن الخَيْل كلُّها خَيْرٌ، كَما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1]، أَقسَم اللهُ تَعالى بهذِه العادِياتِ -بهذِه الخَيْلِ الَّتِي بلَغَتِ الغايَةَ- وهُو الإِغارةُ على العَدُوِّ وتَوسُّط العَدُوِّ، من غير خَوْف ولَا تعَبٍ ولَا ملَلٍ.

أمَّا المُقسَم عليه فهُو الإنسانُ فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وَالمُرادُ بالإِنسان هُنا الجِنْس، أي: أن جِنْس الإِنسان، إِذَا لم يُوفَّق للهِداية فإِنَّه ﴿لَكَنُودٌ﴾؛ أي: كَفورٌ لِنِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ كَما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، وقيل: المُرادُ بالإِنْسان هُو الكافِرُ. فعلى هَذا يَكُون عامًّا أُريدَ به الخاصُّ، وَالأَظْهَرُ أن المُرادَ به العُمومُ، وأن جِنْس الإِنسانِ لولا هِداية الله لكان كَنودًا لرَبِّه عَزَّوَجَلَّ، وَالكُنودُ هُو الكُفْر، أي: كافِرٌ لِنِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ، يَرزُقه اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيَزداد بهذا الرِّزْقِ عُتُوًّا ونُفورًا، فإِن من النَّاس مَن يَطغَى إِذَا رآه قَدِ استَغْنى عن الله، ومَا أَكْثَرَ مَا أَفسَد الغِنَى من بَني آدَمَ! فهُو كَفور بنِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ، يَجحَد نِعْمة الله، ولَا يَقوم بشُكْرها، ولَا يَقوم بطاعة الله؛ لأنه كَنودٌ لِنِعْمة الله.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (إِنَّه) الضَّميرُ قيل: يَعود على الله، أي: أنَّ الله تعالى يَشهَد على العَبْد بأنه كَفورٌ لنِعْمة الله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، رقم (٢٨٥٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، رقم (١٨٧٣)، من حديث عروة بن الجعد البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقيلَ: إنه عائِدٌ على الإِنْسان نَفْسِه، أي: أن الإِنْسان يَشهَد على نَفْسِه بكُفْر نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ.

والصَّوابُ أن الآيَة شامِلةٌ لِهَذا وهذا، فاللهُ شَهيدٌ على مَا فِي قَلْب ابنِ آدَمَ، وشَهيدٌ على عمَلِه، وَالإِنسانُ أيضًا شَهيدٌ على نَفْسه، لكِن قَد يُقِرُّ بهذه الشَّهادةِ فِي الدُّنْيا، وقد لَا يُقِرُّ بها فيَشهَد على نَفْسه يَوْم القِيامة كَمَا قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

﴿وَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: الإِنْسانُ ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ الخَيْر هُو المالُ كَمَا قالَ اللهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨٠]، أي: إن ترَكَ مالًا كَثيرًا.

فالخَيْرُ هُو المال، وَالإِنْسانُ حُبُّه للمال أَمْر ظاهِرٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠]، ولَا تَكاد تَجِد أَحَدًا يَسلَم من الحُبِّ الشَّديدِ للمال، أمَّا الحُبُّ مُطلَقُ الحُبِّ فهَذا ثابِتٌ لكُلِّ أحدٍ، مَا من إِنسان إلَّا ويُحِبُّ المال، لكِنِ الشِّدَّةُ ليسَت لكُلِّ أَحَد، بعض النَّاس يُحِبُّ المالَ الَّذِي تَقوم به الكِفاية، ويَستَغْني به عن عِباد الله، وبعض النَّاس يُريد أكثَرَ، وبعضُ النَّاس يُريد أَوْسَع وأَوْسَع.

فالمُهِمُّ أن كُلَّ إِنسان فإِنَّه مُحِبٌّ للخَيْر، أي: لِلْمال، لكِنِ الشِّدَّة تَختَلِف، ويَختَلِف فيها النَّاسُ من شَخْص لآخَرَ.

ثُمَّ إِن اللهَ تعالى ذكَر الإِنسان حالًا لا بُدَّ له مِنها فقالَ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فيَعمَل لذلِكَ، ولَا يَكُن هَمُّه المال ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾؛ أي: يَتيقَّن. ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾؛ أي: نُشِر وأُظهِر فإِن النَّاس يَخرُجون من قُبورهم لرَبِّ العالَمِين،

كأنَّهُم جرادٌ مُنتَشِر، يَخرُجون جَميعًا بصَيْحة واحِدة ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣].

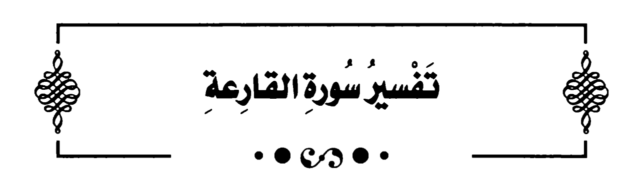
﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾؛ أي: مَا فِي القُلوب من النِّـيَّات، وأَعْمال القَلْب كالتَّوكُّل، وَالرَّغْبة، وَالرَّهْبة، وَالخَوْف، وَالرَّجاء ومَا أَشبَه ذلِك، وهُنا جعَلَ الله عَزَّوَجَلَّ العُمْدة مَا فِي الصُّدور كَما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:٩-١٠]؛ لأَنَّه فِي الدُّنْيا يُعامِل النَّاسَ مُعامَلة الظاهِر، حتَّى المُنافِق يُعامَل كَما يُعامَل المُسلِم حَقًّا، لكِن فِي الآخِرة العمَلُ على مَا فِي القَلْب؛ ولهذا يَجِب علينا أن نَعتَنِيَ بقُلوبِنا قبلَ كُلِّ شيءٍ قبلَ الأَعْمال؛ لأن القَلْب هُو الَّذِي عليه المَدارُ، وهُو الَّذِي سيَكون الجَزاءُ عليه يَوْم القِيامة؛ ولهذا قالَ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.

ومُناسَبة الآيَتَيْن بعضِهما لبَعْض أن بَعْثَرة مَا فِي القُبور إِخْراج للأَجْساد من بواطِن الأَرْض، وتَحصيل مَا فِي الصُّدور إِخراجُ لِما فِي الصُّدور، مِمَّا تُكِنُّه الصُّدور، فالبَعْثَرة بَعْثَرة مَا فِي القُبور عمَّا تُكِنُّه الأَرْض، وهُنا عمَّا يُكِنُّه الصَّدْر، وَالتَّناسُب بينهما ظاهِر.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾؛ أي: إِن الله عَزَّوَجَلَّ بهِمْ، أي: بالعِباد لخَبيرٌ، وجاءَ التَّعبيرُ ﴿بِهِمْ﴾ ولم يَقُل: (به) مَع أن الإِنسان مُفرَد، باعتِبارِ المَعنَى، أي: أنَّه أَعاد الضَّميرَ على الإِنْسان باعتِبار المَعنَى؛ لأن مَعنَى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ﴾؛ أي: إن كُلَّ إِنْسان، وعَلَّق العِلْم بذلِكَ اليَوْمِ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾؛ لأنه يَوْم الجَزاء وَالحِساب، وإِلَّا فإِن اللهَ تعالى عَليمٌ خَبيرٌ فِي ذلِك اليَوْمِ وفيما قَبلَه، فهُو جَلَّوَعَلَا عالِمٌ بما كانَ، ومَا يَكُون لو كانَ كيفَ يَكُون.

هذا هُو التَّفْسيرُ اليَسيرُ لِهَذه السُّورةِ العَظيمةِ، ومَن أَراد البَسْط فعَلَيْه بكُتُب التَّفاسير الَّتِي تَبسُط القَوْل فِي هذا، ونحن إِنما نُشير إِلى المَعانِي إِشارةً مُوجَزةً، نَسأَل اللهَ تعالى الهِدايةَ وَالتَّوْفيقَ، وأن يجعَلَنا ممَّن يَتْلون كِتابَ الله حَقَّ تِلاوَتِه، إِنَّه على كل شَيءٍ قَديرٌ.

• • ۞ • •



تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة:١-١١].

• • • •

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ اسمُ فاعِلٍ من قرَعَ، وَالمراد: الَّتِي تَقرَع القُلوب وتُفزِعها، وذلِك عِند النَّفْخ فِي الصُّور، كَما قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]، فهِي تَقرَع القُلوب بعد قَرْع الأَسْماع، وهذِه القارِعةُ هِي قارِعةٌ عَظيمةٌ لَا نَظيرَ لها قبل ذلِك، وهِي من أَسْماء يَوْم القِيامة، كَما تُسمَّى الغاشِية، وَالحاقَّة.

وقَوْلُه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ ﴿مَا﴾ هُنا استِفْهامٌ بمَعنى التَّعظيم وَالتَّفْخيم، يَعنِي: مَا هِي القارِعةُ الَّتِي يُنوَّه عنها؟

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ هَذا زِيادةٌ فِي التَّفْخيم وَالتَّعْظيم وَالتَّهويل، يَعنِي: أيُّ شيءٍ أَعلَمَك عن هذِه القارِعةِ؟ أي: مَا أَعظَمَها ومَا أَشَدَّها!.

ثُم بيَّن متَى تَكون؟ فقالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾؛ أي: أنَّها تكون فِي ذلِكَ الوَقْتِ، يَوْم يَكُون النَّاسُ كالفَراش المَبْثوث حين يَخرُجون من قُبورِهم. قالَ العُلَماء: يَكونون كالفَراش المَبْثوث، وَالفَراش هُو هذِه الطُّيورُ الصَّغيرة الَّتِي تَتَزاحَم عند وُجود النار فِي اللَّيْل وهِي ضَعيفة وتَكاد تَمشِي بدون هُدًى، وتَتَراكَم ورُبَّما لطَيْشها تَقَع فِي النار وهِي لَا تَدْرِي، فهُمْ يُشبِهون الفَراش فِي ضَعْفه وحِيرتِه وتَراكُمه وسَيْره إِلى غَيْر هُدًى.

و﴿ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ يَعنِي: المُنتَشِر، فهُو كقولِه تعالى: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر:٧]، لو تَصوَّرْت هَذا المَشهَدَ: يَخرُج النَّاس من قُبورِهم على هَذا الوَجْهِ لتَصوَّرت أَمْرًا عَظيمًا لَا نَظيرَ له، هَؤُلاءِ العالَمُ من آدَمَ إِلى أن تَقوم الساعةُ كُلُّهم يَخرُجون خُروجَ رجُلٍ واحِدٍ فِي آنٍ واحِدٍ من هذِه القُبورِ المُبعْثَرة فِي مَشارِق الأرض ومَغارِبها، ومن غَيْر القُبور كالَّذي أُلقِيَ فِي لُجَّةِ البَحْر، وأَكَلَتْه الحِيتانُ، أو فِي فَلَوات الأَرْض، وأَكَلَتْه السِّباع، أو مَا أَشبَهَ ذلِكَ، كُلُّهم سيَخرُجون مرَّةً واحِدةً، يَصولُون ويَجولُون فِي هذِه الأرضِ.

أمَّا الجِبالُ وهِي تِلْكَ الجِبالُ العَظيمة الراسِيةُ الصُّلْبة فتَكونُ ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ (العِهْن): الصُّوفُ، وقيل: القُطْن. ﴿ٱلۡمَنفُوشِ﴾: المُبعثَر؛ أي: أن هذِه الجِبالُ بعد أن كانَت صُلْبة قَوِيَّةً راسِخةً تكون مِثْل العِهْن الصُّوف، أو القُطْن المُبَعْثَر -سَواءٌ نَفَشْتَه بيَدِكَ أو بالمنداف فإِنه يَكُون خَفيفًا يَتَطايَرُ مَع أَدْنى رِيحٍ، وقد قالَ

اللهُ تعالى فِي آياتٍ أُخرى: إن الجِبالَ تكون هَباءً مُنبثًّا: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٥-٦]، وقالَ جَلَّوَعَلَا هُنا: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ قسَّمَ اللهُ تعالى النَّاسَ إلى قِسمَيْن:

القِسْم الأَوَّل: مَن ثَقُلَت مَوازِينُه وهُو الَّذِي رجَحَت حَسَناتُه على سَيِّئاتِه. وَالثانِي: مَن خَفَّتْ مَوازِينُه وهُو الَّذِي رجَحَت سَيِّئاتُه على حَسَناتِه، أو الَّذِي لَيْسَ لَه حَسَنة أَصْلًا كالكافِرِ.

يَقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ العِيشةُ مَأخوذةٌ من العَيْش وهُو الحَياةُ، يُقال: عاشَ الرَّجُل زَمَنًا طَويلًا، أي: بَقِيَ وحَيِيَ زمَنًا طَويلًا، وَالعِيشة هُنا على وَزْن فِعْلة، فهِي هَيْئة وليسَتْ مَصدَرًا، المَصدَر الدالُّ على الوحدة أن تَقول: عَيْشة. وأمَّا إِذَا قُلْتَ: عِيشَة فهِي فِعْلة تَدُلُّ على الهَيْئة، كَما قالَ ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَ(فَعْلَةٌ) لِـمَرَّةٍ كَجَلْسَةِ وَ(فِعْلَةٌ) لِـهَيْئَةٍ كَجِلْسَةِ

المَعنَى: أنَّه فِي حَياةٍ طَيِّبة راضِيةٍ. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ قيل: إِنها اسْمُ فاعِلٍ بمَعنى اسْمِ المَفْعول، أي: مَرْضيَّة. وقيلَ: إِنَّها اسمُ فاعِل من بابِ النِّسْبة، أي: ذات رِضًا، وكِلا المَعنيَيْن واحِدٌ، وَالمَعنَى: أنَّها عِيشة طَيِّبة ليسَ فيها نَكَدٌ، وليسَ فيها صَخَب،

(١) ألفية ابن مالك (ص:٤١).

وليسَ فيها نَصَبٌ، كامِلة من كُلِّ وَجْه، وهَذا يَعنِي العَيْش فِي الجَنَّة، جعَلَنا اللهُ مِنهم، هَذا العَيْشُ لَا يَمَسُّهم فيها نصَبٌ، ومَا هُم مِنها بمُخرَجين، لَا يَحزَنون، ولَا يَخافون، فِي أَنعَم عَيْش، وأَطْيَب بالٍ، وأَسَرِّ حالٍ فهِي عِيشة راضِيةٌ.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ إِمَّا أَنَّه الكافِرُ الَّذِي ليسَ لَه أيُّ حَسَنةٍ؛ لأن حَسَناتِ الكافِرِ يُجازَى بها فِي الدُّنْيا ولَا تَنفَعُه فِي الآخِرة، أو أَنَّه مُسلِم ولكِنَّه مُسرِف على نَفْسه وسَيِّئاتُه أكثَرُ.

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ (أمُّ) هُنا بمَعنَى: مَقصودِه، أيِ: الَّذِي يَقصِده الهاوِية، وَالهاوِية من أَسْماء النار، يَعنِي أنَّ مَآله إِلى نار جَهنَّم -وَالعِياذُ باللهِ-.

وقيل: إِن المُرادَ بالأُمِّ هُنا: أُمُّ الدِّماغ، وَالمعنى: أَنَّه يُلقَى فِي النار على أُمِّ رَأْسه، نَسأَل اللهَ السَّلامة، وإِذَا كانَتِ الآيَةُ تَحتَمِل مَعنيَيْن لَا يَترَجَّح أَحَدُهما على الآخَر ولَا يَتَنافَيان فإِنه يُؤخَذ بالمَعنيَيْن جَميعًا فيُقال: يُرمى فِي النار على أُمِّ رَأْسه. وأيضًا ليسَ لَه مَأوًى ولَا مَقصِدٌ إِلَّا النار.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ هَذا من باب التَّفخيمِ وَالتَّعْظيم لهَذه الهاوِيةِ، يُسأَلُ مَا هِيَ؟ أَتَدْرِي مَا هِيَ؟ إِنها لَشَيْء عَظيمٌ، إِنها نارٌ حامِية فِي غاية مَا يَكُون من الحَمْو، وقد قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا»[1]، إِذَا تَأَمَّلْت نار الدُّنْيا كُلَّها سواءٌ نار الحَطَب، أو الورَق، أو البتغاز أو أَشَدُّ من ذلِكَ فإِن نار جَهنَّمَ مُفضَّلة عليها بتِسْعة وسِتِّين جُزْءًا، نَسأَل اللهَ العافِيَةَ، وفي هَذه الآيَةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار وأنَّها مخلوقة، رقم (٣٢٦٥)، ومسلم: كتاب الجنة، باب فِي شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

التَّخويفُ وَالتَّحذيرُ من هَذا اليَوْمِ، وأن النَّاس لَا يَخرُجون عن حالَيْن:

إِمَّا رجُلٌ رجَحَت حَسَناتُه، أو رجُلٌ رجَحَتْ سَيِّئاتُه.

وفيها أيضًا دَليلٌ على أن يَوْم القِيامة فيه مَوازينُ، وقد جاءَ فِي بعضِ النُّصوص أَنَّه مِيزانٌ فهَلْ هُو واحِدٌ أو مُتَعدِّد؟

قالَ بعضُ أَهْل العِلْم: إنه واحِدُ وإِنَّما جُمِع باعتِبار المَوْزون؛ لأنه يُوزَن فيه الحَسَناتُ وَالسَّيِّئات، وتُوزَن فيه حَسَناتُ فُلان وفُلان، وتُوزَن فيه حسَناتُ هَذِه الأُمَّةِ وَالأُمَّةِ الأخرى، فهُو مَجْموع باعتِبارِ المَوْزون، لَا باعتِبار المِيزان، وإلَّا فالمِيزانُ واحِدٌ.

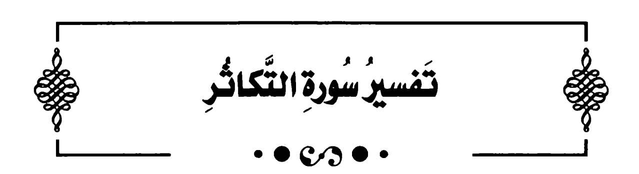
وقالَ بعضُ أَهْل العِلْم: إِنَّها مَوازِينُ مُتَعدِّدة، لكُلِّ أُمَّة مِيزانٌ، ولكُلِّ عمَل مِيزانٌ؛ فلهذا جُمِعَت.

والأَظهَرُ -وَاللهُ أَعلَمُ- أَنَّه مِيزانٌ واحِدٌ، لكِنَّه جُمِع باعتِبار المَوْزون على حَسب الأَعْمال، أو على حَسب الأُمَم، أو على حَسب الأَفْراد.

وفي هذِه الآيَةِ دَليلٌ على أن الإِنسان إِذَا تَساوَتْ حسَناتُه وسَيِّئاتُه فإِنه قَد سكَتَ عنه فِي هذِه الآيَةِ، ولكِن بيَّن اللهُ تعالى فِي سُورة الأَعْراف أَنَّهم لَا يَدخُلون النار، وإنما يُحبَسون فِي مَكانٍ يُقالُ لَه: الأَعْراف. وذكَرَ الله تعالى فِي سُورة الأَعْراف مَا يَجرِي بينَهُم وبين المُؤمنين، وأَنَّهم إِذَا صُرِفَت أَبْصارُهم تِلْقاءَ أَصْحاب النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٧].

نَسأَل اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يَجعَلَنا مِمَّن رجَحَت حَسَناتُه على سَيِّئاتِه، وأن يَغفِر لَنا، ويُعامِلَنا بعَفْوِه، إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ۞ ● •



تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ هَذِه الجُمْلةُ جُمْلة خَبَريَّة يُخبِر الله عَزَّوَجَلَّ بها العِبادَ مُخاطِبًا لَهُم يَقولُ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ومَعنَى: ﴿أَلْهَاكُمْ﴾؛ أي: شغَلَكم حَتَّى لَهَوْتُم عمَّا هُو أَهَمُّ مِن ذكْر الله تعالى وَالقِيام بطاعَتِه، وَالخِطابُ هُنا لجَميع الأُمَّة إلَّا أنَّه يُخصَّص بمَن شغَلَتْهم أُمور الآخِرة عن أُمور الدُّنيا وهُم قليلٌ، وإنَّما نَقُول: هُم قَليلٌ؛ لأنَّه ثبَتَ فِي الصَّحيحَيْن أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول يَوم القِيامة: «يا آدَمُ. فيَقول: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فيَقول: أَخرِجْ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلى النار. قالَ: ومَا بَعثُ النارِ؟ قالَ: مِن كُلِّ أَلْفٍ تِسعَ مِئة وتِسْعةً وتِسعين»[1]، واحِدٌ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب وترى الناس سكارى، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري.

فِي الجَنَّة، وَالباقي فِي النار، وهَذا عدَدٌ هائِلٌ! إِذَا لم يَكُن من بَني آدَمَ إلَّا واحِدٌ من الأَلْف من أَهْل الجَنَّة وَالباقون من أَهْل النار، إِذَنْ فالخِطابُ بالعُموم فِي مِثْل هذِه الآيَةِ جارٍ على أَصْله؛ لأن الواحِدَ من الأَلْف ليسَ بشيءٍ بالنِّسْبة إِليه.

وأمَّا قَوْلُه: ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فهُو يَشمَل التَّكاثُر بالمال، وَالتَّكاثُر بالقَبيلة، وَالتَّكاثُر بالجاهِ، وَالتَّكاثُر بالعِلْم، وبكُلِّ مَا يُمكِن أن يَقَع فيه التَّفاخُر، ويَدُلُّ لِذلِكَ قولُ صاحِبِ الجَنَّة لصاحِبِه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف:٣٤]، فالإِنسانُ قَد يَتكاثَر بمالِه فيَطلُب أن يَكُون أَكثَرَ من الآخَرِ مالًا وأَوْسَعَ تِجارة، وقد يَتكاثَر الإِنسانُ بقَبيلَتِه، يَقول: نحنُ أَكثَرُ مِنهم عدَدًا، كما قالَ الشاعِرُ[1]:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

أَكثَرُ مِنهم حَصًى؛ لأنَّهم كانوا فيما سبَقَ يَعُدُّون الأشياءَ بالحَصى؛ فمثَلًا: إِذَا كانَ هَؤلاءِ حَصاهُم عشَرة آلافٍ، وَالآخَرون حَصاهُم ثَمانية آلافٍ صار الأَوَّل أَكثَرَ وأَعَزَّ، فيَقولُ الشاعِرُ:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

كذَلِك يَتكاثَر الإِنسانُ بالعِلْم، فتَجِده يُكاثِر على غَيْره بالعِلْم، لكِن إِن كانَ بالعِلْم الشَّرْعيِّ فهُو خَيْر، وإِن كانَ بالعِلْم غير الشَّرْعيِّ فهُو إِمَّا مُباحٌ وإِمَّا مُحَرَّم، وهَذا هُو الغالِبُ على بَني آدَمَ التَّكاثُر، فيَتكاثَرون فِي هذِه الأُمور عَمَّا خُلِقوا لَه من عِبادة الله عَزَّوَجَلَّ.

وقَوْلُه: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ يَعنِي: إِلى أن زُرْتُمُ المَقابِر، يَعنِي: إِلى أن مُتُّمْ،

---

(١) البيت للأعشى، وانظر: الخصائص لابن جني (١/ ١٨٥).

فالإِنْسانُ مجْبول على التَّكاثُر إِلى أن يَموت، بَلْ كُلَّما ازدادَ به الكِبَر ازدادَ به الأَمَل، فهُو يَشيبُ فِي السِّنِّ ويَشِبُّ فِي الأمل، حتَّى إِن الرَّجُل لَه تِسْعون سَنَةً مثَلًا تَجِد عِنده من الآمال وطُول الأَمَل مَا ليسَ عِند الشابِّ الَّذِي لَه خَمْسَ عشرةَ سَنَةً، هَذا هُو مَعنَى الآيَةِ الكَريمة. أي: أنَّكم تَلهَّوتم بالتَّكاثُر عن الآخِرة إِلى أن مُتُّمْ.

وقيل: إِن مَعنَى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ حتَّى أَصبَحْتُم تَتكاثَرون بالأَمْوات كَما تَتكاثَرون بالأَحْياء، فيَأتِي الإِنسانُ فيَقولُ: أنا قَبيلَتي أكثرُ من قَبيلَتِك، وإِذَا شِئْت فاذْهَبْ إِلى القُبور عُدَّ القُبور مِنَّا، وعُدَّ القُبور مِنْكُم فأَيُّنا أَكثَرُ؟ لكِن هَذا قولٌ ضَعيفٌ بَعيدٌ من سِياق الآيَة، وَالمَعنَى الأَوَّلُ هُو الصَّحيحُ أَنَّكم تَتكاثَرون إِلى أن تَموتوا.

وقَوْلُه: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ استَدَلَّ به عُمرُ بنُ عَبدِ العَزيز رَحِمَهُ اللَّهُ على أن الزائِرَ لا بُدَّ أن يَرجِع إِلى وطَنِه، وأن القُبور ليسَتْ بدار إِقامة[1]، وكذلكَ يُذكَر عن بعض الأَعْراب أَنَّه سمِعَ قارِئًا يَقرَأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقالَ: «واللهِ مَا الزائِرُ بمُقيمٍ، وَاللهِ لَنُبْعَثَنَّ»؛ لأن الزائِر -كَما هُو مَعروفٌ- يَزور ويَرجِع، فقالَ: وَاللهِ لَنُبْعَثَنَّ. وهَذا هُو الحَقُّ، وبهذا نَعرِف أن مَا يَذكُره بعض النَّاس الآنَ فِي الجَرائِد وغيرِها؛ يَقول عن الرَّجُل إِذَا مات: «إِنَّه انتَقَل إِلى مَثواهُ الأَخيرِ»، أن هَذا كَلامٌ باطِلٌ وكذِبٌ؛ لأن القُبور ليسَتْ هِي المَثوَى الأَخيرَ، بل لو أن الإِنسان اعتَقَد مَدلولَ هَذا اللَّفْظ لصار كافِرًا بالبَعْث، وَالكُفْر بالبَعْث رِدَّة عَنِ الإِسلام، لكِنَّ كَثيرًا من النَّاس يَأخُذون الكلِماتِ ولَا يَدْرون مَا مَعناها، ولعَلَّ هذِه مَوْروثةٌ عن المُلْحِدين

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا فِي الرقة والبكاء، رقم (٤٢٥)، وأبو نعيم فِي حلية الأولياء (٥/ ٣١٧).

الَّذين لَا يُقِرُّون بالبَعْث بعد المَوْت؛ لِهَذا يَجِب تَجنُّب هذِه العِبارةِ، فلَا يُقالُ عن القَبْر: إِنه المَثْوَى الأَخيرُ؛ لأن المَثْوَى الأَخيرُ إِمَّا الجَنَّة، وإِمَّا النار فِي يَوْم القِيامة.

ثُم قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قيل: إِن ﴿كَلَّا﴾ بمَعنَى الرَّدْع. يَعنِي: ارتَدِعوا عن هَذا التَّكاثُرِ، وقيل: إِنها بمَعنَى: حَقًّا، ومَعنَى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: سَوْف تَعلَمون عاقِبة أَمْرِكُم إِذَا رجَعْتُم إِلى الآخِرة، وأن هَذا التَّكاثُرَ لَا يَنفَعُكم، وقد جاءَ فِي الحَديثِ عن النَّبيِّ ﷺ فيما رَواهُ مُسلِمٌ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي وَمَالِي -يَعْنِي: يَفتَخِرُ بِهِ- وَلَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»(١)، وَالباقِي تارِكه لغَيْرك وهَذا هُو الحَقُّ، أَمْوالُنا الَّتِي بين أَيْدينا إِمَّا أن نَأْكُلَها فتَفنَى، وإِمَّا أن نَلبَسَها فتَبلَى، وإِمَّا أن نَتصدَّق بها فنُمضِيها وتكون أَمامَنا يَوْمَ القِيامة، وإِمَّا أن نَترُكَها لغَيْرنا، فلَا يُمكِن أن يَخرُج المالُ الَّذِي بأَيْدينا عَن هَذِه القِسْمةِ الرُّباعِيَّة.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: سَوْف تَعلَمون عاقِبة أَمْرِكم بالتَّكاثُر الَّذِي أَلْهاكُم عن الآخِرةِ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وهذِه الجُملةُ تَأْكيد للرَّدْع مرَّةً ثانِية، ثُم قالَ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ يَعنِي: حَقًّا لو تَعلَمون عِلْم اليَقين لعرَفْتُم أَنَّكم فِي ضَلالٍ، ولكِنَّكم لَا تَعلَمون عِلْم اليَقين؛ لأَنَّكُم غافِلون لاهُونَ فِي هذِه الدُّنْيا، ولو علِمْتُم عِلْم اليَقين لعرَفْتُم أَنَّكُم فِي ضَلالٍ وفي خطَأ عَظيمٍ.

ثُم قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ هَذِه الجُملةُ مُستَقِلَّةٌ ليسَت جَوابَ «لَوْ»؛ ولِهَذا يَجب على القارِئ أن

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٨)، من حديث عبدالله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَقِف عند قَوْلِه: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ ونحن نَسمَع كَثيرًا من الأَئِمَّة يَصِلُون فيَقولون: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾، وهَذا الوَصْلُ إِمَّا غَفْلةٌ مِنهم ونِسْيانٌ، وإِمَّا أَنَّهم لم يَتَأَمَّلوا الآيَةَ حَقَّ التَّأَمُّل، وإلَّا لو تَأَمَّلوها حَقَّ التَّأَمُّل لوجَدوا أن الوَصْل يُفسِد المَعنَى؛ لأَنَّه إِذَا قالَ: «كَلَّا لَوْ تَعلَمون عِلْمَ اليَقينِ لتَرَوُنَّ الجَحيمَ» صار رُؤْية الجَحيم مَشروطةً بعِلْمِهم، وهَذا ليسَ بصَحيحٍ؛ لِذلِكَ يَجِب التَّنبُّه وَالتَّنبيهُ لِهَذا، مَن سَمِع أَحَدًا يَقرَأ: «كَلَّا لَوْ تَعلَمون عِلْمَ اليَقينِ لتَرَوُنَّ الجَحيمَ» يُنبِّهْ ويَقولَ لَه: يا أَخي، هَذا الوَصْلُ يُوهِم فَسادَ المَعنَى، فلَا تَصِلْ وقِفْ.

أَوَّلًا: لأَنَّها رَأْسُ آيةٍ، وَالمَشْروع أن يَقِف الإِنسانُ عِند رَأْس كُلِّ آيةٍ.

وثانيًا: أن الوَصْل يُفسِد المَعنَى: «كَلَّا لَوْ تَعلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ» إِذَنْ ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ جُمْلة مُستَأنَفة لَا صِلةَ لهَا بِما قبلَها، وهِي جُمْلة قَسَميَّة، فِيها قسَمٌ مُقدَّر، وَالتَّقديرُ: وَاللهِ لتَرَوُنَّ الجَحيمَ؛ ولهذا يَقول المُعرِبون فِي إِعْرابِها: إِن اللَّامَ مُوطِّئة للقَسَم، وجُمْلة: «تَرَوُنَّ» هِي جَوابُ القَسَم، وَالقَسَمُ مَحذوفٌ، وَالتَّقديرُ: «واللهِ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ» و﴿ٱلْجَحِيمَ ﴾ اسمٌ من أَسْماءِ النار.

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ تَأكيدٌ لرُؤْيتِها، ومَتَى تُرَى؟ تُرَى يومَ القِيامة، يُؤتَى بها تُجَرُّ بسَبْعينَ أَلْفَ زِمامٍ، كُلُّ زِمامٍ يَجُرُّه سَبْعون أَلْفَ مَلَكٍ، فَما ظَنُّكَ بهذه النارِ -وَالعِياذُ باللهِ- إِنَّها نارٌ كبيرة عَظيمة؛ لأن فيها سَبْعين أَلْفَ زِمامٍ، كلُّ زِمامٍ يَجُرُّه سَبْعون أَلْفَ ملَكٍ، وَالمَلائِكةُ عِظامٌ شِدادٌ، فهِي نارٌ عَظيمة، أَعاذَنا اللهُ مِنها.

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾؛ يَعنِي: ثُم فِي ذلِكَ الوَقْتِ وفِي ذلِكَ المَوْقِفِ العَظيمِ تُسأَلُنَّ عن النَّعيم، واختلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْله: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ

ٱلنَّعِيمِ ﴾ هَلِ المُرادُ الكافِرُ، أو المُرادُ المُؤمِنُ وَالكافِرُ؟

والصَّوابُ: أن المُرادَ المُؤمِنُ وَالكافِرُ كُلٌّ يُسأَل عن النَّعيم، لكِنِ الكافِرُ يُسأَل سُؤالَ تَوْبيخ وتَقْريع، وَالمُؤمِن يُسأَل سُؤالَ تَذكير، وَالدَّليلُ على أنَّه عامٌّ مَا جَرَى فِي قِصَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأبِي بَكْر وعُمَرَ، فعَنْ أبي هُرَيْرةَ قالَ: خرَجَ رَسولُ الله ﷺ ذاتَ يَوْم أو لَيْلةٍ، فإِذَا هُو بأَبِي بَكْر وعُمرَ، فقالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قالا: الجَوعُ يا رَسولَ الله! قالَ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا»، فقاموا معَه، فأَتَى رجُلًا من الأَنْصارِ، فإِذَا هُو ليسَ فِي بَيْته، فلَمَّا رَأَتْه المَرأةُ قالَتْ: مَرحَبًا وأَهْلًا! فقالَ لهَا رَسولُ الله ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟» قالَتْ: ذهَبَ يَستَعْذِب لَنا من الماء. إِذْ جاءَ الأَنصاريُّ فنظَر إِلى رَسولِ الله ﷺ وصاحِبَيْه، ثُم قالَ: الحَمدُ لله، مَا أَحَدٌ اليَوْم أَكرَمُ أَضْيافًا مِنِّي. قالَ: فانطَلَق فجاءَهُم بعِذْقٍ فيه بُسْرٌ وتَمْرٌ ورُطَبٌ، فقالَ: كُلوا من هَذِه. وأَخَذ المُدْيةَ، فقالَ لَه رَسولُ الله ﷺ: «إِيَّاكَ! وَالحَلُوبَ»، فذَبَح لَهُم، فأَكَلوا من الشاة، ومن ذلِكَ العِذْقِ، وشَرِبوا، فلَمَّا أن شَبِعوا ورَوَوْا، قالَ رَسولُ الله ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وعُمرَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجَوْعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»[1].

وفِي رِواية أُخرى: «هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ظِلٌّ بَارِدٌ، وَرُطَبٌ طَيِّبٌ، وَمَاءٌ بَارِدٌ»[2]، وهذا دَليلٌ على أن الَّذِي يُسأَل

---

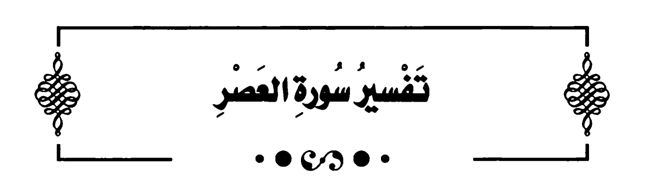
(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، رقم (٢٠٣٨).

(٢) لفظ الترمذي: كتاب الزهد، باب مَا جاء فِي معيشة أصحاب النبي ﷺ، رقم (٢٣٦٩).

المُؤمِن وَالكافِر، ولكِنْ يَختَلِف السُّؤال، سُؤالُ المُؤمِن سُؤالُ تَذْكير بنِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ عليه حتَّى يَفرَح، ويَعلَم أن الَّذِي أَنعَم عليه فِي الدُّنيا يُنعِم عليه فِي الآخِرة، بمَعنى أنَّه إِذَا تَكرَّم بنِعْمته عليه فِي الدُّنْيا تَكرَّم عليه بنِعْمته فِي الآخِرة، أَمَّا الكافِرُ فإِنه سُؤالُ تَوْبيخ وتَنديم.

نَسأَل اللهُ تعالى أن يَستَعمِلنا فِي طاعتِه، وأن يَجعَل مَا رَزَقَنا عَوْنًا على طاعتِه، إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ۞ ● •



تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٤].

•••

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أَقسَمَ اللهُ تعالى بالعَصْر، وَالعَصْر قيل: إِن المُراد به آخِرُ النَّهار؛ لأن آخِرَ النَّهار أَفضَلُه، وصَلاةُ العَصْر تُسمَّى الصَّلاة الوُسْطى، أي: الفُضْلى كَما سَمَّاها النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم بذلِك[1].

وقيل: إِن العَصْر هُو الزَّمان. وهَذا هُو الأَصَحُّ أَقسَمَ اللهُ به لِما يَقَع فيه مِنِ اختِلافِ الأَحْوال، وتَقلُّبات الأُمور، ومُداوَلة الأَيَّام بين النَّاس، وغَيْر ذلِك مِمَّا هُو مُشاهَد فِي الحاضِر، ومُتحَدَّث عنه فِي الغائِب، فالعَصْر هُو الزَّمان الَّذِي يَعيشُه الخَلْق، وتَختَلِف أَوْقاتُه شِدَّةً ورَخاءً، وحَرْبًا وسِلْمًا، وصِحَّة ومرَضًا، وعمَلًا صالِحًا وعمَلًا سَيِّئًا إِلى غير ذلِكَ مِمَّا هُو مَعلومٌ للجَميع، أَقسَم اللهُ به على قَوْله: ﴿إِنَّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هِي صلاة العصر، رقم (٦٢٨)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِى خُسۡرٍ﴾ وَالإنسانُ هُنا عامٌّ؛ لأنَّ المُرادَ به الجِنْس، وعَلامة الإنسان الَّذِي يُراد به العُموم أن يَحِلَّ مَحَلَّ «أل» كلِمة «كُل» فهُنا لو قيل: كُلُّ إنسانٍ فِي خُسْر. لكانَ هَذا هُو المَعنَى، ومَعنَى الآيَة الكَريمة أن اللهَ أَقسَم قَسَمًا على حال الإنسان أنَّه فِي خُسْر، أي: فِي خُسْران ونُقْصان فِي كُلِّ أَحْواله، فِي الدُّنْيا وفي الآخِرة إلَّا مَن استَثْنى اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وهذِه الجُمْلةُ مُؤكَّدة بثَلاثةِ مُؤكِّدات؛ الأَوَّل: القَسَم، وَالثانِي: (إنَّ)، وَالثالِث: (اللَّام)، وأَتَى بقَوْله: ﴿لَفِى خُسۡرٍ﴾ ليَكونَ أَبلَغَ من قَوْلِه: (لَخاسِر). وذلِك أن «فِي» للظَّرْفية، فكَأَنَّ الإنسان مُنغَمِس فِي الخُسْر، وَالخُسْرانُ مُحيطٌ به من كُلِّ جانِبٍ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ استَثْنى اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هَؤُلاءِ المُتَّصِفين بهذه الصِّفاتِ الأَربَعِ:

الصِّفة الأُولى: الإيمان الَّذِي لَا يُخالِجُه شَكٌّ ولَا تَردُّدٌ بما بيَّنه الرَّسولُ ﷺ حين سأَله جِبريلُ عن الإيمانِ قالَ: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**[1]، وشَرْح هَذا الحَديثِ يَطول، وتَكلَّمْنا عليه فِي مَواطِنَ كَثيرةٍ، فالَّذِين آمَنوا بهَذه الأُصولِ السِّتَّة هُمُ المُؤمِنون، ولكِنْ يَجِب أن يَكُون إِيمانًا لَا شَكَّ معَه ولَا تَردُّدَ، بمَعنَى: أَنَّك تُؤمِن بهذه الأَشْياءِ وكأَنَّكَ تَراها رَأْيَ العَيْن، وَالناسُ فِي هَذا المَقامِ ثَلاثة أَقْسام:

القِسْم الأَوَّل: مُؤمِن خالِصُ الإيمان؛ إيمانًا لَا شَكَّ فيه ولَا تَردُّدَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام...، رقم (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والقِسْم الثاني: كافِرٌ جاحِدٌ مُنكِرٌ.

والقِسْم الثالِثُ: مُتَرَدِّد.

وَالناجِي من هَؤُلاءِ القِسْمُ الأَوَّلُ الَّذِي يُؤمِن إِيمانًا لَا تَرَدُّدَ فيه، يُؤمِن بوُجودِ الله، ورُبوبِيَّته، وأُلوهِيَّته، وبأَسْمائِه وصِفاتِه عَزَّوَجَلَّ، ويُؤمِن بالمَلائِكة وهُمْ عالَمٌ غَيْبِيٌّ خلَقَهُمُ الله تعالى مِن نُور، وكلَّفَهم بأَعْمال: مِنها مَا هُو مَعلومٌ، ومِنها مَا ليسَ بمَعلومٍ، فجِبريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُكلَّف بالوَحْيِ يَنزِل به من عِند الله إِلى الأَنْبياء وَالرُّسُل، ومِيكائيلُ مُكلَّف بالقَطْر وَالنَّبات، يَعنِي: وكَّلَه اللهُ على المطَرِ وكُلِّ مَا يَتَعلَّق بالمَطَر وعلى النَّبات، وإِسرافيلُ: مُوكَّل بالنَّفْخ بالصُّور، ومالِكٌ: مُوكَّل بالنار، ورِضوانٌ: مُوكَّل بالجَنَّة، ومِن المَلائِكة مَن لَا نَعلَم أَسماءَهُم، ولَا نَعلَم أَعْمالَهُم أيضًا، لكِن جاءَ فِي الحَديثِ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَنَّه «مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابعَ فِي السَّماءِ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ، أَوْ رَاكِعٌ، أَوْ سَاجِدٌ»(١).

كذَلِك نُؤمِن بالكُتُب الَّتِي أَنزَلَها اللهُ على الرُّسُل عليهم الصلاة وَالسلام، ونُؤمِن بالرُّسُل الَّذِين قصَّهُمُ الله علَيْنا، نُؤمِن بهِم بأَعْيانِهِم، وَالَّذين لم يَقُصَّهم علَيْنا، نُؤمِن بهم إِجمالًا؛ لأن الله لم يَقُصَّ علينا جَمِيعَ أَنْباء الرُّسُل، قالَ اللهُ تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، وَاليَوْم الآخِر هُو يَوْمُ البَعْث يَوْم يَخرُج النَّاس من قُبورهم للجَزاء حُفاةً عُراةً غُرْلًا بُهْمًا، فالحُفاةُ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب فِي قول النبي ﷺ: «لو تعلمون مَا أعلم لضحكتم قليلا»، رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم (٤١٩٠)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.

يَعنِي: الَّذِين ليسَ علَيْهم نِعالٌ ولَا خِفافٌ، أي: أَقدامُهم عارِيةٌ، وَالعُراة: الَّذِين ليسَ علَيْهِم ثِيابٌ، وَالغُرْلُ: الَّذِين لم يُختَنوا، وَالبُهْمُ: الَّذِين ليسَ معَهُم مالٌ، يُحشَرون كذَلِك، ولَمَّا حدَّث النَّبيُّ ﷺ بأنَّهُم عُراةٌ قالَتْ عائِشةُ: يا رَسولَ اللهِ الرِّجالُ وَالنِّساءُ يَنظُر بعضُهم إِلى بَعْضٍ؟ قالَ: «**الأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ**»[1]، أي: من أن يَنظُر بعضُهم إِلى بعضٍ؛ لأن النَّاس كُلٌّ مَشغولٌ بنَفْسه.

قالَ شَيْخُ الإِسلام -رحمه الله تعالى-[2]: ومِن الإِيمان باليَوْم الآخِرِ الإِيمانُ بكُلِّ مَا أَخبرَ به النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم مِمَّا يَكُون بعد الموتِ، فيَجِب أن تُؤمِن بفِتْنة القَبْر، أي: بالاخْتِبار الَّذِي يَكُون للمَيت إِذَا دُفِن وتَولَّى عنه أَصحابُه، فإِنه يَأتِيه ملَكانِ يَسْأَلانِه عن رَبِّه، ودِينه، ونَبيِّه، وتُؤمِن كذَلِك بأن القَبْر إِمَّا رَوْضة من رِياض الجَنَّة، وإِمَّا حُفْرة من حُفَر النار، أي: أن فيه العَذاب أو الثَّواب، وتُؤمِن كذَلِك بالجَنَّة وَالنار، وكُلُّ مَا يَتعلَّق باليَوْم الآخِرِ فإِنَّه داخِلٌ فِي قوله: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ**»، وَالقَدَر: تَقديرُ الله عَزَّوَجَلَّ، يَعنِي: يَجِب أن تُؤمِن بأن الله تعالى قَدَّر كُلَّ شيءٍ وذلِك أن الله خلَقَ القَلَمَ فقالَ لَه: اكتُبْ. قالَ: وماذا أَكتُبُ؟ قالَ: اكتُبْ مَا هُو كائِنٌ إِلى يَوْم القِيامة. فجَرَى فِي تِلْكَ الساعةِ بما هُو كائِنٌ إِلى يَوْم القِيامة.

إِذَنْ فالإِيمان فِي قَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَشمَل الإِيمان بالأُصول السِّتَّة الَّتِي بيَّنَها الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) العقيدة الواسطية (ص:٩٥).

الصِّفةُ الثانية: قولُه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ومَعناهُ: أنَّهم قاموا بالأَعْمال الصالِحَة: مِن صَلاةٍ، وزَكاة، وصِيامٍ، وحَجٍّ، وبِرٍّ للوالِدَيْن، وصِلة الأَرْحام، وغير ذلِك، فلَمْ يَقتَصِروا على مُجرَّد مَا فِي القَلْب، بَلْ عمِلوا وأَنتَجُوا و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هِي الَّتِي اشتَمَلَت على شَيئَيْن:

الأَوَّلُ: الإِخلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: المُتابَعةُ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وذلِك أن العمَلَ إِذَا لم يَكُن خالِصًا لله فهُو مَردودٌ؛ قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي الحَديثِ القُدسيِّ الَّذِي يَروِيه النَّبيُّ ﷺ قالَ اللهُ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1]، فلَوْ قُمْت تُصلِّي مُراءاةً للناسِ، أو تَصدَّقْت مُراءاةً للناس، أو طلَبْتَ العِلْم مُراءاةً للناس، أو وصَلْت الرَّحِمَ مُراءاةً للناسِ، أو غير ذلِكَ، فالعَمَل مَردودٌ حتَّى وإِن كانَ صالِحًا فِي ظاهِره، كذَلِكَ الاتِّباعُ لو أَنَّكَ عمِلْت عمَلًا لم يَعمَلْه الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وتَقَرَّبْت به إِلى الله مَع الإِخْلاصِ لله فإِنه لَا يُقبَل مِنْك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[2]، إِذَنِ العَمَلُ الصالِحُ مَا جَمَع وَصْفَيْن: الأَوَّل: الإِخْلاص لله عَزَّوَجَلَّ. وَالثاني: المُتابَعةُ للرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك فِي عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إِذَا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

الصِّفةُ الثالِثةُ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: صار بعضُهم يُوصِي بَعْضًا بالحَقِّ، وَالحقُّ: هُو الشَّرْع، يَعنِي: كُلُّ واحِدٍ مِنهم يُوصِي الآخَرَ إِذَا رآه مُفرِّطًا فِي واجِبٍ أَوْصاهُ وقالَ: يا أَخِي قُمْ بالواجِبِ. إِذَا رآه فاعِلًا لمُحرَّم أَوْصاهُ قالَ: يا أَخِي اجتَنِبِ الحَرامَ. فهُمْ لم يَقتَصِروا على نَفْع أَنْفُسِهم، بَلْ نَفَعوا أَنْفُسَهم وغَيْرَهُم.

الصِّفةُ الرابِعةُ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾؛ أي: يُوصِي بعضُهم بعضًا بالصَّبْر، وَالصَّبْر حَبْس النَّفْس عَمَّا لَا يَنبَغِي فِعْله، وقَسَّمَه أهلُ العِلْم إِلى ثَلاثة أَقْسام:

القِسْم الأَوَّلُ: صَبْر على طاعة الله.

القِسْم الثاني: صَبْر عن مَحارِمِ الله.

القِسْم الثالِث: صَبْر على أَقْدار الله.

الصَّبْر على الطاعة، كَثيرٌ من النَّاس يَكُون فيه كَسَل عن الصَّلاة مَع الجَماعة مثَلًا: لَا يَذهَب إِلى المَسجِد يَقول: أُصَلِّي فِي البيت وأَدَّيْت الواجِبَ. فيَكسِل فقالَ لَه: يا أَخِي اصْبِرْ نَفْسَك، احبِسْها كلِّفْها على أن تُصلِّيَ مَع الجَماعة. كَثيرٌ من النَّاس إِذَا رأَى زَكاةَ مالِه كَثيرةً شَحَّ وبخِلَ، وصار يَتردَّد: أُخرِج هَذا المالَ الكَثيرَ، أو أَترُكه. ومَا أَشبَهَ ذلِك، فيُقال لَه: يا أَخِي اصبِرْ نَفْسَك على أَداء الزَّكاة، وهكَذا بَقيَّة العِباداتِ فإِن العِباداتِ كَما قالَ اللهُ تعالى فِي الصَّلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]، أَكثَرُ عِباد الله تَجِد أن العِباداتِ عَلَيْهم ثَقيلة، فهم يَتَواصَوْن بالصَّبْر على الطاعة، كذَلِك الصَّبْر عن المَعْصية، بعضُ النَّاس مثَلًا تَجُرُّه نَفْسُه إِلى أَكْساب مُحرَّمة إِمَّا بالرِّبا، وإِمَّا بالغِشِّ، وإِمَّا بالتَّدْليس أو بغَيْر ذلِكَ من أنواع الحَرام فيُقالُ لَه: اصبِرْ يا أَخِي نَفْسَك، لَا تَتَعامَل على وَجْهٍ مُحرَّمٍ.

بعضُ النَّاس أيضًا يُبتَلى بالنَّظَر إلى النِّساء تَجِده ماشِيًا فِي السُّوق وكُلَّما مرَّتِ امْرَأةٌ أَتبَعَها بصَرَه فيُقال لَه: يا أَخِي اصْبِرْ نَفْسَك عن هَذا الشيءِ.

ويَتَواصَوْن على أَقْدار الله، يُصابُ الإِنسان بمرَض فِي بدَنِه، يُصاب الإِنسانُ بفَقْد شيءٍ من مالِه، يُصاب الإِنْسانُ بفَقْد أَحِبَّتِه فيَجزَع ويَتَسخَّط ويَتَألَّم فيَتَواصَوْن فيما بينَهُم: اصْبِرْ يا أَخِي هَذا أَمْر مُقدَّر وَالجَزَع لَا يُفيد شيئًا. واستِمْرارُ الحُزْن لَا يَرفَع الحُزْن، إِنسانٌ امتُحِن بمَوْت ابنِه نَقُول: يا أَخِي اصْبِرْ، قَدِّرْ أن هَذا الابْنَ لم يُخلَقْ، ثُم كَما قالَ الرَّسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لإِحْدى بَناتِه: «**إِنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وُكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»[1]، الأَمْرُ كُلُّه لله، فإِذَا أَخَذ اللهُ تعالى مُلْكه كيف تَعتِب على رَبِّك؟ كيفَ تَتَسخَّط.

فإِن قيل: أيُّ أَنْواع الصَّبْر أَشَقُّ على النُّفوس؟

فالجَوابُ: هَذا يَختَلِف، فبعضُ النَّاس يَشُقُّ عليه القِيامُ بالطاعة وتَكون ثَقيلةً عليه جِدًّا، وبعضُ النَّاس بالعَكْس الطاعةُ هَيِّنة عليه، لكِن تَرْك المَعْصية صَعْب، شاقٌّ مَشَقَّة كَبيرةً، وبعضُ النَّاس يَسهُل عليه الصَّبْر على الطاعة، وَالصَّبْر عن المَعْصية، لكِن لَا يَتَحمَّل الصَّبْر على المَصائِب، يَعجِز حتَّى إنه قَد تَصِل به الحَالُ إِلى أن يَرتَدَّ -وَالعِياذُ بالله- كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

---

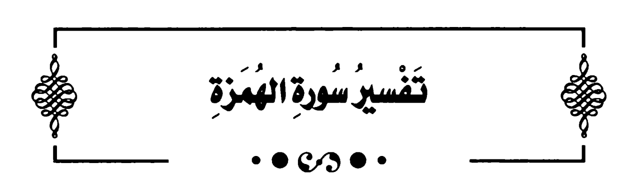
(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، رقم (٧٣٧٧)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

إِذَنْ نَأْخُذ مِن هذِه السُّورة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَكَّد بالقَسَم المُؤكَّد بـ(إِن) وَاللَّام أن جَمِيع بَني آدَمَ فِي خُسْر، وَالخُسْرُ مُحيطٌ بهِم من كُلِّ جانِب، إِلَّا مَنِ اتَّصَف بهذه الصِّفاتِ الأَربَع: الإِيمان، وَالعمَل الصالِح، وَالتَّواصِي بالحَقِّ، وَالتَّواصِي بالصَّبْر.

قالَ الإمامُ الشافِعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَوْ لم يُنزِل اللهُ على عِباده حُجَّة إِلَّا هذِه السُّورةَ لكَفَتْهُم»[1]، يَعنِي: كفَتْهُم مَوْعِظةً وحَثًّا على التَّمسُّك بالإِيمان وَالعمَل الصالِح، وَالدَّعوة إِلى الله، وَالصَّبْر على ذلِك، وليسَ مُرادُه أن هذِه السُّورةَ كافِيةٌ للخَلْق فِي جَمِيع الشَّريعة، لكِن كفَتْهُم مَوْعِظةً، فكُلُّ إِنسان عاقِل إذا عرَف أَنَّه فِي خُسْر إِلَّا إِذَا اتَّصَف بهذِه الصِّفاتِ الأَربَع، فإِنه سَوْف يُحاوِل بقَدْر مَا يَستَطيع أن يَتَّصِف بهذه الصِّفاتِ الأَربَع، وإِلى تَخْليص نَفْسه من الخُسْران، نَسأَلُ الله أن يَجعَلَنا من الرابِحين المُوفَّقِين، إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• • ۞ • •

(١) انظر: المجموع للنووي (١/ ١٢)، وتفسير ابن كثير (١/ ١١٢)، والأصول الثلاثة (ص:٦)، وتفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٤٦١).



تفسير سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة:١-٩].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ فِي هذِه السُّورةِ يَبتَدِئ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكلِمةِ: ﴿وَيْلٌ﴾، وهِي كلِمةُ وَعيدٍ، أَيْ: أَنَّها تَدُلُّ على ثُبوت وَعيدٍ لِمَنِ اتَّصَف بهَذِه الصِّفاتِ ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ إِلى آخِره، وقيل: إن ﴿وَيْلٌ﴾ اسمٌ لِوادٍ فِي جهَنَّمَ، ولكِنِ الأَوَّلُ أصَحُّ ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (كُل) مِن صِيَغ العُموم، والهُمَزة واللُّمَزة وَصْفان لمَوصوفٍ واحِدٍ، فهَلْ هُما بمَعنًى واحِدٍ؟ أو يَختَلِفان فِي المَعنَى؟

قالَ بعضُ العُلَماء: إِنَّهما لَفْظان لمَعنًى واحِدٍ، يَعنِي: أن الهُمَزة هُو اللُّمَزة. وقالَ بعضُهم: بَلْ لكُلِّ واحِدٍ مِنهما مَعنًى غيرُ المَعنَى الآخَرِ.

وثَمَّ قاعِدة أُحِبُّ أن أُنبِّهَ علَيْها فِي التَّفسير وغير التَّفْسير وهِي: أنَّه إِذَا دار الأَمْر بين أن تَكون الكلِمة مَع الأُخْرى بمَعنًى واحِدٍ، أو لكُلِّ كلِمة مَعنًى، فإِنَّنا نَجعَل

لكُلِّ واحِدةٍ مَعنًى؛ لأنَّنا إِذَا جعَلْنا الكلِمَتَيْن بمَعنًى واحِدٍ صار فِي هَذا تكرار لَا داعِيَ لَه، لكِن إِذَا جعَلْنا كُلَّ واحِدة لهَا مَعنًى صار هَذا تَأْسيسًا وتَفريقًا بين الكلِمَتَيْن، وَالصَّحيحُ فِي هذِه الآيَةِ: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أن بينَهما فَرْقًا: فالهَمْز: بالفِعْل. وَاللَّمْز: باللِّسان، كمَا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨]، فالهَمْز بالفِعْل، يَعنِي: أنَّه يَسخَر من النَّاس بفِعْله إمَّا أن يَلوِيَ وَجْهَه، أو يَعبَس بوَجْهه، أو بالإشارة يُشير إِلى شَخْص، انظُروا إِليه ليَعيبَه أو مَا أَشبَهَ ذلِك، فالهَمْز يَكُون بالفِعْل، وَاللَّمْز باللِّسان، وبعضُ النَّاس -وَالعِياذُ بالله- مَشغوفٌ بعَيْب البَشَر إمَّا بفِعْله وهُو الهَمَّاز، وإمَّا بقَوْله وهُو اللَّمَّاز، وهَذا كقَوْله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١١].

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ هذِه أيضًا من أَوْصافِه القَبيحة جَمَّاع مَنَّاع، يَجمَع المال، ويَمنَع العَطاء، فهُو بَخيل لَا يُعطِي، يَجمَع المال ويُعدِّده ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ وقيلَ: مَعنَى التَّعديد يَعنِي: الإِحْصاء، يَعنِي: لشَغَفه بالمال كُلَّ مرَّة يَذهَب إِلى الصُّندوق ويَعُدُّ، يَعُدُّ الدَّراهِم فِي الصُّندوق فِي الصَّباحِ، وفِي آخِرِ النَّهار يَعُدُّها، وهُو يَعرِف أنَّه لم يَأخُذ منه شَيْئًا، ولم يُضِف إِليه شيئًا، لكِنْ لشِدَّة شغَفِه بالمال يَتَردَّد عليه ويُعدِّده؛ ولهذا جاءَتْ بصِيغة المُبالَغة: (عَدَّدَهُ) يَعنِي: أَكثَرَ تِعدادَه لشِدَّة شَغَفه ومحبَّتِه لَه يَخشَى أن يَكُون نَقَص، أو يُريد أن يَطمَئِنَّ زِيادة على مَا سبَقَ فهُو دائِمًا يُعدِّد المال.

وقيل: مَعنَى (عدَّدَهُ)؛ أي: جعلَه عُدَّة لَه، يَعنِي: ادَّخَره لنَوائِب الدَّهْر، وهَذا وإِن كانَ اللَّفْظ يَحتَمِله لكِنَّه بَعيدٌ؛ لأن إِعداد المال لنَوائِب الدَّهْر مَع القِيام بالواجِب بأَداء مَا يَجِب فيه من زَكاة وحُقوق ليسَ مَذمومًا، وإِنَّما المَذموم أن يَكُون أَكبَرُ هَمِّ

الإِنسان هُو المالَ، يَتَردَّد إِليه ويُعدِّده، ويَنظُر: هَلْ زادَ؟ هَلْ نقَصَ؟ فالقَوْلُ بأن المُراد: عَدَّده أي: جَمَعَه للمُستَقبَل. قولٌ ضَعيفٌ.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ يَعنِي: يَظُنُّ هَذا الرجُلُ أن مالَه سيُخلِده ويُبقيه، إِمَّا بجِسْمه وإِمَّا بذِكْره، لأن عُمْرَ الإِنسان ليسَ مَا بَقِيَ فِي الدُّنيا، بل عُمرُ الإِنسان حَقيقةً مَا يُخلِده بعد مَوْتِه، ويَكُون ذِكْراه فِي قُلوب النَّاس وعلى أَلْسِنَتِهم، فيَقول فِي هذِه الآيَةِ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾؛ أي: أَخلَد ذِكْره أو أَطالَ عُمرَه، وَالأَمْرُ ليسَ كذَلِك، فإِن أَهْل الأَمْوال إِذَا لم يُعرَفوا بالبَذْل وَالكَرَم فإِنَّهم يُخلَّدون لكِنْ بالذِّكْر السيِّئِ؛ فيُقال: أَبخَلُ من فُلانٍ، وأَبخَلُ من فُلانٍ. ويُذكَر فِي المَجالِس ويُعابُ؛ ولِهَذا قالَ:

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ هُنا يُسمِّيها العُلَماء حَرْف رَدْع، أي: تَردَع هَذا القائِلَ، أو هَذا الحاسِبَ عن قَوْله، أو عن حُسْبانه، ويُحتَمَل أن تَكون بمَعنَى: حَقًّا، يَعنِي: حَقًّا لَيُنبَذَنَّ، وكِلاهُما صَحيحٌ، هَذا الرجُلُ لن يُخلِدَه مالُه، ولن يُخلِد ذِكْراه، بل سيُنسَى ويُطوَى ذِكْره، ورُبَّما يُذكَر بالسُّوء؛ لعَدَم قِيامه بما أَوجَب اللهُ عليه من البَذْل.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ اللَّامُ هذِه واقِعةٌ فِي جَواب القَسَم المُقدَّر، وَالتَّقدير: «واللهِ لَيُنبَذَنَّ فِي الحُطَمة» أي: يُطرَح طَرْحًا، وإِذَا قُلنا: إن اللَّام لجَوابِ القَسَم صارت هذِه الجُملةُ مُؤكَّدة باللَّامِ، ونون التَّوْكيد، وَالقَسَم المَحْذوف، ومِثْل هَذا كَثيرٌ فِي القُرآن الكَريم، أي: تَأْكيد الشيءِ باليَمين، وَاللَّام وَالنُّون، وَاللهُ تعالى يُقسِم بالشيء تَأْكيدًا له وتَعظيمًا لشَأْنه.

وقَوْلُه: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ مَا الَّذِي يُنبَذُ؟ هَلْ هُو صاحِبُ المال أو المالُ؟ كِلاهُما يُنبَذ، أَمَّا صاحِبُ المال فإن اللهَ يَقولُ فِي آيةٍ أُخْرى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]. أي: يُدفَعون، وهُنا يَقول: «يُنبَذ» أي: يُطرَح فِي الحُطَمة، وَالحُطَمة هِي الَّتِي تَحطِم الشيءَ، أي: تُفتِّته وتَكسِره فَما هي؟ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ وهذِه الصِّيغةُ للتَّعْظيم وَالتَّفْخيم ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ هَذا الجَوابُ أي: هِي نارُ اللهِ المُوقَدة، وأَضافَها اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إِلى نَفْسه؛ لأَنَّه يُعذِّب بها مَن يَستَحِقُّ العَذاب، فهِي عُقوبةُ عَدْل، وليسَتْ عُقوبةَ ظُلْم، أي: نارٌ يُحرِق اللهُ بها مَن يَستَحِقُّ أن يُعذَّب بها، إِذَن هِي نارُ عَدْل، وليسَتْ نار ظُلْم؛ لأن الإِحْراق بالنارِ قَد يَكُون ظُلْمًا، وقد يَكُون عَدْلًا، فتَعذيبُ الكافِرين فِي النار لَا شَكَّ أَنَّه عَدْل، وأنه يُثنَى به على الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ حيثُ عامَلَ هَؤُلاءِ بما يَستَحِقُّون.

وتَأمَّل قَوْلَه: ﴿ٱلۡحُطَمَةُ﴾ مَع فِعْل هَذا الفاعِلِ ﴿هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ حُطَمة، وهُمَزة لُمَزة، على وَزْن واحِدٍ؛ ليَكون الجَزاءُ مُطابِقًا للعمَل حتَّى فِي اللَّفْظ.

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾؛ أي: المُسجَّرة المُسعَّرة.

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ الأَفئِدة جَمْع فُؤاد وهُو القَلْب، وَالمَعنَى: أَنَّها تَصِل إِلى القُلوب -وَالعِياذُ بالله- من شِدَّة حَرارتها، مَع أن القُلوب مَكنونة فِي الصُّدور، وبينَها وبَيْن الجِلْد الظاهِر مَا بينَها من الطَّبَقات، لكِنْ مَع ذلِك تَصِل هذِه النارُ إِلى الأَفئِدة.

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم﴾؛ أي: الحُطَمة، وهِي نارُ الله المُوقَدة، أي: على الهَمَّاز وَاللَّمَّاز الجَمَّاع للمال المَنَّاع للخَيْر، وأَعاد الضَّمير بلَفْظ الجَمْع مَع أن المَرجِع مُفرَد باعتِبار المَعنَى؛ لأنَّ ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ عامٌّ يَشمَل جَميع الهَمَّازين وجَميع اللَّمَّازين ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾؛

أي: مُغلَقة، مُغلَقة الأَبواب لَا يُرجَى لَهُم فرَجٌ -وَالعِياذُ بالله- ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]، يَعنِي: يُرفَعون إِلى أبوابِها حتَّى يَطمَعوا فِي الخُروج، ثُم بعدَ ذلِكَ يُركَسون فيها ويُعادون فيها، كُلُّ هَذا لشِدَّة التَّعْذيب؛ لأن الإِنسان إِذَا طمِع فِي الفَرَج وأنه سَوْف يَنْجو ويَخْلُص يَفرَح، فإِذَا أُعيد صارَتِ انتِكاسة جَديدة، فهكَذا يُعذَّبون بضَمائِرهم وأَبْدانهم، وعَذاب أَهْل النار مَذكورٌ مُفصَّل فِي القُرآن الكَريم وَالسُّنَّة النَّبوِيَّة.

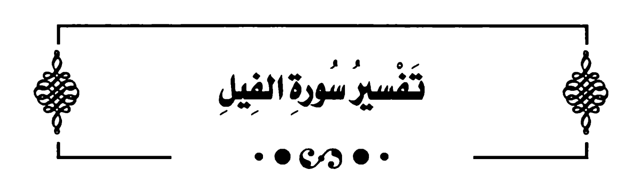
تَأَمَّلِ الآنَ لو أن إِنسانًا كانَ فِي حُجْرة أو فِي سَيَّارة اتَّقَدَتِ النِّيران فيها وليسَ لَه مَهرَب، الأَبْوابُ مُغلَّقة ماذا يَكُون؟ فِي حَسْرة عَظيمة لَا يُمكِن أن يُماثِلها حَسْرة. فهُمْ -وَالعِياذُ بالله- هكَذا فِي النار، النارُ علَيْهم مُؤصَدة.

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾؛ أي: أن هَذِه النارَ مُؤصَدة، وعلَيْها أَعمِدة مُمَدَّة، أي: مَمْدودة على جَمِيع النَّواحِي وَالزوايا حتَّى لَا يَتَمكَّن أَحَدٌ من فَتْحها أو الخُروج مِنها.

حكَى اللهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ذلِكَ علَيْنا وبيَّنَه لنا فِي هذِه السُّورةِ لَا لِمُجَرَّد أن نَتلوَهُ بأَلْسِنتنا، أو نَعرِف مَعناه بأَفْهامنا، لكِنِ المُرادُ أن نَحذَر من هذِه الأَوْصافِ الذَّميمة: عَيْب النَّاس بالقَوْل، وعَيب النَّاس بالفِعْل، وَالحِرْص على المال حتَّى كأَنَّ الإِنسان إِنما خُلِق للمالِ ليَخلُد لَه، أو يَخلُد المال لَه، ونَعلَم أن مَن كانَت هذِه حالَه فإِن جَزاءَهُ هذِه النارُ الَّتِي هِي -كما وصَفَها اللهُ- الحُطَمة، تَطَّلِع على الأَفئِدة، مُؤصَدة، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدة.

نَسأَل اللهَ تعالى أن يُجيرَنا مِنها، وأن يَرزُقَنا الإِخلاصَ فِي القَوْل وَالعمَل وَالاستِقامة على دِينِه.

• • ۞ • •



تَفْسِيرُ سُورَةِ الفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:١-٥].

• • • •

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يُخاطِب اللهُ تعالى النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أو يُخاطِب كُلَّ مَن يَصِحُّ تَوْجيه الخِطابِ إليه، فعَلى الأوَّل يَكُون خِطابُ النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم خِطابًا لَه وللأُمَّة؛ لأن أُمَّتَه تابِعة لَه، وعلى الثاني يَكُون الخِطاب عامًّا لَه ولأُمَّته ابتِداءً، وعلى كُلٍّ فإنَّ الله تعالى يُقرِّر مَا فعَلَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأَصْحاب الفِيل، وأَصْحاب الفِيل هُمْ أَهْل اليَمَن الَّذِين جاؤُوا لِهَدْم الكَعْبة بفيل عَظيمٍ أَرسَله إِليهم ملِكُ الحَبَشة، وسببُ ذلِك أن ملِكَ اليَمَن أَراد أن يَصُدَّ النَّاس عن الحَجِّ إِلى الكَعْبة، بيتِ الله عَزَّوَجَلَّ، فبَنَى بَيْتًا يُشبِه الكَعْبة، ودَعا النَّاسَ إِلى حجِّه؛ ليَصُدَّهم عن حَجِّ بيتِ الله، فغَضِب لذلِكَ العربُ، وذهَبَ رَجُلٌ مِنهم إِلى هَذا البَيْتِ الَّذِي جعَلَه ملِكُ اليَمَن بدَلًا عن الكَعْبة وتَغوَّط فيه، ولطَخ جُدرانَه بالقَذَر، فغَضِب ملِكُ اليَمَن غَضَبًا شَديدًا، وأَخبَر ملِكَ الحَبَشة بذلِكَ،

فأَرسَل إِليه هَذا الفِيلَ العَظيمَ قيل: وكانَ معَهُ سِتَّة فِيلَةٍ؛ لتُساعِدَه، فجاءَ ملِكُ اليَمَن بجُنوده؛ ليَهدِم الكَعْبة على زَعْمه، ولكِنِ اللهُ سبحانه حافِظٌ بَيْته، فلَمَّا وصَلوا إِلى مَكانٍ يُسمَّى المُغمَّس وَقَف الفِيل وحَرَنَ، وأَبى أن يَتَّجِه إِلى الكَعْبة، فزَجَره سايِسُه، ولكِنَّه أَبى، فإِذَا وَجَّهوه إِلى اليَمَن انطَلَق يُهرْوِل، وإِن وَجَّهوه إِلى مكَّةَ وقَفَ، وهذِه آيَةٌ من آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ، ثُم بَقُوا حتَّى أَرسَل اللهُ عليهم طَيْرًا أَبابيلَ تَرمِيهم بحِجارةٍ من سِجِّيلٍ.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قالَ العُلَماءُ: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ يَعني: جَماعاتٍ مُتَفرِّقةً، كُلُّ طَيْر فِي مُنقاره حجَرٌ صُلْب ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ وهُو الطِّينُ المَشْويُّ؛ لأَنَّه يَكُون أَصلَبَ، وهَذا الحَجَرُ ليسَ كبيرًا، بل هُو صَغيرٌ يَضرِب الواحِدَ من هَؤُلاءِ مِن رَأْسه ويَخرُج من دُبُره -وَالعِياذُ بالله-.

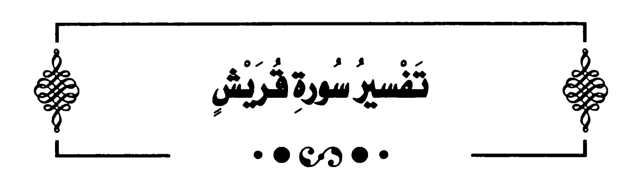
﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾؛ أي: كزَرْع أَكَلَتْه الدَّوابُّ ووَطِئَتْه بأَقْدامها حتَّى تَفتَّتَ.

هذا مُجمَل هذِه السُّورةِ العَظيمة الَّتِي بيَّن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها مَا فُعِل بأَصْحاب الفِيل، وأن كَيْدهم صار فِي نُحورِهم، وهكذا كُلُّ مَن أَراد الحَقَّ بسُوء فإِن اللهَ تعالى يَجعَل كَيْدَه فِي نَحْره، وقَدْ حَمَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ الكَعْبة عن هَذا الفِيلِ مَع أَنَّه فِي آخِرِ الزَّمان سَوْف يُسلَّط عليها رَجُلٌ من الحَبَشة يَهدِمها حجَرًا حجَرًا حتَّى تَتَساوَى بالأَرْض؛ لأن قِصَّة أَصحاب الفِيل مُقدِّمة لبَعْثة الرَّسول مُحمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم الَّتِي يَكُون فيها تَعظيمُ البيْت، أَمَّا فِي آخِرِ الزَّمان فإِن أَهْل البيْت إِذَا أَهانوه وأَرادوا فيه

بإِلْحادٍ بظُلْم، ولم يَعرِفوا قَدْره حينَئِذٍ يُسلِّط اللهُ عليهم مَن يَهدِمه حتَّى لَا يَبقَى على وَجْه الأرض؛ ولِهَذا يَجِب على أَهْل مكَّةَ خاصَّة أن يَحتَرِزوا من المَعاصِي وَالذُّنوب وَالكَبائِر؛ لئَلَّا يُهينوا الكَعْبة، فيُذِلَّهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

نَسأَلُ اللهَ تعالى أن يَحمِيَ دِينَنا وبَيْتَه الحَرامَ من كَيْد كُلِّ كائِدٍ، إِنَّه على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ۞ ● •



تَفْسِيرُ سُورةِ قُرَيْشٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش:١-٤].

•●⁂●•

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

هَذه السُّورةُ لهَا صِلةٌ بالسُّورة الَّتِي قبلَها، إِذْ إن السُّورة الَّتِي قبلَها فيها بَيانُ مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ على أَهْل مكَّةَ بما فعَل بأَصْحاب الفِيل الَّذِين قصَدوا مكَّةَ؛ لِهَدْم الكَعْبة، فبيَّن اللهُ فِي هذِه السُّورةِ نِعْمةً أُخرى كَبيرةً على أَهْل مكَّةَ، (على قُرَيْش) وهي إِيلافهم مَرَّتَيْن فِي السَّنَة، مرَّة فِي الصَّيْف ومرَّة فِي الشِّتاء.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ وَالإِيلافُ بمَعنَى الجَمْع وَالضَّمِّ، ويُراد به التِّجارة الَّتِي كانوا يَقومون بِها مرَّةً فِي الشِّتاء، ومرَّةً فِي الصَّيْف، أَمَّا فِي الشِّتاءِ فيَتَّجِهون نحوَ اليَمَن للمَحْصولات الزِّراعِية فيه؛ ولأَنَّ الجَوَّ مُناسِب، وأَمَّا فِي الصَّيْف فيَتَّجِهون إِلى الشام؛ لأن غالِبَ تِجارة الفَواكِه وغيرها تكون فِي هَذا الوَقْتِ فِي الصَّيْف مَع مُناسَبة الجَوِّ البارِد، فهِي نِعْمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على قُرَيْش فِي هاتَيْن الرِّحْلَتَيْن؛ لأَنَّه يَحصُل مِنها فَوائِدُ كَثيرةٌ ومَكاسِبُ كَبيرة من هَذِه

التِّجارةِ، أَمَرَهُمُ اللهُ أن يَعبُدوا رَبَّ هَذا البيتِ؛ قالَ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ شُكْرًا لَه على هذِه النِّعْمةِ، وَالفاءُ هذِه إِمَّا أن تكون فاءَ السَّببية، أي: فبِسَبَب هاتَيْن الرِّحْلتَيْن ليَعبُدوا رَبَّ هَذا البيْتِ، أو أن تكون فاءَ التَّفريع، وأيًّا كانَ فهِي مَبنيَّة على مَا سبَقَ، أي: فبِهَذِه النِّعَمِ العَظيمة يَجِب علَيْهم أن يَعبُدوا الله.

والعِبادة هِي التَّذلُّل لله عَزَّوَجَلَّ محبَّةً وتَعظيمًا، أن يَتَعبَّد الإنسانُ لله يَتذَلَّل له بالسَّمْع وَالطاعة، فإذَا بلَغَه عن الله ورَسولِه أَمْر قالَ: سمِعْنا وأَطَعْنا. وإِذَا بلَغَه خَبَرٌ قالَ: سمِعْنا وآمَنَّا. عَلى وَجْه المَحبَّة وَالتَّعظيم، فبالمَحَبَّة يَقوم الإِنسان بِفِعْل الأوامِر، وبالتَّعْظيم يَترُك النَّواهِيَ خوفًا من هَذا العَظيمِ عَزَّوَجَلَّ، هَذا مَعنَى من مَعانِي العِبادة، وتُطلَق العِبادة على نَفْس المُتعَبَّد به، وقَدْ حَدَّها شيخُ الإِسْلام ابنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا المَعنَى فقالَ: إن العِبادة اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ مَا يُحِبُّه الله ويَرْضاه من الأَقْوال وَالأَعْمال الظاهِرة وَالباطِنة[1].

وقَوْلُه: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ يَعنِي به الكَعْبة المُعظَّمة، وقد أَضافَها اللهُ تعالى إِلى نَفْسه فِي قَوْلِه تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦]، وهُنا أَضاف رُبوبيَّته إِليه قالَ: ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ وإِضافةُ الرُّبوبية إِليه على سَبيلِ التَّشْريف وَالتَّعظيم ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ أَضاف اللهُ البيْت إِليه تَشْريفًا وتَعْظيمًا، إِذَنْ خَصَّص البيْت بالرُّبوبية مرَّةً، وأَضافَه إِلى نَفْسه مرَّةً أُخْرى تَشْريفًا وتَعْظيمًا، وفي آيةٍ ثانِيةٍ قالَ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وبعدَها قالَ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٩١]، احتِرازٌ من أن يَتوهَّم واهِمٌ

(١) العبودية (ص:٤٤).

بأنه رَبُّ البَلْدة وَحْدَها فقالَ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾، ولكُلِّ مَقامٍ صِيغةٌ مُناسِبة، ففي قَوْله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ مُناسَبة بَيان عُموم مُلْكه؛ لئَلَّا يَدَّعِيَ المُشرِكون أنَّه رَبٌّ للبَلْدة فقَطْ، أمَّا هُنا فالمَقامُ مَقامُ تَعظيم للبَيْت، فناسَبَ ذِكْره وَحْدَه قَوْلُه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾.

﴿ٱلَّذِيٓ﴾ هذِه صِفةٌ للرَّبِّ، إِذَنْ فمَحَلُّها النَّصْب؛ ولِهَذا يَحسُن أن تَقِف فتَقول: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ ثُم تَقول: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم﴾؛ لأَنَّكَ لو وصَلْت فقُلْت: «رَبَّ هَذا البَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ» لظَنَّ السامِعُ أن «الَّذِي» صِفة للبَيْت، وهَذا بَعيدٌ من المَعنَى، ولَا يَستَقيم به المَعنَى.

﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ بيَّنَ اللهُ نِعْمَتَه عليهم، النِّعْمة الظاهِرة وَالباطِنة، فإِطْعامهم من الجُوع وِقاية من الهَلاك فِي أَمْر باطِن، وهُو الطَّعام الَّذِي يَأكُلونه، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ وِقاية من الخَوْف فِي الأَمْر الظاهِر؛ لأن الخَوْف ظاهِر، إِذَا كانَت البِلاد مَحوطةً بالعَدُوِّ، وخاف أَهْلُها وامتَنَعوا عن الخُروج، وبَقُوا فِي مَلاجِئِهم، فذكَرَهُمُ اللهُ بهَذِه النِّعْمةِ.

﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ آمَنُ مَكان فِي الأرض هُو مكَّةُ؛ ولِذلِكَ لَا يُقطَع شجَرُها، ولَا يُحَشُّ حَشيشُها، ولَا تُلتَقَط ساقِطتُها، ولَا يُصاد صَيْدها، ولَا يُسفَك فيها دمٌ، وهذِه الخَصائِصُ لَا تُوجَد فِي البِلاد الأُخْرى حتَّى المدينة، مُحرَّمة ولَها حَرَمٌ، لكِن حَرَمُها دون حرَمِ مكَّةَ بكَثير، حرَمُ مكَّةَ لَا يُمكِن أن يَأتِيَه أَحَدٌ من المُسلِمين لم يَأْتِها ولَا مرَّة إلَّا مُحرِمًا، وَالمدينة ليسَت كَذَلِك، حرَمُ مكَّةَ يُحرَّم حَشيشُه وشجَرُه

مُطلَقًا، وأمَّا حرَمُ المَدينة فرُخِّص فِي بعض شَجَرِه للحَرْث ونَحوِه، صَيْد مكَّةَ حرامٌ وفيه الجَزاءُ، وصَيْد المَدينة ليسَ فيه الجَزاء، فأَعظَمُ مَكان آمَنُ هُو مكَّةُ، حتَّى الأَشْجار آمِنة فيه، وحتَّى الصُّيود آمِنة فيه، ولو لا أن اللهَ تعالى يَسَّر على عِباده لكان حتَّى البَهائِم الَّتِي ليسَت صُيودًا تُحرَّم، لكِنِ اللهُ تعالى رحِم العِباد وأذِنَ لَهُم أن يَذبَحوا ويَنحَروا فِي هَذا المَكانِ.

وهذه النِّعْمةُ ذكَّرَهم اللهُ بها فِي قَوْلِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، يَعنِي: أَفَلا يَشكُرون اللهَ على هذا؟! فهذِه السُّورةُ كُلُّها تَذكيرٌ لقُرَيْش بما أَنعَمَ اللهُ عليهم فِي هَذا البَيْتِ العَظيم، وفي الأَمْن من الخَوْف، وفي الإِطْعام من الجُوع.

فإذَا قالَ قائِلٌ: مَا واجِبُ قُرَيْش نحوَ هذِه النِّعْمةِ؟ وكذلِكَ مَا واجِبُ مَن حَلَّ فِي مكَّةَ الآنَ من قُرَيْشٍ أو غَيْرِهم؟

قُلنا: الواجِبُ الشُّكْر لله تعالى بالقِيام بطاعَتِه، بامْتِثال أَمْره واجتِناب نَهْيه؛ ولِهَذا إِذَا كثُرَتِ المَعاصِي فِي الحرَم فالخَطَر على أَهْله أكثَرُ من الخَطَر على غَيْرهم؛ لأن المَعْصية فِي مَكان فاضِلٍ أَعظَمُ من المَعْصية فِي مَكان مَفضولٍ؛ ولِهَذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، فتَوعَّد اللهُ تعالى مَن أَراد فيه أي: مَن هَمَّ فيه بإِلْحادٍ فَضْلًا عمَّنْ أَلْحَد.

والواجِبُ على المَرْء أن يَذكُر نِعْمة الله عليه فِي كُلِّ مَكان، لَا فِي مكَّةَ فحَسْب، فبِلادُنا -ولله الحَمْدُ- اليَوْم مِن آمَنِ بِلاد العالَم، وهِي من أَشَدِّ بِلاد العالَمِ رَغَدًا وعَيْشًا، أَطعَمَنا اللهُ تعالى من الجُوع، وآمَنَنا من الخَوْف، فعلَيْنا أن نَشكُر هذِه النِّعْمةَ،

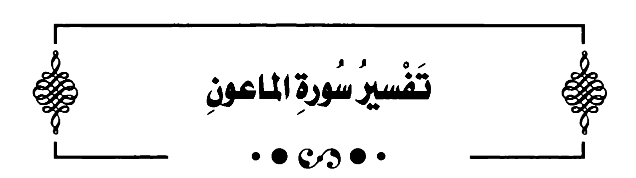
وأن نَتَعاوَن على البِرِّ وَالتَّقْوى، وعلى الأَمْر بالمَعْروف وَالنَّهْيِ عن المُنكَر، وعلى الدَّعْوة إِلى الله على بَصيرة وتَأْنٍّ وتَثبُّتٍ، وأن نكون إِخوةً مُتآلِفين، وَالواجِبُ علَيْنا ولا سِيَّما على طلَبة العِلْم إِذَا اختَلَفوا فيما بينَهُم أن يَجلِسوا للتَّشاوُر، وللمُناقَشة الهادِئة الَّتِي يُقصَد مِنها الوُصولُ إِلى الحَقِّ، ومتَى تَبيَّن الحَقُّ للإِنسان وجَبَ عليه اتِّباعُه، ولَا يَجوز أن يَنتَصِر لرَأْيِه؛ لأَنَّه ليسَ مُشرِّعًا مَعصومًا حتَّى يَقول: إِن رَأْيه هُو الصَّوابُ، وأن مَا عَداه هُو الخَطَأ.

الواجِبُ على الإِنسانِ المُؤمِن أن يَكُون كما أَراد اللهُ منه، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

أَمَّا كَوْنُ الإِنسان يَنتَصِر لرَأْيِه ويُصِرُّ على مَا هُو عليه، ولو تَبيَّن لَه أَنَّه باطِلٌ فهَذا خطَأٌ، وهَذا مِن دَأَبِ المُشرِكين الَّذِين أَبَوْا أن يَتَّبِعوا الرَّسولَ وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

نَسأَلُ اللهَ أن يُديمَ علَيْنا نِعْمة الإِسْلام، وَالأَمْنِ فِي الأَوْطان، وأن يَجعَلَنا إِخوةً مُتَآلِفِين على كِتابِ الله وسُنَّة رَسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• ● ۞ ● •



تَفْسِيرُ سُورَةِ المَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:١-٧].

• • • •

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

يَقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الخِطابُ هل هُو للرَّسولِ ﷺ؛ لأَنَّه الَّذِي أُنزِل عليه القُرْآن، أو هُو عامٌّ لكُلِّ مَن يَتوجَّه إِليه الخِطابُ؟ العُمومُ أَوْلى فنَقُول: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى﴾ عامٌّ لكُلِّ مَن يَتوجَّه إِليه الخِطابُ، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؛ أي: بالجَزاء، وهَؤُلاءِ هُمُ الَّذِين يُنكِرون البَعْث ويَقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات:١٦-١٧]، ويَقول القائِلُ مِنهُم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، هَؤُلاءِ يُكذِّبون بيَوْم الدِّين أي: بالجَزاءِ.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فجمَعَ بين أَمْرَيْن:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: عدَمُ الرَّحمة بالأَيْتام الَّذِين هُم محَلُّ الرَّحْمة؛ لأن الأَيْتام هُمُ الَّذِين

مات آباؤُهُم قبلَ أن يَبلُغوا، وهُمْ مَحَلُّ الشَّفَقة وَالرَّحْمة؛ لأنَّهم فاقِدون لآبائِهِم، فقُلوبُهُم مُنكَسِرة يَحتاجون إِلى جابِرٍ؛ ولهذا ورَدَتِ النُّصوصُ بفَضْل الإِحْسان إِلى الأَيْتام، لكِن هَذا -وَالعِياذُ بالله- ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾؛ أي: يَدفَعُه بعُنْف؛ لأن الدَّعَّ هُو الدَّفْع بعُنْف كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، أي: دَفْعًا شَديدًا، فتَجِد اليَتيم إِذَا جاءَ إِليه يَسْتَجْديه شيئًا، أو يُكلِّمه فِي شيءٍ يحتَقِره ويَدفَعه بشِدَّة فلَا يَرحَمه.

الأَمْرُ الثاني: لَا يَحُثُّون على رَحْمة الغَيْر ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فالمِسْكينُ الفَقيرُ المُحتاجُ إِلى الطَّعام لَا يَحُضُّ هَذا الرجُلُ على إِطْعامه؛ لأن قَلْبه حجَرٌ قاسٍ، فقُلوبُهم كالحِجارة أو أَشَدُّ قَسْوةً، إِذَن ليسَ فيه رَحْمة لَا للأَيْتام ولَا للمَساكين، فهُو قاسِي القَلْب.

ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ (وَيْلٌ) هذِه كلِمةُ وَعيدٍ، وهِي تَتكرَّر فِي القُرآن كثيرًا، وَالمَعنَى: الوَعيدُ الشَّديد على هَؤُلاءِ.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ هَؤُلاءِ مُصلُّون يُصَلُّون مَع النَّاس أو أَفْرادًا، لكِنَّهم ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ أي: غافِلون عنها، لَا يُقيمونَها على مَا يَنبَغي، يُؤخِّرونها عن الوَقْت الفاضِلِ، لَا يُقيمون رُكوعَها، ولَا سُجودَها، ولَا قِيامَها، ولَا قُعودَها، لَا يَقرَؤُون مَا يَجِب فيها من قِراءة سَواءٌ كانَت قُرآنًا أو ذِكْرًا، إِذَا دخَل فِي صَلاتِه فهُو غافِلٌ، قَلبُه يَتجوَّل يَمينًا وشِمالًا، فهُو ساهٍ عن صَلاتِه، وهَذا مَذمومٌ، الَّذِي يَسْهو عن الصَّلاة ويَغفُل عنها ويَتَهاوَن بها لَا شَكَّ أنَّه مَذمومٌ، أمَّا الساهِي فِي صَلاتِه فهَذا لَا يُلامُ.

والفَرْقُ بينَهما أن الساهِيَ فِي الصَّلاة مَعناه أنَّه نَسِيَ شيئًا، نَسِيَ عدَد الرَّكَعات، نَسِيَ شيئًا من الواجِباتِ ومَا أَشبَهَ ذلِك؛ ولِهَذا وقَعَ السَّهْو من رَسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهُو أشَدُّ النَّاس إقبالًا على صَلاتِه، بل إنه قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[1]، ومَع ذلِك سَها فِي صَلاتِه؛ لأن السَّهْو فِي الشيءِ مَعناه أنَّه نَسِيَ شيئًا على وجهٍ لَا يُلامُ عليه، أمَّا الساهِي عن صَلاته فهُو مُتَعمِّد للتَّهاوُن فِي صَلاته، ومن السَّهْو عن الصَّلاة أُولئِكَ القومُ الَّذِين يَدَعون الصَّلاة مَع الجَماعة، فإِنهم لَا شَكَّ عن صَلاتِهم ساهون، فيَدخُلون فِي هَذا الوَعيدِ.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أيضًا إِذَا فعَلوا الطاعةَ فإِنَّما يَقصِدون بها التَّزَلُّف إِلى النَّاس، وأن يَكُون لَهُم قِيمة فِي المُجتَمَع، ليسَ قَصْدُهم التَّقَرُّبَ إِلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهَذا المُرائِي يَتَصدَّق من أَجْل أن يَقول النَّاسُ: مَا أَكرَمَه! هَذا المُصلِّي يُحسِن صلاتَه من أَجْل أن يَقول النَّاسُ: مَا أَحسَنَ صَلاتَهُ! ومَا أَشبَهَ ذلِك، هَؤلاءِ يُراؤُون، فأَصْل العِبادة لله، لكِن يُريدون مَع ذلِك أن يَحمَدَهم النَّاسُ عليها، ويَتَقرَّبون إِلى النَّاس بتَقرُّبهم إِلى الله، هَؤُلاءِ هُمُ المُراؤُون، أمَّا مَن يُصلِّي لأَجْل النَّاس بمَعنَى: أنَّه يُصلِّي بين يَدَي المَلِك مثَلًا أو غيره يَخضَع لَه رُكوعًا أو سُجودًا، فهَذا مُشرِك كافِر قَد حرَّم الله عليه الجَنَّة ومَأْواه النارُ، لكِن هَذا يُصلِّي لله مَع مُراعاة أن يَحمَده النَّاس على عِبادتِه، على أنَّه عابِدٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وهَذا يَقَع كثيرًا فِي المُنافِقين، كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، انظُرْ إِلى

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٩٣٩)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هَذا الوَصْفِ إِذَا قاموا إِلى الصَّلاة قاموا كُسالى، إِذَنْ هُمْ عن صَلاتِهم ساهون، يُراؤُون النَّاس.

وهُنا يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ فهَلِ الَّذِين يُسمِّعون مِثْلهم؟ يَعنِي: إِنسان يَقرَأ قُرآنًا ويَجهَر بالقِراءة ويُحسِن القِراءة، ويُحسِن الأَداء وَالصَّوْت من أَجْل أن يُقال: مَا أَقرَأَهُ! هل يَكُون مِثْل الَّذِي يُرائِي؟ الجَوابُ: نعَمْ، كما جاءَ فِي الحَديثِ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِـهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِـهِ»[1]، المَعنَى: مَن سمَّع فضَحه اللهُ، وبيَّنَ للناس أن الرَّجُل ليسَ مُخلِصًا، ولكِنَّه يُريد أن يَسمَعه النَّاس، فيَمدَحوه على عِبادَتِه، ومَن راءَى كذَلِك راءَى اللهُ به، فالإِنسانُ الَّذِي يُرائِي النَّاس، أو يُسمِّع النَّاس سَوْف يَفضَحهُ الله، وسَوْف يَتَبيَّن أَمْره إِن عاجِلًا أم آجِلًا.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾؛ أي: يَمنَعون مَا يَجِب بَذْله من المَواعِين؛ وهِي الأَوانِي، يَعنِي: يَأتِي الإِنسان إِليهم يَستَعير آنِيةً يَقولُ: أنا مُحْتاجٌ إِلى دَلْو، أو مُحْتاج إِلى إِناءٍ أَشرَبُ به، أو مُحتاجٌ إِلى مِصْباح كَهرَباء. ومَا أَشبَهَ ذلِك، فيُمنَع، فهَذا أيضًا مَذمومٌ.

ومَنْع الماعون يَنقَسِم إِلى قِسْمَيْن:

القِسْم الأَوَّل: قِسْم يَأثَم به الإِنْسانُ.

القِسْم الثانِي: قِسْم لَا يَأثَم به، لكِن يَفوتُه الخَيْرُ.

فمَا وجَبَ بَذْلُه فإِن الإِنسان يَأثَم بمَنْعه، ومَا لم يَجِب بَذْلُه فإِن الإِنسانَ لَا يَأثَم

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بمَنْعه لكِن يَفوتُه الخَيْرُ، مِثالُ ذلِك:

▪ إِنسانٌ جاءَه رَجُل مُضطَرٌّ يَقول: أَعطِني ماءً أَشرَبُه، فإِن لم أَشرَبْ مِتُّ. فبَذْل الإِناء لَه واجِبٌ يَأثَم بتَرْكه الإِنسانُ، حتَّى إِن بَعْض العُلَماء يَقول: لو مات هَذا الإِنسانُ فإِنَّه يَضمَنه بالدِّيَة؛ لأنه هُو سببُ مَوْته، ويَجِب عليه بَذْل مَا طلَبَه.

▪ جاء إِنْسانٌ إلى آخَرَ يقول: أَعْطِنِي ثَوْبًا أَدَّفَّأُ به مِنَ البَرْدِ وإلا هَلَكْتُ، هنا يجبُ عليه أن يَبْذُلَ له ذلك الثوبُ وجُوبًا.

لكِنِ اخْتَلَفَ العُلَماءُ في هذه المسأَلَةِ: هل يَجِبُ على المسْتَعِيرِ (في هذا الحال) أن يُعْطِيَ المعِيرُ أُجْرَةً أم لا يجب؟ أم يَجِبُ في المنافِعِ دُونَ غيرها، كيف هذا؟!

فمثلًا: إِنْسانٌ أَتَاكَ وهو مُضطَرٌّ إلى طعامٍ فإن لَمْ تُطْعِمْهُ هَلَكَ، هنا يجب عليكَ أن تُطْعِمَهُ، لكن هلْ يجِبُ عليه أن يُعطِيَك قيمةَ الطَّعامِ؟ قال بعضُ أهلِ العِلمِ: يجِبُ عليه أن يُعْطِيَكَ قيمَةً الطعامِ، وقال آخرون: لا يجِبُ؛ لأن إطْعَامَهُ في هذا الحال واجبٌ عليكَ مِن عِندَ اللهِ، وهذا القولُ هو الرَّاجِحُ؛ لأنه ليس له عِوَضٌ؛ لأن إنقاذَ الوَاقِعِ في الهلَكَةِ واجِبٌ، ولا يُمكنُ أن يَأْخُذَ الإِنْسانُ أجرًا على ما أوْجَبَ الله عليه.

المسأَلَة الثَّانِية: جاءكَ إِنْسانٌ مُضَطَرًا إلى ثوبٍ؛ خَوفًا مِنَ البَرْدِ، فأَعْطَيْتَهُ الثَّوبَ، فهلْ يجِبُ عليه أَجْرُهُ في هذا الثوبِ؟ بعضُ العُلَماءِ يقولُ: يجِبُ عليه أَجْرُهُ، وبعضهم يقول: لا يَجِبُ، والصَّحيحُ: أنه لا يجِبُ عليه أَجْرُهُ، ولكن إذا أَعْطَيْتَهُ إياه على سَبيلِ التَّمَلُّكِ فهو مِلْكُه، وإن أَعْطَيْتَه على سبيلِ الإعارَةِ وجَبَ عليه إذا وَجَدَ ثوبًا غيره أن يَرُدَّه عليك، هذا هو القولُ الصَّحيحُ.

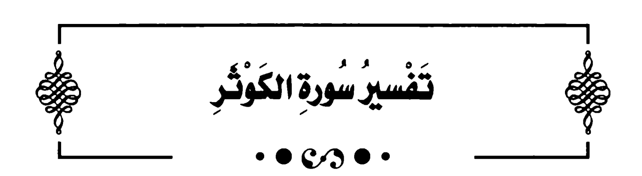
فيَجِب على المَرْء أن يَنظُر فِي نَفْسه: هل هُو مِمَّنِ اتَّصَف بهذه الصِّفاتِ أو لَا؟ إن كانَ مِمَّنِ اتَّصف بهذه الصِّفاتِ قَد أَضاع الصَّلاة وسَها عنها، ومَنَع الخَيْر عن الغَيْر فلْيَتُبْ ولْيَرْجِع إلى الله، وإلَّا فلْيُبَشَّرْ بالوَيْل -وَالعِياذُ بالله- وإن كانَ قَد تَنزَّه عن ذلِك فلْيُبَشَّرْ بالخَيْر، وَالقُرآن الكَريم ليسَ المَقصودُ منه أن يَتْلوَهُ الإنسانُ؛ ليَتَعبَّد لله تعالى بتِلاوتِه فقَطْ، المَقْصودُ أن يَتَأدَّب به؛ ولهذا قالَتْ عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ خُلُقُهُ القُرآنَ»[1]. خُلُقه يَعنِي: أَخْلاقه التِي يَتَخلَّق بها يَأخُذها من القُرآن.

وفَّقَنا اللهُ لِما فيه الخَيْر وَالصَّلاحُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرة، إِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، رقم (٧٤٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:١-٣].

• • • •

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

هذه السُّورةُ قيل: إِنها مكِّيَّةٌ. وقيل: إِنَّها مَدنِيَّة. وَالمَكِّيُّ هُو الَّذِي نزَل قبلَ هِجْرة النَّبيِّ ﷺ إِلى المَدينة سَواءٌ نزَل فِي مكَّةَ، أو فِي المَدينة، أو فِي الطَّريق فِي السفَر، فكُلُّ مَا نَزَل بعد الهِجْرة فهُو مَدَنيٌّ، ومَا نزَلَ قبلَها فهُو مكِّيٌّ، هَذا هُو القَوْلُ الراجِحُ من أَقْوال العُلَماء.

يَقولُ الله عَزَّوَجَلَّ مُخاطِبًا النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ الكَوْثَر: فِي اللُّغة العرَبية هُو الخَيْر الكَثيرُ، وهكَذا كانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَعْطاه اللهُ تعالى خيرًا كَثيرًا فِي الدُّنْيا وَالآخِرة، فمِنْ ذلِك النَّهرُ العَظيمُ الَّذي فِي الجَنَّة، وَالَّذِي يَصُبّ منه مِيزابان على حَوْضه المَورودِ ﷺ، ماؤُه أَشَدُّ بَياضًا من اللَّبَن، وأَحْلى مَذاقًا من العَسَل، (وأَطيبُ رائِحةً من المِسْك)، وهَذا الحَوْضُ فِي القِيامة فِي عرَصات القِيامة يَرِدُه المُؤمِنون من أُمَّة النَّبيِّ ﷺ، وآنِيَتُه كنُجوم السَّماء كَثْرةً

وحُسْنًا، فمَن كانَ وارِدًا على شَريعته فِي الدُّنْيا كانَ وارِدًا على حَوْضِه فِي الآخِرة، ومَن لم يَكُن وارِدًا على شَريعته فإِنه مَحرومٌ منه فِي الآخِرة.

ومِن الخَيْرات الكَثيرة التِي أُعطِيَها النَّبيُّ ﷺ فِي الدُّنْيا مَا ثبتَ فِي الصَّحيحَيْن من حَديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبياءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[1]، هَذا مِن الخَيْر الكَثيرِ؛ لأن بَعْثَه إِلى النَّاس عامَّةً يَستَلزِم أن يَكُون أكثَرَ الأنبياءِ اتِّباعًا، وهُو كذَلِك فهُو أَكثَرُهم أَتْباعًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومِن المَعلوم أن الدالَّ على الخَيْر كفاعِلِ الخَيْرِ، وَالَّذِي دَلَّ هذِه الأُمَّةَ العَظيمة الَّتِي فاقَتِ الأُمَمَ كَثرةً هُو مُحَمَّدٌ ﷺ، وعلى هَذا فيَكُون للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أَجْر كُلِّ واحِدٍ من أُمَّتِه نَصيبٌ، ومَن يُحصِي الأُمَّة إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؟!

ومِن الخَيْر الَّذِي أُعطِيَه فِي الآخِرة المَقامُ المَحْمودُ، ومِنه الشَّفاعة العُظْمى، فإِن النَّاس فِي يَوْم القِيامة يَلحَقُهم من الكَرْب وَالغَمِّ مَا لَا يُطيقون، فيَطلُبون الشَّفاعة، فيَأْتون إِلى آدَمَ، ثُم نُوحٍ، ثُم إِبراهيمَ، ثُم مُوسَى، ثُم عِيسَى عليهم الصلاة وَالسلام، حتَّى تَصِل إِلى النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فيَقوم ويَشفَع، ويَقضِي اللهُ تعالى بين العِباد بشَفاعَتِه، وهَذا مَقامٌ يَحمَدُه عليه الأَوَّلون وَالآخِرون، وداخِلٌ فِي قَوْلِه تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩].

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١).

إِذَن الكَوْثَرُ يَعنِي: الخَيْر الكَثير، ومِنه النَّهْر الَّذِي فِي الجنَّة، فالنَّهر الَّذِي فِي الجَنَّة هُو الكَوْثَر لَا شَكَّ، ويُسمَّى كَوْثَرًا لكِنَّه ليسَ هُو فقَطِ الَّذِي أَعطاهُ الله نَبيَّه مُحَمَّدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الخَيْر.

ولَمَّا ذكَرَ مِنَّته عليه بهذا الخَيْرِ الكَثيرِ قالَ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ شُكْرًا لله على هذِه النِّعْمةِ العَظيمة، أن تُصلِّيَ وتَنحَرَ لله، وَالمُرادُ بالصَّلاة هُنا جَمِيعُ الصَّلَواتِ، وأوَّلُ مَا يَدخُل فيها الصَّلاةُ المَقْرونة بالنَّحْر، وهِي صَلاةُ عِيد الأَضْحى، لكِنِ الآيَةُ شامِلةٌ عامَّةٌ.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ الصَّلَواتِ المَفْروضة وَالنَّوافِلَ، صَلَوات العِيد وَالجُمُعة ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ أي: تَقرَّبْ إِليه بالنَّحْر، وَالنَّحْر يَختَصُّ بالإِبِل، وَالذَّبْح للبَقَر وَالغَنَم، لكِنَّه ذكَرَ النَّحْر؛ لأن الإِبِل أَنفَعُ من غيرِها بالنِّسْبة للمَساكين؛ ولِهَذا أَهدَى النَّبيُّ ﷺ فِي حَجَّة الوَداع مِئة بَعيرٍ، ونحَرَ مِنها ثلاثةً وسِتِّين بيَدِه، وأَعطَى عليَّ بنَ أبي طالِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الباقِيَ فنَحَرَها، وتَصدَّق بجَمِيع أَجْزائِها إلَّا بَضْعة واحِدة من كل ناقةٍ، فأَخَذَها وجُعِلَت فِي قِدْر، فطَبَخَها فأَكَلَ مِن لَحمِها، وشرِبَ مِن مرَقِها[1]، وأَمَر بالصَّدَقة حتَّى بجِلالها وجُلودها[2] عَلَيهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وَالأَمْر فِي الآيَةِ أَمْرٌ لَه وللأُمَّة، فعلَيْنا أن نُخلِص الصَّلاة لله، وأن نُخلِص النَّحْر لله كَما أُمِر بذلِكَ نَبيُّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب وكالة الشَّرِيكِ الشَّريكَ فِي القسمة وغيره، رقم (٢٢٩٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب فِي الصدقة بلحوم الهدي، رقم (١٣١٧)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

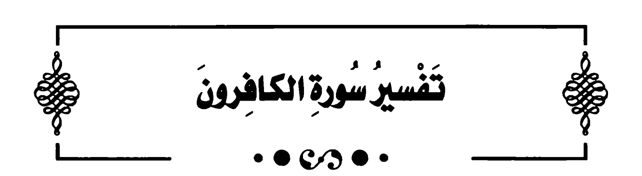
ثُم قالَ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ هَذا فِي مُقابِل إِعطاءِ الكَوْثَر قالَ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ﴿شَانِئَكَ﴾؛ أي: مُبغِضَك، وَالشَّنآن هُو البُغْض، ومِنه قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة:٢]، أي: لَا يَحْمِلَنَّكم بُغْضُهم أن تعتَدوا، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة:٨]، أي: لَا يَحْمِلَنَّكم بُغضُهم على تَرْك العَدْل ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فشانِئُك فِي قَوْله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ يَعنِي: مُبغِضَك.

﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الأَبْتَرُ: اسمُ تَفْضيل من بترَ بمَعنَى: قطَع، يَعنِي: هُو الأَقطَعُ، المُنقَطِع من كُلِّ خَيْر، وذلِك أن كُفَّار قُرَيْشٍ يَقولون: مُحَمَّدٌ أَبتَرُ، لَا خَيْرَ فيه، ولَا برَكةَ فيه، ولَا فِي أَتْباعِه. أَبتَرُ لَمَّا ماتَ ابنُه القاسِمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالوا: مُحمَّد أَبتَرُ، لَا يُولَد لَه، ولو وُلِدَ لَه فهُو مَقطوعُ النَّسْل، فبَيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن الأَبتَرَ هُو مُبغِض الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فهُو الأَبْتَر المَقْطوع عن كُل خَيْر، الَّذِي ليسَ فيه برَكة، وحَياتُه نَدامةٌ عليه.

وإِذَا كانَ هَذا فِي مُبغِضِه فهُو أيضًا فِي مُبغِضِ شَرْعه؛ فمَنْ أَبغَض شَريعة الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو أَبغَضَ شَعيرة من شَعائِر الإِسلام، أو أَبغَضَ أيَّ طاعةٍ مِمَّا يَتعبَّد به النَّاسُ فِي دِين الإِسلام فإِنه كافِرٌ، خارِجٌ عن الدِّينِ؛ لقَوْلِ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد:٩]، ولَا حُبوطَ للعمَل إِلَّا بالكُفْر، فمَن كرِهَ فَرْض الصَّلَوات فهُو كافِرٌ ولو صلَّى، ومَن كرِهَ فَرْض الزَّكاة فهُو كافِرٌ ولو زكَّى، لكِن مَنِ استَثْقَلَها مَع عدَم الكَراهة فهَذا فيه خِصْلة من خِصال النِّفاق، لكِنَّه لَا يَكفُر، وفَرْق بين مَنِ استَثْقَل الشيءَ ومَن كَرِه الشيءَ.

إِذَنْ هذِه السُّورةُ تَضمَّنَت بَيانَ نِعْمة الله على رَسولِه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بإِعطائِه الخَيْر الكَثيرَ، ثُم الأَمْر بالإِخْلاص لله عَزَّوَجَلَّ فِي الصَّلَوات وَالنَّحْر، وكذلِكَ فِي سائِرِ العِبادات، ثُم بَيان أن مَن أَبغَض الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو أَبغَض شَيْئًا من شَريعَتِه فإِنه هُو الأَقطَعُ الَّذِي لَا خَيرَ فيه ولَا برَكةَ فيه، نَسأَل اللهَ العافِيةَ وَالسَّلامةَ.

• ● ۞ ● •



تفسيرُ سُورةِ الكافِرونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

• • • •

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

هَذه السُّورةُ هِي إِحْدى سُورتَيِ الإِخْلاص، لأنَّ سُورَتَي الإِخْلاص: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يقرَأ بِهِما فِي سُنَّة الفَجْر[١] وفي سُنَّة المَغرِب[٢]، وفي رَكْعتَيِ الطَّواف[٣]؛ لِما تَضَمَّنَتاه من الإِخْلاصِ لله عَزَّوَجَلَّ، وَالثَّناء عليه بالصِّفات الكامِلة فِي سُورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يُنادِيهم يُعلِن لَهُم بالنِّداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم (٧٢٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب مَا جاء فِي الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما، رقم (٤٣١)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب مَا يقرأ فِي الركعتين بعد المغرب، رقم (١١٦٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهَذا يَشمَل كُلَّ كافِرٍ سَواءٌ كانَ من المُشرِكين، أو من اليَهود، أو من النَّصارَى، أو من الشُّيوعِيِّين أو مِن غَيْرهم، كُلُّ كافِرٍ يَجِب أن تُنادِيَه بقَلْبك أو بلِسانِك إن كانَ حاضِرًا؛ لتَتبَرَّأ مِنه ومِن عِبادَتِه، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ كُرِّرَتِ الجُمَل على مرَّتَيْن مرَّتَيْن ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: لَا أَعبُدُ الَّذِين تَعبُدونهم، وهمُ الأَصْنام ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ وهُو اللهُ، و«مَا» هُنا فِي قَوْله: ﴿مَآ أَعْبُدُ﴾ بمَعنَى: «مَن»؛ لأن اسمَ المَوْصول إِذَا عاد إِلى الله فإِنَّه يَأتِي بلَفْظ «مَن» ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ يَعنِي: أنا لَا أَعبُد أَصنامَكُم، وأنتم لَا تَعبُدون اللهَ.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ قَد يَظُنُّ الظانُّ أن هَذِه مُكرَّرة للتَّوْكيد، وليسَ كذَلِك؛ لأن الصِّيغة مُختَلِفة: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فِعْل، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ «عابِدٌ» و«عابِدون» اسمٌ، وَالتَّوكيد لا بُدَّ أن تكون الجُمْلة الثانِيةُ كالأُولى، إِذَنِ القَوْلُ بأنه كُرِّر للتَّوْكيد ضَعيفٌ، إِذَنْ لماذا هَذا التَّكرارُ؟

قالَ بعضُ العُلَماء: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: الآنَ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ فِي المُستَقبَل، فصارَ ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: فِي الحَالِ، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ يَعنِي: فِي المُستَقبَل؛ لأن الفِعْل المُضارِع يَدُلُّ علَى الحَالِ، واسمُ الفاعِل يَدُلُّ علَى الاستِقْبال، بدَليلِ أنَّه عمِلَ، واسم الفاعِل لَا يَعمَل إِلَّا إِذَا كانَ للاسْتِقْبال، ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الآنَ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ يَعنِي: الآنَ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ يَعنِي: فِي المُستقبَل ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ يَعنِي: فِي المُستَقبَل.

لكِن أُورِد على هَذا القَوْلِ إِيرادٌ: كَيفَ قالَ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ مَع أَنَّهم قَد يُؤمِنون فيَعبُدون الله؟! وعلى هَذا فيَكُون فِي هَذا القَوْلِ نوعٌ من الضَّعْف.

وأَجابوا عن ذلِك بأن قَوْلَه: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ يُخاطِب المُشرِكين الَّذين عَلِم اللهُ تعالى أَنَّهم لن يُؤمِنوا، فيَكُون الخِطاب ليسَ عامًّا، وهَذا مِمَّا يُضعِف القَوْلَ بعضَ الشيءِ.

فعِندَنا الآنَ قَوْلان:

الأَوَّلُ: إنها تَوْكيدٌ.

والثانِي: إنها فِي المُستقْبَل.

القَوْل الثالِثُ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: لَا أَعبُدُ الأَصْنام الَّتِي تَعبُدُونها ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾؛ أي: لَا تَعبُدون اللهَ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾؛ أي: فِي العِبادة، يَعنِي: ليسَت عِبادَتي كعِبادَتِكم، ولَا عِبادَتكم كعِبادَتي، فيَكُون هَذا نَفيًا للفِعْل لَا للمَفْعول به، يَعنِي: ليسَ نَفْيًا للمَعبودِ، لكِنَّه نَفيٌ للعِبادة، أي: لَا أَعبُدُ كعِبادَتِكم، ولَا تَعبُدون أنتُمْ كعِبادَتِي، لأنَّ عِبادَتي خالِصةٌ لله، وعِبادَتكم عِبادة شِرْك.

القَوْل الرابِعُ: واختارَهُ شَيْخُ الإِسلام ابنُ تَيميَّةَ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ أن قَوْلَه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ هَذا الفِعْل، فوافَقَ القَوْلَ الأَوَّل فِي هذِه الجُمْلةِ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾؛ أي: فِي القَبول،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣٤).

بمَعنَى: ولَنْ أَقبَلَ غير عِبادَتِي، ولن أَقبَلَ عِبادَتَكم، وأَنتُمْ كذَلِك لَنْ تَقبَلوا. فتكونُ الجُمْلة الأُولى عائِدةً على الفِعْل، وَالجُمْلةُ الثانِية عائِدةً على القَبول وَالرِّضا، يَعنِي: لَا أَعبُده ولَا أَرْضاه، وأَنتُم كذَلِكَ لَا تَعبُدون الله، ولَا تَرضَوْن بعِبادَتِه.

وهذا القَوْلُ إِذَا تَأَمَّلْته لَا يَرِد عليه شيءٌ من الهَفَوات السابِقة، فيَكُون قولًا حَسَنًا جَيِّدًا، ومِن هُنا نَأخُذ أن القُرآن الكَريم ليسَ فيه شيءٌ مُكرَّر لغَيْر فائِدة إطلاقًا، ليسَ فيه شيءٌ مُكرَّر إِلَّا وله فائِدةٌ؛ لأَنَّنا لو قُلنا: إن فِي القُرآن شيئًا مُكرَّرًا بدون فائِدة لكان فِي القُرآن مَا هُو لَغْو، وهُو مُنزَّهٌ عن ذلِك.

وعلى هَذا فالتَّكْرارُ فِي سُورة الرَّحْمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]، وفِي سُورة المُرسَلات: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٥] تَكرار لفائِدةٍ عَظيمةٍ، وهِي أن كُلَّ آيَةٍ مِمَّا بَين هذِه الآيَةِ المُكرَّرة، فإِنها تَشمَل على نِعَم عَظيمة، وآلاءٍ جَسيمة، ثُمَّ إِن فيها من الفائِدة اللَّفْظية التَّنبيهَ للمخاطَبِ حيثُ يُكرَّر عليه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ويُكرَّر عليه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

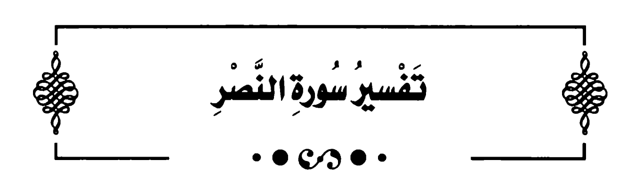
ثُم قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الَّذِي أَنتُم عليه وتَدينونَ به، ولِي دِينِي، فأَنا بَرِيءٌ من دِينِكم، وأَنتُمْ بَريئُون من دِينِي.

قالَ بعضُ أَهْل العِلْم: وهذِه السُّورة نزَلَت قبل فَرْض الجِهاد؛ لأَنَّه بعد الجِهاد لَا يُقَرُّ الكافِرُ على دِينِه إِلَّا بالجِزْية إِن كانوا من أَهْل الكِتاب، وعلى القَوْل الراجِحِ أو من غَيْرهم.

ولكِنِ الصَّحيحُ أَنَّها لَا تُنافِي الأَمْر بالجِهاد حتَّى نَقُول: إِنَّها مَنْسوخة. بل هِيَ باقِية، ويَجِب أن نَتَبرَّأ من دِين اليَهود وَالنَّصارَى وَالمُشرِكين، فِي كُلِّ وَقْت وحِينٍ؛

ولهذا نُقِرُّ اليَهود وَالنَّصارَى على دِينِهم بالجِزْية، ونحنُ نَعبُد الله، وهُمْ يَعبُدون مَا يَعبُدون، فهذِه السُّورةُ فيها البَراءَةُ وَالتَّخلِّي من عِبادة غَيْر الله عَزَّوَجَلَّ، سَواءٌ فِي المَعْبود أو فِي نَوْع الفِعْل، وفيها الإِخلاصُ لله عَزَّوَجَلَّ، وأن لَا نَعبُد إلَّا اللهَ وَحْدَه لَا شَريكَ لَه، وإِلى هُنا يَنتَهِي مَا تَيسَّرَ من الكَلامِ على هذِه السُّورةِ.

• ● ۞ ● •



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١-٣].

• • ๑ • •

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ علَيْها.

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ النَّصْر هُو تَسليطُ الله الإِنْسانَ على عَدُوِّه بحيثُ يَتمكَّن منه ويَخْذُله ويَكبِته، وَالنَّصْر أَعظَمُ سُرور يَحصُل للعَبْد فِي أَعْماله؛ لأنَّ الْمُنتَصِر يَجِد نَشْوةً عَظيمة، وفرَحًا وطرَبًا، لكِنَّه إِذَا كانَ بحَقٍّ فهُو خَيْر، وقد ثبَتَ عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»[1] أي: أن عَدُوَّه مَرعوبٌ منه إِذَا كانَ بينَه وبينَه مَسافةُ شَهْر، وَالرُّعْب أَشَدُّ شيءٍ يَفتِكُ بالعَدُوِّ؛ لأنَّ مَن حصَلَ فِي قَلْبه الرُّعْب لَا يُمكِن أن يَثبُت أَبدًا، بل سَيَطيرُ طَيرانَ الرِّيح.

فقَوْله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: نَصْر الله إِيَّاك على عَدُوِّكَ ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَعطوفٌ على النَّصْر، وعَطْفه على النَّصْر مَع أن الفَتْح من النَّصْر تَنويهٌ بشَأْنِه، وهُو من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ، كقَوْله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]، أي: فِي لَيْلة القَدْر، فجِبريلُ مِن المَلائِكةِ، وخَصَّه لشَرَفِه، و(أل) فِي الفَتْح للعَهْد الذِّهْنيِّ، أيِ: الفَتْح المَعْهود المَعْروف فِي أَذْهانِكم، وهُو فَتْح مكَّةَ.

وكانَ فَتْح مكَّةَ فِي رمَضانَ من السَّنَة الثامِنةِ للهِجْرة[1]، وسبَبُه أن النَّبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم لَمَّا صالَحَ قُرَيْشًا فِي الحُدَيْبية فِي السَّنَة السادِسة -الصُّلْح المَشْهور- نقَضَت قُرَيْشٌ العَهْد، فغَزاهُمُ النَّبيُّ ﷺ، وخرَجَ إِليهِم من المَدينة بنَحْو عشَرة آلاف مُقاتِلٍ خرَج مُختَفِيًا وقالَ: «**اللَّهُمَّ عَمِّ أَخْبَارَنَا عَنْهُمْ**»، فلَمْ يُفاجِئْهم إلَّا وهُو مُحيطٌ بهِم، ودخَلَ مكَّةَ فِي العِشْرين من رمَضانَ، من السَّنَة الثامِنةِ للهِجْرة، مُظفَّرًا مَنصورًا مُؤيَّدًا، حتَّى إنه فِي النِّهايةِ اجتَمَع إليه كُفَّار قُرَيْشٍ حَوْل الكَعْبة، فوقَفَ على البابِ وقُرَيْش تَحته يَنتَظِرون مَا يَفعَل، فأَخَذ بعضادَتَي الباب وقالَ: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟**» وهُو الَّذِي كانَ قبلَ ثَمانِ سَنَوات هارِبًا مِنهم، وصاروا الآنَ فِي قَبْضتِه وتَحتَ تَصرُّفه، قالَ: «**مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟**» قالوا: خَيْرًا، أَخٌ كَريمٌ وابنُ أَخٍ كَريمٍ. قالَ: «**فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[2]، فعفا عنْهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، هَذا الفَتْحُ سَمَّاه اللهُ فَتْحًا مُبينًا، فقالَ تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١]، أي: بَيِّنًا عَظيمًا واضِحًا، ولَـمَّا حصَل عرَف النَّاسُ جَميعًا أن العاقِبة لِمُحَمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن دَوْر قُرَيْش وأَتْباعِها قَدِ انقَضَى، فصار النَّاسُ ﴿يَدْخُلُونَ

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٨٩).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾؛ أي: جَماعاتٍ بعدَ أن كانوا يَدخُلون فيه أَفرادًا، ولَا يَدخُل فيه الإِنسانُ فِي بعض الأَحْوال إلَّا مُختَفِيًا، وصاروا يَدخُلون فِي دِين الله أَفواجًا، وصارَتِ الوُفودُ تَرِد على النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِي المَدينة من كُلِّ جانِبٍ حتَّى سُمِّيَ العامُ التاسِعُ (عامَ الوُفودِ).

يَقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: إِذَا رأَيْتَ هذِه العَلامةَ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ كانَ المُتوقَّع أن يَكُون الجَوابُ: فاشْكُرِ الله على هذِه النِّعْمةِ، واحْمَدِ اللهَ علَيْها، ولكِن ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾، وهَذا نَظيرُ قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الإنسان:٢٣-٢٤]، كانَ المُتوقَّع: فاشْكُرْ رَبَّك على هَذا التَّنزيلِ، وقُمْ بحَقِّه، ولكِن قالَ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ إيذانًا بأنه سَوْف يَنال أَذًى بواسِطة إِبلاغ هَذا القُرآنِ ونَشْره بين الأُمَّة.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ عِند التَّأمُّل تَتبيَّن الحِكْمة، فالمَعنَى: أنَّه إِذَا جاءَ نَصْر الله وَالفَتْحُ فقَدْ قرُب أَجَلُك، ومَا بَقِيَ عليك إلَّا التَّسبيحُ بحَمْد رَبِّك وَالاسْتِغْفار ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾؛ أي: سَبِّحْه تَسبيحًا مَقرونًا بالحَمْد، وَالتَّسبيحُ: تَنزيهُ الله تعالى عَمَّا لَا يَليق بجَلاله، وَالحَمدُ: هُو الثَّناء عليه بالكَمال مَع المَحبَّة وَالتَّعظيم، اجْمَعْ بين التَّنزيهِ وبين الحَمْد ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ يَعنِي: اسأَله المَغفِرة، فأَمَرَه اللهُ تعالى بأَمْرَيْن:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: التَّسبيحُ المَقْرون بالحَمْد.

والثاني: الاستِغْفارُ. وَالاستِغْفارُ هُو طلَبُ المَغْفِرة، وَالمَغفِرة: سَتْرُ الله تعالى على عَبْده ذُنوبَه مَع مَحْوها وَالتَّجاوُز عنها، وهَذا غايةُ مَا يُريد العَبْد؛ لأَنَّ العَبْد كَثيرُ الذَّنْب

يَحتاج إِلى مَغفِرة إِن لم يَتَغمَّدْه اللهُ برَحْمَتِه هلَكَ؛ ولهذا قالَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولَا أنتَ يا رَسولَ الله؟ قالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[١]؛ لأن عملَك هَذا لو أَرَدْتَ أن تَجعَله فِي مُقابَلة نِعْمة من النِّعَم، نِعْمة واحِدة لأَحاطَتْ به النِّعَم، فكَيْف يَكُون عِوَضًا تَدخُل به الجَنَّة؟!

ولِهَذا قالَ بعضُ العارِفين فِي نَظْمٍ لَه[٢]:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾؛ أي: لم يَزَلْ عَزَّ وَجَلَّ تَوَّابًا على عِباده، فإِذَا استَغْفَرْته تاب عليكَ، هَذا هُو مَعنَى السُّورة.

لكِنِ السُّورة لهَا مَغزًى عَظيمٌ لَا يَتفطَّن لَه إِلَّا الأَذْكياءُ؛ ولِهَذا لَمَّا سَمِع عُمرُ بنُ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّاس انتَقَدوه فِي كَوْنه يُدنِي عَبدَ الله بنَ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَع صِغَر سِنِّه، ولَا يُدنِي أَمثالَه من شَباب المُسلِمين، وعُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أَعدَل الخُلَفاء أَرادَ أن يُبيِّن للناس أَنَّه لم يُحابِ ابنَ عبَّاسٍ فِي شيء، فجَمَع كِبارَ المُهاجِرين وَالأَنْصار فِي يَوْم من الأَيَّام ومعَهُم عبدُالله بنُ عَبَّاس، وقالَ لهم: مَا تَقولون فِي هذِه السُّورةِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ حتَّى ختَمَ السُّورةَ؟ ففَسَّروها بحَسب مَا يَظهَر فقَطْ، فقالَ بعضُهُم: أُمِرْنا أن نَحمَد اللهَ ونَستَغْفِرَه إِذَا نصَرَنا وفَتَحَ علَيْنا. وقالَ بعضُهُم:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٣)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيتان لمحمود الوراق، ينظر: الفاضل للمبرد (ص:٩٥).

لَا نَدرِي. ولم يَقُل بعضُهم شَيْئًا. فقالَ: مَا تَقولُ يا ابنَ عبَّاس؟ قالَ: يا أَميرَ المُؤمِنين، هُو أَجَلُ رَسولِ الله ﷺ، أَعلَمَه اللهُ لَه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فَتْح مكَّةَ فذاكَ علامةُ أَجَلِكَ، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. فقالَ عُمرُ: «وَاللهِ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»[1]، فتبَيَّن بذلِكَ فَضْل ابنِ عبَّاسٍ وتَمَيُّزُه، وأن عِندَه مِن الذَّكاء وَالمَعرِفة بمُراد الله عَزَّوَجَلَّ.

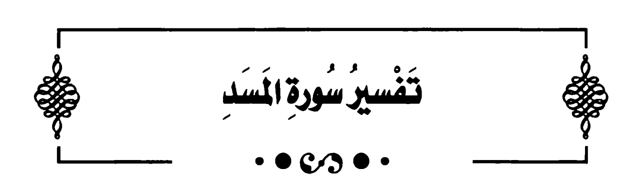
لَمَّا نزَلَت هذِه السُّورةُ جعَلَ رَسولُ الله ﷺ الَّذِي هُو أَشَدُّ النَّاس عِبادةً لله وأَتْقاهُمْ لله جعَلَ يُكثِر أن يَقولَ فِي رُكوعِه وسُجودِه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[2]، فنَقُول: سبحانك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لَنا ذُنوبَنا، وإِسْرافَنا فِي أَمْرنا، وثَبِّتْ أَقْدامَنا، وانصُرْنا على القَوْم الكافِرينَ.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء فِي الركوع، رقم (٧٩٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب مَا يقال فِي الركوع والسجود، رقم (٤٨٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



تفسير سورة المَسَد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ [المسد:١-٥].

•●ى●•

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

هذا القُرآنُ فيه من الدَّلالات الكَثيرة مَا يَدُلُّ دَلالةً واضِحةً على أن رَسولَ الله ﷺ حَقٌّ، ليسَ يَدعو لمُلْك ولَا لجاهٍ، ولَا لرِئاسة قَوْمه.

وأَعْمام الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ انقَسَموا فِي مُعامَلَتِه ومُعامَلة رَبِّه عَزَّوَجَلَّ إِلى ثَلاثة أَقْسامٍ:

- قِسْم آمَنَ به وجاهَدَ معَه، وأَسلَم لله رَبِّ العالَمين.
- وقِسْم سانَدَ وساعَدَ، لكِنَّه باقٍ على الكُفْر.
- وقِسْم عانَدَ وعارَضَ، وهُو كافِرٌ.

فأَمَّا الأَوَّل: فالعَبَّاس بنُ عَبدِ المُطَّلِب، وحَمْزةُ بنُ عبدِ المُطَّلب. وَالثاني أَفضَلُ من الأَوَّل؛ لأن الثانِيَ من أَفضَل الشُّهَداء عِند الله عَزَّوَجَلَّ، ووَصَفه النَّبيُّ ﷺ بأنَّه أَسَدُ الله،

وأَسَدُ رَسولِه[١]، واستُشْهِد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أُحُد فِي السَّنَة الثانِية من الهِجْرة[٢].

أمَّا الَّذِي سانَد وساعَدَ مَع بَقائِه على الكُفْر فهُو أبو طالِبٍ، فأَبو طالِبٍ قام مَع النَّبيِّ ﷺ خيرَ قِيامٍ فِي الدِّفاع عنه ومُسانَدتِه، ولكِنَّه -وَالعِياذُ بالله- قَدْ سبقَتْ لَه كلِمةُ العَذاب، لم يُسلِمْ حتَّى فِي آخِر حَياته فِي آخِر لحْظة من الدُّنيا عرَض عليه النَّبيُّ ﷺ أن يُسلِم، لكِنَّه أَبى، بَلْ ومات على قَوْلِه: إِنه على مِلَّة عَبدِ المُطَّلِب[٣]، فشفَعَ لَه النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حتَّى كانَ فِي ضَحْضاحٍ من نار، وعلَيْه نَعْلان يَغْلِي مِنهما دِماغُه[٤].

أمَّا الثالِثُ: الَّذِي عانَدَ وعارَض فهُو أبو لَهَبٍ؛ أَنزَلَ اللهُ فيه سُورةً كامِلة تُتْلى فِي الصَّلَوات فَرْضِها ونَفْلها، فِي السِّرِّ وَالعلَن، يُثاب المَرْء على تِلاوَتِها، على كُلِّ حَرْف عَشْرَ حسَناتٍ.

يَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وهَذا رَدٌّ على أبي لَهَبٍ حين جَمَعَهم النَّبيُّ ﷺ؛ ليَدْعُوَهم إِلى اللهِ فبشَّرَ وأَنذَر، قالَ أبو لَهَبٍ: تَبًّا لَك أَلِهَذا جَمَعْتَنا[٥].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٩٦).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٩)، وصحيح البخاري: كتاب المغازي، باب قتل حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٤٠٧٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لَا إِله إِلا الله. رقم (٢٤)، من حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩)، من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك، رقم (٤٧٧٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الأقربين، رقم (٢٠٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَوْله: «أَلِهَذا جَمَعْتَنا» إشارةٌ للتَّحقير، يَعنِي: هَذا أَمْر حَقيرٌ لَا يَحتاج أن يُجمَع لَه زُعَماءُ قُرَيْش، وهَذا كقَوْله: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦]، وَالمَعنَى تَحقيرُه، فلَيْسَ بشيء ولَا يُهتَمُّ به كَما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

فالحاصِلُ أن أبا لَهَبٍ قالَ: تبًّا لَك أَلِهَذا جَمَعْتَنا؟ فرَدَّ اللهُ عليه بهذه السُّورةِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وَالتَّبابُ: الخَسارُ، كَما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧]، أي: خَسارٍ، وبَدَأَ بيَدَيْه قبلَ ذاتِه؛ لأن اليَدَيْن هُما آلَتا العَمَل وَالحرَكة، وَالأَخْذ وَالعطْاء ومَا أَشبَهَ ذلِك.

وهَذا اللَّقَبُ (أبو لَهَبٍ) لَقَبٌ مُناسِبٌ تَمامًا لحالِه ومَآله، وَجهُ المُناسَبة أن هَذا الرَّجُلَ سوف يَكُون فِي نار تَلظَّى، تَتَلظَّى لَهَبًا عَظيمًا مُطابِقة لحالِه ومَآلِه، يَقولُ الشاعِرُ[1]:

وَقَلَّ إِنْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ ... إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهْ

ولَمَّا أَقبَل سُهيلُ بنُ عَمرٍو فِي قِصَّة غَزوة الحُدَيْبِية قالَ الرَّسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَمَا أُرَاهُ إِلَّا سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»[2]؛ لأنَّ الاسمَ مُطابِق للفِعْل.

يَقول اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ «مَا» هذِه يُحتَمل أن

---

(١) البيت للمبرد، انظر: المجموع اللفيف (ص:٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط فِي الجهاد والمصالحة مَع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور بن مخرمة ومروان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

تَكون استِفْهامية وَالمَعنَى: أيُّ شيء أَغنَى عَنه مالُه ومَا كَسَبَ؟ وَالجَوابُ: لَا شيءَ، ويُحتَمَل أن تكون (مَا) نافِيةً، أي: مَا أَغنَى عنه، أي: لَمْ يُغْنِ عنه مالُه ومَا كسَبَ شَيْئًا، وكِلا المَعْنيَيْن مُتَلازِمان، ومَعناهُما: أن مالَه ومَا كسَبَ لم يُغْنِ عنه شيئًا، مَع أن العادة أن المالَ يَنفَع، فالمال يَفدِي به الإِنسانُ نَفْسه لو تَسلَّط عليه عَدُوٌّ وقالَ: أنا أُعطِيكَ كذا وكذا من المالِ وأَطْلِقْني. يُطلِقه، لكِن قَد يَطلُب مالًا كثيرًا أو قَليلًا، ولو مرِضَ انتَفَع بمالِه، ولو جاع انتَفَع بمالِه، فالمالُ يَنفَع، لكِنِ النَّفْعُ الَّذِي لَا يُنجِي صاحِبَه من النار، ليسَ بنَفْع؛ ولِهَذا قالَ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾، يَعنِي: من الله شَيْئًا.

قَوْلُه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ قيل: المَعنَى: ومَا كَسَبَ من الولَدِ. كأَنَّه قالَ: مَا أَغنَى عنه مالُه وولَدُه. كقَوْل نُوحٍ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [نوح:٢١]، فجَعَلوا قَوْلَه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يَعنِي بذلِكَ الوَلَد، وأَيَّدوا هَذا القَوْلَ بقَوْل النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ**»[1].

والصَّوابُ أن الآية أَعَمُّ من هذا، وأن الآيَةَ تَشمَل الأَوْلاد، وتَشمَل المال المُكْتَسَب الَّذِي ليسَ فِي يَدِه الآنَ، وتَشمَل مَا كَسَبَه من شَرَف وجاهٍ، كُلُّ مَا كَسَبه مِمَّا يَزيدُه شرَفًا وعِزًّا فإِنه لَا يُغنِي عَنه شَيْئًا ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

---

(١)أخرجه أحمد (٦/ ٤١)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب فِي الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٢٨)، والترمذي: كتاب الأحكام، باب مَا جاء أن الوالد يأخذ من مال ولده، رقم (١٣٥٨)، والنسائي: كتاب البيوع، باب الحث على الكسب، رقم (٤٤٥٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب مَا للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
قال الترمذي: هَذا حديث حسن.

﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ السِّينُ فِي قَوْله: ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ للتَّنْفيس المُفيد للحَقيقة وَالقُرْب، يَعنِي: أن الله تعالى تَوعَّده بأنه سيَصلَى نارًا ذات لَهَبٍ عن قَريبٍ؛ لأن مَتاعَ الدُّنْيا وَالبقاء فِي الدُّنْيا مَهما طال فإن الآخِرةَ قَريبة، حتَّى النَّاس فِي البَرْزَخ وإن مرَّتْ عليهِمُ السِّنون الطِّوالُ فكأنَّها ساعةٌ ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وشيء مُقدَّر بساعة من نَهار فإنه قَريبٌ.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ يَعنِي: كذَلِك امرَأَتُه معَه، وهِي امْرَأةٌ من أَشرافِ قُرَيْشٍ لكِن لم يُغنِ عنها شرَفُها شيئًا؛ لكَوْنها شارَكَت زَوْجها فِي العَداء وَالإِثم، وَالبَقاء على الكُفْر.

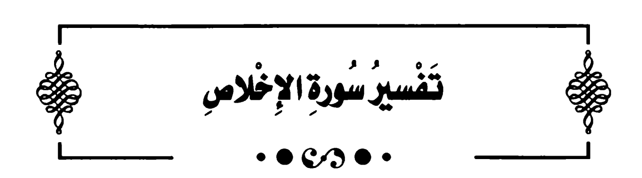
وقَوْلُه: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ قُرِئَت بالنَّصب وَالرَّفْع[1]، أمَّا النَّصب فإنها تكون حالًا لامْرَأةٍ، يَعنِي وامرَأَته حالَ كَونِها حَمَّالةَ الحَطَب، أو تَكون مَنصوبةً على الذَّمِّ؛ لأن النَّعْت المَقْطوع يجوز نَصْبُه على الذَّمِّ، أي: أَذُمُّ حَمَّالةَ الحَطَب، وأمَّا على قِراءة الرَّفْع فهِي صِفة لامْرَأة ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ ﴿حَمَّالَةَ﴾ صِيغة مُبالَغة، أي: تَحمِله بكَثْرة، وذَكَروا أنَّها تَحمِل الحَطَب الَّذِي فيه الشَّوْك وتَضَعُه فِي طَريقِ النَّبيِّ ﷺ من أَجْل أَذَى الرَّسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ الجِيدُ: العُنُق، وَالحَبْل مَعْروف، وَالمَسَد: اللِّيف، يَعنِي: أنَّها مُتقَلِّدة حَبْلًا من اللِّيف تَخرُج به إِلى الصَّحْراء لتَربط به الحَطَب الَّذِي تَأْتِي به؛ لتَضَعَه فِي طريق النَّبيِّ ﷺ، نَعوذُ بالله من ذلِك، وهُو إِشارةٌ إِلى دُنُوِّ نَظْرتها، وأنَّها

(١) انظر: التيسير في القراءات السبع (ص:٢٢٥).

أَهانَتْ نَفْسها، امرَأَة مِن قُرَيْش من أَكابِر قَبائِل قُرَيْش تَخرُج إِلى الصَّحراء وتَضَع هَذا الحَبْلَ فِي عُنُقها، وهُو من اللِّيف مَع مَا فيه من المَهانة، لكِن من أَجْل أَذِيَّة الرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، نَسأَلُ اللهَ العافِيَةَ، وبهذا يَنتَهِي الكَلامُ بما يَسَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ على هذِه السُّورَةِ.

• ● ۞ ● •



تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١-٤].

البَسْمَلةُ سَبَقَ الكَلامُ علَيْها.

ذكَرَ فِي سببِ نُزول هذِه السُّورةِ: أن المُشرِكين أو اليَهودُ قالوا للنَّبيِّ ﷺ: صِفْ لَنا رَبَّكَ؟ فأَنزَل اللهُ هذِه السُّورةَ.

﴿قُلْ﴾ الخِطابُ للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وللأُمَّة أيضًا و﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضَمير الشَّأْن عند المُعرِبين، ولَفْظُ الجَلالة ﴿اللَّهُ﴾ هُو خَبَرُ المُبتَدَأ و﴿أَحَدٌ﴾ خَبَرٌ ثانٍ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ جُمْلة مُستَقِلَّة.

﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ أي: هُو اللهُ الَّذِي تَتحدَّثون عنه وتَسأَلون عنه ﴿أَحَدٌ﴾؛ أي: مُتوَحِّد بجِلاله وعظَمَته، ليسَ لَه مَثيلٌ، وليسَ لَه شَريكٌ، بل هُو مُتفَرِّد بالجَلال وَالعَظَمة عَزَّوَجَلَّ.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ جُمْلة مُستَقِلَّة، بيَّن اللهُ تعالى أنَّه ﴿الصَّمَدُ﴾ أَجمَع مَا قيلَ فِي مَعناهُ: إنَّه الكامِلُ فِي صِفاتِه، الَّذِي افتَقَرْت إِليه جَمِيع مَخْلوقاته، فقَدْ رُوِيَ عن

ابنِ عبَّاسٍ أن الصَّمَد هُو الكامِلُ فِي عِلْمه، الكامِلُ فِي حِلْمه، الكامِلِ فِي عِزَّته، الكامِلِ فِي قُدْرته، إِلى آخِرِ مَا ذُكِرَ فِي الأَثَر[1]، وهَذا يَعنِي: أَنَّه مُستَغْنٍ عن جَمِيع المَخْلوقات؛ لأنه كامِلٌ، وورَدَ أيضًا فِي تَفْسيرها أن الصَّمَد هُو الَّذِي تَصمُد إِليه الخَلائِقُ فِي حَوائِجها، وهَذا يَعنِي أن جَمِيع المَخْلوقات مُفتَقِرة إِليه، وعلى هَذا فيَكُون المَعنَى الجامِع للصَّمَد هو: الكامِلِ فِي صِفاته الَّذِي افتَقَرت إِليه جَمِيع مَخْلوقاتِه.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأَنَّه جَلَّ وَعَلَا لَا مَثِيلَ لَه، وَالولَدُ مُشتَقٌّ من وَالِدِه وجُزْء مِنه كما قالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فِي فاطِمةَ: «إِنَّهَا بَضْعَةٌ مِنِّي»[2]، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا لَا مَثِيلَ لَه، ثُمَّ إِن الولَد إِنَّما يَكُون للحاجة إِليه إِمَّا فِي المَعونة على مُكابَدة الدُّنْيا، وإِمَّا فِي الحاجة إِلى بَقاء النَّسْل، وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ مُستَغْنٍ عن ذلِكَ؛ فلِهَذا لم يَلِد؛ لأَنَّه لَا مَثِيلَ لَه؛ ولأَنَّه مُستَغْنٍ عن كُلِّ أَحَد عَزَّوَجَلَّ، وقد أَشارَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلى امتِناعِ وِلادَتِه أيضًا فِي قَوْلِه تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، فالولَدُ يَحْتاج إِلى صاحِبةٍ تَلِدُه، وكذلِكَ هُو خالِقُ كُلِّ شيءٍ، فإِذَا كانَ خالِقَ كُلِّ شيءٍ فكُلُّ شيءٍ مُنفَصِل عنه بائِنٌ منه.

وفي قَوْلِه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ رَدٌّ على ثَلاثِ طَوائِفَ مُنحَرِفةٍ من بَنِي آدَمَ، وهُمْ: المُشْرِكون، وَاليَهود، وَالنَّصارَى.

---

(١) أخرجه الطبري فِي تفسيره (٢٤/ ٧٣٦)، وأبو الشيخ الأصبهاني فِي العظمة، رقم (٩٦)، والبيهقي فِي الأسماء والصفات، رقم (٩٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب فاطمة عَلَيْهَاالسَّلَامُ، رقم (٣٧٦٧)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ، رقم (٢٤٤٩)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

فـإنَّ المُشْرِكين جعَلـوا المَلائِكـة الَّذِين هُمْ عِباد الرَّحْمن إِناثًا، وقالـوا: إِن المَلائِكة بَناتُ الله. وَاليَهودُ قالوا: عُزَيْرٌ ابنُ الله. وَالنَّصارَى قالوا: المَسيحُ ابنُ الله. فكَذَّبَهم الله بقولِه: ﴿لَمْ يَـلِدْ وَلَـمْ يُولَـدْ﴾؛ لأَنَّه عَزَّوَجَلَّ هُو الأوَّل الَّذِي ليسَ قبلَه شيءٌ، فكَيْف يَكُون مَوْلودًا؟!

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾؛ أي: لم يَكُن لَه أَحَدٌ مُساوِيًا فِي جَمِيع صِفاته، فنَفَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نَفْسه أن يَكُون وَالِدًا، أو مَوْلودًا، أو لَه مَثِيلٌ، وهَذِه السُّورةُ لهَا فَضْل عَظيمٌ؛ قالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «**إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ**»(١)، لكِنَّها تَعدِله ولَا تَقوم مَقامَه، فهِي تَعدِل ثُلُث القُرآن.

لكِن لَا تَقومُ مَقامَ ثُلُث القُرْآن، بدَليلِ أن الإِنسانَ لو كرَّرَها فِي الصَّلاة الفَريضة ثَلاثَ مرَّات لم تكفِه عن الفاتِحة، مَع أَنَّه إِذَا قرَأَها ثَلاثَ مرَّاتٍ فكأَنَّما قرَأَ القُرآنَ كُلَّه، لكِنَّها لَا تُجزِئ عنه، ولَا تَستَغرِب أن يَكُون الشيءُ مُعادِلًا للشَّيءِ ولَا يُجزِئ عنه.

فها هُو النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَخبرَ أن مَن قالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، أَوْ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ**»(٢)، ومَع ذلِك لو كانَ عليه رقَبة كَفَّارة، وقالَ هَذا الذِّكْرَ، لم يَكفِهِ عن الكَفَّارة فلَا يَلزَم من مُعادَلة الشيء للشَّيْءِ أن يَكُون قائِمًا مَقامَه فِي الإِجزاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل قل هُو الله أحد، رقم (٥٠١٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التهليل، رقم (٦٤٠٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٣)، من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه السُّورةُ كانَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقرَأ بها فِي الرَّكْعة الثانِية فِي سُنَّة الفَجْر[١]، وفي سُنَّة المَغرِب[٢]، وفي رَكعَتَي الطَّواف[٣]، وكذلِكَ يَقرَأ بها فِي الوِتْر[٤]؛ لأنَّها مَبنِيَّة على الإِخْلاص التامِّ لله؛ ولِهَذا تُسمَّى سُورةَ الإِخلاصِ.

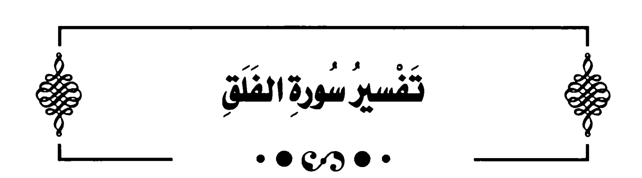
• • ❁ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، رقم (٧٢٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب مَا جاء فِي الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما، رقم (٤٣١)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب مَا يقرأ فِي الركعتين بعد المغرب، رقم (١١٦٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٩)، والترمذي: كتاب الوتر، باب مَا جاء مَا يقرأ فِي الوتر، رقم (٤٦٢)، والنسائي: كتاب قيام الليل، باب كيف الوتر بثلاث، رقم (١٧٠٢)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب مَا جاء فيما يقرأ فِي الوتر، رقم (١١٧٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:١-٥].

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ رَبُّ الفلَقِ هُو اللهُ، وَالفلَقُ: الإِصْباح، ويَجوزُ أن يَكُون أَعَمَّ من ذلِكَ أن الفلَق كُلُّ مَا يُطلِقه اللهُ تعالى من الإِصْباح، وَالنَّوَى، وَالحَبِّ، كَما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام:٩٥]، وقالَ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾؛ أي: مِن شَرِّ جَمِيع المَخْلوقات، ومِنه النَّفْس؛ لأنَّ النَّفْس أَمَّارة بالسُّوء، فإِذَا قُلْت: من شَرِّ مَا خلَقَ. فأَوَّل مَا يَدخُل فيه نَفْسُك، كَما جاءَ فِي خُطْبة الحاجة: «نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا»[1]، وقَوْلُه: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يَشمَل

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٢)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب فِي خطبة النكاح، رقم (٢١١٨)، والترمذي: كتاب النكاح، باب مَا جاء فِي خطبة النكاح، رقم (١١٠٥)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب كيفية الخطبة، رقم (١٤٠٤)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، رقم (١٨٩٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال الترمذي: حديث حسن.

شَياطِينَ الإِنْس وَالجِنِّ، وَالهَوامِّ، وغيرَ ذلِك.

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الغاسِقُ قيلَ: إنه اللَّيْل. وقيل: إنه القمَرُ. وَالصَّحيحُ أنه عامٌّ لهذا وهذا، أمَّا كَوْنه اللَّيْل؛ فلأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء:٧٨]، وَاللَّيْل تَكثُر فيه الهَوامُّ وَالوُحوشُ؛ فلِذلِكَ استَعاذَ مِن شَرِّ الغاسِقِ، أيِ: اللَّيْل.

وأمَّا القمَرُ فقَدْ جاءَ فِي الحَديثِ عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن النَّبيَّ ﷺ أَرى عائِشةَ القَمَر، وقالَ: «**هَذَا هُوَ الغَاسِقُ**»[1]، وإِنَّما كانَ غاسِقًا؛ لأن سُلْطانه يَكُون فِي اللَّيْل.

وقَوْلُه: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ هُو مَعْطوف على ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ؛ لأن الغاسِقَ مِن مَخْلوقات الله عَزَّوَجَلَّ.

وقَوْلُه: ﴿إِذَا وَقَبَ ﴾؛ أي: إِذَا دخَل، فاللَّيْل إِذَا دخَل بظَلامِه غاسِق، وكذلِكَ القَمَر إِذَا أَضاءَ بنُوره فإِنه غاسِقٌ، ولَا يَكُون ذلِك إِلَّا باللَّيْل.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ هُنَّ الساحِراتُ، يَعقِدن الحِبال وغيرَها، وتَنفُث بقِراءَة مُطَلْسَمة فيها أَسماءُ الشَّياطين على كلِّ عُقْدة تَعقِد ثُم تَنفُث، تَعقِد ثُم تَنفُث، تَعقِد ثُم تَنفُث، وهِي بنَفْسها الخَبيثة تُريد شَخْصًا مُعيَّنًا، فيُؤثِّر هَذا السِّحْرُ بالنِّسْبة للمَسحور، وذكَرَ اللهُ النَّفَّاثاتِ دون النَّفَّاثين؛ لأن الغالِبَ أن الَّذِي يَستَعمِل هَذا النَّوْعَ من السِّحْر هُنَّ النِّساءُ؛ فلِهَذا قالَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢١٥)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المعوذتين، رقم (٣٣٦٦)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، ويُحتَمَل أن يُقال: إِن النَّفَّاثاتِ يَعنِي: الأَنْفُس النَّفَّاثات، فيَشمَل الرِّجالَ وَالنِّساءَ.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحاسِدُ هُو الَّذِي يَكرَه نِعْمة الله على غَيْره، فتَجِده يَضيق ذَرْعًا إِذَا أَنعَم اللهُ على هَذا الإِنسانِ بمالٍ، أو جاهٍ، أو عِلْم، أو غَيْر ذلِك، فيَحسُده، ولكِنِ الحُسَّاد نَوْعان: نَوْع يَحسُد ويَكرَه فِي قَلْبه نِعْمة الله على غَيْره، لكِن لَا يَتعرَّض للمَحْسود بشيءٍ، تَجِده مَهمومًا مَغمومًا من نِعَم الله على غَيْره، لكِنَّه لَا يَعتَدِي على صاحِبه، وَالشَّرُّ وَالبَلاءُ إِنها هُو بالحاسِد إِذَا حسَدَ؛ ولِهَذا قالَ: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ ومِن حسَدِ الحاسِد العَيْنُ الَّتِي تُصيب الُمعانَ يَكُون هَذا الرجُلُ عِنده كَراهةٌ لِنِعَم الله على الغَيْر، فإِذَا أَحسَّ بنَفَسِه أن الله أَنعَم على فُلان بنِعْمة خرَج من نَفْسِه الخَبيثة (مَعنًى) لَا نَستَطيع أن نَصِفَه؛ لأَنَّه مجهولٌ، فيُصيب بالعَيْن، ومَن تَسلَّط عليه أحيانًا يَموت، وأَحيْانًا يَمرَض، وأحيانًا يُجنُّ، حتَّى الحاسِد يَتَسلَّط على الحَديد، فيُوقِف اشْتِغالَه، ورُبَّما يُصيب السَّيَّارة بالعَيْن وتَنكَسِر أو تَتعطَّل، ورُبَّما يُصيب رَفَّاعة الماء، أو حَرَّاثة الأَرْض، فالعَيْن حَقٌّ تُصيب بإِذْنِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وذكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ الغاسِقَ إِذَا وَقَبَ، وَالنَّفَّاثاتِ فِي العُقَد، وَالحاسِد إِذَا حسَدَ؛ لأن البَلاءَ كُلَّه فِي هذِه الأَحْوال الثَّلاثة يَكُون خفيًّا، اللَّيْل سِتْر وغِشاءٌ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل:١]، يَكمُن به الشَّرُّ ولَا يُعلَم به.

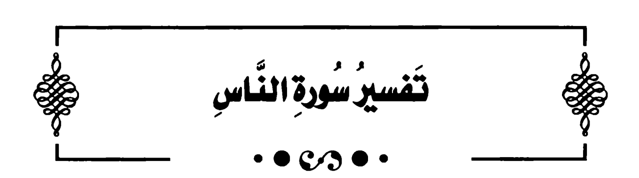
﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أيضًا السِّحْر خَفِيٌّ لَا يُعلَم، الحاسِدُ إذا حسَدَ، العائِنُ أيضًا خَفِيٌّ تَأتِي العَيْن من شَخْص تَظُنُّ أَنَّه من أَحَبِّ النَّاس إِليكَ، وأنتَ مِن أَحَبِّ النَّاسِ إِليه، ومَع ذلِك يُصيبك بالعَيْن؛ لِهَذا السبَبِ خَصَّ اللهُ هذِه الأُمورَ

الثَّلاثَةَ؛ الغاسِق إِذَا وقَبَ، وَالنَّفَّاثات فِي العُقَد، وَالحاسِد إِذَا حَسَد، وإِلَّا فهِيَ داخِلةٌ فِي قَوْله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾.

فإِذَا قالَ قائِلٌ: مَا هُو الطَّريقُ للتَّخلُّص من هذِه الشُّرورِ الثَّلاثة؟

قُلْنا: الطَّريق للتَّخلُّص أن يُعلِّق الإِنْسانُ قَلْبَه برَبِّه، ويُفوِّض أَمْرَه إِليه، ويُحقِّق التَّوكُّل على الله، ويَستَعمِل الأَوْراد الشَّرْعية الَّتِي بها يُحصِّن نَفْسه ويَحفَظها من شَرِّ هَؤُلاءِ، ومَا كَثُر فِي النَّاسِ فِي الآوَنة الأَخيرةِ من السَّحَرة وَالحُسَّاد ومَا أَشبَهَ ذلِك إِلَّا مِن أَجْل غَفْلَتِهم عن الله، وضَعْف تَوَكُّلِهم على الله عَزَّوَجَلَّ، وقِلَّة استِعْمالِهم للأَوْراد الشَّرْعية الَّتِي بها يَتَحصَّنون، وإِلَّا فنَحنُ نَعلَم أن الأَوْراد الشَّرْعية حِصْن مَنيعٌ، أَشَدُّ من سَدِّ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ، لكِن مَع الأَسَف أن كَثيرًا من النَّاس لَا يَعرِف عن هذِه الأَوْرادِ شيئًا، ومَن عَرَف فقَدْ يَغفُل كَثيرًا، ومَن قرَأَها فقَلْبُه غير حاضِرٍ، وكُلُّ هَذا نَقْص، ولو أن النَّاس استَعْمَلوا الأَوْراد على مَا جاءَتْ به الشَّريعة لسَلِموا من شُرور كَثيرةٍ، نَسأَل اللهَ العافِيَةَ وَالسَّلامةَ.

• • ۞ • •



تفسيرُ سُورةِ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١-٦].

•••

البَسْمَلةُ تَقدَّم الكَلامُ عَلَيْها.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ وهُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهُو رَبُّ النَّاس وغيرِهم؛ رَبُّ النَّاس، ورَبُّ المَلائِكة، ورَبُّ الجِنِّ، ورَبُّ السَّموات، ورَبُّ الأَرْض، ورَبُّ الشَّمْس، ورَبُّ القمَر، ورَبُّ كُلِّ شيءٍ، لكِن للمُناسَبة خَصَّ النَّاس.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: المَلِك الَّذي لَه السُّلْطة العُلْيا فِي النَّاس، وَالتَّصرُّف الكامِلُ هُو الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: مَألوهُهم ومَعبودُهُم، فالمَعبودُ حَقًّا الَّذِي تَأْلَهه القُلوبُ وتُحِبُّه وتُعظِّمه هُو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ قالَ العُلَماءُ: إنها مَصدَر يُرادُ به اسْمُ الفاعِلِ، أي: المُوَسْوِس، وَالوَسْوَسةُ هي: مَا يُلقَى فِي القَلْب من الأَفْكار وَالأَوْهامِ وَالتَّخيُّلات الَّتِي لَا حَقيقةَ لهَا.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الَّذِي يَخنَس ويَنهَزِم ويُولِّي ويُدبِر عندَ ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ وهُو الشَّيْطان؛ ولهذا إِذَا نُودِيَ للصَّلاة أَدبَرَ الشَّيْطانُ لَه ضُراطٌ حتَّى لَا يَسمَع التَّأْذين، فإِذَا قُضِيَ النِّداءُ أَقبَل حتَّى إِذَا ثُوِّبَ للصَّلاة أَدبَرَ، حتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْويبُ أَقبَلَ حتَّى يَخطِر بين المَرْء ونَفْسِه، يَقول: اذْكُرْ كذا، اذْكُرْ كذا. لَمَّا لَمْ يَكُن يَذكُر حتَّى يَظَلَّ الرجُلُ لَا يَدرِي كَمْ صلَّى؛ ولِهَذا جاءَ فِي الأَثَر: «إِذَا تَغَوَّلَتِ الغِيلانُ فبادِروا بالأَذانِ»[1]، وَالغِيلانُ هِي الشَّياطينُ الَّتِي تُتَخيَّل للمُسافِرِ فِي سفَرِه وكأنَّها أَشياءُ مَهُولة، أو عَدُوٌّ أو مَا أَشبَهَ ذلِكَ فإِذَا كبَّر الإِنسانُ انصَرَفَت.

وقَوْلُه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أن الوَساوِس تكون من الجِنِّ، وتَكون من بَنِي آدَمَ، أَمَّا وَسْوَسة الجِنِّ فظاهِرٌ؛ لأَنَّه يَجرِي من ابنِ آدَمَ مَجرَى الدَّمِ، وأَمَّا وَسْوَسة بَني آدَمَ فما أَكثَرَ الَّذِين يَأْتون إِلى الإِنسان يُوحون إِليه بالشَّرِّ، ويُزيِّنونه فِي قَلْبه حتَّى يَأخُذ هَذا الكَلام بلُبِّه ويَنصَرِف إِليه.

هذه السُّوَرُ الثَّلاثُ: الإِخْلاصُ، وَالفَلَق، وَالناسُ كانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلى فِراشِه نَفَثَ فِي كَفِّه ومَسَح بها وَجْهَه، ومَا استَطاعَ من بدَنِه[2]، ورُبَّما قرَأَها خَلْفَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥)، والنسائي فِي الكبرى، رقم (١٠٧٢٥)، من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم (٥٠١٧)، من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

الصَّلَواتِ الخَمْس(١)، فيَنبَغي للإِنْسان أن يَتَحرَّى السُّنَّة فِي تِلاوَتِها فِي مَواضِعها كما ورَدَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبهَذا نَختِمُ آخِرَ جُزءٍ من القُرآن وهُو جُزْء النَّبأ، وَاللهُ أَعلَمُ.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نَبيِّنا مُحمَّدٍ وعلى آله وصَحْبه أَجْمَعين.

•• ❁ ••

(١) أخرجه أحمد (٤/١٤٦)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب فِي الاستغفار، رقم (١٥٢٣)، والترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب مَا جاء فِي المعوذتين، رقم (٢٩٠٣)، والنسائي: كتاب السهو، باب الأمر بقراءة المعوذات بعد التسليم من الصلاة، رقم (١٣٣٦)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: هَذا حديث غريب.

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الفوائد

• ● ❁ ● •

فِهْرسُ السور